د. علي محمد محمد الصلابي

الأبعاد الإنسانية والحضارية

في شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم

محمد رسول الله

دار الأصالة

الأبعاد الإنسانية والحضارية

في شخصية النبي ﷺ

تأليف

د.علي محمّد محمّد الصَّلَّابي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أبناء الإنسانية العظيمة،

إلى أصحاب الفِطرة السليمة، والعقول النيرة، والأفئدة النقية،

وإلى كل من يبحث عن معاني وقيم الهدي النبوي الشريف،

وإلى كل من هو بحاجة إلى معرفة سيرة خاتم النبيين ﷺ

في أبعادها الإنسانية والأخلاقية والحضارية..

أُهدي لكم هذا الكتاب الذي يتناول البُعدان الحضاري والإنساني

لشخصية النبي محمد ﷺ.

سائلاً الله عز وجل أن يكون فيه النفع والفائدة، وأن ينال القبول الحسن...

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾

(سورة النور، الآية 52).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ **[آل عمران: 102]**.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ **[النساء: 1]**.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ **[الأحزاب: 70 - 71]**.

اللَّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.. وبعد؛

تُعَدُّ سيرةُ نبيّنا محمدٍ ﷺ سجلًا حافلًا بالقيم الإنسانية والحضارية والأخلاقية والروحية، تلك القيم التي ساهمت في إعداد أمةٍ متميزة كان لها دورٌ حضاريٌّ وإنسانيٌّ كبيرٌ أثَّر في النهوض الاجتماعي والأخلاقي والفكري للبشرية. فمنذ أن أشرق نور الإسلام على البشرية، على يد نبينا محمدٍ ﷺ، جاءت رسالته حاملةً لمبادئ عظيمة لم تقتصر على بناء الفرد المسلم فحسب، بل امتدت لتشمل مختلف جوانب الحياة، مؤسِّسةً لنظام حضاريٍّ شاملٍ يرتكز على الرحمة

والعدل والمساواة، والتآخي، والإحسان، ونصرة المظلوم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واحترام الاختلاف في إطار الشريعة السمحة، وتحقيق التنمية الفكرية والاقتصادية والاجتماعية.

إنَّ القيم التي جسّدها النبيُّ ﷺ في حياته وتعاملاته مع الناس تمثل نموذجًا فريدًا يُستلهم منه العديد من الدروس والعبر، التي تظلّ تنير المجتمعات المعاصرة في مساعيها لتأسيس مجتمعٍ تسوده قيم الرحمة والتسامح والعدل والمساواة. وقد سبق الإسلام جميع التشريعات الدينية، سواء السماوية منها أو الوضعية، في ترسيخ مجموعة من القيم الأخلاقية النبيلة. حيث جاءت العقيدة الإسلامية لتدعو إلى هذه القيم السامية والأخلاق الفاضلة، التي تعزز كرامة الإنسان وتولي اهتمامًا كبيرًا بالإنسانية.

وقد أعلن الله تعالى عن دور النبي ﷺ بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ **[الأنبياء: 107]**؛ إنه إعلان فريد من نوعه، ورد في كتابٍ خالدٍ قدّر الله سبحانه وتعالى له أن يُتلى في كل مكان وزمان، ويبلغ عدد قرّائه ملايين الملايين. إنَّ اتساع هذا الإعلان، وإطاره الكبير، ومساحته الزمنية والمكانية، تجعله إعلانًا خارقًا للعادة، فلا يمكن للإنسان الواعي أن يمرّ به مرورًا عابرًا. إذ إنَّ مساحته الزمنية تشمل جميع الأجيال والأدوار التاريخية التي تعقب البعثة المحمدية، ومساحته المكانية تسع العالم كله؛ فقد قال الله سبحانه وتعالى ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾، ولم يقل لجزيرة العرب، أو للشرق، أو للغرب، أو لقارة ما.

والحقيقة أن سعة هذا الإعلان وشموله، وعظمته وسموّه، واستمراره وخلوده؛ كل ذلك يستوجب أن يقف عنده مؤرخو العالم، وفلاسفته، ونوابغه، مدهوشين في حيرة. بل إن الفكر الإنساني كله يقف أمامه حائرًا ومندهشًا، ويتوقف طويلاً في البحث عن مدى صدق هذا الإعلان، أو صحة هذا الواقع. إذ لم نجد في تاريخ الحضارات والفلسفات، ولا في تاريخ الحركات الإصلاحية والمحاولات الثورية، بل في تاريخ العالم بأسره، وفي المكتبة الإنسانية كلها، إعلانًا كهذا يحيط بالكون كله، وبالأجيال البشرية كافة، وبكل الأدوار التاريخية، حول أي شخصية من شخصيات العالم. وحتى التعاليم المستخلصة من الأنبياء السابقين، وبعض أحوالهم وسيرتهم التي وصلت إلينا، تظل مجردة عن مثل هذا الإعلان. إنه إعلان جاء ليؤكد أن النبي محمدًا ﷺ

ليس مجرد شخصية تاريخية عابرة، بل هو رسولٌ للإنسانية كافة، جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويرشدهم إلى طريق الحق والخير.

ومن هنا، فإن أي محاولة لفهم هذا الإعلان لا تقتصر على دراسة سيرة النبي ﷺ فحسب، بل تتطلب دراسة عميقة لجوانب رسالته وتأثيرها الحضاري الذي امتد ليغير مجرى التاريخ. فالنبي ﷺ لم يكن مجرد مصلح اجتماعي أو قائد عسكري، بل كان رمزًا للرحمة الإلهية التي تجلت في تعاليمه وأخلاقه وشريعته، والتي ستظل إلى يوم القيامة منارة تهتدي بها الأمم، ومصدر إلهام لكل حركة إصلاحية أو فلسفة تسعى لتحقيق العدالة والرحمة في العالم.

وقد جاء هذا الكتاب ليسلط الضوء على الجانب الحضاري والإنساني من سيرة نبينا محمد ﷺ، موضحًا كيف أن رسالته كانت حركة إصلاحية شاملة، أسست مجتمعًا قائمًا على مبادئ العدالة والرحمة، وتجسدت قيمه الإنسانية في تعامله مع مختلف فئات المجتمع، مما جعله نموذجًا عالميًا للحضارة والرقي الإنساني.

نشأت فكرة هذا الكتاب بناءً على طلب من الأستاذ الفاضل أحمد بن خليفة العسيري، المستشار في حي كتارا الثقافي، الذي اقترح إعداد كتاب يتناول الأبعاد الإنسانية والقِيمية والحضارية في شخصية النبي محمد ﷺ. وبعد نقاشاتٍ معمقةٍ حول الفكرة، تبيَّن لي أن الأستاذ أحمد لديه استيعاب كبير لروح الفكرة، وأبعادها، وتأثيراها بعمق، ولديه رغبةً صادقةً في نشر الهدي النبوي بين أبناء الإنسانية في وقتنا الحاضر. وقد اتفقنا بعد تواصل ونقاشٍ على تنفيذ هذا المشروع المهم، الذي يهدف إلى التعريف بسيرة ورسالة نبينا محمد ﷺ من خلال التركيز على القِيم التي تلامس الفطرة الإنسانية السّليمة، وتُنير العقل البشري نحو توحيد الله، والفوز برضاه، وإصلاح النفوس، وتطهير الأفئدة، واستخلاص الدروس والعِبر والفوائد من ذلك.

والفضل لله سبحانه وتعالى أولاً، ثم لأخي الأستاذ أحمد (صاحب الفكرة)، وبناءً على خبرتي العميقة في السيرة النبوية، واهتمامي الواسع بها، حيث كَتبتُ عنها كتاباً موسوعياً، فقد كلفتُ أخي الباحث الدكتور طالب عبد الجبَّار الدُّغيم باستخراج النصوص المتعلقة بالأبعاد الإنسانية والحضارية من ذلك الكتاب الموسوعي. وقد أجرينا نقاشات مكثّفة لترتيب محاور وفصول

الكتاب الجديد. ولم يَكتفِ الباحث المساعد بذلك، بل أضاف بعض المحاور، والمباحث المهمة في جوهر الموضوع، مستفيدًا من الكتابات والأطاريح والدراسات العِلمية التي صدرت خلال العقدين الماضيين. وقد بَذل جُهدًا متواصلًا في ترتيب هذه النصوص، وتنسيقها، وتحريرها. ولهذا أوجه له الشكر الجزيل على جُهده الطيب. كما أخص بالشكر الباحث الكريم الأستاذ محمد عليان الذي ساهم معنا في هذا الإنجاز. جزاهم الله خيراً.

وقد تم تقسيم هذا الكِتاب إلى فصل تمهيدي، وستة فصول ضمن الكتاب على النحو الآتي:

الفصل التمهيدي: بحث في الوضع الإنساني في الحضارات السائدة، قبل بعثة النبي ﷺ، ومنها الإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية الفارسية، والحضارة الهندي، وجزيرة العرب، والأحوال الدينية، والسياسية والاقتصادية، والاجتماعية في جزيرة العرب.

الفصل الأول: كان الحديث فيه عن القيم الإنسانية في الإسلام ودعوة النبي المصطفى ﷺ، والتي تجلّت من خلال: الشمولية في الخطاب الإسلامي، والتكريم المعنوي والمادي لبني آدم، والفطرة السليمة، والمساواة في التكليف، ونظرة الإسلام للاختلاف والتعدد، وسماحة الإسلام، والحرية في نظرة الإسلام، والعدل في الإسلام، والحوار وآدابه في الإسلام.

الفصل الثاني: تحدثت فيه عن سيرة النبي ﷺ قبل البعثة، من ولادته إلى قبيل نبوته، بما يظهر شخصيته العظيمة ﷺ، وما يتمتع به من صفات كريمة قبل النبوة، وجاء الحديث فيه، عن نسبه الشريف، وميلاده الكريم، ومرضعاته، وعمله في الرعي، وحفظ الله له في شبابه، وتهيئته لاستقبال النبوة.

الفصل الثالث: بحثت في القيم الإنسانية والأخلاقية والحضارية في سيرة النبي ﷺ قبل بعثته، وذلك من خلال ذكر أخلاقه، وعمله، ومشاركته في حلف الفضول، ومشاركته في بناء الكعبة المشرفة، وصفاته التي اشتهر بها مثل "الصدق والأمانة".

الفصل الرابع: جاء الحديث فيه عن تجليات القيم الإنسانية والحضارية في السيرة النبوية في العهد المكي، وتجلت من خلال إبراز قيمة وفاء النبي ﷺ من خلال حياته مع زوجه خديجة

رضي الله عنه، والقيم الحضارية والإنسانية المؤسسة للجماعة المسلمة الأولى، والقيم الحضارية والإنسانية من خلال التربية النبوية، واستخلاص النموذج الإنساني والحضاري، من خلال هجرة الصحابة الأولى إلى الحبشة، والبعد الإنساني والحضاري للدعوة النبوية.

الفصل الخامس: جاء الحديث فيه عن تجليات القيم الإنسانية والحضارية في سيرة النبي ﷺ في العهد المدني، واستخلصت القيم الإنسانية والحضارية في بيعتي العقبة الأولى والثانية، والبعد الإنساني للهجرة النبوية إلى المدينة، والبعد الحضاري والإنساني للمجتمع الإسلامي الأول في المدينة، والأبعاد القيمية والإنسانية والحضارية في دستور المدينة الأولى، والأبعاد الإنسانية والحضارية في الحياة الاجتماعية والسياسية في المدينة المنورة.

الفصل السادس والأخير: تناولت فيه أخلاق النبي ﷺ التي جسَّدت القدوة الإنسانية الصالحة، والقيادة الملهمة لكثير من أبناء الإنسانية، وتجلى ذلك من خلال الوقوف على حكمته وشجاعته، ورحمته، وكرمه ﷺ. وختمت هذا الفصل، بتسليط الضوء على القيم الإنسانية والحضارية العميقة التي تناولتها خطبة الوداع، موضحة كيف قدمت هذه الخطبة إرشادات شاملة حول الحقوق الإنسانية، والعدالة الاجتماعية، والمساواة بين الناس.

وأخيراً: لا يسعُني في نهاية هذا الكتاب إلّا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده، متبرّئاً من حولي وقوّتي، وملتجئاً إليه في كلّ حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي.

فالله العزيز الحكيم، الخلّاق العليم، الرؤوف الرحيم؛ هو المتفضّل. وربّي الكريم وإلهي العظيم؛ هو المَوَفِّق، فلو تخلّى عنّي ووكّلني إلى عقلي ونفسي لتبلّد منّي العقل وغابت الذاكرة، ويبست الأصابع، وجفّت العواطف، وتحجّرت المشاعر، وعجر القلم عن البيان.

اللهم بصّرني بما يرضيك واشرح صدري، وجنّبني اللهم ما لا يرضيك، واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك يا الله بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تُثبِّتني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد.

اللهم اجعل هذا العمل لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقبول والنصح العميم، ونرجو من كلّ من يطّلع على هذا الكتاب ألّا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربّه ومغفرته ورحمته ورضاه من دعائه.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ **[النمل: 19]**.

والحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربّه ومغفرته ورحمته ورضواته

د. علي محمّد محمّد الصَّلَّابي

28 صفر 1446هـ

الموافق لـ 01 سبتمبر 2024م

الفصل التمهيدي: الحالة الاجتماعية والعقائدية السائدة قبل البعثة النبوية

قبل بزوغ فجر الإسلام، وانتشار تعاليم النبي المصطفى ﷺ، كانت الأمم والحضارات السائدة تعيش في حالة من التنوع والتباين العقائدي والإنساني. فقد امتدت هذه الحضارات من الشرق الأدنى إلى الشمال الإفريقي، واحتوت على نظم اجتماعية ودينية مختلفة، تتباين في رؤاها وطرق تعاملها مع القضايا الوجودية والأخلاقية.

وفي هذا السياق، يمكن أن نرصد التباين الكبير بين الأمم والحضارات التي اتبعت أدياناً توحيدية وأخرى وثنية، وتناقضاتها في القيم والمعتقدات. وقد أظهرت هذه الفترات التاريخية مدى تأثير العوامل الدينية والسياسية على تشكيل الوعي البشري، وتعميق الفجوات بين مختلف الشعوب. لذلك، تسعى هذه المقدمة إلى استكشاف الوضع الإنساني والعقائدي في تلك الحقبة التاريخية، مستعرضةً أبرز المعتقدات والتوجهات التي سادت قبل أن يُحدث الإسلام تحولاً جذرياً عظيماً في المشهد الديني والاجتماعي.

أوَّلاً: الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة:

كانت الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة الشَّرقيَّة تُعرف بالإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، وكانت تحكم هذه البلاد: اليونان، والبلقان، وآسيا، وسورية، وفلسطين، وحوض البحر المتوسط بأسره، ومصر، وكلَّ إفريقيا الشَّمالية، وكانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت دولةً ظالمةً، مارست الظُّلم، والجور، والتَّعسُّف على الشُّعوب التي حكمتها، وضاعفت عليها الضَّرائب، وكثرت الاضطرابات، والثَّورات، وكانت حياتهم العامَّة قائمةً على كلِّ أنواع اللَّهو، واللَّعب، والطَّرب، والتَّرف.

أمَّا مصر؛ فكانت عرضةً للاضطهاد الدِّينيِّ، والاستبداد السِّياسيِّ، واتَّخذها البيزنطيُّون شاةً حلوباً، يحسنون حلبها، ويسيئون علفها.

وأمَّا ســورية؛ فقد كثرت فيهم المظالم، والرَّقيق، ولا يعتمدون في قيادة الشَّــعب إلا على القوَّة، والقهر الشَّديد، وأصبحت مطيَّة المطامع الرُّومانيَّة، وكان الحكم حكم الغرباء، الذي لا يعتمد إلا على القوَّة، ولا يشـعر بأيِّ عطفٍ على الشَّـعب المحكوم، وكثيراً ما كان السُّـوريون يبيعون أبناءهم؛ ليوفُّوا ما كان عليهم من ديون[1].

كان المجتمع الرُّومانيُّ مليئاً بالتناقض، والاضطراب، وقد جاء تصويره في كتاب (الحضارة ماضيها وحاضرها) كالآتي:

«كان هناك تناقضٌ هائلٌ في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين، فقد رســخت النَّزعة الدِّينيَّة في أذهانهم، وَعَمَّتِ الرَّهبانيَّة، وشـاعت في طول البلاد وعرضـها، وأصـبح الرَّجل العاديُّ في البلاد يتدخَّل في الأبحاث الدِّينيَّة العميقة، والجدل البيزنطي، ويتشـاغل بها، كما طبعت الحياة العاديَّة العامَّة بطابع المذهب الباطنيِّ، ولكن نرى هؤلاء - في جانب آخر - حريصـين أشـدَّ الحرص على كلِّ نوعٍ من أنواع اللَّهو، واللعب، والطَّرب، والتَّرف، فقد كانت هناك ميادينُ رياضيَّةٌ واسعةٌ تتَّسع لجلوس ثمانين ألفَ شخصٍ، يتفرَّجون فيها على مصـارعاتٍ بين الرِّجال والرِّجال أحياناً، وبين الرِّجال والسِّباع أحياناً أخرى، وكانوا يقسـمون الجماهير في لونين: لون أزرق، ولون أخضــر، لقد كانوا يحبُّون الجمال، ويعشــقون العنف، والهمجيَّة، وكانت ألعابُهم دمويةً ضاريةً أكثر الأحيان، وكانت عقوبتُهم فظيعةً تقشعر منها الجلود، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبـارةً عن المجون، والتَّرف، والمؤامرات، والمجـاملات الزَّائـدة، والقبـائح، والعـادات السَّيئة»[2].

---

[1] السِّيرة النَّبويَّة، أبي الحسن النَّدويِّ، دار التَّوزيع والنَّشر الإسلاميَّة ،القاهرة، ص 31.

[2] السِّيرة النَّبويَّة، أبي الحسن النَّدويِّ، ص 31.

ثانياً: الإمبراطوريَّة الفارسيَّة:

كانت الإمبراطوريَّة الفارسـيَّة تُعرف بالدَّولة الفارسـيَّة، أو الكِسـرويَّة، وهي أكبر، وأعظمُ من الإمبراطورية الرُّومانية الشَّـــرقيَّة، وقد كثرت فيها الدِّيانات المنحرفة؛ كالزرادشـــتية، والمانيَّة التي أســـسـها ماني في أوائل القرن الثَّالث الميلادي، ثمَّ ظهرت المزدكيَّة في أوائل القرن الخامس الميلادي الَّتي دعت إلى الإباحيَّة في كلِّ شـيءٍ، ممَّا أدَّى إلى انتشـار ثورات الفلاحين، وتزايد النَّهابين للقصـور، فكانوا يقبضـون، أو يأسرون النِّساء، ويستولون على الأملاك، والعقارات، فأصبحت الأرض، والمزارع والدُّور كأن لم تسكن من قبل.

وكان ملوكهم يحكمون بالوراثة ويضعون أنفسهم فوق بني آدم؛ لأنَّهم يعتبرون أنفسهم من نسـل الآلهة، وأصـبحت موارد البلاد ملكاً لهؤلاء الملوك، يتصـرَّفون فيها ببذخٍ لا يُتصـوَّر، ويعيشـــون عيش البهائم، حتَّى ترك كثير من المزارعين أعمالهم، أو دخلوا الأديرة، والمعابد فراراً من الضَّــرائب، والخدمة العســكريَّة، وكانوا وقوداً حقيراً في حروبٍ طاحنةٍ مدمِّرةٍ، قامت في فتراتٍ من التَّاريخ دامت سـنين طوالاً بين الفرس والرُّوم، لا مصـلحة للشُّـعوب فيها إلا تنفيذ نزوات، ورغبات الملوك[3].

ثالثاً: الهند:

اتَّفقت كلمة المؤرِّخين على أنَّ أحطَّ أدوارها ديانةً، وخُلقاً، واجتماعاً، وسـياسـةً ذلك العهد الَّذي يبتدئ من مستهلِّ القرن السَّـادس الميلادي، فانتشـرت الخلاعة حتَّى في المعابد؛ لأنَّها أصـبحت مقدسـةً!! وكانت المرأة لا قيمة لها، ولا عصـمة، وانتشـرت عادة إحراق المرأة المتوفَّى زوجها، وامتازت الهند عن أقطار العالم بالتَّفاوت الفاحش بين طبقات الشَّـعب، وكان ذلك تابعاً لقانونٍ مدنيٍّ سياسيٍّ دينيٍّ، وضعه المشرِّعون الهنديُّون الَّذين كانت لهم صفةٌ دينيةٌ، وأصـبح هو القانون العامَّ في المجتمع، ودسـتور حياتهم، وكانت الهند في حالة فوضـى، وتمزُّقٍ،

---

(3) السِّيرة النبويَّة، المصدر السابق، ص 32، 33.

انتشـرت فيها الإمارات التي اندلعت بينها الحروب الطَّاحنة، وكانت بعيدةً عن أحداث عالمها في عزلةٍ واضـحةٍ، يسـيطر عليها التزمُّت، والتَّطرُّف في العادات، والتقاليد، والتفاوت الطَّبقيُّ، والتَّعصب الدَّمويُّ، والسُّلاليُّ.

وقد تحدَّث مؤرخٌ هندوكيٌّ – أستاذ التاريخ في إحدى جامعات الهند – عن عصرٍ سابق لدخول الإسـلام في الهند، فقال: «كان أهل الهند منقطعين عن الدُّنيا، منطوين على أنفسهم، لا خبرة عندهم بالأوضاع العالميَّة، وهذا الجهل أضعف موقفهم، فنشأ فيهم الجمود، وعمَّت فيهم أمارات الانحطاط، والتَّدهور. كان الأدب في هذه الفترة بلا روح، وهكذا كان الشأن في الفنِّ المعماريِّ، والتَّصوير، والفنون الجميلة الأخرى»[4].

«وكان المجتمع الهنديُّ راكداً جامداً، كان هناك تفاوتٌ عظيم بين الطَّبقات، وتمييز معيبٌ بين أسرةٍ، وأسرةٍ، وكانوا لا يسمحون بزواج الأيامى، ويشدِّدون على أنفسهم في أمور الطَّعام، والشراب، أمَّا المنبوذون فكانوا يعيشون – مضطرين – خارج بلدهم، ومدينتهم»[5].

كان تقسيم سكان الهند إلى أربع طبقات:

1 – طبقة الكهنة، ورجال الدِّين، وهم «البراهمة».

2 – رجال الحرب، والجنديَّة، وهم «شترى».

3 – رجال الفلاحة، والتجارة، وهم «ويش».

4 – رجال الخدمة، وهم «شـودر» وهم أحطُّ الطبقات؛ فقد خلقهم خالق الكون – كما يعتقدون – من أرجله، وليس لهم إلا خدمة هذه الطَّبقات الثَّلاث، وإراحتها.

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزاً، ومكانةً لا يشـاركهم فيها أحدٌ؛ فالبرهميُّ رجلٌ مغفورٌ له، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه، وأعماله، ولا يجوز فرض جبايةٍ عليه، ولا يعاقب بالقتل في

---

(4) السيرة النبوية، المصدر السابق، ص 38.

(5) السير النبوية، المصدر السابق، ص 39.

حالٍ من الأحوال. أما «شودر» فليس لهم أن يقتنوا مالاً، أو يدَّخروا كنزاً، أو يجالسوا برهمياً، أو يمسُّوه بيدهم، أو يتعلَّموا الكتب المقدسة[6].

رابعاً: حضارات الجزيرة العربية:

وقبل ذكر خبر حضارة العرب، ينبغي أن نعلم أن المؤرّخين قسَّموا أصول العرب ثلاثة أقسامٍ، بحسب السُّلالات الَّتي انحدروا[7] منها:

1 – العرب البائدة:

وهي قبائل عاد، وثمود، والعمالقة، وطسم، وجديس، وأُمَيْم، وجُرهم وحضرموت، ومن يتَّصل بهم، وهذه دَرَسَتْ معالمها، واضمحلَّت من الوجود قبل الإسلام، وكان لهم ملوكٌ امتدَّ ملكهم إلى الشَّام، ومصر[8].

2 – العرب العاربة:

وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرُب بن يَشْجُب بن قحطان، وتسمَّى بالعرب القحطانيَّة[9]، ويعرفون بعرب الجنوب[10]، ومنهم ملوك اليمن، ومملكة معين، وسبأ، وحِمْيَر[11].

3 – العرب العدنانيَّة:

---

[6] راجع القانون المدني الاجتماعي المسمَّى (منوشاسنز) الأبواب (1 . 2 . 8 . 9 . 10)، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدويِّ، ص 38.

[7] فقه السِّيرة النَّبويَّة، لمنير الغضبان، معهد البحوث العلميَّة، وإحياء التراث – مكَّة المكرَّمة، ص 45. وينظر الشكل (2) في الصفحة (738).

[8] السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة، لمحمد أبو شهبة، دار القلم – دمشق، الطَّبعة الثَّالثة، 1417هـ 1996م، (46/1).

[9] فقه السِّيرة، للغضبان، ص 45.

[10] مدخل لفهم السِّيرة، د. يحيى اليحيى، أخذها المؤلف من صاحبها قبل أن يطبعها، ص 98.

[11] السِّيرة النبويَّة، لأبي شهبة، (47/1).

نسبة إلى عدنان، الَّذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم – عليهما الصَّلاة والسَّلام – وهم المعروفون بالعرب المســتعربة، أي الَّذين دخل عليهم دمٌ ليس عربياً، ثم تمَّ اندماج بين هذا الدَّم وبين العرب، وأصبحت اللُّغة العربيَّة لسان المزيج الجديد.

نشـأت من قديم الزَّمان ببلاد العرب حضــاراتٌ أصــيلةٌ، ومدنيَّاتٌ عريقةٌ، من أشهرها:

1 – حضارة سبأ باليمن:

وقد أشــار القرآن الكريم إليها، ففي اليمن اســتفادوا من مياه الأمطار، والسُّــيول التي كانت تضــيع في الرِّمال، وتنحدر إلى البحار، فأقاموا الخزَّانات، والسُّــدود بطرقٍ هندســيَّة متطوِّرةٍ، وأشـهر هذه السُّـدود (سـد مأرب)، واسـتفادوا بمياهها في الزُّروع المتنوعة، والحدائق ذات الأشجار الزَّكيَّة، والثِّمار الشَّهيَّة، قال عزَّ شأنه:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ **[سبأ: 15-17]** ودلَّ القرآن الكريم على وجود قرىً متصلةٍ في الزَّمن الماضي ما بين اليمن إلى بلاد الحجاز، إلى بلاد الشام، وأنَّ قوافل التِّجارة والمسافرين كانوا يخرجون من اليمن إلى بلاد الشَّام، فلا يعدمون ظلاًّ، ولا ماءً، ولا طعاماً. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ **[سبأ: 18-19]**.

2 – حضارة عاد بالأحقاف:

وكانت في شمال حضرموت، وهم الذين أرسل الله إليهم نبيَّه هوداً عليه السلام، وكانوا أصحاب بيوت مشيَّدةٍ، ومصانع متعدِّدةٍ، وجناتٍ، وزروعٍ، وعيون[12] قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴿١٣٤﴾﴾ **[الشعراء: 123-134]**.

3 – حضارة ثمود بالحجاز:

دلَّ القرآن الكريم على وجود حضارة في بلاد الحِجْر، وأشار إلى ما كانوا يتمتَّعون به من القدرة على نحت البيوت في الجبال، وعلى ما كان يوجد في بلادهم من عيونٍ وبساتين، وزروعٍ[13] قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴿١٥٠﴾﴾ **[الشعراء:141-150]**.

وقال فيهم أيضاً: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ **[الأعراف: 74]**.

لقد زال كلُّ ذلك من زمنٍ طويلٍ، ولم يبقَ إلا آثار ورسومٌ وأطلالٌ، فقد اضمحلَّت القرى، والمدن، وخربت الدُّور، والقصور، ونضبت العيون، وجفَّت الأشجار، وأصبحت البساتين والزُّروع أرضاً جُرزاً[14].

---

[12] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (1/50).

[13] انظر السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (1/50).

[14] السيرة النبوية، المصدر السابق، (1/51).

1. الأحوال الدِّينيَّة عند العرب في الجاهلية:

ابتليت الأمَّة العربيَّة بتخلُّفٍ دينيٍّ شديدٍ، ووثنيَّةٍ سخيفةٍ لا مثيل لها، وانحرافاتٍ خلقيَّةٍ، واجتماعيَّةٍ، وفوضى سياسية، وتشريعيَّـــةٍ، وَمِنْ ثَمَّ قلَّ شأنهم، وصاروا يعيشون على هامش التَّـاريخ، ولا يتعدَّون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدَّولة الفارسيَّة أو الرُّومانيَّـة، وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء، والأجداد، واتِّباع ما كانوا عليه، مهما يكن فيه من الزَّيغ، والانحراف، والضَّلال، ومن ثَمَّ عبدوا الأصنام، فكان لكلِّ قبيلةٍ صنمٌ، فكان لهُذَيل بن مُدْرِكة: سواع، ولكلب: وَدٌّ، ولمذحج: يَغوث، ولخيوان: يَعوق، ولحمير: نَسْر، وكانت خزاعة، وقريش تعبدان إسـافاً، ونائلة، وكانت مناةُ على سـاحل البحر، تعظِّمها العرب كافَّـــةً، والأوس، والخزرج خاصَّـــــةً، وكانت اللَّات في ثقيف، وكانت العُزَّى فوق ذات عِرْقٍ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش[15].

وإلى جانب هذه الأصنام الرَّئيسة، يوجد عددٌ لا يحصى كثرةً من الأصنام الصَّغيرة، والَّتي يسهل نقلها في أسفارهم، ووضعها في بيوتهم.

روى البخاريُّ في صحيحه عن أبي رجاء العُطَارِديِّ قال: «كُنَّا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً؛ جمعنا جُثْوَةً من ترابٍ، ثمَّ جئنا بالشَّاة، فحلبناه عليه، ثم طفنا به!!!»[16].

وقد حالت هذه الوثنية السَّـــخيفة بين العرب ومعرفة الله تعالى، وتعظيمه، وتوقيره، والإيمان به، وباليوم الآخر، وإن زعموا أنَّها لا تعدو أن تكون وســائط بينهم وبين الله. وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم، وأعمالهم، وتصـرُّفاتهم، وجميع جوانب حياتهم،

---

(15) الغرباء الأوَّلون، سلمان العودة، دار ابن الجوزي، الدَّمام السُّعودية، الطَّبعة الثَّالثة، عام 1412هـ 1991م، ص 60.

(16) أخرجه البخاري (4376).

وضَعُف توقيرُ الله في نفوسهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ **[الأنعام: 36]** .

أمَّا البقيَّة الباقية من دين إبراهيم عليه السلام فقد أصابها التَّحريف، والتَّغيير، والتَّبديل، فصار الحجُّ موسماً للمفاخرة والمنافرة، والمباهاة، وانحرفت بقايا المعتقدات الحنيفيَّة عن حقيقتها، وألصق بها من الخرافات، والأساطير الشَّيء الكثير.

وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء، الَّذين يرفضون عبادة الأصنام وما يتعلَّق بها من الأحكام، والنَّحائر، وغيرها، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل الميتة، والدَّم، وكان يقول:

أربَّاً واحداً أم ألفَ ربٍّ؟ أدينُ إذا تُقُسِّمتِ الأُمُورُ؟
عَزَلْتُ الَّلاتَ والْعزَّى جميعاً كذلكَ يفعلُ الجَلْدُ الصَّبورُ
فلا عُزَّى أدينُ ولا ابْنَتَيْها ولا صَنَمي بني عَمْرٍو أزُورُ
ولا غنماً أدينُ وكان ربَّاً لَنا في الدَّهر، إذْ حُلْمي يسيرُ
ولكنْ أعبدُ الرَّحْمنَ ربِّي ليَغْفِرَ ذَنْبي الرَّبُّ الغَفُورُ[17]

وممَّن كان يدين بشريعة إبراهيم، وإسماعيل - عليهما الصَّلاة والسَّلام - قَسُّ بن ساعدة الإياديُّ: فقد كان خطيباً، حكيماً، عاقلاً، له نباهةٌ، وفضلٌ، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بَشَّر بالنَّبيِّ ﷺ، فقد روى أبو نُعَيْمٍ في دلائل النُّبوَّة عن ابن عباسٍ قال: «إنَّ قسَّ بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عُكَاظ) فقال في خطبته: سَيُعلَمُ حَقٌّ من هذا الوجه - وأشار بيده إلى مكَّة - قالوا: وما هذا الحقُّ؟ قال: رجلٌ من ولد لؤيِّ بن غالبٍ يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش

(17) السِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار الفكر بيروت – لبنان، الطَّبعة الثانية، 1398هـ،(163/1).

الأبد، ونعيمٍ لا ينفد، فإن دعاكم؛ فأجيبوه، ولو علمتُ أنِّي أعيش إلى مبعثه؛ لكنتُ أوَّلَ من يسعى إليه»، وقد أدرك النَّبيَّ ﷺ، ومات قبل البعثة[18].

وممَّا كان ينشده من شعره:

في الـذَّاهبينَ الأوَّليـنَ ... مِـنَ الْقُـرونِ لنـا بصـائرْ

لـمَّا رأيـتُ مـوارداً ... لِلْمَـوْتِ لـيس لهـا مَصَـادِرْ

ورأيـتُ قـومي نحوَهـا ... يمضـي الأصَـاغرُ والأكـابِرْ

لا يَرْجِـعُ الماضـي إلـيَّ ... وَلا مِـنَ البـاقينَ غـابِرْ

أيقنـتُ أنِّي لا محالـةَ ... حيـثُ صـارَ القـومُ صـائرْ[19]

كان بعضُ العرب قد تنصَّـر، وبعضـهم دخل في اليهوديَّة، أمَّا الأغلبيَّة؛ فكانت تعبد الأوثان، والأصنام.

2. الأحوال السياسية والاقتصاديَّة عند العرب في الجاهلية:

أ. الأحوال السياسية:

كان سـكان الجزيرة العربية ينقسـمون إلى بدوٍ، وحضـر، وكان النِّظام السَّـائد بينهم هو النظامَ القبليَّ، حتَّى في الممالك المتحضِّـرة الَّتي نشـأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب، ومملكة الحيرة في الشَّمال الشَّرقيِّ، ومملكة الغساسنة في الشَّمال الغربيِّ، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعبٍ واحدٍ، وإنَّما ظلَّت القبائل وحداتٍ متماسكةً.

والقبيلة العربيَّة مجموعةٌ من الناس، تربط بينها وحدة الدَّم (النَّسـب)، ووحدة الجماعة، وفي ظلِّ هذه الرابطة نشـأ قانونٌ عرفيٌّ ينظِّم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أسـاسٍ من التَّضـامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفيُّ كانت تتمسَّـك به القبيلة في

(18) السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة؛ لأبي شهبة (80/1).

(19) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، المصدر السابق، (81/1).

نظامها السِّياسيّ، والاجتماعي[20].

وزعيم القبيلة ترشِّحه للقيادة منزلته القبلية، وصفاته، وخصائصه من شجاعةٍ ومروءةٍ، وكرمٍ، ونحو ذلك، ولرئيس القبيلة حقوقٌ أدبيَّةٌ، ومادِّيَّةٌ، فالأدبيَّة أهمُّها احترامه، وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنُّزول على حكمه، وقضائه، وأمَّا المادِّيَّة؛ فقد كان له في كل غنيمةٍ تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة، و(الصَّفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، (والنَّشيطة) وهي ما أصيب من مال العدوِّ قبل اللِّقاء، و(الفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، وقد أجمل الشاعر العربيُّ ذلك بقوله:

لـك المرباعُ فينـا، والصَّـفـايا ... وحكمُك، والنَّشيطةُ، والفُضولُ[21]

ومقابل هذه الحقوق واجباتٌ ومسؤوليَّاتٌ، فهو في السِّلم جوادٌ كريمٌ، وفي الحرب يتقدَّم الصُّفوف، ويعقد الصُّلح، والمعاهدات.

والنِّظام القبليُّ تسود فيه الحرِّيَّة، فقد نشأ العربيُّ في جوٍّ طليقٍ، وفي بيئةٍ طليقةٍ، ومن ثَمَّ كانت الحرية من أخصِّ خصائص العرب، يعشقونها، ويأبون الضَّيم والذُّلَّ، وكلُّ فردٍ في القبيلة ينتصر لها، ويشيد بمفاخرها، وأيَّامها، وينتصر لكلِّ أفرادها مُحقاً، أو مُبطلاً، حتَّى صار من مبادئهم: «انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً»[22]. وكان شاعرهم يقول:

لا يسْـأَلُونَ أخَاهُمْ حِيْنَ يَنْدُبُهُمْ ... في النَّـائبـاتِ عَلَى مـا قَـالَ بُرْهَـانا

والفرد في القبيلة تبعٌ للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة، أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها، قال دُرَيْد بن الصِّمَّة:

وَهَـلْ أَنَا إلا مِنْ غَزِيَّـة إِنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُـدْ غَزِيَّةُ أَرْشُـدِ[23]

---

[20] السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، المصدر السابق، (60/1).

[21] مكَّة والمدينة في الجاهليَّة وعصر الرَّسول(ﷺ)، للأستاذ أحمد الشَّريف، ص 31.

[22] أخرجه البخاري (2443 و2444 و6952) وأحمد (99/3 و201).

[23] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (61/1).

وكانت كلُّ قبيلةٍ من القبائل العربيَّة لها شخصيتها السياسية، وهي بهذه الشَّخصيَّة كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، وبهذه الشَّخصيَّة أيضاً كانت تشنُّ الحرب عليها، ولعلَّ من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربيَّة، حلف الفضول (حلف المطيِّبين)[24].

وكانت الحروب بين القبائل على قدمٍ وساقٍ، ومن أشهر هذه الحروب حرب الفجار[25]، وكانت – عدا هذه الحروب الكبرى – تقع إغاراتٌ فرديَّةٌ بين القبائل، تكون أسبابها شخصيَّةً أحياناً، أو طلب العيش أحياناً أخرى؛ إذ كان رزق بعض القبائل في كثيرٍ من الأحيان في حدِّ سـيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقضَّ عليها قبيلةٌ أخرى في سـاعةٍ من ليلٍ، أو نهارٍ؛ لتسلب أنعامها، ومؤنها، وتدع ديارها خاويةً كأن لم تُسكنْ بالأمس[26].

ب. الأحوال الاقتصادية:

يغلب على الجزيرة العربيَّة الصَّـحاري الواسـعة الممتدَّة، وهذا ما جعلها تخلو من الزِّراعة، إلا في أطرافها، وخاصَّةً اليمن، والشَّام، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة، وكان يغلب على البادية رعي الإبل، والغنم، وكانت تنتقل القبائل بحثاً عن مواقع الكلأ، وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلاّ في مضارب خيامهم.

وأمَّا الصِّناعة فكانوا أبعد الأمم عنها، وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم، والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة؛ اسـتعانوا برجلٍ قبطيٍّ نجا من السَّـفينة التي غرقت بجُدَّة، ثمَّ أصبح مقيماً في مكَّة[27].

وإذا كانت الجزيرة العربيَّة قد حُرمت من نِعْمَتَي الزِّراعة، والصِّـناعة؛ فإنَّ موقعها الاستراتيجيَّ بين إفريقية وشرق آسيا جعلها مؤهَّلةً لأن تحتلَّ مركزاً متقدِّماً في التِّجارة الدَّوليَّة

---

[24] دراسةٌ تحليليَّةٌ لشخصية الرَّسول(ﷺ)، د. محمد قلعجي، دار النَّفائس، الطَّبعة الأولى، سنة 1408هـ 1988م، ص 31.

[25] دراسةٌ تحليليَّةٌ لشخصية الرَّسول(ﷺ)، المصدر السابق، ص 33، 34، 35.

[26] دراسةٌ تحليليَّةٌ لشخصية الرَّسول(ﷺ)، المصدر السَّابق، ص 35.

[27] فقه السِّيرة النَّبويَّة، لمنير الغضبان، ص 60.

آنذاك.

وكان الذين يمارسون التِّجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن، ولا سيَّما أهل مكَّة، فقد كان لهم مركزٌ متميِّزٌ في التِّجارة، وكان لهم - بحكم كونهم أهل الحرم - منزلةٌ في نفوس العرب، فلا يعرضون لهم، ولا لتجارتهم بسوءٍ، وقد امتنَّ الله عليهم بذلك في القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ **[العنكبوت: 67]**، وكان لقريشٍ رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشَّام، يذهبون فيها آمنين بينما الناس يُتَخطَّفون من حولهم، هذا عدا الرِّحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام. قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾ **[قريش: 1-4]**.

وكانت القوافل تحمل الطِّيب، والبَخُور، والصَّمغ، واللُّبان، والتَّوابل والتُّمور، والرَّوائح العطريَّة، والأخشاب، والعاج، والأبنوس، والخرز، والجلود، والبرود اليمنيَّة، والأنسجة الحريريَّة، والأسلحة وغيرها ممَّا يوجد في شبه الجزيرة، أو يكون مستورداً من خارجها، ثم تذهب به إلى الشَّام وغيرها، ثُمَّ تعود محمَّلةً بالقمح، والحبوب، والزَّبيب، والزَّيتون، والمنسوجات الشَّاميَّة، وغيرها.

واشتهر اليمنيُّون بالتِّجارة، وكان نشاطهم في البرِّ، وفي البحار، فسافروا إلى سواحل إفريقية، وإلى الهند، وإندونيسيا، وسومطرة، وغيرها من بلاد آسيا، وجزر المحيط الهندي، أو البحر العربي كما يُسمَّى، وقد كان لهم فضلٌ كبيرٌ بعد اعتناقهم الإسلام، في نشره في هذه الأقطار.

وكان التَّعامل بالرِّبا منتشراً في الجزيرة العربيَّة، ولعلَّ هذا الدَّاء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود[28]، وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم، وكانت نسبة الرِّبا في بعض الأحيان إلى أكثر

---

(28) السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (98/1 إلى 101).

من مئةٍ في المئة[29].

وكان للعرب أسواقٌ مشهورةٌ: هي عُكَاظ، ومجنَّة، وذو المجاز، ويذكر بعض المؤلِّفين في أخبار مكَّة: أنَّ العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة، ثمَّ يذهبون منه إلى مجنَّة بعد مضي عشرين يوماً من ذي القعدة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة؛ ذهبوا إلى ذي المجاز، فلبثوا فيها ثمانيَ ليالٍ، ثمَّ يذهبون إلى عرفة، وكانوا لا يتبايعون في عرفة، ولا أيَّام منى، حتى جاء الإسلام، فأباح لهم ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: 198].

وقد استمرَّت هذه الأسواق في الإسلام إلى حينٍ من الدَّهر ثمَّ دَرَست، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت أسواقاً للأدب، والشِّعر، والخَطَابة، يجتمع فيها فحول الشُّعراء، ومصاقع[30] الخطباء، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم، ومفاخرهم، ومآثرهم، وبذلك كانت ثروةً كبرى لِلُّغة والأدب، إلى جانب كونها ثروةً تجاريَّةً[31].

3. الأحوال الاجتماعية والأخلاقية عند العرب في الجاهلية:

أ. الأحوال الاجتماعية:

هيمنت التَّقاليد، والأعراف على حياة العرب، وأصبحت لهم قوانين عُرفيَّة فيما يتعلَّق بالأحساب، والأنساب، وعلاقة القبائل ببعضها، والأفراد كذلك، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعيَّة فيما يأتي:

- الاعتزاز الذي لا حدَّ له بالأنساب، والأحساب، والتفاخر بهما:

(29) دراسةٌ تحليليةٌ لشخصيَّة الرسول ﷺ، ص 19.

(30) المصقَعُ: البليغ يتفنَّن في مذاهب القول.

(31) السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (102/1).

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، ولـمَّا جاء الإسلام قضى على ذلك، وبيَّن لهم: أنَّ التفاضل إنَّما هو بالتَّقوى، والعمل الصالح.

- الاعتزاز بالكلمة، وسلطانها، لا سيَّما الشِّعر:

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البليغ، وكان شعرهم سِجلَّ مفاخرهم، وأحسابهم، وأنسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم، فلا تعجب إذا كان نَجَمَ فيهم الخطباء المصاقع، والشُّعراء الفطاحل، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة، والبيت يخفضها، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيءٍ فرحهم بشاعرٍ ينبغ في القبيلة.

- المرأة في المجتمع العربيّ:

كانت المرأة عند كثيرٍ من القبائل كسَقَط المتاع، فقد كانت تورث، وكان الابن الأكبر للزَّوج من غيرها من حقِّه أن يتزوَّجها بعد وفاة أبيه، أو يَعْضُلها عن النِّكاح، حتى حَرَّم الإسلام ذلك، وكان الابن يتزوَّج امرأة أبيه[32]، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ **[النساء: 22]** .

وكانت العرب تُحرِّم نكاح الأصول كالأمَّهات، والفروع كالبنات، وفروع الأب كالأخوات، والطَّبقة الأولى من فروع الجد كالخالات، والعمَّات[33].

وكانوا لا يورِّثون البنات، ولا النساء، ولا الصِّبيان، ولا يورِّثون إلا من حاز الغنيمة، وقاتل على ظهور الخيل، وبقي حرمان النِّساء والصغار من الميراث عرفاً معمولاً به عندهم، إلى أن تُوفي أوس بن ثابت - في عهد رسول الله ﷺ - وترك بنتين كانت بهما دمامةٌ، وابناً صغيراً، فجاء ابنا عمِّه: - وهما عصبته - فأخذا ميراثه كلَّه، فقالت امرأته لهما: تزوجا البنتين، فأبيا ذلك لدمامتهما فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله ! تُوفِّي أوس، وترك ابناً صغيراً،

[32] السِّيرة النبوية، لأبي شهبة (87/1).

[33] دراسة تحليلية لشخصيَّة الرسول ﷺ، ص 22، 23، 24.

وابنتين، فجاء ابنا عمِّه: سـويد، وعرفطة فأخذا ميراثه، فقلت لهما: تزوجا ابنتيه، فأبيا. فقال ﷺ: «لا تُحرِّكا من الميراث شـيئاً»[34] ونزل قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِـيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ **[النساء: 7]**(35).

وكان العرب يعيّرون بالبنات؛ لأنَّ البنت لا تخرج في الغزو، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرِّجال، وإذا ما سُبيت اتُّخذت للوطء، تتداولها الأيدي لذلك، بل ربما أُكْرِهَتْ على احتراف البغاء؛ ليضمَّ سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله، وقد كانت العرب تبيح ذلك، وقد كان هذا يورث الهمَّ، والحزن، والخجل للأب عندما تولد له بنتٌ، وقد حدَّثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴿٥٩﴾﴾ **[النحل: 58-59]**.

وكثيراً ما كانوا يختارون دسَّها في التُّراب، ووأدها حيَّةً، ولا ذنب لها إلا أنَّها أنثى[36]، ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشَّنيعة. قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ **[التكوير: 8-9]**.

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر، أو خشية الفقر، فجاء الإسلام، وحرَّم ذلك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ **[الأنعام: 151]**، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا﴾ **[الإسراء: 31]** .

---

(34) الدر المنثور؛ للسيوطي (439/2).

(35) تفسير القرطبيِّ، لأبي عبد الله محمَّد بن أحمد الأنصاريِّ القرطبيِّ، دار إحياء التُّراث العربيِّ، بيروت – لبنان، 1965 م، (45/5).

(36) دراسة تحليليَّة لشخصية الرَّسول ﷺ، ص 25، 26.

وكانت بعض القبائل لا تئد البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشَّنعاء، كزيد بن عمرو بن نفيل[37].

وكانت بعض القبائل تحترم المرأة، وتأخذ رأيها في الزَّواج، وكانت المرأة العربيَّة الحرة تأنف أن تفترش لغير زوجها، وحليلها، وكانت تتَّسم بالشَّجاعة، وتتبع المحاربين وتشجِّعهم، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضَّرورة، وكانت المرأة البدويَّة العربيَّة تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها، وتغزل الوبر والصوف، وتنسج الثياب، والبرود، والأكسية، مع التصوُّن والتعفُّف[38].

- النكاح:

تعارف العرب على أنواعٍ من النكاح، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، وقد ذكرت لنا السَّيدة عائشة رضي الله عنها ذلك، فقالت: «إنَّ النِّكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاحٌ منها نكاحُ النَّاس اليومَ: يخطب الرَّجلُ إلى الرَّجل وليَّتَه، أو ابنته، فيُصْدِقها، ثم يَنْكِحُها.

ونكاحٌ آخر: كان الرَّجل يقول لامرأته إذا طَهُرَتْ من طَمْثِها[39]: أرسلي إلى فلانٍ فاستبضعي[40] منه، ويعتزلها زوجها، ولا يمسُّها أبداً، حتى يتبيَّن حملها من ذلك الرَّجل الذي تستبضعُ منه، فإذا تبيَّن حملُها؛ أصابها زوجها إذا أحبَّ، وإنَّما يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد، فكان هذا النِّكاح نكاحَ الاستبضاع.

ونكاحٌ آخر: يجتمع الرَّهط[41] ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلُّهم يُصيبها[42]،

(37) السِّيرة النبويَّة، لأبي شهبة، (92/1).

(38) السيرة النبوية، المصدر السابق، (88/1).

(39) الطَّمث: الحيض.

(40) استبضعي: طلب الجماع حتى تحمل منه.

(41) الرَّهط: الجماعة دون العشرة.

(42) يصيبها: يجامعها.

فإذا حملت، ووضعت، ومرَّ ليالٍ بعد أن تضع حملها؛ أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتَّى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان! تسمِّي من أحبَّت باسمه، فيُلحق به ولدُها لا يستطيع أن يمتنع به الرَّجل.

والنِّكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمنعُ من جاءها[43]، وهنَّ البغايا كنَّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَماً، فمن أرادهنَّ؛ دخل عليهنَّ، فإذا حملت إحداهنَّ، ووضعت حملها جُمِعوا لها، وَدَعوا لهم القافةَ[44]، ثمَّ ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطته[45] به، ودُعي ابنَه، لا يمتنع من ذلك.

فلما بُعث محمَّد ﷺ بالحقِّ؛ هدم نكاح الجاهليَّة كلَّه، إلا نكاحَ الناس اليوم»[46].

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى لم تذكرها عائشة رضي الله عنها؛ كنكاح الخِدْن، وهو في قوله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: 25] كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم، وهو إلى الزِّنى أقرب منه إلى النِّكاح، وكنكاح المتعة وهو النكاح المعين بوقت، ونكاح البدل: كان الرجل في الجاهلية يقول للرَّجل: انزل لي على امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، وأزيدك[47].

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشِّغار، وهو أن يزوِّج الرَّجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداقٌ[48].

وكانوا يُحلُّون الجمع بين الأختين في النِّكاح، وكانوا يبيحون للرَّجل أن يجمع في عصمته من الزَّوجات ما شاء دون التقيُّد بعددٍ، وكان الذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر

---

[43] جاءها: دخل عليها.

[44] القافة: جمع القائف، وهو الذي يعرف شَبه الولد بالوالد.

[45] فالتاطته: استلحقته به، وأصل اللوط بفتح اللام: اللصوق.

[46] أخرجه البخاري (5127) وأبو داود (2272).

[47] فتح الباري، لابن حجر العسقلاَّني، دار المعرفة، بيروت – لبنان، (150/9).

[48] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (90/1).

من أن يناهم العدُّ[49]، وجاء الإسلام ومنهم من له العشرة من النِّساء، والأكثر، والأقلُّ، فقصر ذلك على أربع؛ إنْ علم أنَّه يستطيع الإنفاق عليهنَّ، والعدل بينهنَّ، فإن خاف عدم العدل؛ فليكتفِ بواحدةٍ، وما كانوا في الجاهليَّة يلتزمون العدل بين الزَّوجات، وكانوا يسيئون عشرتهن، ويهضمون حقوقهنَّ حتى جاء الإسلام، فأنصفهن، وأوصى بالإحسان إليهنَّ في العشرة، وقرَّر لهنَّ حقوقاً كنَّ يَحْلُمْنَ بها[50].

- الطَّلاق:

كانوا يمارسون الطَّلاق، ولم يكن للطَّلقات عندهم عددٌ محدَّد، فكان الرَّجل يطلق امرأته، ثمَّ يراجعها، ثُمَّ يطلِّقها، ثم يراجعها هكذا أبداً، وبقي هذا الأمر معمولاً به في صدر الإسلام[51]، إلى أن أنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ **[البقرة: 229]** .

فقيَّد الإسلام عدد الطَّلقات، وأعطى للزَّوج فرصةً ليتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرَّتين، فإن طلق الثَّالثة؛ فقد انقطعت عروة النِّكاح، ولا تحلُّ له إلا بعد نكاح زوجٍ آخر، ففي الكتاب الكريم: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ **[البقرة:230]** .

وممَّا كان يُلْحَق بالطَّلاق في التَّحريم الظِّهارُ، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي، وكان تحريماً مؤبداً حتَّى جاء الإسلام، فوسمه بأنَّه منكرٌ من القول وزورٌ، وجعل للزَّوج

---

(49) دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول ﷺ، ص 24، 25.

(50) السِّيرة النبويَّة، لأبي شهبة، (88/1).

(51) دراسةٌ تحليليَّة لشخصيَّة الرَّسول ﷺ، ص 25.

مخرجاً منه، وذلك بالكفارة[52] قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ **[المجادلة: 2-4]** .

– الحروب، والسَّطو، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب، فهم لا يبالون بشنِّ الحروب، وإزهاق الأرواح في سبيل الدِّفاع عن المثل الاجتماعيَّة، التي تعارفوا عليها، وإن كانت لا تستحقُّ التَّقدير.

وقد روى لنا التَّاريخ سلسلةً من أيَّام العرب في الجاهليَّة، ممَّا يدلُّ على تمكُّن الروح الحربيَّة من نفوس العرب، وغلبتها على التعقُّل والتفكير؛ فمن تلك الأيام مثلاً يوم البَسُـــوس، وقد قامت الحروب فيه بين بكرٍ، وتغلب بسبب ناقةٍ للجَرْميِّ، وهو جارٌ للبَسُوس بنت منقذ خالة جَسَّـاس بن مُرَّة، وقد كان كُلَيْبٌ سـيِّد تغلب قد حمى لإبله مكاناً خاصّـاً به، فرأى فيه هذه النَّاقة، فرماها، فجزع الجَرْميُّ، وجزعت البَسُـوس، فلما رأى ذلك جسَّـاسٌ تحيَّن الفرصـة لقتل كليب، فقتله، فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدَّة أربعين سنةً[53].

وكذلك يوم داحس والغبراء، وقد كان سببه سباقاً أقيم بين داحس، وهو فرسٌ لقيس بن زهير، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر، فأوعز هذا إلى رجلٍ ليقف في الوادي، فإن رأى داحسـاً قد سبق يردُّه، وقد فعل ذلك، فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء، فسبقت الغبراء، وحصل بعد ذلك القتل، والأخذ بالثأر، وقامت الحروب بين قبيلتي عبس، وذُبيان[54].

---

[52] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (91/1).

[53] الكامل في التَّاريخ لابن الأثير، لأبي الحسن علي بن محمَّد، دار صادر – بيروت، (312/1).

[54] الكامل في التاريخ، المصدر السابق، (343/1).

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس، والخزرج في الجاهليَّة، وهم أبناء عمٍّ؛ حيث إنَّ الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزديِّ، واستمرَّت الحروب بينهم، وكان آخر أيَّامهم (بُعاث) وذلك: أنَّ حلفاء الأوس من اليهود، جدَّدوا عهودهم معهم على النُّصرة، وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يُذْكِيْهَا اليهود، حتى يُضعفوا القبيلتين، فتكون لهم السِّيادة الدَّائمة، واستعان كلُّ فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة، فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت نهايته لصالح الأوس[55].

وكانت بعض القبائل تسطو، وتغير بغية نهب الأموال، وسبي الأحرار، وبيعهم، كزيد بن حارثة فقد كان عربيّاً حرّاً، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسيّاً حرّاً، وقد قضى الإسلام على ذلك، حتَّى كانت تسير المرأة، والرَّجل من صنعاء إلى حضرموت، لا يخافان إلا الله، والذئب على أغنامهما[56].

7- العلم والقراءة والكتابة:

لم يكن العربُ أهلَ كتابٍ، وعلمٍ كاليهود، والنَّصارى، بل كان يغلب عليهم الجهل، والأميَّة، والتَّقليد، والجمود على القديم وإن كان باطلاً، وكانت أمَّة العرب لا تكتب، ولا تحسب، وهذه هي الصِّفة التي كانت غالبةً عليها، وكان فيهم قليل ممَّن يكتب، ويقرأ، ومع أمِّيَّتهم، وعدم اتِّساع معارفهم؛ فقد كانوا يشتهرون بالذَّكاء، والفطنة، والألمعية، ولطف المشاعر، وإرهاف الحسِّ، وحسن الاستعداد، والتهيُّؤ لقبول العلم والمعرفة، والتَّوجيه الرَّشيد؛ ولذلك لـمَّا جاء الإسلام؛ صاروا علماء، حكماء، فقهاء، وزالت عنهم الأمِّيَّة، وأصبح العلم، والمعرفة من أخصِّ خصائصهم، وكان فيهم مَنْ مهر في علم قصِّ الأثر، وهو القِيَافَةُ، وكان فيهم أطباء كالحارث بن كلدة، وكان طبُّهم مَبْنِيّاً على التَّجارِب؛ التي اكتسبوها من الحياة،

---

[3] التَّاريخ الإسلاميُّ مواقف وعبرٌ، د. عبد العزيز الحميديُّ، دار الدَّعوة - الإسكندريَّة، الطَّبعة الأولى، 1418 هـ 1997 م، (55/1).

[56] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (93/1).

والبيئة[57].

ب. الأحوال الأخلاقية:

كانت أخلاق العرب قد ساءت، وأولعوا بالخمر، والقمار، وشاعت فيهم الغارات، وقطع الطريق على القوافل، والعصبيَّة، والظُّلم، وسفك الدِّماء، والأخذ بالثأر، واغتصاب الأموال، وأكل مال اليتامى، والتعامل بالرِّبا، والسَّرقة، والزِّنى، وممَّا ينبغي أن يُعلم: أنَّ الزِّنى إنما كان في الإماء، وأصحاب الرَّايات من البغايا، ويندر أن يكون في الحرائر، وليس أدلّ على هذا من أنَّ النَّبيَّ ﷺ لما أخذ البيعة على النِّساء بعد الفتح: «على ألاَّ يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين» قالت السيِّدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: «أوَ تَزني الحرَّة؟!!»[58].

وليس معنى هذا أنَّهم كانوا كلُّهم على هذا، لا، لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون، ولا يشربون الخمر، ولا يسفكون الدِّماء، ولا يظلمون، ويتحرَّجون من أكل أموال اليتامى، ويتنزَّهون عن التَّعامل بالرِّبا[59] وكانت فيهم سماتٌ، وخصالٌ من الخير كثيرةٌ، أهَّلتْهُم لحمل راية الإسلام،

ومن تلك الخصال، والسِّمات:

- الذَّكاء، والفطنة:

فقد كانت قلوبُهم صافيةً لم تدخلها تلك الفلسفات، والأساطير، والخرافات، التي يصعب إزالتها، كما في الشُّعوب الهنديَّة، والرومانيَّة، واليونانيَّة، والفارسيَّة، فكأنَّ قلوبهم كانت تعدُّ لحمل أعظم رسالة في الوجود، وهي دعوة الإسلام الخالدة، ولهذا كانوا أحفظ شعبٍ عُرِف في ذلك الزَّمن، وقد وجَّه الإسلام قريحة الحفظ والذَّكاء، إلى حفظ الدِّين، وحمايته، فكانت قواهم الفكرية، ومواهبهم الفطريَّة مذخورةً فيهم، لم تستهلك في فلسفاتٍ خياليَّةٍ، وجدالٍ بيزنطيٍّ

---

[57] السيرة النبوية، المصدر السابق، (93/1).

[58] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (94/1).

[59] السيرة النبوية، المصدر السابق، (94/1).

عقيمٍ، ومذاهب كلاميَّةٍ معقَّدةٍ[60].

واتِّساع لغتهم دليلٌ على قوَّة حفظهم، وذاكرتهم، فإذا كان للعسل ثمانون اسماً، وللثَّعلب مئتان، وللأسد خمسُمِئَةٍ، فإنَّ للجمل ألفاً، وكذا السَّيف، وللدَّاهية نحو أربعة آلاف اسمٍ، ولا شكَّ: أنَّ استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلى ذاكرةٍ قويَّةٍ، حاضرةٍ، وقَّادةٍ[61].

وقد بلغ بهم الذَّكاء، والفطنة إلى الفهم بالإشارة فضلاً عن العبارة، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ[62].

- الكرم والسَّخاء:

كان هذا الخلق متأصِّلاً في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا ناقته، فيأتيه الضَّيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان، بل كان يُطعم الوحش، والطَّير، وكرم حاتمٍ الطَّائيِّ سارت به الرُّكبان، وضُرِبت به الأمثال[63].

- الشَّجاعة، والمروءة، والنَّجدة:

كانوا يتمادحون بالموت قتلاً، ويتهاجون بالموت على الفراش. قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يُقْتَلْ؛ فقد قُتِل أبوه، وأخوه، وعمُّه، إنا - والله - لا نموت حتفاً، ولكن قطعاً بأطراف الرِّماح، وموتاً تحت ظلال السُّيوف:

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... وَلاَ طُلَّ منَّا حيثُ كانَ قَتِيلُ
تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاةِ نُفُوسُنَا ... وَلَيْسَتْ على غَيْرِ الظُّبَاةِ تَسِيلُ

وكان العرب لا يقدِّمون شيئاً على العزَّة، وصيانة العِرْض واسترخصوا في سبيل ذلك

---

[60] السِّيرة، للنَّدوي، ص 12.

[61] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، لمحمود شكري الالوسي، تحقيق محمَّد بهجة الأثري، دار الكتب العلميَّة - بيروت، الطَّبعة الثَّانية، (39/1، 40).

[62] مدخل لفقه السيرة، ص 79، 80.

[63] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (95/1).

نفوسهم، قال عنترة:

بَكَرَتْ تُخَوِّفُني الحُتوفَ كـأنَّني أَصْـبَحْتُ عَنْ غرضِ الحتوف

فَـأَجَبْتُهَـا إنَّ المنيَّـةَ مَنْهَـلٌ لا بُدَّ أَنْ أُسْـقَى بكأسِ المَنْهَلِ

فَأقْنِي حَيَاءَكِ لا أبا لكِ وَاعْلَمِي أنِّي امْرُؤٌ سأَموتُ إنْ لَمْ أُقتلِ(64)

وقال أيضاً:

لا تَسْـقِنِي مَاءَ الحياةِ بذلَّـةٍ بَلْ فاسْـقِنِي بالْعِزِّ كَأْسَ

مَـاءُ الْحيـاةِ بـذلَّـةٍ كجهنَّمٍ وَجـهـنَّمٌ بالـعـزِّ أطْيـبُ

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامةٍ، ومروءةٍ؛ فكانوا يأبون أن ينتهز القويُّ الضَّعيف، أو العاجز، أو المرأة، أو الشَّـيخ، وكانوا إذا اسـتنجد بهم أحدٌ؛ أنجدوه، ويرون من النَّذالة التَّخلِّي عمَّن لجأ إليهم.

– عشقهم للحُرِّيَّة، وإباؤهم للضَّيْم والذُّلّ:

كان العربيُّ بفطرته يعشق الحرِّيَّة يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقاً، لا سلطان لأحدٍ عليه، ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو يُمَسَّ في شرفه، وعرضه؛ ولو كلَّفه ذلك حياته(66)، فقد كانوا يأنفون من الذُّلِّ، ويأبون الضَّيْمَ، والاستصغار، والاحتقار، وإليك مثالاً على ذلك:

جلس عمرو بن هند ملك الحيرة لندمائه، وسـألهم: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمُّه خدمة أمِّي؟ قالوا: نعم، أمَّ عمرو بن كلثوم الشَّاعر الصُّعلوك.

فدعا الملك عَمْرَو بن كلثوم لزيارته، ودعا أمَّه لتزور أمَّه، وقد اتَّفق الملك مع أمِّه أن تقول لأمِّ عَمْرِو بن كلثوم بعد الطَّعام: ناوليني الطَّبق الذي بجانبك، فلـمَّا جاءت؛ قالت لها ذلك، فقالت: لِتَقُمْ صـاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها الكرَّة وألحَّت، فصـاحت ليلى أم

(64) ديوان عنترة، لفاروق الطَّباع، دار القلم، بيروت – لبنان، ص 252.

(65) ديوان عنترة، د. فاروق الطباع، ص 82.

(66) السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (95/1).

عَمْرِو بن كلثوم: واذُلاَّه! يا لتَغْلب! فسمعها ابنُها فاشتدَّ به الغضب، فرأى سيفاً للملك معلقاً بالرُّواق، فتناوله، وضرب به رأس الملك عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، وانتهبوا ما في الرُّواق، ونظم قصيدةً يخاطب بها الملك قائلاً:

بأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ نكُونُ لِقَيْلِكُمْ[67] فيها قَطِينا[68]

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْن هِنْدٍ تُطِيْعُ بنا الوُشَاةَ وتَزْدَرِيْنَا[69]

تُهَدِّدُنَا وتُوعِدُنَا رُوَيْداً مَتَى كُنَّا لأُمِّك مقْتَوِينَا[70]

إذا ما الْمَلْكُ سَامَ الناسَ خَسْفاً أبينا أن نُقِرَّ الذُّلَ فينا[71]

- الوفاءُ بالعهد وحبُّهم للصَّراحة، والوضوح، والصِّدق:

كانوا يأنفون من الكذب، ويعيبونه، وكانوا أهل وفاءٍ، ولهذا كانت الشَّهادة باللِّسان كافيةً للدُّخول في الإسلام. ويدلُّ على أنفتهم من الكذب، قصَّة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله ﷺ، وكانت الحروبُ بينهم قائمةً، قال: «لولا الحياءُ من أن يأثروا عليَّ كذباً؛ لكذبت عنه»[72].

أمَّا وفاؤهم؛ فقد قال النُّعمان بن المنذر لكسرى في وفاء العرب: «وإنَّ أحدهم يلحظ اللَّحظة، ويومئ الإيماء، فهي وَلْثٌ، وعقدةٌ لا يحلُّها إلا خروج نفسه. وإنَّ أحدهم يرفع عوداً من الأرض، فيكون رهناً بدينه، فلا يُغْلَق رهنه، ولا تخفر ذمَّته. وإنَّ أحدهم ليبلغه أنَّ رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتَّى يفني تلك القبيلة التي

(67) القَيل هو: الملك دون الملك الأعظم.

(68) القطين هم: الخدم والمماليك.

(69) تزدرينا: تحتقرنا.

(70) مقتوينا: خدمة الملوك.

(71) شرح المعلَّقات للحسين الزُّوزني، تحقيق يوسف علي بديوي، دار ابن كثير - دمشق، الطَّبعة الأولى، 1410هـ 1989م، ص 196، 204.

(72) أخرجه البخاري (7) ومسلم (1773) .

أصـابته، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره. وإنَّه ليلجأ إليهم المجرم المحْدِثُ من غير معرفةٍ ولا قرابةٍ، فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله»[73].

والوفاء خلقٌ متأصِّـلٌ بالعرب، فجاء الإسـلام، ووجَّهه الوجهة السَّـليمة، فغلَّظَ على من آوى مُحْدِثاً، مهما كانت منزلته، وقرابته. قال ﷺ: «لعن اللهُ من آوى محدِثاً»[74] ، ومن القصـص الدَّالة على وفائهم[75]: «أنَّ الحارث بن عباد قاد قبائل بكرٍ لقتال تغلب، وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث، وقال: «بؤ بشـسـع نعل كليب» في حرب البسـوس، فأسـر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه، فقال: دلَّني على مهلهل بن ربيعة، وأخلي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك إن دللتك عليه، قال: نعم. قال: فأنا هو، فجزَّ ناصـــيته، وتركه». وهذا وفاءٌ نادرٌ، ورجولةٌ تستحقُّ الإكبار[76].

ومن وفائهم: أنَّ النُّعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى لما منعه من تزويج ابنته، فأودع أسلحته، وحرمه إلى هانئ بن مسعود الشَّيبانيّ، ورحل إلى كسرى، فبطش به، ثم أرسل إلى هانئ يطلب منه ودائع النُّعمان، فأبى، فسير إليه كسرى جيشاً لقتاله، فجمع هانئ قومه آل بكرٍ، وخطب فيهم، فقال: «يا معشـرَ بكر! هالكٌ معذورٌ خيرٌ من ناجٍ فرور، إنَّ الحذر لا ينجي من قدر، وإنَّ الصَّبر من أسباب الظَّفَر، المنيَّة ولا الدَّنيَّـــة، استقبال الموت خير من استدبـاره، الطَّعن في ثغر النُّحور، أكرم منه في الأعجاز، والظُّهور، يا آل بكر! قاتلوا فما من المنايا بُـدٌّ»[77]، واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعـة ذي قـار، بسبب هـذا الرَّجل الذي احتقر حياة الصَّغار، والمهانة، ولم يبالِ بالموت في سبيل الوفاء بالعهود.

---

[73] بلوغ الأرب (150/1).

[74] أخرجه مسلم (1978) والنسائي (232/7)

[75] مدخل لفهم السِّيرة، ص 90.

[76] مدخل لفهم السِّيرة، ص 91.

[77] تاريخ الطَّبري، لأبي جعفر محمَّد بن جرير، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان – بيروت، (207/2).

- الصَّبر على المكاره، وقوَّة الاحتمال، والرِّضا باليسير:

كانوا يقومون من الأكل، ويقولون: البِطْنَة تُذْهِبُ الفِطْنَة، ويعيبون الرَّجل الأكول الجشع . قال شاعرهم:

إذا مُدَّتِ الأيدِي إلى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقومِ

وكانت لهم قدرةٌ عجيبةٌ على تحمُّل المكاره، والصَّبر في الشَّدائد، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصَّحراويَّة الجافَّة، قليلة الزَّرع، والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسَّير في حرِّ الظَّهيرة، ولم يتأثَّروا بالحرِّ، ولا بالبرد، ولا وعورة الطَّريق، ولا بُعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظَّمأ، ولـمَّا دخلوا الإسلام؛ ضربوا أمثلةً رائعة في الصَّبر، والتَّحمُّل، وكانوا يرضون باليسير، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفياً بتمراتٍ يقيم بها صلبه، وقطراتٍ من ماء يرطِّب بها كبده[79].

- قوَّة البدن، وعظمة النَّفس:

واشتهروا بقوَّة أجسادهم مع عظمة النَّفس، وقوَّة الرُّوح، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانيَّة صنعتا العجائب، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام.

- العفو عند المقدرة، وحماية الجار:

وكانوا ينازلون أقرانهم، وخصومهم، حتَّى إذا تمكَّنوا منهم عفوا عنهم، وتركوهم، ويأبون أن يُجهِزُوا على الجرحى، وكانوا يرعون حقوق الجيرة، ولا سيَّما رعاية النِّساء، والمحافظة على العرض. قال شاعرهم:

وَأَغُضُّ طَرْفِي إنْ بَدَتْ لي جَارَتي حَتَّى يُوَاري جَارتي مَأْواهَا

وكانوا إذا استجار أحدُ الناس بهم؛ أجاروه، وربما ضحَّوا بالنَّفس، والولد، والمال في سبيل ذلك.

---

[78] بلوغ الأرب (377/1).

[79] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (96/1، 97).

كانت هذه الفضائل والأخلاق الحميدة رصيداً ضخماً في نفوس العرب، فجاء الإسلام، فنمَّاها، وقوَّاها، ووجَّهها وجهةَ الخير، والحقِّ، فلا عجب إذا كانوا قد انطلقوا من الصَّحارى، كما تنطلق الملائكة الأطهار، ففتحوا الأرض، وملؤوها إيماناً بعد أن ملئت كفراً، وعدلاً بعد أن ملئت جوراً، وفضائل بعد أن عمَّتها الرَّذائل، وخيراً بعد أن طفحت شراً[80].

هذه بعض أخلاق المجتمع الَّذي نشأ فيه الإنسان العربيُّ، فهو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله ﷺ، واختير له هذا المجتمع العربيُّ، وهذه البيئة النَّادرة وهذا الوسط الرَّفيع، مقارنةً بالفرس، والرُّوم، والهنود، واليونان، فلم يُخْتَرْ من الفرس على سعة علومهم، ومعارفهم، ولا من الهنود على عمق فلسفاتهم، ولا من الرُّومان على تفنُّنهم، ولا من اليونان على عبقرية شاعريَّتهم، وخيالهم، وإنَّما اختير من هذه البيئة البكر؛ لأنَّ هؤلاء الأقوام وإن كانوا على ما هم عليه، وما هم فيه من علوم، ومعارف، إلا أنَّهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة، وحرِّيَّة الضَّمير، وسموِّ الرُّوح[81].

---

[80] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (97/1).

[81] نظراتٌ في السِّيرة، للإمام حسن البنَّا، سجَّلها، وأعدَّها للنشر أحمد عيسى عاشور، مكتبة الاعتصام، القاهرة، الطَّبعة الأولى، 1399 هـ1979 م، ص 14.

الفصل الأول: الإسلام: تجسيد القيم والمعاني الإنسانية في أسمى صورها

شكل الإسلام تجسيداً متكاملاً للقيم الإنسانية في أسمى صورها؛ من خلال تعاليمه ومبادئه، حيث أرسى الإسلام أسساً راسخة للقيم والمعايير الأخلاقية والإنسانية والحضارية، مما أحدث تحولاً عميقاً في مفهوم القيم الإنسانية. وفي هذا الفصل، نحاول أن نسلط الضوء على التعاليم الإسلامية التي لم تقتصر على النطاق الروحي، بل امتدت لتشمل جميع جوانب الحياة، مقدمةً نموذجاً رائداً لمجتمع يسعى لتحقيق أعلى مستويات الأخلاق والعدالة الاجتماعية. وفيما يلي أبرز القيم والمثل التي أرساها القرآن الكريم والسنة النبوية:

أولاً: الشمولية في الخطاب الإسلامي:

مما تميّز به ديننا الإسلامي عن كل ما عرفه الناس من أديان وفلسفات ومذاهب: (الشمولية)، وهو شمول يستوعب الزمن كله، ويستوعب الحياة كلها، ويستوعب كيان الإنسان كله[(82)].

فهو نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء[(83)]. فالإسلام الذي شرعه الله تعالى لم يدع جانباً من الحياة دون آخر، فهو بطبيعته شامل لكل مناحي الحياة، مادية وروحية، فردية واجتماعية.

ولقد عبر الإمام حسن البنا عن أبعاد هذا الشمول في رسالة الإسلام فقال وأجاد[(84)]:

"إنها الرسالة التي امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضاً حتى انتظمت

[(82)] الخصائص العامّة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة – القاهرة، مصر، ط: الرَّابعة، 1409هـ 1989م، ص 119.

[(83)] رسالة التعاليم، حسن البنا، ص 2.

[(84)] الخصائص العامة للإسلام، ص 119.

آفاقَ الأمم، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة".

وقد دل على هذا الشمول القرآن والسنة، فقد قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ [85]: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **[النحل: 44]**. وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ **[النحل: 89]**؛ قال الإمام الشافعي (رحمه الله تعالى): " فليست تنزل في أحد من أهل دين الله نازلةٌ إلا وفي كتاب الله الدليلُ على سبيل الهدى فيها"[86].

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ ما ترك أمراً يقربّنا من الله إلا وأمرنا به، ولا ترك أمراً يبعدنا عن الله إلا نهانا عنه، حتى تركنا على المحجّة البيضاء " ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك"[87].

تبين هذه الأدلة شمول الشريعة لجميع ما يحتاجه الناس في جميع المجتمعات على مرّ العصور وتغيّر الأحوال[88]. ويتمثل هذا الشمول بالآتي:

1- الإسلام رسالة الزمن كله:

رسالة الإسلام لكل الأزمنة والأجيال، ليست رسالة موقوتة بعصر معين أو زمن مخصوص، ينتهي أثرها بانتهائه، كما كان الشأن في رسالات الأنبياء السابقين على محمد ﷺ، فقد كان كل نبي يبعث لمرحلة زمنية محدودة حتى إذا ما انقضت بعث الله نبيّا آخر. أما محمد ﷺ، فهو خاتم النبيين، ورسالته هي رسالة الخلود التي قدر الله بقاءها إلى أن تقوم الساعة، ويُطوى بساط هذا العالم، فهي تتضمن هداية الله الأخيرة للبشرية، فليس بعد

---

(85) شمول الإسلام، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة للطباعة والنشر السلسلة: نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام، 2011م، ص 43.

(86) الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، دار الكتاب، 2006م، ص 48.

(87) الرسالة، المصدر السابق، ص 43.

(88) الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية، د. عابد السفياني، مكتبة المنارة، 2015م، ص 133.

الإسلام شريعة، ولا بعد القرآن كتاب، ولا بعد محمد ﷺ نبيّ. إنها رسالة المستقبل المديد ولا شك، وهي أيضاً رسالة الماضي البعيد(89)؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ **[الأنبياء: 25]**. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ **[النحل: 36]**، فكل الأنبياء أعلنوا أنهم مسلمون، ودعوا إلى الإسلام(90).

2. الإسلام رسالة العالم كله:

جاء الإسلام ليخاطب البشر، كلَّ البشر، ولينقذ منهم من سبقت له من الله الحسنى، وهذا يعني: أنَّ الدَّعوة جاءت ومن خصائصها الإعلان، والصَّدع، والبلاغ، والبيان، والإنذار، وتَحمُّل ما يترتَّب على هذا من التَّكذيب، والإيذاء، والقتل(91).

إنَّ القرآن المكيَّ بيَّن شمول الدَّعوة، وعالميتها:

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ **[ص: 87]**.

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ **[القلم: 52]**.

إنها الرسالة الشاملة التي تخاطب كل الأمم وكل الأجناس، وكل الشعوب، وكل الطبقات. إنها ليست رسالة لشعب خاص، يزعم أنه وحده شعب الله المختار، وأن الناس جميعاً يجب أن يخضعوا له، وليست رسالة لإقليم معيّن يجب أن تدين له كل أقاليم الأرض، وتجبى إليه ثمراتها وأرزاقها، وليست رسالة لطبقة معينة مهمتها أن تُسخّر الطبقات الأخرى لخدمة مصالحها أو اتباع أهوائها، أو السير في ركابها، سواء أكانت هذه الطبقة المسيطرة من الأقوياء أم الضعفاء، من السادة أم من العبيد، من الأغنياء أم من الفقراء.. إنها رسالتهم جميعاً، وليست لمصلحة طائفة منهم دون ما سواها، وليس فهمها ولا تفسيرها، ولا الدعوة إليها

---

(89) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص 120.

(90) الخصائص العامة للإسلام، المصدر السابق، ص 121.

(91) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة، 2010م، ص 134.

حكراً على طبقة خاصـــة، كما قد يتوهّم كثير من الناس؛ إنها هداية رب الناس لكلّ الناس، ورحمة الله لكل عباد الله[92].

ومن معلوم القول، أنه لا يوجد دين من الأديان السماوية أو الوضعية فيه هذه المواصفات التي تجعله عالميا إلا دين الإسـلام، فالدينان السـماويان الكبيران وهما اليهودية والنصـرانية، كل منهما خاص بقومه وبعصره.

فاليهودية لا تصـلح أن تكون دينا عالميا لأنها مرتبطة بشـعب معين تعرض للتشـريد غير مرة، تقوم حياته على العصبية الحادة والعنصرية الجامحة، ذلك أنهم يحاولون أن يستأثروا بعبادة إله وصفوه بأوصاف خاصة، ويعتقدون أنهم شعب الله المختار وأن غيرهم أميون، ويستبيحون من غيرهم ما لا يستبيحون من أنفسـهم كالربا، فهل مثل هذا الدين يصلح أن يكون عالميًا؟ على أنه لا يوجد نص في التوراة يتحدث عن هذه العالمية، فهي دين أسـرة بشـرية واحدة هي بنو إسرائيل وهم يكرهون أن يدخل بينهم غير عنصرهم.

ولو نظرنا إلى المســيحية لرأينا أنها عند تقرير العقيدة لا تعتمد على الدليل المقنع، بل توجب أن تؤخذ بالتسـليم المطلق، والعقول في تطورها جريا على سـنن الله الكونية، تأبى أن تظل حبيسة التقليد أو التلقين.

كما أنها تنادى بالزهد البالغ والرهبانية الشـــديدة، وتحرم الأغنياء أن يدخلوا ملكوت السماوات، وفى المسيحية تسامح متناهٍ وعفو واسع، ومن المعلوم أن امتثال هذه الأوامر يتعذر على غير الأذلة المستضعفين من الناس، وقد يكون من أكبر المفاسد بإغراء الأقوياء بالضعفاء الخاضعين. على أن سيدنا عيسى عليه السلام بدأ دعوته ببنى إسرائيل خاصة، كما جاء في إنجيل متى: "لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة" [93].

[92] الخصائص العامة للإسلام، ص 122.

(93) الدين العالمي ومنهج الدعوة إلى الله، عطية صقر، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة – ١٩٨٨ م، ص 10 وما بعدها. وانظر عن شمولية الإسلام: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 2005م، ص16 وما

3. رسالة الإنسان كله:

ورسالة الإسلام هي رسالة الإنسان من حيث هو إنسان متكامل، إنّها ليست رسالة لعقل الإنسان دون روحه، ولا لروحه دون جسمه، ولا لأفكاره دون عواطفه، ولا عكس ذلك. إنّها رسالة الإسلام كله: روحه وعقله، وجسمه وضميره، وإرادته ووجدانه. إن الإسلام لم يشطر الإنسان شطرين، كما فعلت أديان أخر، شطر روحي يوجّهه الدين، ويتجه للمعبد، وهذا الشطر من اختصاص رجال الدين (الكهنوت)، يتحكم فيه الكاهن أو القسيس، ويقود الإنسان من خلاله، وشطر آخر مادي لا سلطان للدين ولا لرجاله عليه، ولا مكان لله فيه... إنه شطر للحياة، للدنيا، للسياسة، للمجتمع، للدولة، وهذا في الواقع هو الجزء الأكبر من حياة الإنسان[94]. ترى هل يتفق هذا مع فطرة الإنسان؟ كلا، فالإنسان كما خلقه الله، ليس جزءاً ولا مشطوراً، إنه (كلٌّ) متكامل، و(كيان) واحد، لا تنفصل فيه روح عن مادة، ولا مادة عن روح، ولا عقل، عن عاطفة، ولا عاطفة عن عقل، إنه (وحدة)، لا تتجزّأ من الجسم والروح والعقل والضمير[95]. وبهذا لا يتمزّق الإنسان بين توجيهين مختلفين، أو سلطتين متناقضتين، هذه تشرق به، وتلك تغرب، كالعبد الذي له أكثر من سيد، كل واحد يأمره بغير ما يأمر به الآخر، فهمه شعاع وقلبه أوزاع، كما ذكر القرآن الكريم في قوله[96]: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **[الزمر: 29]**.

4. شمول التعاليم الإسلامية:

وإذا كان الإسلام هو رسالة الإنسان كلّه، ورسالة الحياة كلّها، فلا عجبَ أن نجد التعاليم

بعدها. والإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، دار العلم للملايين مؤسسة للتأليف والترجمة والنشر، 2017م، ص 24-29.

(94) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص 123.

(95) الخصائص العامة للإسلام، المصدر السابق، ص 123.

(96) الخصائص العامة للإسلام، المصدر السابق، ص 123.

الإسلامية كلها تتميز بهذا الشمول والاستيعاب لكل شؤون الحياة والإنسان(97). والحقيقة أن تعاليم الإسلام وأحكامه في العقيدة والشريعة والأخلاق والعبادات والمعاملات لا تؤتي أكلها إلا إذا أخذت متكاملة، فإنّ بعضها لازم لبعض، وهي أشبه (بوصفة طبية)، كاملة مكونة من غذاء متكامل، ودواء متنوّع، وحمية وامتناع من بعض الأشياء، وممارسة لبعض التمرينات، فلكي تحقق هذه الوصفة هدفها، لا بدّ من تنفيذها جميعاً، فإن ترك جزء منها، قد يؤثّر في النتيجة كلّها(98). ويتمثل شمول التعاليم الإسلامية بشمول العقيدة التي تفسر كل قضايا التوحيد الكبرى في هذا الوجود، التي كانت مثار جدل قديما، كالألوهية، وقضية الكون، وقضية الإنسان، وقضية النبوة، وقضية المصير وغيرها...

وشمول العبادة، التي تستوعب الكيان البشري كلّه، فالمسلم يعبد الله بلسانه ذاكراً وداعياً، وببدنه مصليّاً صائما مجاهداً، وبقلبه خائفاً راجياً محبّاً متوكلاً، وبعقله متفكّراً متأملاً، وبحواسه كلّها مستعملاً لها في طاعته(99).

وشمول الأخلاق، والنبي ﷺ حدّد الغاية الأولى من بعثته، والمنهاج المبين في دعوته، بقوله: "إنما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق"(100). إن الأخلاق في الإسلام لم تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع، فما فرّقه الناس في مجال الأخلاق باسم الدين وباسم الفلسفة، وباسم العرف والمجتمع، قد ضمنه قانون الأخلاق في الإسلام في تناسق وتكامل وزاد عليه(101).

وشمول التشريع، فالإسلام عقيدة وشريعة، والعقيدة هي الإساس، والشريعة هي البناء، فقد جاء الإسلام منظّماً لحياة الإنسان بوضع الأصول الضابطة لها، والمنارات الهادية لمسيرتها،

(97) الخصائص العامة للإسلام، المصدر السابق، ص 123.

(98) شمول الإسلام، ص 45.

(99) خصائص الإسلام، ص 132.

(100) خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الريان للتراث، 2006م، ص 7.

(101) خصائص الإسلام، ص 133.

ووضع الإشارات الحمراء عند خشية الصدام، حتى إن أطول آية في كتاب الله نزلت في تنظيم شأن صغير من الشؤون المدنية للإنسان، وهي آية المداينة[102].

ومن خصائص الشريعة الإسلامية: أنها شريعة ربانية، لأن مصدرها الأساسي وحي الله. وشريعة إنسانية، لأن الإنسان هو الذي يفهمها، وهو الذي ينفذها. وشريعة أخلاقية، وشريعة واقعية، وشريعة منطقية، وشريعة خالدة[103].

ثانياً: التكريم المعنوي والمادي لبني آدم:

شرع الإسلام من المبادئ وسنَّ من القيم ما يكفل الحقوق الكاملة التي توجبها الحياة الإنسانية، وتفرضها الكرامة البشرية على هذه الأرض، ولم تحظ هذه الحقوق في أيّة شريعة من الشرائع السماوية أو من النظم الأرضية، بمثل ما حظيت به في شريعة الإسلام، فقد ارتقت بها حتى جعلتها من الواجبات الدينية المتحتمة التي يحرم الإخلال بها، قال سبحانه في محكم تنزيله[104]: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ **[الإسراء: 70]**.

لقد جاء الإسلام ليؤكد كرامة الإنسان، ويضمن حقه واحترامه، عبر قوانين وتشريعات كثيرة، تناولت حماية حياته، وماله، وعرضه، وحريته الفكرية، ومشاركته في الحياة العامة، ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة من حيث الكرامة، والحقوق العامة، إلا في الوظائف والمسؤوليات التي تحكمها الطبائع الجسدية والنفسية لكل منهما، حتى تستقيم الأسرة والمجتمع. وقد بنيت هذه التشريعات والضمانات على أسس عقائدية ثابتة جعلت كرامة الإنسان جزءا لا يتجزأ من الإيمان نفسه، ذلك أن القرآن الكريم يشير في أكثر من موقع، أن الله –سبحانه– خلق هذا الإنسان بيده في أجمل صورة وأحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه،

---

[102] الصحوة الإسلامية صحوة من أجل الصحوة، عبد الكريم بكار، دار السلام، 2015م، ص 79.

[103] الصحوة الإسلامية صحوة من أجل الصحوة، المصدر السابق، ص 80.

[104] الإسلام وحقوق الإنسان في ضوء المتغيرات العالمية، محمد كمال الدين جعيط، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، ص 2.

وجعله "خليفة" في الكون[105]، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ **[غافر: 64]**. وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ **[هود: 61]**.

يظهر التكريمُ الإلهيُّ للإنسان في عِدّةِ أمورٍ، منها[106]:

1. الإنسان خليفة في الأرض:

أكد القرآن الكريم أن الإنسان مخلوق كريم على الله، فقد خلق ادم بيديه، ونفخ فيه من روحه، وجعله في الأرض خليفة، تكريماً للإنسان، وجاء ذلك في حوار بديع، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ **[البقرة: 30]**.

2. الإنسان محور الرسالات السماوية:

إنّ الإنسان هو المقصودُ غايةً وهدفاً في ابتعاث الرسل، واختيار الأنبياء، وإنزال الكتب والصُّحف، وإنّ الله سبحانه وتعالى الذي جعل ادمَ خليفةً في الأرض، اقتضت حكمته ومشيئته ورحمته بالإنسان ألاّ يخلقه عبثاً، وألاّ يتركه سدًى، وإنّما تكفّل بهدايته وإرشاده، وأخذ بيده إلى الطريق الأقوم، والمنهج الأمثل، وطمأنه منذ استقراره في الأرض أنه لن يدعه طعاماً سائغاً لوساوس الشيطان، ولن يتركه نهباً للوهم، والخبط، والضلال، والشهوات، ولن يسلمه للجهالة والحيرة والضياع، وإنما أكرمه بالهداية والرشاد بالتي هي أقوم[107]، قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدَىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ **[البقرة: 38]**. وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ

---

[105] حقوق الإنسان والقضايا الكبرى، كامل إسماعيل الشريف، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، 2000م، ص 6.

[106] الإيمان بالقرآن الكريم، د. علي محمد الصلابي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 2011م، ص 101-110.

[107] حقوق الإنسان، د. محمد الزحيلي، دار الكلم الطيب، 1997م، ص (21).

الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴿١٢٤﴾ **[طه: 123-124]**.

وهكذا توالت الرسلُ، وتتابع الأنبياء، وأُنزلت الكتب، وكلّها تدور على محور واحدٍ، هو الإنسان، بما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، وجاءت الشرائع لتأمينِ مصالح الناس بجلب النفع لهم، ودفع المضارّ عنهم، فترشدهم إلى الخير، وتهديهم إلى سواء السبيل، وتدلّهم على البر، وتأخذ بيدهم إلى الهدى القويم، وتكشِفُ لهم طريق الخير، وتحذّرهم من الغواية والشرّ[108].

وجاءت الشريعة لتحصيل المصالح وتكميلها، وتقليل المفاسد وتعطيلها[109]، فإنّ الأحكام الشرعية إنما شرعت لجلب المصالح، أو لدرء المفاسد[110].

3. تكليف الملائكة بالسجود لآدم:

لم يقتصر الأمر الإلهي باختيار الإنسان خليفة في الأرض، بل تأكد ذلك في السماء والجنات العلا، واقترن بالفعل والتطبيق، وأعلن الله تعالى ذلك في الملأ الأعلى بإرادته عن خلق ادم، واتخاذه خليفة، وسجل ذلك في اللوح المحفوظ، وأنزله وحياً يتلى على البشر، ثم أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم تعظيماً، واحتراماً له؛ لأنّ الإرادة الإلهية تعلقت باختياره، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴿٧٤﴾﴾ **[ص: 71-74]**. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ **[الحجر: 28-31]**.

وكرّر القرآن الكريم هذا الأمر، وهذه القصة في عدة سور قرآنية لتذكير الإنسان بفضل الله تعالى أولاً، وليعرف مكانته من الوجود والكون ثانياً، وليحذره من غواية إبليس ثالثاً[111].

---

[108] حقوق الإنسان، د. محمد الزحيلي، ص (22).

[109] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، دار الوفاء، 2006م، (48/20).

[110] الموافقات، الشاطبي، دار ابن عفان، 2007م، (195/1).

[111] حقوق الإنسان، د. محمد الزحيلي ص (28).

4 . تفضيل الإنسان على سائر المخلوقات:

صرّح القرآن الكريم بهذا التفضيل والتكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ **[الإسراء: 70]**.

5 . تسخير ما في الكون للإنسان:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ **[لقمان: 20]**.

وصرّح القرآن الكريم بأنّ الله تعالى خلق الأنعام، وملّكها للإنسان، ثم ذلّلها له للركوب، والأكل، والمنافع، والمشارب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ **[يس: 71-73]**.

ووجّه القرآن الكريم الإنسان إلى البحث في الكون، والتعرف على خواصّه وأسراره، والانتفاع به في الحياة.

فقال تعالى عن الثروة المائية: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ **[النحل: 14]**. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ **[الأنعام: 141]**.

وقال تعالى عن الثروة الحيوانية: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ **[النحل: 5-8]**.

وقال تعالى عن الثروة الصناعية: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ **[الحديد: 25]**. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا

فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ **[سبأ: 10-11].**

6 . تكريم الإنسان بالعقل:

فالعقل هو الأداة الكبرى للمعرفة، ويتفرّع عنه التفكير، والإرادة، والاختيار، وكسب العلوم؛ لذلك كان الإنسانُ مسؤولاً عمّا يصدر عنه، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ **[الإسراء: 36].**

وعدّ القرآن الكريم الإنسانَ الذي يعطل حواسه وعقله أضلّ من الأنعام والحيوان؛ لأن لديه وسائل المعرفة، لكنه عطلها عما خلقت له. قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِنْدَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ **[الأنفال: 22].**

وقد تعدّدت الآيات القرآنية صراحةً وإشارةً في مخاطبة العقل، ودعوته للتفكير، والنظر والبحث في الكون، وجعل التفكير فريضة إسلامية. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ **[آل عمران: 190-191].** وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾**[الروم: 24]** وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾**[البقرة: 164]** وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ **[الرعد: 4].**

وآيات كثيرة تثيرُ العقلَ وتحثّه، وتؤدي بالعقل إلى الإيمان بالله تعالى، واليقين بأنّه الخالق المدبر.

وبالمقابل إذا فشل العقل في أداء هذه الوظيفة فقد وجوده، وسلب الإنسان إنسانيته، وهذا ما أكّده القرآن الكريم بنفي العقل عن الكفار، وحكم عليهم بأنّهم لا يعقلون، وذلك لعدم الاستفادة من السمع والبصر للانتفاع من آيات الكون التي تنطِقُ بوجود الله تعالى، وتوجب طاعته، وعندئذٍ ينسلخ الكافر من إنسانيته، ويتساوى بالحيوان ثم ينحدر عنه[112]، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ **[الفرقان: 43-44]**.

7. تكريم الإنسان بالأخلاق والفضائل:

تظهر كرامة الإنسان والدعوة إلى تكريمه بدعوة الإسلام إلى الأخلاق الفاضلة، وترغيب الفرد والمجتمع بمعالي الأمور، والتسامي عن المادة، والحض على الخير والفضيلة بين الناس[113]؛ لذلك وصف القرآن الكريم نبيَّه محمداً ﷺ بأعلى أوسمةِ الفخار والثناء، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ **[القلم: 4]**. وبين ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «إنما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق»[114].

فدعا الإسلامُ الناسَ جميعاً إلى البِرّ، والرحمة، والإخاء، والمودة، والتعاون، والوفاق، والصدق، والإحسان، ووفاء الوعد، وأداء الأمانة، وتطهير القلب، وتخليصه من الشوائب، كما دعا إلى العدل والمسامحة والعفو، والمغفرة والصبر والثبات، ودعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحَثَّ على النصيحة وغير ذلك من مكارم الأخلاق والفضائل[115]، والأخلاق الفاضلة تزين الإنسانيةَ، وتُعلي شأنها، وتُنسق بين أفرادها، وتصون العلاقات الجماعية، وتوجيهها إلى الخير والكمال، لتصوّر الحياة البشرية في أجمل صورها، وأحسن أحوالها، وتتجنّب الرذيلة، والفساد

---

(112) حقوق الإنسان، للزحيلي ص (54).

(113) مجموع الفتاوى (48/20).

(114) الموافقات للشاطبي (195/1).

(115) حقوق الإنسان، للزحيلي ص (28).

الخُلُقي والاجتماعي(116).

8 . تكريم الإنسان في تشريع الأحكام:

وهذا بابٌ واسعٌ يُغطي جميعَ الأحكام الشرعية، ويدفع لمعرفة العلة فيها والحكمة من تشريعها، ولذلك نضربُ بعض الأمثلة فقط كنماذج:

أ . وجود الإنسان:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **[الروم: 21]**. أي: تأنسوا ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أي: جنسكم ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي تأنسوا بها، فإنَّ المجانسة من دواعي التضامن والتعاون، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، أي: تواداً وتراحماً بعصمة الزواج بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: في بدائع هذه الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة (117).

ب . حقوق الأولاد:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ **[التحريم: 6]**. أمر الله عزّ وجلّ في هذه الآية بأن يقي المؤمنون أنفسَهم النار بأفعالهم، وأهليهم بالنصح، والوعظ، والإرشاد، وهذا يتطلّب الالتزام التام بأحكام الشرع أمراً ونهياً، وترك المعاصي، وفعل الطاعات، ومتابعة القيام بالأعمال الصالحة، وحث الزوجة والأولاد على أداء الفرائض، واجتناب النواهي، ومراقبتهم المستمرة في ذلك(118).

ج . احترام إرادة الإنسان في العقود والتصرفات:

---

(116) حقوق الإنسان في الإسلام، للزحيلي ص (54).

(117) محاسن التَّأويل للقاسمي لمحمَّد جمال الدِّين القاسمي، دار الفكر، بيروت، (4772/13).

(118) التَّفسير المنير، د. وهبة الزُّحيلي، دار الفكر المعاصر - بيروت، دار الفكر - دمشق، الطَّبعة الأولى، 1411هـ 1991م، ، (320-316/28).

ومن ذلك: إرشاد القرآن الكريم إلى كتابة المداينة بين الأطراف، ثم أمر بالإشهاد عليها، وبيّن الحكمة والغاية من ذلك: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ **[البقرة: 282]**. ثم قال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ **[البقرة: 282]**. ثم بين تعالى الحكمة والغاية، فقال: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا﴾ **[البقرة: 282]**.

كما أنّ الله حرّم الغشّ والاعتداء على أموال الآخرين، واغتصاب حقوقهم؛ لأن ذلك يخلّ بالكرامة السامية للطرفين، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **[البقرة: 188]**. وقال تعالى: ﴿لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ **[النساء: 29]**.

لقد احترم الإسلام الإنسان، واعتبر إرادته أساساً في التعاقد، والتعامل حتى سبق تشريعات العالم في سلطان الإرادة العقدية، ثم اعتدّ بالإرادة الإنسانية في سائر التصرفات، وأبطل التصرفات التي تقع بالإكراه، فقال رسول الله ﷺ: «رُفِعَ عن أمتي الخَطَأُ والنسيانُ وما استُكْرِهُوا عليه»[119]، وجمع الحديث بين الخطأ والنسيان، والإكراه؛ لأنّ الإرادةَ مفقودةٌ حقيقةً في هذه الحالات، كما حرّم الإسلام أكل مال الإنسان إلا عن طيب نفسه[120].

د . العقوبات:

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ **[البقرة: 179]**. لقد حرص المشرّعُ الحكيم على التكريم الإنساني حتى في باب العقوبات، فقصد حفظ الدماء، والأنفس، والحياة عامة، وراعى الكرامة الإنسانية، فنصّ على الأشياء الممنوعة والمحرمة، وحذّر منها، ورهب

---

[119] صحيح البخاريّ، لمحمّد بن إسماعيل البُخاريِّ، دار الفكر، الطَّبعة الأولى، 1411هـ 1991م، (564)، سنن البيهقي (10/ 192).

[120] حقوق الإنسان، للزحيلي ص (64).

من ارتكابها، فإن حصل الخلل، ووقع الخطأ، أو العدوان والإثم، شرع العقاب المناسبَ للجريمة بما لا يمسُّ كرامة الإنسان، فشرع القصاصَ، ومنع المثلة والعدوان، واعتبر العقوبة تأديباً، وإصلاحاً وزجراً وردعاً[121].

وقد ورد في النصوص الشرعية أدلةً كثيرةً في رعاية الجانب الإنساني مع المتهم، والمجرم، والجاني، سواء في معاملته، والتحقيق معه، أم في محاكمته، وتأمين حقوقه الإنسانية، ومنحه الحق في الدفاع عن نفسه، أم في معاقبته، وتنفيذ الحكم عليه بالسجن وغيره[122].

وبعد: فإنَّ جميع الأحكام الشرعية مُراعًى فيها الناحية الإنسانية؛ لأنَّها ما شرعت أصلاً إلا لمصلحته، وإن الشريعة الغرّاء راعت إنسانيةَ الإنسان بالأحكام الحكيمة العادلة المناسبة له قبل الولادة وبعدها، وسمت برعاية اليتيم والأطفال خاصة، ثم الإنسان عامة، طوال فترة الحياة، ثم رعت شؤونه عند الموت، والتجهيز، والغسيل، والتكفين، والصلاة عليه، ومواراته التراب، وعدم الاعتداء على الميت، أو إيذائه بكلمة، أو غيبة، أو بالجلوس على قبره، وهي أحكام إنسانية بكل ما في الكلمة من معنًى، مما يدركه الباحث في العلوم الشرعية والمتفقه في الفقه وأحكام الإسلام، كما يتجلّى لنا التكريم الإلهي للإنسان في كل صغيرة وكبيرة، وفي جميع شؤون الحياة وأطوار الإنسان؛ ليكون المكرَّم، والمفضَّل، والمقدَّم عند الله، والخليفة في الأرض[123].

9. فوائد تكريم الإنسان:

- إن تكريم الإنسان قيمة عظمى تدفع المسلم للاعتزاز بكرامته وعدم التفريط فيها، مما يجعله يرفض الظلم ويأبى الضيم فيعيش مرفوع الهامة قوي العزيمة رابط الجأش لا يخشى في الحق لومة لائم.

---

[121] حقوق الإنسان، المصدر نفسه ص (66).

[122] محاسن التأويل، للقاسمي (13/ 4772).

[123] حقوق الإنسان، للزحيلي (78).

– إن قناعة المسلم بتكريم الله له ولغيره من البشر تجعله يحافظ على أرواح الناس ويبتعد عن إيذائهم أو إرهابهم، لأنه مطالب بأن يكرم من كرمه الله ورسوله، ومن يكرمه ربه ينبغي ألا يهينه أحد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ **[الحج:18]**.

– إن تكريم الإنسان يدفع المؤمن الحقّ إلى شكر المولى عز وجل على تلك النعم العظيمة التي حباه بها وفضله على كثير مما خلق.

– إن من عرف إكرام الله له لابد وأن يبتعد عن معاصيه وإذا غلبه الشيطان فعصى فعليه المبادرة بالتوبة.

– إن تكريم الخادم –كما أمر الإسلام – كفيل بأن يقضي على حقده، والحسد من هؤلاء الخدم: الذين قد تدفعهم الإهانات المنافية لروح الإسلام إلى ارتكاب حماقات تصل إلى حد القتل.

– إن تكريم الإسلام للمرأة أمّاً وبنتاً وزوجاً يجعلها تشعر بقيمتها في المجتمع وتعتز بدورها في بناء الأسرة ولا شك أن المرأة إذا كانت راضية النفس، موفورة الكرامة، ستحول بيتها إلى جنة وارفة الظلال، وصدق الشاعر النبيل إذ قال:

الأم مدرســة إذا أعددته   أعددت شعباً طيـب الأعراق

– تكريم الإسلام ومن ثم المسلمين لأهل الذمة من المعاهدين والكتابيين وغيرهم يجعل هؤلاء يستشعرون عظمة الإسلام، ويوحد كلمة المجتمع فيصبح آمناً من الدسائس والمكائد التي يلجأ إليها من هضمت حقوقهم أو انتهكت حرماتهم، ويجعل من هؤلاء الذميين عناصر صالحة تعمل وتعطي دون خوف.

– إن تكريم المحارب – حتى وإن كان كافراً– يحمي البشرية من تلك المجازر الجماعية التي تقشعر لها الأبدان ويروح فيها الضحايا من النساء والولدان، وما ضحايا لبنان والبوسنة وغيرهما على أيدي سفاحي العصر الحديث عنا ببعيد، ولو كان هؤلاء يعرفون كرامة

الإنسان كما أقرّها الإسلام ما سمعنا عن هذه الأهوال التي يشيب لها الوليد.

- إن إكرام الإنسان إذا كان غريباً أو لاجئاً يشعره بعظمة الإسلام ويفرج كربته.

- إكرام الإنسان إذا كان شيخاً فيه بشارة للمكرم بأنه سيعيش طويلاً وأنه سيرزق من كرمه، حينذاك.

- إن من يعرف إكرام الله له بخلقه من طين وتسويته ونفخه فيه من روحه لا يتكبر ولا يتجبر ولا يمنع خيراً رزقه إياه.

- إن من يعرف أن الله أكرمه فسخر له ما في الكون ورزقه السمع إلى ذكر الله، وإن نسي نسيه الله يوم القيامة.

- إن من يعذب الناس وينتهك بذلك آدميتهم ولا يعبأ بكرامتهم، عليه أن ينتظر عذاب الله يوم القيامة، فإذا منعه تكريم الإنسان من ذلك فقد أمن العذاب من هذه الجهة يوم القيامة[124].

- الإنسان المؤمن مكرّم حياً وميتاً، فالتكريم الإلهي يحفّ الإنسان من جميع جوانبه منذ أن خلقه الله سبحانه وأودع فيه فطرة التوحيد والإسلام، وأسجد له ملائكته وكلّفه بالعبادة والخلافة، وكرّمه في الحياة بالإيمان والهداية وفي الآخرة بالجنان إن اختار طريق الرحمن، لقد كرم الله هذا الإنسان يوم خلق، ويوم يموت ويوم يبعث حياً[125].

- إن الله تعالى كرّم الإنسان بأن جعل له حصانة من كل ما يضر به نفسياً وعقلياً وجسدياً وسلوكياً.

- العقل أهم خصائص الإنسان التي بموجبها فضل الله الجنس الإنساني على سائر المخلوقات، لذلك اعتبر الإسلام العقل مناط التكليف في سائر المسؤوليات الدينية

---

[124] موسوعة نظرة النعيم، إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح عبد الله بن حميد وعبد الرحمن بن محمد، دار الوسيلة، الطَّبعة الأولى 1418 هـ، 1175/4.

[125] الكرامة الإنسانية في الشريعة الإسلامية، فاخر عباس الدّاودي، دار العصماء، 2020م.

والدنيوية، إذ به يهتدي الإنسان إلى الحقائق الكبرى التي دعا الله إلى الوصول إليها بالبراهين العقلية لا بمجرد الإيمان الأعمى.

- كرّم الله بني آدم جميعاً، حيث وهبهم العقل على سواء، فلا تفاوت من حيث المنحة الإلهية، وإنما التفاوت في مدى استعداد الإنسان لها.

ثالثاً: الفطرة السليمة:

ترتبط الفطرة السليمة بالقيم الإنسانية ارتباطاً وثيقاً، فالفطرة السليمة هي ما يُولد عليه الإنسان من استعداد طبيعي للتمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، والصواب والخطأ، وبالتالي فهي تُشكّل أساساً للقيم الإنسانية الكبرى.

وهذه الفطرة هي أصل الخير في النفس البشرية الذي يرشدها إلى اختيار الأصلح، وتدعو الإنسان إلى الإيمان والقيم ومعالي الأمور، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **[الروم: 30]**. فالمقصود بالفطرة هنا الإسلام، فالله جل جلاله فطر الناسَ على دين الإسلامِ والتوحيد(126). وقد فطر الله عز وجل الإنسان أيضاً على معرفة الحق ومحبته له، وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم، يمكنه أن يتوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، وجعل في فطرته محبة ذلك (127).

قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾: وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين، فالنفس البشرية خالقها الله، ودين الإسلام الذي وعت له كل الرسالات السماوية من عند الله تعالى، وكلاهما موافق لناموس الوجود وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه. والله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل إليه هذا الدين

(126) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، علي الكيلاني، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1428هـ، (368/1).

(127) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (2/ 72).

ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الانحراف. وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير[128].

قال رسـول الله ﷺ: (ما مِنْ مولودٍ إلا يولدُ على الفِطْرَةِ، فأبواه يهوّدانِهِ، أو ينصّـرانِهِ أو يمجّسـانِهِ، كما تُنْتِجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تحسّـون فيها مِنْ جَدْعاء؟)[129]. وفي الحديث القدسـي: (يقول تبارك وتعالى: إنِّي خَلَقتُ عبادِي حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطينُ فاجْتالَتهُم عن دينهم)[130]. ومعنى "حنفاء" أي: مائلينَ عن الأديانِ كلِّها إلى دين الإسلام[131]. ومعنى "اجتالتهم": استخفّتهم، فجالوا معهم في الضلال[132].

وهذه الفطرةُ التي فطرَ الله عليها عبادَه لها صلةٌ وارتباطٌ وثيق بالعهد الذي أخذه سبحانه وتعالى على بني آدم وهم في عالم الذَّرّ، كما أشار الله بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ **[الأعراف: 172-173]**؛ فهذا العهدُ والميثاقُ الذي أخذه الله جل جلاله على الناس مضمونُه الاعترافُ والإقرارُ بربوبيته، وأشهدَهم على أنفسِهم فشهدوا.

لقد خلق الله الإنسـان محباً – بالفطرة – لقيم الخير، راغباً بها طالباً لها، كارهاً لكل أنواع الشـرور رافضـاً لها؛ "فطرة الله التي فطر الناس عليها"، قال الإمام ابن تيمية (رحمه الله): "إن

---

[128] في ظلال القرآن لسيّد قطب، دار الشُّروق، الطَّبعة التَّاسعة، 1400 هـ، 1980 م، (2768/5)

[129] صـحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب: إذا أسـلم الصبيُّ فمات هل يصـلى عليه؟ رقم: (1292). صـحيح مسلمٍ، تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التُّراث العربيِّ، بيروت – لبنان، الطَّبعة الثَّانية، 1972م، كتاب القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم: (2658).

[130] صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف الجنة وأهل النار، رقم: (2865).

[131] الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصـرية، القاهرة، ط 2، 1964، 144/20.

[132] النهاية في غريب الحديث، مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير، (جول)، المكتبة العلمية، بيروت، 1979، 317/1.

الإنسان من نفسه يجد من لذة العدل والصدق والعلم والإحسان والسرور بذلك ما لا يجده من الظلم والكذب والجهل. والناس الذين وصل إليهم ذلك والذين لم يصل إليهم ذلك يجدون في أنفسهم من اللذة والفرح والسرور بعدل العادل وبصدق الصادق وعلم العالم وإحسان المحسن ما لا يجدونه في الظلم والكذب والجهل والإساءة. ولهذا يجدون في أنفسهم محبة لمن فعل ذلك وثناء عليه ودعاء له. وهم مفطورون على محبة ذلك واللذة به، لا يمكنهم دفع ذلك من أنفسهم، كما فطروا على وجود اللذة بالأكل والشرب والألم بالجوع والعطش"[133].

رابعاً: المساواة في التكليف:

تُعد المساواة بين الناس على اختلاف الأجناس والألوان واللغات، مبدأ أصيلا، وقيمة أساسية، في الشرع الإسلامي، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ **[الحجرات: 13]**. فالناسُ جميعاً سواسية أمام الشريعة، قال رسول الله ﷺ: «لا فضلَ لعربيٍّ على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»[134]، ولا تمايز بين الأفراد في تطبيقها عليهم، قال رسول الله ﷺ: «لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمّدٍ سرقت لقطعتُ يدها»[135].

والناس كلهم في القيمة الإنسانية سواءٌ، قال رسول الله ﷺ: «كلكم لادم، وادم من تراب»[136]، وإنما يتفاضلون بحسب عملهم، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ **[الأحقاف: 19]**.

وكل فكر، وكل تشريع، وكل وضع يسوّغُ التفرقةَ بين الأفراد على أساس الجنس، أو العرق، أو اللون، أو اللغة، أو الدين، هو مصادرةٌ مباشرةٌ لهذا المبدأ الإسلامي العام[137].

(133) الرد على المنطقيين، أحمد ابن تيمية، مؤسسة الريان، 2006م، ص 424.

(134) مسند الإمام أحمد، لأحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت (411/5).

(135) مسلم، (1315/3).

(136) من خطبة الوداع نقلا عن حقوق الإنسان، للغزالي ص (175).

(137) حقوق الإنسان، لمحمد الغزالي ص (175).

ولكل فرد حق في الانتفاع بالموارد المادية للمجتمع من خلال فرصة عمل متكافئة لفرص غيره، قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ **[الملك: 15]**، ولا يجوز التفرقة بين الأفراد كماً وكيفاً، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ **[الزلزلة: 7-8]**.

وقد طبق رسول الله ﷺ ذلك بقوله وفعله، لأن هذا المبدأ اعتبر أصلا في أصول الإسلام، فقال ﷺ في خطبة الوداع: "يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب". وقد غضب غضبا لم ير مثله على وجهه الشريف، عندما سمع أبا ذر الغفاري يحتد على بلال ويعيره بلونه قائلا: يابن السوداء! فزجره الرسول ﷺ، ورده بقوله: "يا أبا ذر أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خوَلكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم". فاستجاب أبو ذر لأمر رسول الله ﷺ، ووضع خده على الأرض، وأقسم أن يطأه بلال برجله توبة وتكفيرا عما صدر عنه من أخلاق جاهلية[138].

ومن الشواهد التاريخية في حياة المسلمين على تطبيق هذا المبدأ الأصيل:

- حادثة طعمة بن أبيرق:

ذلك أن طعمة بن أبيرق سرق درعاً لأحد المسلمين؛ فلما خشي أن يكشف أمْره رمى بها في بيت يهودي ، وحاول إلصاق فعلته باليهودي البريء ، وشايعه على ذلك بعض قومه ممن امنوا بألسنتهم ، ولم يلامس الإيمان شغاف قلوبهم، وجاؤوا إلى النبي ﷺ، يجادلون بغير حق محاولين تبرئة ساحة صاحبهم ، وتغليظ قلب رسول الله ﷺ على اليهودي؛ فإذا الوحي الإلهي يفضح

[138] حقوق الإنسان في الإسلام، طاهر جمل الليل، ص 44.

مؤامرتهم ، ويكشف دسيستهم ؛ إذ أنزل الله على رسوله ﷺ، قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴿١٠٧﴾﴾ **[النساء: 105-107]**.

إلى أن يقول جل شأنه: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ **[النساء: 112-113]**.

– تحكيم شُريح القاضي لعلي واليهودي:

روى شريح القاضي فقال: لما توجه علي إلى قتال معاوية افتقد درعاً له، فلما رجع وجدها في يد يهودي يبيعها في سوق الكوفة، فقال: يا يهودي الدرع درعي لم أهب ولم أبع، فقال اليهودي: درعي وفي يدي ، فقال: بيني وبينك القاضي ، قال شريح: فأتياني ، وقال علي: هذه الدرع درعي لم أبع ولم أهب. فقال اليهودي: درعي في يدي. قال شريح: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟ قال: نعم، الحسن ابني. قال شريح: يا أمير المؤمنين شهادة الابن للأب لا تجوز، فقال علي: سبحان الله رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته ، سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة». فقال اليهودي: أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه ، أشهد أن هذا الدين على الحق ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين سقطت منك ليلاً.

إن المجتمع المسلم –كما يقيم علاقته بعضه مع بعض على العدل والمساواة – يقيم علاقة بينه وبين الرعية من الأقليات الدينية على التسامح والبر والرحمة والعدالة والمساواة، وغيرها من المبادئ الأخلاقية التي تصون التواصل البشري على رغم اختلاف الملل والنحل.

خامساً: الاختلاف والتعدد سنة إلهية وحكمة ربانية:

إنّ التعددية والاختلاف، جَعْلٌ إلهي، وسنة أزلية، قد فطر الله الناس عليها، فلم ولن يكون الناس نمطاً واحداً، أو قالباً فرداً، وإنما كانوا ولا يزالون مختلفين[139]، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ **[هود: 119-118]**؛ والمعنى: لو شاء الله لجعلهم أمة واحدة مؤمنة، حتى لا يقع منهم كفر ولا تنزل بهم مثلة، ولكنه عز وجل لم يشأ ذلك، فهم لا يزالون مختلفين في الأديان والآراء والملل[140]. ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾؛ بالهداية إلى الدين الحق، فإنهم لم يختلفوا، أو إلا من رحم ربك من المختلفين في الحق أو دين الإسلام، بهدايته إلى الصواب الذي هو حكم الله، وهو الحق الذي لا حق غيره[141]. ولأن الاختلاف بين البشر قائم موجود ما دامت السموات والأرض؛ أرسى الإسلام مبادئ التعايش السلمي، مع غير المسلمين، وجعل العلاقة بين المسلمين وغيرهم –ولا سيما أهل الكتاب– قائمة على الإحسان، والبر، وحسن المعاشرة، طالما لا يحاربون الله ورسوله[142]، وقدد أسس القرآن الكريم لهذا المفهوم بآية عظيمة، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٩﴾ **[الممتحنة: 8-9]**؛ أي: لا يمنعكم الله من البرّ والإحسان وفعل الخير إلى الكفار الذين سالموكم ولم يقاتلوكم في الدين كالنساء والضعفة منهم، كصلة الرحم، ونفع الجار، والضيافة، ولم يخرجوكم من دياركم، ولا يمنعكم أيضا من أن تعدلوا فيما بينكم وبينهم، بأداء مالهم من الحق، كالوفاء لهم بالوعد، وأداء الأمانة،

---

(139) الإسلام والتعددية، د. محمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر، 2011م، ص 23.

(140) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيَّة، أبي محمَّد عبد الحق بن غالب الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة بالمغرب، طبعة 1395 هـ، (215/3).

(141) فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التَّفسير: محمد بن علي الشَّوكاني، دار الفكر، (606/2).

(142) الإنسانية في ضوء السنة النبوية دراسة تأصيلية، د. محمد عبد العزيز أحمد عيسى، 2022م، ص 320.

وإيفاء أثمان المشتريات كاملة غير منقوصة، إن الله يحب العادلين، ويرضى عنهم، ويمقت الظالمين ويعاقبهم[143].

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾؛ أي إنما ينهاكم الله عن موالاة هؤلاء الذين عادوكم، وهم صناديد الكفر من قريش وأشباههم ممن هم حرب على المسلمين، وعاونوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم على ذلك، وهم سائر أهل مكة ومن دخل معهم في عهدهم، ينهاكم الله عن اتخاذهم أولياء وأنصارا لكم، ويأمركم بمعاداتهم.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ تأكيد للوعيد على موالاتهم. فأبان أن من يتولهم ويناصرهم، فأولئك الذين ظلموا أنفسهم، لأنهم تولوا من يستحق العداوة، لكونه عدوا لله تعالى ولرسوله ﷺ، ولكتابه[144].

ومن الأمثلة التي تؤسس لهذا المبدأ، أن الإسلام يتشوف لدخول كل أحد إليه بالدعوة إليه والحوار في ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، من غير إجبار أو أكراه، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ **[البقرة: 256]**؛ وتمثل هذه الآية الكريمة قاعدة كبرى من قواعد الإسلام ، وركناً عظيماً من أركان سماحته ، فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه ، ولا يسمح لأحد أن يكره أهله على الخروج منه ، ومن أجل ضمان عدم الإكراه أوجب الإسلام على المسلمين التمكن من القوة للقيام في وجه من يحاول فتنتهم عن دينهم ، وأمر المسلمين أن يعتمدوا في دعوة خصومهم أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة لتبيين الرشد من الغي[145].

---

(143) التفسير المنير، الزحيلي، (135/28).

(144) التفسير المنير، المصدر السابق، (136/28).

(145) تفسير المنار، (439/3).

فالحرية مقصد الجهاد أداة لحمايتها، إذ لا تصان ـــ غالباً ـــ حرية ضعيف، وذلك ما أكده صـــاحب المنار في تفســيره: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ **[البقرة: 193]**. أي: حتى يكون الإيمان في قلب المؤمن امناً من زلزلة المعاند، فالدين لا يكون خالصاً لله إذا كفت الفتن عنه، وقوي سلطانه حتى لا يجرؤ على أهله أحد(146).

وفي تفســـير الآية: عند صـــاحب الظلال: وليس يعقل في ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أن دعوة الإسـلام التي كافحت لفرض حرية الاعتقاد، ولاقى أهلها الأهوال، وهم قلة مسـتضـعفة في مكة، من طرف قوى الضلال والشرك التي عابت على المسلمين مخالفتهم دين الاباء والأجداد ، ولم تدخر وسـعاً في اضـطهاد المسـلمين ومنعهم من حظهم في الاختيار ، ليس جائزاً في منطق العقل والأخلاق أن ينتصـــب هؤلاء في الغد ، وقد مكن لهم في الأرض جلادين سفاحين ، يسومون أصحاب العقائد الأخرى العسف والهوان ؛ لحملهم على

خلاف ما يعتقدون، فكيف يعقل أن يحصل ذلك؟.

بل شواهد التاريخ بعد أدلة العقل والنقل متضافرة على أن أهم غايات الجهاد الإسلامي كسر شـوكة الطواغيت، وإبطال سـحرهم وبطشـهم، وترك الناس بعد ذلك وما يدينون... ولا غرو بعد ذلك أن كانت أرض الإسـلام أرض الحرية الدينية ؛ التي فاء إلى ظلها أبناء كل الطوائف المضطهدة من طرف أهل دينها ، فما استقر لها مقام ، ولا ازدهر لها كيان ، إلا في ظل حماية الإسـلام ، شـأن كثير من الفرق المسـيحية واليهودية التي التجأت إلى أرض الإسـلام ، وكثير منها لا أثر لها اليوم في غير بلاد الإسلام ، فقد استأصلتها الكنائس الكبرى(147).

سادساً: سماحة الإسلام:

السماحة أول أوصاف الشريعة، وأكبر مقاصدها. والسماحة: سهولة المعاملة فيما اعتاد الناس

(146) في ظلال القران، نقلاً عن الحريات العامة، الغنوشي، (74/1).

(147) في ظلال القرآن، المصدر السابق، (74/1).

فيه المشادّة، فهي وسط بين الشدة والتساهل. ولفظ السماحة هو أرشقُ لفظ يدل على هذا المعنى، يقال: سمح فلان؛ إذا جاء بمالٍ له. قال المقنّعُ الكندي:

ليسَ العطاءُ من الفضـــولِ سماحةً   حتى تجودَ ومـا لـديـك قـليـلُ

فالسماحةُ أخصُّ من الجود، ولهذا قابلها زيادُ الأعجم بالندى في قوله:

إنَّ الســـمـاحــةَ والمروءةَ والنـدى   في قُبَّةٍ ضُــربَتْ على ابنِ الحَشْـــرَجِ

فتدلُّ السماحةُ على خلق الجود والبذل، وفي الحديث عن جَابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «رحمَ اللهُ رَجُلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى»[148].

فالسماحة من أكبر صفات الإسلام الكائنة وسطاً بين طرفي إفراط وتفريط، وفي الحديث الصحيح عن ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ: «أحبُّ الدينِ إلى اللهِ الحنيفيةُ السمحةُ»[149].

فرجع معنى السماحة إلى التيسير المعتدل، وهو معنى اليسر الموصوف به الإسلام، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ **[البقرة: 185]**.

واستقراء الشريعة يدل على هذا الأصل في تشريع الإسلام، فليس الاستدلال عليه بمجرد هذه الآية، أو هذا الخبر، حتى يقول معترضٌ: إنَّ الأصول القطعية لا تثبتُ بالظواهر، لأنَّ أدلةَ هذا الأصل كثيرةٌ منتشرةٌ، وكثرة الظواهر تفيد القطعَ، ولهذا قال الإمام مالك بن أنس في مواضعَ من (الموطأ): ودينُ اللهِ يسرٌ، وحسبُكَ بهذه الكلمة من ذلك الإمام، فإنّه ما قالها حتى استخلصها من استقراء الشريعة. إنّ السماحةَ أكملُ وصفٍ لاطمئنان النفس، وأعونُ على قبول الهدى والإرشاد[150]، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ **[آل عمران: 159]**.

إنَّ حكمةَ السماحة في الشريعة أنَّ اللهَ جعل هذه الشريعة دين الفطرة، وأمور الفطرة راجعةٌ إلى

---

[148] أخرجه البخاري، (2076).

[149] أخرجه البخاري، الأدب المفرد، (188).

[150] أصول النظام الاجتماعي، محمد الطاهر بن عاشور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2012م، ص (51).

الجبلة، فهي كائنة في النفوس، سهل عليها قبولها، ومن الفطرة النفور من الشدة والإعنات، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ **[النساء: 28]**.

وقد أرادَ اللهُ أن تكونَ الشريعةُ الإسلاميةُ شريعةً عامةً دائمةً، فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذُها بين الأمة سهلاً، ولا يكونُ ذلك إلا إذا انتفى عنها الإعنات، فهي بسماحتها أشدَّ ملاءمة للنفوس؛ لأنَّ فيها إراحة النفوسِ في حاليْ خُوَيصتها ومجتمعها[151].

وقد ظهر للسماحة أثرٌ عظيم في انتشار الشريعة، وطول دوامها، إذ أرانا التاريخُ أنّ سرعة امتثال الأمم للشرائع، ودوامهم على اتباعها؛ كان على مقدار اقتراب الأديان من السماحة، فإذا بلغَ بعضُ الأديان من الشدة حدّاً متجاوزاً لأصل السماحة لحق اتباعه العنت، ولم يلبثوا أن ينصرفوا عنه، أو يفرِّطوا في معظمه.

وقد حافظ الإسلام على استدامة وصف السماحة لأحكامه، فقدّر لها أنها إن عرض لها من العوارض الزمنية أو الحالية ما يصيرها مشتملة على شدة فتح لها باب الرخصة المشروع بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ **[البقرة: 173]**. وبقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ **[الأنعام 119]**، وفي الحديث: «إنّ اللهَ يحبُّ أن تؤتى رُخصُه كما يُحِبُّ أن تؤتى عزائمُه»[152]. ومن قواعد الفقه المشهورة: «المشقة تجلب التيسير».

1 ـ ومن سماحة القرآن الكريم، إنكارهُ على أصحاب النزعات المتطرّفة، والذين يحرّمون الطيبات والزينة التي أخرج لعباده[153]. قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ **[الأعراف: 31-32]**.

وفي القرآن المدني يخاطب الجماعة المؤمنة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ

---

(151) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، دار الكتاب المصري، 2013م، ص(271).

(152) أخرجه ابن حبان، (354).

(153) أصول النظام الاجتماعي ص (52).

اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ **[المائدة: 87-88].**

وهاتان الآيتان الكريمتان تبينان للمسلمين حقيقة منهج الإسلام في التمتع بالطيبات، ومقاومة الغلو الذي وُجِدَ في بعض الأديان، أو عند بعض المتنطعين[154].

2. ومن سماحة الإسلام أيضاً ما يتبعه من منهج في الدعوة إلى الله عز وجل، وجدال المخالفين، ففي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ **[النحل: 125]** [155].

ومن تأمّل الآية الكريمةَ يجدُ أنّها لا تكتفي بالأمر بالجدال بالطريقة الحسنة، بل أمرت بالتي هي أحسن، فإذا كان هناك طريقتان للحوار والمناقشة إحداهما حسنة، والأخرى أحسن منها، وجب على المسلم أن يجادِلَ بالتي هي أحسن؛ جذباً للقلوب النافرة، وتقريباً للأنفس المتباعدة[156].

3. من سماحة النبي ﷺ أنّ فتًى من قريش جاء إلى النبي ﷺ يستأذنه في الزنى، فثار الصحابة، وهمّوا به لجرأته على النبي ﷺ، ولكنّ النبيَّ ﷺ وقف موقفاً آخر، فقال: «ادنه» فدنا، فقال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا واللهِ، جعلني الله فداك قال: «ولا الناسُ يحبونه لأمهاتهم»، ثم قال له مثل ذلك في ابنته وأخته وعمته وخالته، في كل ذلك يقول: «أتحبه لكذا؟» فيقول: لا، جعلني الله فداك، فيقول ﷺ: «ولا الناسُ يحبونه». فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصّن فرجه»، فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء[157].

وإنما عامله النبي ﷺ بهذا الرفق، تحسيناً للظن به، وأنَّ الخير كامِنٌ فيه، والشر طارئ عليه، فلم يزل يحاوره حتى اقتنع عقله، واطمأن قلبه إلى خبث الزنى وفحشه، وكسب مع ذلك دعاء النبي

---

(154) أصول النظام، المصدر نفسه، ص (52).

(155) سماحة الإسلام، عمر عبد العزيز، مكتبة الأديب، 2006م، ص (370).

(156) سماحة الإسلام، المصدر نفسه، ص (30).

(157) أخرجه أحمد، (256/5).

ﷺ [158].

سابعاً: الحرية في الإسلام:

من مقاصد الإسلام: إبطالُ عبودية البشر للبشر، وتعميم الحرية لكل الناس. ومن قواعد الفقه قول الفقهاء: الشارعُ متشوِّفٌ للحرية، فذلك استقراؤهم من تصرفات الشريعة؛ التي دلت على أنّ من أهم مقاصدها إبطال العبودية وتعميم الحرية، ولكن دأبُ الشريعةِ في رعي المصالح المشتركة، وحفظ النظام العام، وقفَ بها عن إبطال العبودية بوجه عام، وتعويضها بالحرية، وإطلاق العبيد من ربقة العبودية، وإبطال أسباب تجدّد العبودية، مع أنّ ذلك يخدم مقصدَها، كان ذلك التوقف من أجل أنَّ نظامَ المجتمعات في كل قطر قائمٌ على نظام الرق، فكان العبيدُ عمّال في الحقول، وخدم في المنازل والغروس، ورعاة للأنعام، وكانت الإماء حلائل لسادتهن، وخادمات في منازلهم، وحاضنات لأبنائهم، فكان الرقيقُ لذلك من أكبر الجماعات التي أقيمَ عليها النظام العائلي والاقتصادي والاجتماعي لدى الأمم حين طرقتهم دعوة الإسلام، فلو جاء الإسلام بقلب ذلك النظام رأساً على عقب؛ لانفرط عقدُ نظام المدينة انفراطاً تعسر معه عودة انتظامه، فهذا موجب إحجام الشريعة عن إبطال الرق الموجود، وأما إحجامها عن إبطال تجدد سبب الاسترقاق الذي هو الأسر في الحروب، فلأن الأمم التي سبقت ظهور الإسلام قد تمتعت باسترقاق من وقع في أسرها، وخضع إلى قوتها، وكان من أكبر مقاصد سياسة الإسلام إيقاف غلواء تلك الأمم، والانتصاف للضعفاء من الأقوياء، وذلك ببسط جناح سلطة الإسلام على العالم، وبانتشار اتباعه في الأقطار، فلو أن الأمم التي استقرت لها سيادة العالم من قبلُ أمنت عواقب الحروب الإسلامية . وأخطر تلك العواقب في نفوس الأمم السائدة الأسر والاستعباد والسبيُ . لما ترددت الأمم من العرب وغيرهم في التصميم على رفض إجابة الدعوة

---

[158] سماحة الإسلام، د.عمر عبد العزيز، ص(31).

الإسلامية اتكالاً على الكثرة والقوة، وأمناً من وصمة الأسر والاستعباد(159)، كما قال صفوان بن أمية في مثله: لأن تربُّني قريشٌ خيرٌ من أن تربُّني هوازن.

وكما قال النابغة:

حذاراً على أن لا تُنالَ مقادتي ولا نسوتي حتى يَمُتْنَ حرائرا(160)

فنظر الإسلامُ إلى طريقٍ بين مقصدي: نشر الحرية وحفظ نظام العالم، بأن سلَّط عوامل الحرية على عوامل العبودية مقاومة لها لتقليلها، وعلاجاً للباقي منها، وذلك بإبطال أسباب كثيرة من أسباب الاسترقاق، وقصره على سبب الأسر خاصة، فأبطل الاسترقاق الاختياري، وهو بيع المرء نفسه، أو بيع كبير العائلة بعضَ أبنائها، وقد كان ذلك شائعاً في الشرائع، وأبطل الاسترقاق لأجل الجناية، بأن يُحْكَمَ على الجاني ببقائه عبداً للمجني عليه، وقد حكى القرآن عن حالة مصر: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ **[يوسف: 75]**. وقال: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ **[يوسف: 76]**.

وأبطل الاسترقاقَ في الدِّين الذي كان شرعاً للرومان، وكان أيضاً من شريعة سولون في اليونان من قبلُ، وأبطل الاسترقاقَ في الفتن والحروب الداخلية الواقعة بين المسلمين، وأبطل استرقاق السائبة، كما استرقت السيارةُ يوسفَ عليه السلام إذ وجدوه.

ثم إنَّ الإسلام التفت إلى علاج الرق الموجود، والذي سيوجد، بروافع ترفعُ ضرر الرق، وذلك بتقليله عن طريق تكثير أسباب رفعه، وبتخفيف آثار حالته، وذلك بتعديل تصرف المالكين في عبيدهم الذي كان مالكه معنتاً(161).

ومن منافذ الحرية للأرقاء التي فتحها الإسلام:

1 ـ جعل الإسلام تحرير الأرقاء قربة إلى الله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ **[البلد: 12]**.

(159) مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص (393).

(160) مقاصد الشريعة الإسلامية، المصدر نفسه، ص (392).

(161) مقاصد الشريعة، ص (393).

2 ـ كفارة يمين الحانث: إطعام عشرة مساكين، أو تحرير رقبة.

3 ـ كفارة الظهار لمن أراد أن يرجع زوجته بدايته تحرير رقبة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *﴾ **[المجادلة: 3]**.

4 ـ من أفطر في نهار رمضان: فعليه كفارة، منها تحرير رقبة.

5 ـ ملك اليمين إذا أنجبت من سيدها، تسمّى «أم ولد»، فإذا مات سيدها قبلَها صارتْ حرةً.

6 ـ المكاتبة: أن يتفق العبدُ مع سيده على مبلغٍ من المال يدفعه، أو يقوم بعمل يصيرُ بعده حراً، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ **[النور: 33]**.

7 ـ العبد الذي يملكه اثنان أو جماعة، فإذا حرَّرَ واحدٌ منهم نصيبه، امتنع أن يباع العبد.

8 ـ تحرير الأرقاء مصرف من مصارف الزكاة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ **[التوبة: 60]**.

لقد انقرض الرق أمام أبواب الحرية التي فتحها الإسلام، ولم يكن الإسلام أول من أباح الرق، بل كان أول من حرر الأرقاء بأسلوب منطقي، بأسلوب الترغيب تارة وبأسلوب الترهيب تارة أخرى عن طريق الكفارات، كما رأينا(162).

لقد قتل الإسلام مشاعر الإحساس بالعبودية، بأن ترفّع عن نداء العبد بكلمة عبدي، وإنّما بأسلوبٍ أرقى، وهو كلمة: غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي، قال ﷺ: «لا يقولنّ أحدُكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي، ولا يقل أحدكم: ربِّي، وليقل سيدي»(163).

(162) حقوق الإنسان في الإسلام، د. مبارك سيف الهاجري وعبد المنعم حسين العمري ص (107).

(163) البخاري رقم (2552) مسلم رقم (2249).

وقد نهى النبيُّ ﷺ عن التشديد في الخدمة، ففي الحديث: «لا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه فليعنه»، والأمر بكفاية مؤنتهم وكسوتهم، ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «عبيدكم خَوَلكم، إنما هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جُعِلَ أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس»[164] ونهى عن ضربهم الضرب الخارج عن الحد اللازم، فإذا مثّل الرجل بعبده عتق عليه[165].

فمن استقراء هذه التصرّفات ونحوها حصل لنا بأنَّ الشريعةَ قاصدةٌ بثَّ الحرية، والقضاءَ على العبودية للمخلوق.

والقرآن الكريم من مقاصده تركُ الخيار للناس كافة في اختيار المعتقَدِ بعد تبيّن الرشد من الغي، وتترك لهم كذلك حرية التفكير، وحرية التعبير. وإليك الشرح:

1 . حرية الاعتقاد:

أسس الإسلام حرية الاعتقاد لإبطال المعتقدات الضالّة التي أَكْرَهَ دعاةُ الضلالة أتباعهم ومريديهم على اعتقادها من دون فهم ولا هدًى، ولا كتاب منير، وبالدعاء إلى إقامة البراهين على العقيدة الحقة، ثم بالأمر بحسن مجادلة المخالفين وردّهم إلى الحق بالكلمة والموعظة، وأحسن الجدل، ثم بنفي الإكراه في الدين[166]، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ **[البقرة: 256]**.

ولو أراد الخالقُ جلّت قدرتُه لدخلَ جميعُ مَنْ على الأرض من الناس في دينِ الإسلام، ولكنْ له حكمةٌ في إعطاء الناس الحرية فيما يختارون وما يسلكون من طريق، حيث قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ *﴾ **[يونس: 99]**.

---

[164] مقاصد الشريعة، محمد الطاهر بن عاشور، ص (395).

[165] مقاصد الشريعة، المصدر نفسه، ص (395).

[166] مقاصد الشريعة، ص (396).

ولا شك أنَّ الإنسان بما وهبه الله من عقل وسمع وبصر قادرٌ على التمييز بين الحق والباطل، حتى يستطيعَ اختيارَ الطريق الصحيح، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا٣﴾ **[الإنسان: 2-3]**.

والدين الإسلامي الحنيف ليس دينَ قمعٍ وإكراهٍ، بل دينُ يسرٍ، يقوم على مبدأ وسائل الإقناع، والتزام جادّة العقل من خلال منهج الحوار البنّاء، والتعبير الحر، والجدال الموضوعي المنطقي في النقاش، البعيد عن المهاترات وإثارة الفتن. والشريعةُ الإسلامية تشدّد وتؤكد على قدسية هذا المنهج؛ لذا نجد أنّ الخالق يأمرُ رسوله محمداً ﷺ، بأن يدعوَ الناس إلى دين الإسلام بالحكمة، ويخاطبه قائلاً: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ **[النحل: 125]**.

وفي مجادلة أهل الكتاب يقول تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *﴾ **[العنكبوت: 46]**[167].

2 . حرية التعبير «الأقوال»:

فهي التصريحُ بالرأي والاعتقادِ في منطقةِ الإذن الشرعي، وقد أمر الله ببعضها في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *﴾ **[آل عمران: 104]**. وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ **[آل عمران: 110]**. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ **[التوبة: 71]**. وقال تعالى: ﴿يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ*﴾ **[لقمان: 17]**.

---

[167] حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، د. صالح عبد الله الراجحي، ص (111).

وقد جاء التوجيه القرآني الكريم بالتزام القول الحسن، وترك ما عداه ممّا لا فائدةَ منه، أو ممّا فيه مضرةٌ في الدين، أو في العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم.

وقد حدد القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ضوابط الكلام وآدابه تحديداً دقيقاً وواضحاً، نجمل شيئاً منه فيما يلي:

1 ـ الضوابط المتعلقة باللفظ في مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **[البقرة: 104]**.

2 ـ الضوابط المتعلقة بالمضمون في مثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *﴾ **[الأعراف: 33]**.

3 ـ الضوابط المتعلقة بالهدف والأسلوب في مثل قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ **[الأحزاب: 70]**.

4 ـ الضوابط المتعلقة بالتوقف والتثبت من المصدر في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً *﴾ **[النساء: 83]**. والآية الأخيرة: إنكارٌ على من يبادرُ إلى الأمور قبل تحقُّقها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا تكونُ لها صحةٌ، وقد قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»[168]، وعن المغيرة بن شعبة أنّ رسول الله ﷺ: «نهى عن قيل وقال»[169]، أي: الذي يكثر من الحديثِ عمّا يقول الناس من غير تثبت، ولا تدبر، ولا تبين[170].

---

(168) مسلم، رقم (7).

(169) مسلم، رقم (4485).

(170) تفسير القرآن العظيم، لابن كثيرٍ القرشيِّ، دار الفكر، ودار القلم، بيروت – لبنان، الطَّبعة الثانية، (529/1)، حرية التعبير، محمد بن محمد الخرعان، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ط1، 1900، ص (45).

5 . كما حرّم الله ورسوله ﷺ الكذب والغيبة والنميمة وشهادة الزور والسب والشتم والقذف في أدلة ظاهرة معلومة من الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة[171].

3 . حرية الفكر:

لم يترك القرآن الكريمُ أسلوباً نفسياً أو واقعياً إلا واتبعه من أجل حثّ الإنسان على التفكير، واستعمال عقله بصورةٍ واضحةٍ جلية، وإليك البيان:

أ . طلب القرآن الكريمُ من الناس أن يستعملوا عقولهم، ويفكروا، ولنستمع لهذه الآيات في الإيمان ورسوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ **[سبأ: 46]**.

وفي تفسير طبيعة الرسالة وشخصية الرسول ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ *﴾ **[الأنعام: 50]**.

وفي لفت النظر إلى أسرار التشريعات المختلفة عبادية أو اجتماعية، يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ *﴾ **[البقرة: 219]**.

وفي إشعار الإنسان بأنّ هذا الكونَ كلَّه خُلِقَ لارتفاقه، ويُسِّرَ برُّه وبحرُه وعلوُّه وسفلُه له[172]، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *﴾ **[الجاثية: 13]**.

ب . طلب القرآن الكريم من البشر أن يستعملوا عقولهم فيما تراه عيونهم ببساطة من ظواهر يومية، ويفكروا فيها، وفي سبب وكيفية وجودها، وذلك حتى يعرفوا أنّ هنالك سبباً، وهناك علاقة بين كل ما يتضمنه هذا الكون؛ الذي تمَّ ترتيبه بإحكام ودقة، وفي النظر في السماوات

---

[171] حرية التعبير، محمد بن محمد الخرعان، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ط1، 1900، ص (46).

[172] حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، محمد الغزالي، دار الدعوة، 2006م، ص (80-81)، حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، د. هاني الطعيمات، دار الشروق للنشر والتوزيع،2005م، ص (154).

وما حوته، وفي الأرض وما عليها، يقول تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ **[يونس: 101]**.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً﴾ **[الروم: 8]**.

ج ـ وحتى يحفّز القرآن الكريم العقلَ الإنسانيّ للتفكر هاجمَ الذين يلغون عقولهم وتفكيرهم، ونعى عليهم هذه الطريقة في الحياة التي تجعلُهم كالدواب، ذلك أنَّ العقل الإنساني وملكة التفكير هي التي تميّزُ الإنسان من الحيوان، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ **[الأعراف: 179]**.

د ـ نبه القرآن الكريم إلى العوائق الواقعية التي تعطّل التفكير، وطلب إزالتها حتى لا تقفَ بوجه العقل الإنساني، والتفكير الصحيح، فرفض التبعية الفكرية، والإيحاء الفكري المتوارث عائلياً واجتماعياً، فأكد بذلك شخصية كل فرد، واستقلاليته الفكرية. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ *﴾ **[البقرة: 170]**. وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ **[الزخرف: 22-23]**.

هـ. واستعمل القرآن الكريم أسلوب المقارنة الفكرية بين الشيء وضده لينشّطَ العملية الفكرية، وليخلق ملكةَ المقارنةِ، ويطوّر المقدرة على التفكير بشكل صحيح[173]، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ **[الرعد: 16]**.

---

[173] حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ص (155).

و ـ وأفرد القرآن الكريم مكانةً خاصةً للذين يفكّرون ويتعمّقون في التفكير، ويصبح تفكيرُهم علماً نافعاً للإنسان في هذه الحياة، وميّزهم، عن غيرهم وما ذلك إلا مرحلة أخرى متقدّمة من كيفية طلب التفكير وضرورته، واحترام العقل الإنساني، ودفعه نحو أرقى مراحل العلم، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ **[المجادلة: 11]**.

وبهذا يكون المنهجُ القرآنيُّ وضع حرية التفكير في الاتجاه السليم والمنطق الصحيح، فليس فيها أوهام وخرافات، وليس فيها جمودٌ ولا تقليد، وإنما هي دعوة لتكريم العقل الإنساني، وتحريره من ربقة البلادة والخمول، وتنبيهه إلى أداء مهمته في البحث والتفكير[174].

إنَّ الإسلام اعتنى بالحرية بأنواعها، وقدّرها حقّ قدرها، سواء حرية الاعتقاد، أو حرية التعبير، أو حرية الفكر، وجعل الحرية مقصداً من مقاصده.

ثامناً: العدل في الإسلام:

العدل من الأسس والقيم التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية، فأنزل الله به كتبه، وأرسل به رسله. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ **[الحديد: 25]**؛ أي: العدل، فما من كتاب أنزل ولا رسول أُرسل إلا أمر أمته بالعدل، وأوجبه عليها، والأممُ بين طائع اخذ منه بنصيب، وحائدٍ مائلٍ عن العدلِ والقسط بجهلٍ أو هوى، والرسلُ ما تزال تجدّدُ ما نسيته الأجيال، وتذكر الناسَ بما نسوا إلى أن ختمت الرسالاتُ بخاتمِ الأنبياء محمد ﷺ .

ولما كانت هذه الرسالةُ المحمدية خاتمةَ الرسالات، والنبيُّ محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل، وهذه الأمةُ ـ التي جعلها الله شاهدةً على الناس وقيّمة على البشرية، تبلّغها دين الله، وتشهد لها بالإيمان أو عليها بالكفر والعصيان ـ هي خاتمة الأمم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ **[البقرة: 143]**؛ فقد كان العدلُ من أهم ما يجب على هذه

---

[174] حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، المصدر السابق، ص (156).

الأمة، بل هو من أعظم ما يميّزها عن الأمم، ولم يكتف الحقُّ تبارك وتعالى بإيجابِ العدل على هذه الأمة، بل أراد منها أن تجعلَه خُلقاً من أخلاقها، وصفةً من صفاتها، وصبغةً تصطبغ بها من دون الناس، فأمرها أن تكونَ قائمةً بالعدل، بل قوامةً به بين الناس، لله عز وجل، لا لأي شيءٍ آخر، فلا تحابي فيه قريباً لقرابته، ولا تضارّ عدواً لعداوته. قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *﴾ **[المائدة: 8]**.

فالعدل الذي أمر به الله عز وجل في القرآن الكريم حقٌّ لكل الناس جميع الناس، لا عدلاً بين المسلمين فحسب، ولا عدلاً مع أهل الكتاب دون سائر الناس، وإنما هو لكل إنسان بوصفه إنسان، فهذه الصفة - صفة الناس - هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني، وهذه الصفة هي التي يلتقي عليها البشر جميعاً مؤمنين وكفاراً، أصدقاء وأعداءً، سوداً وبيضاً، عرباً وعجماً، والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل متى حكمت أمرهم(175).

فالعدل من مقاصد القرآن الكريم، وقد أوجبه الله على المؤمنين به، ولو كان مراغمةً لعواطف البغض والعداوة، ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، وهو كذلك واجبٌ، ولو كان فيه مراغمة لكافة عواطف الحب والمودة والقرابة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ **[النساء: 135]**.

والأمة مأمورة بأن تقوم بالعدل والقسط والشهادة لله، وليس لأحد سواه، وأن يكون ذلك منهم بدافع التقوى والخوف من الله عز وجل؛ حتى يصبح الجميع أمام العدل سواء، من دون اعتبار لدوافع الحب والولاء والقرابة، أو البغضاء والشنان والعداوة؛ لأنها إنما تقوم بالعدل والقسط بين الناس لله وبأمر الله، والعدل بهذه الصورة الشاملة لم تعرفه البشرية قط إلا على يد هذه الأمة، ولم تنعم به البشرية قط إلا تحت حكم الأمة المسلمة(176).

---

(175) في ظلال القرآن، (414/2).

(176) الوسطية في القرآن الكريم، لعلي محمَّد الصَّلاَّبي، دار النَّفائس، دار البيارق، الطَّبعة الأولى، 1419 هـ، 1999 م، (94).

وللعدل ملامح وسمات تخفُّ به، وتميزه عن غيره بمجموع تلك الملامح لا بأفرادها، ومن أهم سمات وملامح العدل:

1 . الوسطية:

وردت مادة وسط في القرآن الكريم في عدة مواضع، وذلك بتصاريفها المتعددة، حيث وردت بلفظ «وسطاً» و«الوسطى» و«أوسط» و«أوسطهم» و«وسطن».

أ . كلمة «وسطاً»:

وردت في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ **[البقرة: 143]**.

وروى الطبري بإسناده عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ قال: "عُدولًا"[(177)].

وقال محمد رشيد عن مجموعة من العلماء: إن الوسط هو العدل والخيار، وذلك أن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط، والنقص عنه تقصير وتفريط، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة، فهو شر ومذموم، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر، أي: المتوسط بينهما[(178)].

وقال عبد الرحمن السعدي في تفسيره أي: عدلاً ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وما عدا الوسط فأطراف داخلة تحت الخطر.

ولهذا الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها، ووهبهم من العلم والحلم والعدل

والإحسان ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانواُ كاملين معتدلين ليكونوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾ سبب عدلهم وحكمهم بالقسط يحكمون على الناس من سائر ﴿النَّاسِ﴾، ولا يحكم عليهم غيرهم[(179)].

---

(177) تفسير الطبري، الطبري، مؤسسة الرسالة، 2010م، (7/2).

(178) الوسطية في القرآن الكريم، للصلابي، ص 24.

(179) الوسطية في القرآن الكريم، للصلابي، ص 25.

ب. كلمة ﴿أَوْسَطِ﴾

وردت هذه الكلمة في ايتين: الأولى في قوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ **[المائدة: 89]**.

والثانية في سورة القلم في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ **[القلم: 28]**.

قال الطبري: يعني تعالى ذكره بقوله: أعدله. قال عطاء بن أبي رباح التابعي الجليل والفقيه الكبير: أوسطه: أعدله[(180)].

وقال الطبري: وقوله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ يعني: أعدلهم، وقال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾: أعدلهم.

وقال قتادة: أعدلهم قولاً [(181)].

إن الوسطية هي مؤهل الأمة الإسلامية من العدالة والخيرية للقيام بالشهادة على العالمين، وإقامة الحجة عليهم[(182)]، ومكانة الشهادة على الناس، والاضطلاع بدور عالمي مشهود مرتبط بمدى استجابتها لعناصر القوة، ومنها التمسك بالعدالة كقيمة محورية في الحياة، وفي بناء المجتمع، ولا تكون أمة وسطاً أو خير الأمم إلا بشروط أخلاقية، وحضارية، وثقافية، وسياسية، إذ لا يمكن لأمة واهية متخلفة ضعيفة تئن تحت الاستبداد السياسي والاجتماعي، والتهاون فيما يخص حقوق الإنسان وكرامته، أمة مسكينة فقدت المبادرة في المجال الحضاري

والعدالة غائبة في أوطانها وبين أبنائها ومكوناتها أن تكون شاهدة على الناس، أو أن تكون مؤهلة لذلك.

(180) الوسطية في القرآن الكريم، المصدر السابق، ص 29.

(181) الوسطية في القرآن الكريم، المصدر السابق، ص31.

(182) الوسطية في القرآن الكريم، المصدر السابق، ص 38.

إن الأمة الشاهدة الصالحة تهدي بالحق وتعدل به، وكتابه تعالى نزل بالحق والعدل، هي والعدل بالحق يقتضي إقامة نظام على أساس من ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ *﴾، والديمقراطية، والحرية[183]، والمساواة، وحقوق الإنسان، والكرامة الإنسانية.

2. الخيرية:

قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ **[آل عمران: 110].**

لم تَنَلْ هذه الأمة هذه المكانة السامقة بين الأمم مصادفة، ولا جزافاً، ولا محاباة، فالله سبحانه وتعالى منزه عن أن يكون في ملكه شيء من ذلك، فكل شيء عنده بمقدار، وهو يخلق ما يشاء ويختار، وهو سبحانه عندما أخبر أن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، بيّن وجه ذلك وعلته.

فبهذه الأمور الثلاثة العظيمة القدر كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، على أن هذه الأمور ليست هي كل ما كانت به هذه الأمة خير أمة، إذ هناك أمور وخلال كثيرة أهّلت هذه الأمة لهذه الخيرية، ولكن هذه الثلاثة أهمها وأعظمها، إذ لا تدوم ولا تستمر هذه الخيرية ولا تحفظ إلا بإقامتها وأدائها، فإن فقدت هذه الأمور في جيل من أجيال هذه الأمة لم يكن حرياً بهذه الخيرية التي حظيت بها هذه الأمة[184].

إنَّ إيمان هذه الأمة بالله عز وجل يدل على عدلها؛ لأن الشرك بالله ظلم عظيم، ووجه كونه عظيماً أنه لا أفظع وأبشع ممن سوّى المخلوقات من تراب بمالك الرقاب، وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمالك الأمر كله، وسوّى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه[185].

---

[183] العدالة مفهومها ومنطلقاتها، أبو بكر علي محمد أمين، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، 2010م، ص 135.

[184] الوسطية، للصلابي، ص 72.

[185] تفسير السَّعدي المسمَّى تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان، لعبد الرَّحمن ناصر السَّعدي، المؤسَّسة السَّعدية بالرِّياض، 1977 م، ص 761.

وباتفاق الجميع أن الإيمان بالله هو الأساس الذي يُبنى عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذا لم يكن ثمة إيمان على أساسه يتصور المعروف فيؤمر به، والمنكر فينهى عنه، فليس هناك أمر بمعروف ونهي عن منكر بالمعنى الشرعي[186].

3. اليسر ورفع الحرج:

من ملامح العدل وأبرز سماته اليسر ورفع الحرج، وقد تقرر أن الدين هو دين الوسط فلا غلو ولا جفاء ولا إفراط ولا تفريط، واليسر ورفع الحرج مرتبة عالية بين الإفراط والتفريط وبين التشدد والتنطع، وبين الإهمال والتضييع. يقول الدكتور صالح بن حميد: إن رفع الحرج والسماحة والسهولة راجع إلى الاعتدال والوسط، فلا إفراط ولا تفريط، فالتنطع والتشديد حرج من جانب عسر التكاليف، والإفراط والتقصير حرج فيما يؤدي إليه من تعطيل المصالح، وعدم تحقيق مصالح الشرع[187].

فالتوسط هو منبع الكمالات، والتخفيف والسماحة ورفع الحرج على الحقيقة هو في سلوك طريق الوسط والعدل[188].

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ **[البقرة: 185]**.

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ **[النساء: 28]**.

وقال تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ **[الأعلى: 8]**.

ومن أقوى الأدلة في الدلالة على رفع الحرج قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ **[الحج: 78]**.

قال الطبري في تفسير هذه الآية: جعل الدين واسعاً ولم يجعله ضيقاً. قال ابن كثير: أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً[189].

---

(186) الوسطية، للصلابي، ص 73.

(187) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، صالح بن حميد، جامعة أم القرى، 2007م، ص: 13.

(188) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، المصدر السابق، ص 13.

(189) تفسير الطبري، (207/17).

وقال سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ **[المائدة: 6]**.

وفي سورة التوبة: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ **[التوبة: 91]**.

وقال في سورة الأحزاب: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ **[الأحزاب: 38]**.

وفي سورة النور: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ **[النور: 61]**.

وفي هذه الآيات دلالة ظاهرة على رفع الحرج عن هذه الأمة، وأن الله لم يجعل في التشريع حرجاً، وبعض هذه الآيات وإن كانت خاصة في أحكام معينة، ولكننا نجد التعليل عاماً، فكأنما التخفيف ورفع الحرج في هذه الأحكام والفروض بإعادة الشيء إلى أصله، وهو رفع الحرج عن هذه الأمة، فكل شيء يؤدي إلى الحرج لسبب خاص أو عام فهو معفوّ عنه، رجوعاً إلى الأصل والقاعدة[190].

4. الحكمة:

ومن ملامح العدل وأبرز سماته: الحكمة، وتستعمل بمعنى العدل والعلم والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل.

والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يُحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم.

إن الحكمة لابد من اعتبارها عند تحديد معنى العدل، بل إن الالتزام بالعدل وعدم الجنوح إلى الإفراط أو التفريط هو عين الحكمة وجوهرها، وذلك أن الخروج عن العدل له اثاره السلبية إما عاجلاً أو اجلاً، وهذا يخالف الحكمة وينافيها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ **[البقرة: 269]**.

5. الاستقامة:

---

(190) الوسطية في ضوء القرآن الكريم، د.ناصر العمري، ص 106-107.

ومن ملامح العدل: الاستقامة، وقد وردت آيات كثيرة تأمر بالاستقامة وتحث عليها، فالله جل وعلا يقول لرسوله ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ **[هود: 112]**.

وقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ **[الشورى: 15]**.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ **[فصلت: 30]**.

فهذه الآيات وغيرها تُبين منزلة الاستقامة ومكانتها.

تاسعاً: تعزيز الحوار وآدابه في الإسلام:

منذ سطع نور الإسلام على الدنيا أدرك المسلمون طبيعة دينهم وعالمية رسالته، فقاموا يدعون الناس إلى هديه، فبدأ الحوار بين المسلمين ومشركي قريش، وسجل القرآن في آياته الكثير من هذه الحوارات، وتولى فيها الرد على المشركين[191]. وكان من أهم مناسبات الحوار هجرة أصحاب النبي ﷺ إلى الحبشة، وحوارهم مع النجاشي حول قول المسلمين في المسيح وأمه عليهما السلام.

وحين انتقل النبي ﷺ إلى المدينة بدأ الحوار مع أهل الكتاب من قطّان المدينة المنورة، وقد نقل القرآن الكثير من الحوارات التي طَلب من النبي ﷺ أن يُجريها مع أهل الكتاب، والكثير منها كان يبدأ بقوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾[192].

ويكتسب الحوار أهمية بالغة في منظومة الدعوة الإسلامية، فهو أسلوب أصيل من أساليب الدعوة ومعلم بارز في منهجها الرشيد.

وللحوار دوره الكبير في تأصيل الموضوعية ورد الفكرة المغرضة كالفكرة القائلة إن الإسلام دين القهر، وإنه انتشر بالسيف كما روجه أعداء الإسلام من ضلال المستشرقين والمنصّرين.

---

[191] الحوار مع أتباع الأديان، منقذ السقار، رابطة العالم الإسلامي، 2012م، ص 19.

[192] الحوار مع أتباع الأديان، المصدر السابق، ص 22.

وكيف يصح ذلك والإسلام دين الحوار وفي التنزيل الحكيم[193]: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ **[البقرة: 256]**.

فلو كان صحيحا أن الإسلام دين السيف لما كان للحوار معنى، وقد حفل القرآن الكريم بعشرات النصوص حول الحوار تأمر به وتحض عليه وتنوه بقيمته وتقدم نماذج من حوارات الأنبياء والمرسلين، وتقدم نماذج من الحوارات التي ينبغي أن يسلكها الدعاة إلى الله مع مختلف أصناف المدعوين من أهل الكتاب والمشركين والملاحدة ومنكري البعث وغيرهم[194].

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ **[العنكبوت: 46]**.

قال الشيخ السعدي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع[195].

وهذا النص القرآني وإن كان عاماً في كل جدل يتصور وقوعه بين المسلمين وأهل الكتاب، فإن أولى ما يتبع فيه حين يكون الجدال في أمر ديني تجنباً لإيغار الصدور، وإيقاد نار العصبية

(193) وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار، د. عبد الرب آل نواب، موقع وزارة الأوقاف السعودية، ص 21.

(194) وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار، المصدر السابق، ص 21.

(195) تفسير السعدي، ص 632.

والبغضاء في القلوب(196)، بل إن عفة اللسان واجبة على المسلم حتى مع المشركين من عبدة الأوثان، ففيهم نزل قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ **[الأنعام: 108]**.

فأدب الحوار مطلوب من كل الأمور التي يمكن أن يدور فيها النقاش ، ويكون أخص في أمور العقيدة والدين ، والمسلم في حاله ومقاله داعية إلى الله ، فإن كان حواره مع مسلم ؛ فالهدف توضيح أمور دينه له ؛ ليكون التزامه أحكام الشرع أفضل ، وقربه من الله أكثر ، وإن كان حواره مع غير المسلمين ــ خاصة أهل الكتاب ــ فالهدف توضيح عقيدة الإسلام وشريعته ، ورجاء الهداية لهم(197)، وكلما كانت لغة الحوار لطيفة حكيمة كانت أبلغ في الاستماع والإنصات والقبول ، يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ **[النحل: 125]** .

ويوصي الله عز وجل رسوليه إلى فرعون ـ موسى وهارون ـ أن يخاطباه بلين الكلام وطيبه؛ لعله يكون أنجع وأبلغ في التذكر وخشية الله، فيقول تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ **[طه: 43-44]**.

لن يجد المتأمل في آيات القرآن وهدي سيد الأنام كبير صعوبة في التوصل إلى آداب الحوار وأخلاقياته، فالقرآن أوضح بجلاء ما ينبغي على المسلم أن يتصف به وهو يحاور غير المسلمين، بينما كان هدي النبي ﷺ، تُرجمان ذلك، ومصداقه.

وآداب الحوار كثيرة، نذكر منها:

(196) الأقليات غير المسلمة، دندل جبر، دار عمار للنشر والتوزيع، 2006م، ص (359).

(197) الأقليات غير المسلمة، المصدر السابق، ص (348).

1. القول الحسن، كما مر معنا بالآية الكريمة السابقة: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ **[العنكبوت: 46]**.

2. الغض عن إساءة الآخر ومقابلتها بالإحسان، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ **[النحل: 126]** قال القرطبي: " أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم، ولئن صبرتم عن عقوبته، واحتسبتم عند الله ما نالكم به من الظلم، ووكلتم أمره إليه حتى يكون هو المتولي عقوبته ﴿لهو خير للصابرين﴾ يقول: للصبر عن عقوبته بذلك خير لأهل الصبر احتساباً وابتغاء ثواب الله"[198].

3. ترك الجدال فيما لا يحسنه ولا يعلمه، وقد أنكر الله تعالى على بني إسرائيل إذ جادلوا بما لا يعلموه، قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ **[آل عمران: 66]**. قال القرطبي: "في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده"[199].

4. الرجوع عن الخطأ وقبول الصواب إذا تبيّن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ **[سبأ: 24]**؛ تشير الآية إلى أهمية الموضوعية في الحوار، وعدم التعنّت مع الآخر، والاعتراف بالحق حيث ظهر، وإشعار الآخر بجدية الحوار والمناظرة، وأنها سبيل للوصول إلى الحقيقة موضوع البحث والمناظرة.

---

[198] الحوار مع أتباع الأديان، ص 49.

[199] الجامع لأحكام القرآن، (108/04)، نقلاً عن الحوار مع أتباع الأديان، ص 52.

الفصل الثاني: سيرة النبي ﷺ من المولد إلى الرسالة

يستعرض هذا الفصل مسيرة حياة النبي محمد ﷺ من مولده المبارك إلى بدء رسالته، مقدماً لمحة عن البدايات التي شكلت أساس النبوة؛ من لحظات الطفولة الأولى في مكة المكرمة إلى مرحلة الشباب التي مهدت للرسالة، وفيه نرصد الجوانب الشخصية والاجتماعية التي كانت حجر الزاوية في تكوين شخصية النبي ﷺ. خلال هذه الفترة، تُجلى السمات الفريدة والظروف التي ساهمت في إعداد النبي ﷺ ليحمل أمانة الرسالة الإيمانية للعالمين، مما يضفي على هذه الحقبة طابعًا مميزًا في تاريخ الإسلام.

أولاً: نسب النَّبيِّ ﷺ:

إنَّ النَّبيَّ ﷺ أشرف الناس نسباً، وأكملهم خَلْقاً، وخُلُقاً، وقد ورد في شرف نسبه ﷺ أحاديث صحاح؛ منها: ما رواه مسلمٌ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قال: «إنَّ الله - عزَّ وجلَّ - اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[200].

وقد ذكر الإمام البخاريُّ - رحمه الله! - نسب النَّبيِّ ﷺ، فقال: «هو أبو القاسم، محمَّد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصَيِّ، بن كلاب، بن مُرَّةَ، بن كعب، بن لُؤَيِّ، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النَّضر، بن كِنانة، بن خُزيمة، بن مُدْرِكة، بن إلياس، بن مضر، بن نِزارٍ، بن مَعَدِّ، بن عدنان»[201].

وقال البغويُّ في شرح السُّنَّة بعد ذكر النَّسب إلى عدنان: «ولا يصحُّ حفظ النَّسب فوق عدنان».

وقال ابن القيِّم بعد ذكر النَّسب إلى عدنان أيضاً: «إلى هنا معلوم الصحَّة، متَّفقٌ عليه بين النَّسَّابين، ولا خلاف البتةَ، وما فوق عدنان مختلفٌ فيه، ولا خلاف بينهم: أنَّ عدنان

---

(200) سبق تخريجه.

(201) أخرجه البخاري تعليقاً (7/205 - 206).

من ولد إسماعيل عليه السلام»[202].

وقد جاء عن ابن سـعدٍ في طبقاته: «الأمر عندنا الإمسـاك عمَّا وراء عدنان إلى إسماعيل»[203].

وعن عروةَ بن الزُّبير: أنَّه قال: «ما وجدنا مَنْ يعرف وراء عدنان، ولا قحطان إلا تخرُّصاً»[204].

قال الذَّهبيُّ – رحمه الله –: «وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم – عليهما السَّلام – بإجماع النَّاس، لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء»[205].

لقد كان – وما زال – شرف النَّسب له المكانة في النُّفوس؛ لأنَّ ذا النَّسب الرَّفيع لا تُنْكَرُ عليه الصَّدارة، نبوَّةً كانت، أو مُلكاً، وينكر ذلك على وضيع النَّسب، فيأنف الكثير من الانضواء تحت لوائه، ولـمَّا كان محمَّد ﷺ يُعَدُّ للنُّبوَّة، هيَّأ الله تعالى له شرف النَّسب؛ ليكون مساعداً له على التفاف النَّاس حوله[206].

إنَّ معدن النَّبيِّ ﷺ طيِّبٌ، ونفيسٌ، فهو من نسْل إسماعيل الذَّبيح، وإبراهيم خليل الله، واستجابةٌ لدعوة إبراهيم عليه السلام، وبشارةُ أخيه عيسى عليه السلام، كما حَدَّث هو عن نفسه، فقال: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة أخي عيسى»[207].

وطيب المعدن، والنَّسب الرَّفيع يرفع صاحبه عن سفاسف الأمور، ويجعله يهتمُّ بعاليها، وفضائلها. والرُّسل، والدُّعاة يحرصون على تزكية أنسابهم، وطهر أصلابهم، ويعرفون عند النَّاس بذلك، فيحمدونهم، ويثقون بهم[208].

وممَّا تبيَّن يتَّضح لنا من نسبه الشَّريف، دلالة واضحةً على أنَّ الله – سبحانه وتعالى – ميَّز العرب على سائر النَّاس، وفضَّل قريشاً على سائر القبائل الأخرى، ومقتضى محبَّة رسول

---

[202] زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، 2015م، (71/1).

[203] الطبقات الكبرى، ابن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، (58/1).

[204] الطبقات الكبرى، المصدر السابق، (58/1).

[205] السِّيرة النَّبويَّة في تاريخ الإسلام، الذَّهبي، دار الكتب العلمية، 2009م، ص 1.

[206] دراسةٌ تحليليَّةٌ لشخصيَّة الرَّسول ﷺ، ص 96.

[207] أخرجه أحمد (127/4) والحاكم (600/2) ومجمع الزوائد (222/8).

[208] السِّيرة النَّبويَّة دراسةٌ وتحليل لمحمَّد أبو فارس، دار الفرقان، عمَّان، الطَّبعة الأولى 1418هـ 1997م، ص 102.

الله ﷺ محبَّة القوم الذين ظهر فيهم، والقبيلة التي ولد فيها، لا مِنْ حيث الأفراد والجنس؛ بل من حيث الحقيقة المجرَّدة، ذلك؛ لأنَّ الحقيقة العربيَّة القرشـيَّة قد شـرف كلٌّ منها – ولا ريب – بانتساب رسول الله ﷺ إليها، ولا ينافي ذلك ما يلحق من سوءٍ، بكلِّ مَنْ قد انحرف من العرب، أو القرشيِّين عن صراط الله – عزَّ وجلَّ – وانحطَّ عن مستوى الكرامة الإسلاميَّة التي اختارها الله لعباده؛ لأنَّ هذا الانحراف، أو الانحطاط من شأنه أن يُودي بما كان من نسبةٍ بينه وبين الرَّسول ﷺ، ويلغيها من الاعتبار[209].

ثانياً: زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهبٍ، ورؤيا آمنة أمِّ النَّبيِّ ﷺ:

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحبِّ ولد أبيه إليه، ولـــمَّا نجا من الذَّبح، وفداه عبد المطلب بمئةٍ من الإبل، زوَّجه من أشـرف نسـاء مكَّة نسـباً، وهي آمنة بنت وهبٍ ابن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب[210].

ولم يلبث أبوه أن توفِّي بعد أن حملت به ﷺ آمنة، ودُفن بالمدينة عند أخواله بني «عديِّ بن النَّجار»، فإنَّه كان قد ذهب بتجارةٍ إلى الشَّـــام، فأدركته منيَّته بالمدينة وهو راجعٌ، وترك هذه النَّسَـمَةَ المباركة، وكأنَّ القدر يقول له: قد انتهت مهمَّتك في الحياة، وهذا الجنين الطَّاهر يتولَّى الله – عزَّ وجلَّ – بحكمته ورحمته تربيته، وتأديبه، وإعداده؛ لإخراج البشـــريَّة من الظُّلُمات إلى النُّور.

ولم يكن زواج عبد الله من آمنة هو بداية أمر النَّبيِّ ﷺ. قيل للنَّبيِّ ﷺ: ما أوَّل بدء أمرك؟ [211] فقال رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمِّي أنَّه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشَّام»[212].

ودعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ **[البقرة: 129]** .

وبشرى عيسى (عليه السلام) كما أشار إليه قوله – عزَّ وجل – حاكياً عن المسيح عليه

---

[209] فقه السيرة النبوية، محمد سعيد رمضان البوطي، دار ابن كثير، 2008م، ص 45.

[210] وقفاتٌ تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة، لأحمد فريد، دار طيبة، الرِّياض، الطَّبعة الثَّالثة، 1417 هـ 1997 م، ص 46.

[211] وقفات تربوية مع السيرة النبوية، المصدر السابق، ص 47.

[212] أخرجه أحمد (262/5) والمعجم الكبير (7729) ومجمع الزوائد (221/8).

السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ **[الصف: 6]**.

وقوله ﷺ: «ورأت أمِّي كأنَّه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشَّام». قال ابن رجب: «وخروجُ هذا النُّور عند وضعه إشارةٌ إلى ما يجيء به من النُّور؛ الَّذي اهتدى به أهل الأرض، وزالت به ظلمة الشِّرك منها، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ **[المائدة: 15-16]**.

وقال ابن كثير: «وتخصيص الشَّام بظهور نوره، إشارة إلى استقرار دينه، وثبوته ببلاد الشَّام، ولهذا تكون الشَّام في آخر الزَّمان معقلاً للإسلام، وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام بدمشق بالمنارة الشَّرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في الصَّحيحين: «لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين على الحقِّ، لا يضرُّهم مَنْ خذلهم، ولا مَنْ خالفهم، حتَّى يأتي أمر الله وهم كذلك». وفي صحيح البخاريّ: «وهم بالشَّام»[213].

ثالثاً: ميلاد الحبيب المصطفى ﷺ:

ولد الحبيب المصطفى ﷺ يوم الإثنين بلا خلافٍ، والأكثرون على أنَّه لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر ربيعٍ الأول[214].

والمجمع عليه: أنَّه ﷺ ولد عام الفيل[215]، وكانت ولادته في دار أبي طالبٍ، بشعب بني هاشم[216].

---

[213] أخرجه البخاري (3641) ومسلم (1923).

[214] صحيح السِّيرة النَّبويَّة، لإبراهيم العلي، دار النفائس، الطَّبعة الثَّالثة، 1408هـ 1998م، ص47. وينظر الشكلان (6 و7) في الصفحتين (742 و743).

[215] السِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير، (203/1).

[216] وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة، ص 47.

قال أحمد شوقي – رحمه الله! – في مولد الحبيب المصطفى ﷺ:

وُلِدَ الهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِـيـاءُ وَفَمُ الزَّمَـان تبسُّـــمٌ وَثَنَـاءُ
الـرُّوحُ، والمـلأُ المـلائـكُ حَـوْلَـهُ للدِّين وَالدُّنْيَا بِه بُشَـــرَاءُ[217]
وَالْعَرْشُ يَزْهُو، والحَظِيرةُ تَزْدَهِى والمُنْتَهَى والسِّـــدْرَةُ الْعَصْـمَاءُ
بِكَ بَشَّـــرَ اللهُ السَّـــمَاءَ فَزُيِّنَتْ وَتَضَـوَّعَتْ مِسْـكاً بِكَ الْغَبْرَاءُ
يَوْمٌ يَتِيهُ عَلى الزَّمَانِ صَـبَاحُـهُ وَمَسَـــاؤُهُ بمحمَّـدٍ وَضَّـــاءُ
ذُعِرَتْ عروشُ الظَّـالمينَ فَزُلْزِلَـتْ وعَلَتْ عَلى تِيجَانِهِمْ أَصْـدَاءُ
والنَّـارُ خَـاويـةُ الجَوَانِـبِ حَوْلَهُمْ خَمَدَتْ ذَوَائِبُهـا وَغَـاضَ المـاءُ
والآيُ تَـتْرَى، والخَـوارِقُ جَمَّـةٌ جِبْرِيـلُ رَوَّاحٌ بِهـا غَـدَّاءُ[218]

وقد قال الشَّـاعر الأديب اللِّيبي، الأسـتاذ محمد بشـير المغيربي، في ذكرى مولد الرَّسول ﷺ عام 1947م، في جريدة الوطن الصَّادرة في بنغازي:

بَلَغَ الزَّمَـانُ مِنَ الحيـاةِ عتيَّـا لَكِـنَّ يومـاً لا يَـزَالُ فَتِيَّـا
يمشـــى على الأحقابِ مشـيَـةَ في موكبٍ جَعَلَ السِّـنين مَطِيَّا
تَخِـذَتْ لَـهُ الأعْوَامُ في أيَّامِهَـا عَرْشـاً فأصْـبَحَ تَاجَهَا الأَبْدِيَّا
ومَضَـتْ بِهِ الأَجْيَالُ خُطْوَاتٍ مَنْ بَلَغَ الرَّشَـادَ وَكَانَ قَبْلُ صَـبِيَّا
أعْظِمْ بِيَوْمٍ جَـاءَ يَحْمِـلُ «رَحْمَـةً لِـلْعَـالَـمِيْنَ» وعِـزَّةً ورُقِيَّـا
وُلِـدَتْ بِـهِ للكَـائنـاتِ حَقيقـةٌ أضْـحَى بِهَا سِـرُّ الحياة جَلِيَّا
وَأَنَارَ في الأُولَى الطَّرِيقَ إلى الْوَرَى لِيَسِـيرَ للأخرى الأنَامُ تَقِيَّـا
كَادَتْ بِه الدُّنْيَا تَقولُ لِشَـمْسِـهَا عَنّي فَقَدْ رَجَعَ الضِّيَاءُ إلَيَّا[219]

وقال أيضاً في نادي طرابلس الغرب الثَّقافي في القاهرة في عام 1949 م:

مَـــالِي وَمَـــا بي مِـــنْ شُمُـــولْ أَشْـدُو عَلَـى رَغْـمِ العَـذُولْ
إني أُطَـــالِعُ في السَّـــماءِ كَأَنَّهَـــا سِـــفْرٌ جليـــلْ
وأرَى النُّجُـــومَ تَمَثَّلَـــتْ لي كالملائـــك في مُثُـــولْ
وَالْبَـــدْرُ خِلْـــتُ شُـــعَاعه وَحْـــىَ الرِّسَـــالةِ في نُـــزولْ
وَإِذَا بِصَـــوْتٍ مِـــنْ ضَمِيـــر الْكَـــوْن مُبْتَهجـــاً يَقُـــولْ

---

[217] بُشراء: جمع بشير.

[218] ديوان شوقي، الأعمال الشِّعرية الكاملة، دار العودة – بيروت، طبعة 1986م، (34/1، 35).

[219] جريدة (الوطن)، بنغازي، 1947 م.

في مثل هَــذي اللَّيلةِ الْـغرَّاء قَــدْ وَلِـدَ
وَأَشَـــــعَّ نُــــورُ مُحَمَّـــــدٍ فَـــوْقَ الـــرَّوابي والسُّـــهُولْ
مَــلأَ الزَّمَــانَ وَكَــانَ قَبْــلُ يَهِــيمُ في لَيْــل

رابعاً: مرضعاته عليه الصَّلاة والسَّلام:

كانت حاضنته ﷺ أمُّ أيمن بركة الحبشيَّة أمَةَ أبيه، وأول من أرضعته ثُوَيْـبَـةُ أمَةُ عمِّه أبي لهب[221]. فمن حديث زينب ابنة أبي سلمة، أنَّ أمَّ حبيبة رضي الله عنها أخبرتها: أنَّها قالت: يا رسول الله! انْكِحْ أختي بنت أبي سفيان، فقال: «أوَتحبِّين ذلك؟» فقلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحَبُّ من شـاركني في خيرٍ أختي. فقال النبي ﷺ: «إنَّ ذلك لا يحلُّ لي» قلت: فإنَّا نُحَدَّثُ أنَّك تريد أن تنكح بنتَ أبي سـلمة. قال: «بنت أمِّ سـلمة؟» قلت: نعم. فقال: «لو أنَّها لم تكن ربيبتي في حجري، ما حَلَّت لي، إنَّها لابنة أخي من الرَّضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبةُ، فلا تعرضنَ عليَّ بناتكنَّ، ولا أخَواتِكنَّ»[222].

وكان من شـأن أمِّ أيمن، أمِّ أسـامة بن زيد: أنَّها كانت وصـيفةً لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلمَّا ولدت آمنةُ رسولَ الله ﷺ، بعدما تُوفي أبوه، فكانت أمُّ أيمن تحضنه، حتَّى كَبِرَ رسولُ الله ﷺ، فأعتقها، ثمَّ أنْكَحَهَا زيدَ ابن حارثة، ثم تُوفيت بعدما تُوفي رسول الله ﷺ بخمسة أشهرٍ[223].

1. حليمة السَّعديَّة مرضعته في بني سعد[224]:

وهذه حليمة السَّـــعدية تقصُّ علينا خبراً فريداً عن بركات الحبيب المصـــطفى ﷺ ؛ التي لمستها في نفسها، وولدها، ورعيها، وبيتها.

عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما: قال: لـــمَّا وُلد رسولُ الله ﷺ ؛ قدمت حليمة بنت الحارث، في نسوةٍ من بني سعد بن بكر يلتمسن الرُّضعاء بمكَّة. قالت حليمة: فخرجت

---

(220) سمعتُها مشافهةً من الشَّاعر.

(221) وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبوية، ص 48.

(222) أخرجه البخاري (5101) ومسلم (1449).

(223) أخرجه البخاري (2630) ومسلم (1771) .

(224) ينظر الشكل (8) في الصفحة (744).

في أوائل النِّســـوة على أتانٍ لي، قمراء[225]، ومعي زوجي الحارث بن عبد العزّى، أحد بني سعد بن بكر، ثمَّ أحد بني ناضرة، قد أدمت[226] أتاننا، ومعي بالرَّكب شارفٌ[227] والله ما تَبِضُّ[228] بقطرة لبنٍ! في سنةٍ شهباء[229]، قد جاع النَّاس حتَّى خلص إليهم الجَهْد، ومعي ابنٌ لي، والله ما ينام ليلنا! وما أجد في يدي شيئاً أعلِّله به، إلا أنا نرجو الغيث، وكانت لنا غنمٌ، فنحن نرجوها.

فلـمَّا قدمنا مكَّة، فما بقي منَّا أحدٌ إلا عُرض عليها رسولُ الله ﷺ، فكرهته، فقلنا: إنَّه يتيم، وإنَّما يُكرِمِ الظِّئر، ويُحسن إليها الوالد، فقلنا: ما عسى أن تصنع بنا أُمُّه، أو عمُّه، أو جدُّه، فكلُّ صواحبي أخذت رضيعاً، فلمَّا لم أجد غيره؛ رجعت إليه، وأخذته، والله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره! فقلت لصاحبي: والله لآخذنَّ هذا اليتيم من بني عبد المطلب، فعسى الله أن ينفعنا به، ولا أرجع من بين صواحبي ولا آخذ شيئاً، فقال: قد أصبت!.

قالت: فأخذته، فأتيت به الرَّحْلَ، فو الله! ما هو إلا أن أتيتُ به الرَّحْلَ، فأمسيتُ؛ أقبل ثدياي باللَّبن، حتَّى أرويتُه، وأرويت أخاه، قام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها، فإذا هي حافلٌ[230]، فحلبها، فأرواني، وروي، فقال: يا حليمة! تعلمين والله لقد أصبنا نَسَمَةً[231] مباركةً، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمنَّ! قالت: فبتنا بخير ليلةٍ شباعاً، وكنَّا لا ننام ليلنا مع صبيِّنا.

ثمَّ اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحبي، فركبت أتاني القمراء، فحملته معي، فو الذي نفس حليمة بيده؛ لقطعت الرَّكْبَ[232]! حتَّى إنَّ النِّسوة ليقلْنَ: أمسكي علينا! أهذه أتانك الَّتي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنَّها كانت أدمت حين أقبلنا، فما شأنها؟ قالت:

---

[225] قمراء: القُمرة: بالضمِّ لونٌ يميل للخضرة، أو بياضٌ فيه سمرةٌ، أو كدرة.

[226] أدمت: حدثت في ركبها جروحٌ داميةٌ؛ لاصطكاكها، وذلك لطول مسافة السَّير.

[227] الشَّارف: الناقة المسنَّة.

[228] لا تبضُّ بقطرة لبن: لا ترشح قطرة لبن.

[229] شهباء: سنةٌ مجدبةٌ لا خضرة فيها، ولا مطر.

[230] حافل: كثير اللبن.

[231] نسمة: نفس.

[232] قطعت الرَّكْبَ: سبقت الركب.

فقلت: والله! حَمَلْتُ عليها غلاماً مباركاً.

قالت: فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كلِّ يومٍ خيراً، حتَّى قدمنا؛ والبلاد سِنةٌ، ولقد كان رعاتنا يسرحون، ثمَّ يريحون، فتروح أغنام بني سعدٍ جياعاً، وتروح غنمي بطاناً[233]، حُفَّلاً[234]، فنحلب، ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزَّى، وغنم حليمة تروح شباعاً حُفَّلاً، وتروح غنمكم جياعاً. ويلكم! اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعاً، كما كانت، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشبُّ شباباً ما يشبه أحداً من الغلمان، يشبُّ في اليوم شباب السنة، فلمَّا استكمل سنتين؛ أقدمناه مكَّة، أنا وأبوه، فقلنا: والله! لا نفارقه أبداً ونحن نستطيع؛ فلمَّا أتينا أمَّه، قلنا: والله! ما رأينا صبياً قط أعظم بركة منه، وإنَّا نتخوَّف عليه وباء[235] مكَّة، وأسقامها، فدعيه نرجع به حتَّى تبرئي من دائك، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به، فأقمنا أشهراً ثلاثةً، أو أربعةً، فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بَهْمٍ لنا[236]؛ إذ أتى أخوه يشتدُّ (أي: يسرع في سيره)، فقال: إنَّ أخي القرشيَّ، أتاه رجلان عليهما ثيابٌ بيض، فأخذاه، وأضجعاه، فشقَّا بطنه، فخرجت أنا، وأبوه يشتدُّ، فوجدناه قائماً، قد انتقع لونه[237]، فلمَّا رآنا؛ أجهش إلينا، وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه، فضمَمْناه إلينا: ما لك بأبي وأمِّي؟ فقال: أتاني رجلان، وأضجعاني، فشقَّا بطني، ووضعا به شيئاً، ثمَّ ردَّاه كما هو، فقال أبوه: والله! ما أرى ابني إلا وقد أصيب، الحقي بأهله، فردِّيه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوَّف منه، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمِّه، فلمَّا رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: ما أرجعكما به قبل أن أسألكماه، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أنْ قضى الله الرَّضاعة، وسَرَّنا ما نرى، وقلنا: نؤويه كما تحبُّون أحبُّ إلينا.

---

(233) بطاناً: الممتلئة البطون.

(234) حفَّلاً: كثيرات اللَّبن.

(235) الوباء: المرض.

(236) البهم: صغار الضَّأن والماعز.

(237) انتقع لونه: تغير.

قال: فقالت: إنَّ لكما شـــأناً فأخبراني ما هو؟ فلم تدعنا حتَّى أخبرناها، فقالت: كلا والله! لا يصـــنع الله ذلك به، إنَّ لابني شـــأناً، أفلا أخبركما خبره، إنِّي حملت به، فو الله! ما حملت حملاً قطُّ، كان أخفَّ عليَّ منه، ولا أيسر منه، ثُمَّ أُريت حين حملته خرج منّي نورٌ أضاء منه أعناق الإبل بِبُصْرى - أو قالت: قصـور بُصرى - ثمَّ وضعتُه حين وضعته، فو الله! ما وقع كما يقع الصِّبيان، لقد وقع معتمداً بيديه على الأرض، رافعاً رأسـه إلى السَّماء، فدعاه عنكما! فقَبَضَتْهُ، وانطلقنا»[238].

1 - دروسٌ وعبرٌ:

أ - بركة النَّبيِّ ﷺ على السَّيدة حليمة:

فقد ظهرت هذه البركة على حليمة السَّـــعدية في كلِّ شـــيءٍ، ظهرت في إدرار ثدييها، وغزارة حليبها، وقد كان لا يكفي ولدها، وظهرت بركته في ســـكون الطِّفل ولدها، وقد كان كثير البكاء، مزعجاً لأمِّه، يؤرِّقها، ويمنعها من النَّوم، وإذا هو شـبعان سـاكنٌ جعل أمَّه تنام، وتسـتريح. وظهرت بركته في شياههم العجفاوات، الَّتي لا تدرُّ شيئاً، وإذا بها تفيض من اللَّبن الكثير الَّذي لم يُعهد.

ب - كانت هذه البركات من أبرز مظاهر إكرام الله له:

وليس فقط أن أكرم بسببه بيت حليمة السَّعدية التي تشرَّفت بإرضاعه، وليس من ذلك غرابةٌ، ولا عجبٌ[239]، فخَلْفَ ذلك حكمةٌ أن يُحبَّ أهل هذا البيت هذا الطِّفل، ويحنوا عليه، ويحسنوا في معاملته، ورعايته، وحضانته، وهكذا كان، فقد كانوا أحرص عليه، وأرحم به من أولادهم[240].

ج - خيار الله للعبد أبرك وأفضل:

اختار الله لحليمة هذا الطِّفل اليتيم، وأخذته على مضـضٍ؛ لأنَّها لم تجد غيره، فكان الخير كلَّ الخير فيما اختاره الله، وبانت نتائج هذا الاختيار مع بداية أخذه، وهذا درسٌ لكلِّ مسلمٍ

---

[238] أخرجه أبو يعلى (7163) وابن حبان (6335) والمعجم الكبير (212/24 - 215) ومجمع الزوائد (220/8 - 221) ودلائل البيهقي (133/1 - 136).

[239] فقه السِّيرة النَّبويَّة، للبوطي، ص 44.

[240] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 105.

بأن يطمئنَّ قلبه إلى قدر الله، واختياره، والرِّضا به، ولا يندم على ما مضى، وما لم يقدِّره الله تعالى.

د – أثر البادية في صحَّة الأبدان، وصفاء النُّفوس، وذكاء العقول:

قال الشَّيخ محمَّد الغزالي – رحمه الله –: وتنشئة الأولاد في البادية؛ ليمرحوا في كنف الطَّبيعة، ويستمتعوا بجوِّها الطَّلق، وشعاعها المرسل أدنى إلى تزكية الفطرة، وإنماء الأعضاء، والمشاعر، وإطلاق الأفكار، والعواطف.

إنَّها لتعاسةٌ أن يعيش أولادنا في شقق ضيِّقةٍ، من بيوتٍ متلاصقةٍ، كأنَّها علبٌ أغلقت على مَنْ فيها، وحرَمتْهم لذَّة التَّنفُّس العميق، والهواء المنعش.

ولا شكَّ: أنَّ اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة، يعود – فيما يعود – إلى البعد عن الطَّبيعة، والإغراق في التصنُّع. ونحن نقدِّر لأهل مكَّة اتِّجاههم إلى البادية؛ لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم. وكثيرٌ من علماء التَّربية يودُّ لو تكون الطَّبيعة هي المعهد الأوَّل للطِّفل، حتَّى تتَّسق مداركه مع حقائق الكون الَّذي وجد فيه، ويبدو أنَّ هذا حلمٌ عسير التَّحقيق[241].

وتعلَّم رسول الله ﷺ في بادية بني سعدٍ اللِّسان العربيَّ الفصيح، وأصبح فيما بعد من أفصح الخلق، فعندما قال له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! ما رأيت أفصح منك؛ فقال ﷺ: «وما يمنعني وأنا من قريش، وأُرضعت في بني سعد[242]؟!».

2 – ما يستفاد من حادثة شقِّ الصَّدر:

تُعَدُّ حادثة شقِّ الصَّدر الَّتي حصلت له ﷺ أثناء وجوده في مضارب بني سعدٍ، من إرهاصات النُّبوَّة، ودلائل اختيار الله إيَّاه لأمرٍ جليل[243].

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه حادثة شقِّ الصَّدر في صغره، فعن أنس بن مالكٍ: «أنَّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل؛ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشقَّ عن قلبه؛

---

(241) فقه السِّيرة، ص 60، 61.

(242) الرَّوض الأنف في شرح السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام لأبي القاسم السُّهيلي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، طبعة 1387هـ، (1/188).

(243) فقه السِّيرة، للبوطي، ص 47.

فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقَةً، فقال: هذا حظُّ الشَّيطان منك، ثمَّ غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم، ثمَّ لأَمَهُ[244]، ثمَّ أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمِّه – يعني: ظِئْرَهُ – فقالوا: إنَّ محمداً قد قُتل، فاستقبلوه؛ وهو مُنْتَقِعُ اللون. قال أنسٌ رضي الله عنه: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره[245].

ولا شكَّ: أنَّ التَّطهير من حظِّ الشيطان هو إرهاصٌ مبكِّرٌ للنُّبوَّة، وإعدادٌ للعصمة من الشرِّ، وعبادة غير الله، فلا يحلُّ في قلبه إلا التَّوحيد الخالص، وقد دلَّت أحداث صباه على تحقُّق ذلك، فلم يرتكب إثماً، ولم يسجد لصنمٍ برغم انتشار ذلك في قريش[246].

وتحدَّث الدُّكتور البوطي عن الحكمة في ذلك، فقال: يبدو: أنَّ الحكمة في ذلك إعلان أمر الرَّسول ﷺ، وتهيؤه للعصمة، والوحي منذ صغره بوسائل مادِّيَّةٍ؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان النَّاس به، وتصديقهم برسالته. إنَّها – إذاً – عملية تطهيرٍ معنويٍّ، ولكنَّها اتَّخذت هذا الشكل الماديَّ الحسيَّ؛ ليكون في ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع النَّاس، وأبصارهم[247]. إنَّ إخراج العلقة منه تطهيرٌ للرَّسول ﷺ من حالات الصِّبَا اللاهية العابثة المستهترة، واتِّصافه بصفات الجدِّ، والحزم، والاتزان، وغيرها من صفات الرُّجولة الصَّادقة، كما تدلُّنا على عناية الله به، وحفظه له، وأنَّه ليس للشَّيطان عليه سبيل[248].

خامساً: وفاة أمِّه، وكفالة جدِّه، ثمَّ عمِّه:

توفِّيت أمُّ النَّبيِّ ﷺ، وهو ابن ستِّ سنين بالأبواء بين مكَّة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عديِّ بن النَّجار تُريه إيَّاهم، فماتت، وهي راجعةٌ به إلى مكَّة[249]، ودفنت بالأبواء، وبعد وفاة أمِّه كفله جدُّه عبد المطَّلب، فعاش في كفالته، وكان يؤثره على

---

[244] أي: جمعه، وضمَّ بعضه إلى بعضٍ. (شرح النَّوويِّ على مسلمٍ 216/2).

[245] مسلم (162/261) وأحمد (149/3) والبيهقي في الدلائل (5/2).

[246] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، د. أكرم العمري، مكتبة المعارف والحِكَم بالمدينة المنوَّرة، الطَّبعة الأولى 1412هـ، 1992م، (104/1).

[247] فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص 47.

[248] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 106، 107.

[249] السيرة النبوية، ابن هشام، دار الصحابة للتراث، 2007م، (168/1).

أبنائه، أي: أعمام النَّبيِّ ﷺ، فقدكان جدُّه مهيباً، لا يجلس على فراشه أحدٌ من أبنائه مهابةً له، وكان أعمامه يتهيَّبون الجلوس على فراش أبيهم، وكـــان ﷺ يجلس على الفراش، ويحاول أعمامـــه أن يُبعدوه عن فراش أبيهم، فيقف الأب الجدُّ بجانبه، ويرضى أن يبقى جالساً على فراشه متوسِّماً فيه الخير، وأنَّه سيكون له شأنٌ عظيمٌ[250]، وكان جدُّه يحبُّه حباً عظيماً، وكان إذا أرسله في حاجةٍ جاء بها، وذات يوم أرســله في طلب إبلٍ، فاحتبس عليه[251]، فطاف بالبيت، وهو يرتجل، يقول:

رَبِّ ردَّ راكـــبي محمَّـــدا   رُدَّه لي وَاصْـــنَعْ عِنْـــدي يَـــدا

فلـمَّا رجع النَّبيُّ ﷺ، وجـاء بالإبل، قال لـه: يا بني! لقد حزنتُ عليك كالمرأة، حزناً لا يفارقني أبداً[252].

ثُمَّ توفِّي عبـــد المطلب والنَّبيُّ ﷺ في الثَّامنة من عمره[253]، فأوصـى جدُّه به عمَّه أبا طالبٍ، فكفله عمُّه، وحنَّ عليه، ورعاه[254].

أرادت حكمة الله تعالى أن ينشأ رسولُه ﷺ يتيماً، تتولاَّه عنايـــة الله وحدها، بعيداً عن الذِّراع التي تُمعن في تدليله، والمال الذي يزيد في تنعيمه؛ حتَّى لا تميل به نفســه إلى مجد المال، والجاه، وحتَّى لا يتأثَّر بما حوله من معنى الصَّـدارة، والزَّعامة، فيلتبس على النَّاس قداسـة النُّبوَّة بجاه الدُّنيا، وحتَّى لا يحسبوه يصطنع الأوَّل ابتغاء الوصول إلى الثَّاني[255]، وكانت المصائب الَّتي أصـــابت النَّبيَّ ﷺ منذ طفولته؛ كموت أمِّه، ثمَّ جدِّه بعد أن حرم عطف الأب، وذاق كأس الحزن مرَّةً بعد مرَّةٍ، كانت تلك المحن قد جعلته رقيق القلب، مرهف الشـعور، فالأحزان تصهر النُّفوس وتخلِّصها من أدران القسوة، والكِبْر، والغرور، وتجعلها أكثر رقَّةً، وتواضعاً.

---

[250] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 101.

[251] صحيح السِّيرة النَّبويَّة، للعلي، ص 56.

[252] أخرجه البيهقي في الدلائل (2/20 - 21) والحاكم (2/603 - 604).

[253] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 101.

[254] مدخل لفهم السِّيرة، لليحيى، ص 119.

[255] فقه السِّيرة، للبوطي، ص 46.

وليست وفاة والديه في العشرينات من حياتهما ناشئةً عن هُزَالهما، وضعف بُنيتهما، فلم يكن محمَّد ﷺ سليل أبوين سقيمين، وإنَّما توفَّاهما الله بعد أن قاما بالمهمَّة الَّتي وُجدا من أجلها؛ ليتأسَّى بمحمَّد ﷺ كلُّ مَنْ فقد والديه، أو أحدَهما وهو صغير، وليكون أدبه، وخلقه مع يُتمه دليلاً على أنَّ الله تعالى تولَّى رعايته، وتأديبه؛ وحتَّى ينشأ قويَّ الإرادة، ماضي العزيمة، غير معتمدٍ على أحدٍ في شؤونه، وحتَّى لا يكون لأبويه أيُّ أثرٍ في دعوته[256]؛ وحتَّى لا تتدخَّل يدٌ بشريةٌ في تربيته، وتوجيهه، فيكون الله - سبحانه وتعالى - هو الَّذي يتولَّى تربيته، ولا يتلقَّى، أو يتلقَّن من مفاهيم الجاهلية، وأعرافها شيئاً، إنَّما يتلقَّى من لدن الحكيم الخبير، فالله - سبحانه وتعالى - آواه، وسخَّر له جدَّه، وعمَّه لتهيئة الجانب المادِّيِّ، بينما كانت التَّربية النَّفسية، والخُلقيَّة، والفكريَّة تعهُّداً ربَّانياً، ورعايةً إلهيَّةً[257].

سادساً: عمل النبي المصطفى ﷺ في الرَّعي:

كان أبو طالب مُقِلاً في الرِّزق؛ فعمل النَّبيُّ ﷺ برعي الغنم مساعدةً منه لعمه، فلقد أخبر ﷺ عن نفسه الكريمة، وعن إخوانه من الأنبياء: أنَّهم رعوا الغنم، أمَّا هو فقد رعاها لأهل مكَّة؛ وهو غلامٌ ، وأخذ حقَّه عن رعيه، ففي الحديث الصَّحيح قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا رَعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم! كنت أرعاها على قراريط لأهل مكَّة»[258].

إنَّ رعي الغنم كان يتيح للنَّبيِّ ﷺ الهدوء الذي تتطلَّبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصَّحراء، ويتيح له التَّطلُّع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل، وظلال القمر، ونسمات الأسحار، يتيح له لوناً من التَّربية النَّفسيَّة: من الصَّبر، والحلم، والأناة، والرَّأفة، والرَّحمة[259].

وتذكِّرنا رعايته للغنم بأحاديثه ﷺ ؛ الَّتي توجِّه المسلمين للإحسان للحيوانات[260]،

---

[256] رسائل الأنبياء، عمر أحمد عمر، دار الحكمة للطباعة والنشر، ط1، 2007م، (20/3).
[257] فقه السِّيرة النَّبويَّة، للغضبان، ص 84، 85.
[258] القيراط: جزءٌ من الدِّينار، أو الدِّرهم.
[259] محمَّد رسول الله، لمحمَّد الصَّادق عرجون، دار القلم، الطَّبعة الثانية، 1415 هـ 1995 م، (177/1).
[260] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري (106/1).

فكان رعي الغنم للنَّبيِّ ﷺ دربةً، ومراناً له على سياسة الأمم.

ورعي الغنم يتيح لصاحبه عدَّة خصالٍ تربويَّةٍ منها:

1 - **الصَّـبر**: على الرَّعي من طلوع الشمس إلى غروبها، نظراً لبطء الغنم في الأكل: فيحتاج راعيها إلى الصَّبر، والتَّحمُّل، وكذا تربية البشر[261].

إنَّ الرَّاعي لا يعيش في قصرٍ منيفٍ، ولا في ترفٍ، وسرفٍ، وإنَّما يعيش في جوٍّ حارٍّ شديد الحرارة، وبخاصَّةٍ في الجزيرة العربيَّة، ويحتاج إلى الماء الغزير؛ ليُذهب ظمأه، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطَّعام، وشظف العيش، فينبغي أن يحمل نفسه على تحمُّل هذه الظُّروف القاسية، ويألفها، ويصبر عليها[262].

2 - **التَّواضع**: إذ إنَّ طبيعة عمل الرَّاعي خدمةُ الغنم، والإشرافُ على ولادتها، والقيام بحراستها، والنَّوم بالقرب منها، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها، أو شيءٌ من روثها، فلا يتضجَّر من هذا، ومع المداومة والاستمرار يَبْعد عن نفسه الكبر والكبرياء، ويرتكز في نفسه خلق التَّواضع[263].

وقد ورد في صحيح مسلمٍ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْرٍ». قال رجلٌ: إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً. قال: «إنَّ الله جميلٌ يحب الجمال، الكبر: بطرُ الحقِّ، وغَمْطُ النَّاس»[264].

3 - **الشَّجاعة**: فطبيعة عمل الرَّاعي الاصطدام بالوحوش المفترسة، فلابدَّ أن يكون على جانبٍ كبيرٍ من الشَّجاعة، تؤهِّله للقضاء على الوحوش، ومنعها من افتراس أغنامه[265].

4 - **الرَّحمة، والعطف**: إنَّ الرَّاعي يقوم بمقتضى عمله بمساعدة الغنم؛ إن هي مرضت، أم كُسرت، أو أصيبت، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها، وعلاجها والتَّخفيف

---

[261] مدخل لفهم السِّيرة، لليحيى، ص 124.

[262] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 114، 115.

[263] السِّيرة النَّبويَّة، المصدر السابق، ص 115.

[264] أخرجه مسلم (91) والترمذي (1999) والحاكم (26/1).

[265] السِّيرة النَّبويَّة، المصدر السابق، ص 116.

من آلامها، فمن يرحم الحيوان يكون أشدَّ رحمةً بالإنسان، وبخاصَّةٍ إذا كان رسولاً أرسله الله تبارك وتعالى لتعليم الإنسان، وإرشاده، وإنقاذه من النَّار، وإسعاده في الدَّارين[266].

5 - حبُّ الكسب من عرق الجبين:

إنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يغنيَ محمداً ﷺ عن رعي الغنم، ولكن هذه تربيةٌ له، ولأمَّته للأكل من كسب اليد، وعرق الجبين، ورعي الغنم نوعٌ من أنواع الكسب باليد، إنَّ صاحب الدَّعوة يجب أن يستغني عمَّا في أيدي الناس، ولا يعتمد عليهم، فبذلك تبقى قيمته، وترتفع منزلته، ويبتعد عن الشُّبه، والتَّشكيك فيه، ويتجرَّد عمله لله تعالى، ويردُّ شبهة الكفرة الظَّلمة، الَّذين يصوِّرون للنَّاس: أنَّ الأنبياء أرادوا الدُّنيا بدعوتهم [267] ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ **[يونس: 78]** .

هكذا يقول فرعون لموسى، ونظراً لسيطرة حبِّ الدُّنيا وحطامها على عقولهم يظنُّون: أنَّ أيَّ تفكيرٍ، وأيَّ حركةٍ مرادٌ بها الدُّنيا، ولهذا قال الأنبياء - عليهم السَّلام - لأقوامهم، مبينين استغناءهم عنهم: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ **[هود: 29]** .

روى البخاريُّ عن المقدام رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[268].

ولا شكَّ: أنَّ الاعتماد على الكسب الحلال يكسب الإنسان الحرِّيَّة التَّامَّة، والقدرة على قول كلمة الحقِّ، والصَّدْع بها[269]، وكم من الناس يطأطئون رؤوسهم للطُّغاة، ويسكتون على باطلهم، ويجارونهم في أهوائهم خوفاً على وظائفهم عندهم![270].

إنَّ صاحب أيِّ دعوةٍ لن تقوم لدعوته أيُّ قيمةٍ في النَّاس، إذا ما كان كسبه، ورزقه من

---

[266] مدخل لفهم السِّيرة، ص 127.

[267] مدخل لفهم السِّيرة، ص (137).

[268] أخرجه البخاري (2072).

[269] مدخل لفهم السِّيرة، المرجع السابق، ص (128).

[270] فقه السِّيرة، للغضبان، ص (93).

وراء دعوته، أو على أساسٍ مِنْ عطايا النَّاس، وصدقاتهم، ولذا كان صاحب الدَّعوة الإسلاميَّة أحرى النَّاس كلِّهم بأن يعتمد في معيشته على جهده الشَّخصيّ، أو موردٍ شريفٍ لا استجداء فيه؛ حتَّى لا تكون عليه لأحدٍ من النَّاس مِنَّةٌ، أو فضلٌ في دنياه، فيعوقه ذلك من أن يصدع بكلمة الحقِّ في وجهه، غير مبالٍ بالموقع الَّذي قد تقع من نفسه.

وهذا المعنى وإنْ لم يكن قد خطر في بال الرَّسول ﷺ في هذه الفترة؛ إذ إنَّه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأنٍ في الدَّعوة، والرِّسالة الإلهيَّة، غير أنَّ هذا المنهج الَّذي هيَّأه الله له ينطوي على هذه الحكمة، ويوضح: أنَّ الله تعالى قد أراد ألا يكون في شيءٍ من حياة الرَّسول ﷺ قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته، أو يؤثِّر عليها أيَّ تأثيرٍ سلبيّ، فيما بعد البعثة[271].

إنَّ إقبال النَّبيِّ ﷺ على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرِّزق يشير إلى دلائل مهمَّةٍ في شخصيَّته المباركة؛ منها: الذوق الرَّفيع، والإحساس الدَّقيق اللَّذان جمَّل الله تعالى بهما نبيَّه ﷺ . لقد كان عمُّه يحوطه بالعناية التَّامَّة، وكان له في الحنوِّ، والشَّفقة كالأب الشَّفوق، ولكنَّه ﷺ ما إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتَّى أقبل يكتسب، ويُتعب نفسه لمساعدة عمِّه في مؤونة الإنفاق، وهذا يدلُّ على شهامةٍ في الطَّبع، وبرٍّ في المعاملة، وبذلٍ للوسع[272].

والدَّلالة الثانية تتعلَّق ببيان نوع الحياة الَّتي يرتضيها الله تعالى لعباده الصَّالحين في دار الدُّنيا، لقد كان سهلاً على الله تعالى أن يهيئ للنَّبيِّ ﷺ – وهو في صدر حياته – من أسباب الرَّفاهية، ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح، ورعاية الأغنام سعياً وراء الرِّزق، ولكنَّ الحكمة الربَّانيَّة تقتضي منَّا أن نعلم: أنَّ خير مال الإنسان ما اكتسبه بكدِّ يمينه، ولقاء ما يقدِّمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه، وشرُّ المال ما أصابه الإنسان وهو مستلقٍ على ظهره دون أن يرى أيَّ تعبٍ في سبيله، ودون أن يبذل أيَّ فائدةٍ للمجتمع في مقابله[273].

---

(271) فقه السِّيرة، للبوطي، ص 50.

(272) فقه السِّيرة، المصدر السَّابق، ص 50.

(273) فقه السِّيرة، المصدر السَّابق، ص 51.

سابعاً: حفظ الله تعالى لنبيِّه ﷺ قبل البعثة:

إنَّ الله تعالى صان نبيَّه ﷺ عن شرك الجاهليَّة، وعبادة الأصنام. روى الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: حدَّثني جارٌ لخديجة: أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ، وهو يقول لخديجة: «أي خديجة! والله لا أعبد اللاَّت، والعزَّى أبداً»(274). قال: وهي أصنامهم الَّتي كانوا يعبدون، ثمَّ يضطجعون(275). وكان لا يأكل ما ذبح على النُّصب، و وافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل(276).

وقد حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشَّباب، ودواعيه البريئة، الَّتي تنزع إليها الشُّبوبيَّة بطبعها، ولكنَّها لا تلائم وقار الهداة، وجلال المرشدين(277). فعن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بقبيح ممَّا كان أهل الجاهليَّة يهمُّون به، إلا مرَّتين من الدَّهر، كلتيهما يعصمني الله منهما، قلت ليلةً لفتىً كان معي من قريش بأعلى مكَّة في أغنام لأهله يرعاها: أبصر إليَّ غنمي حتَّى أسمُر هذه اللَّيلة بمكَّة، كما يسهر الفتيان. قال: نعم. فخرجت، فجئت أدنى دار من دور مكَّة، سمعت غناءً، وضرب دفوفٍ، ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوَّج فلانة – لرجلٍ من قريشٍ تزوَّج امرأة من قريشٍ – فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصَّوت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا حرُّ الشَّمس، فرجعت؛ فقال: ما فعلت؟ فأخبرتُه، ثمَّ قلت له ليلةً أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت؛ فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مسُّ الشَّمس، ثمَّ رجعت إلى صاحبي، فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئاً.

قال رسول الله ﷺ: «فوالله ما هممت بعدها بسوءٍ ممَّا يعمل أهل الجاهليَّة، حتَّى أكرمني

(274) أخرجه أحمد (222/4) و(362/5).
(275) وقفات تربويَّة، لأحمد فريد، ص 51.
(276) وقفات تربويَّة، المصدر السابق، ص 52.
(277) محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصادق عرجون، (51/1).

الله بنبوَّته»[278].

وهذا الحديثُ يوضِّح لنا حقيقتين كلاً منهما على جانبٍ كبيرٍ من الأهميَّة:

1 - إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان متمتعاً بخصائص البشريَّة كلِّها، وكان يجد في نفسه ما يجده كلُّ شابٍّ من مختلف الميول الفطرية، الَّتي اقتضت حكمة الله أن يجبل النَّاس عليها، فكان يُحِسُّ بمعنى السَّمر واللَّهو، ويشعر بما في ذلك من متعةٍ، وتحدِّثه نفسه: لو تمتَّع بشيءٍ من ذلك، كما يتمتَّع الآخرون.

2 - إنَّ الله - عزَّ وجلَّ - قد عصمه مع ذلك من جميع مظاهر الانحراف، ومن كلِّ ما لا يتَّفق مع مقتضيات الدَّعوة الَّتي هيَّأه الله لها[279].

ثامناً: لقاء الرَّاهب بَحِيْرا بالرَّسول ﷺ وهو غلامٌ:

خرج أبو طالبٍ إلى الشَّام، وخرج معه النَّبيُّ ﷺ في أشياخٍ من قريشٍ، فلمَّا أشرفوا[280] على الرَّاهب[281]، هبطوا، فحَلُّوا رحالهم[282]، فخرج إليهم الرَّاهب، وكانوا قبل ذلك يسيرون، فلا يخرج إليهم، ولا يلتفت.

فبينما هم يحلُّون رحالهم؛ جعل الرَّاهب يتخلَّلهم[283]، حتَّى جاء، فأخذ بيد رسول الله ﷺ، فقال: هذا سيِّد العالمين، هذا رسول ربِّ العالمين، يبعثه الله رحمةً للعالمين. فقال له أشياخٌ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنَّكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبق شجرٌ، ولا حجرٌ إلا خرَّ[284] ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبيٍّ، وإنِّي أعرفه بخاتم النُّبوَّة أسفل من غضروف[285] كتفه مثل التُّفاحة.

---

[278] أخرجه أبو نعيم في الدلائل (128) والبيهقي في السنن الكبرى (33/2 - 34) والبزار (2403) ومجمع الزوائد (226/8).

[279] فقه السِّيرة النَّبويَّة، للبوطي، ص 50، 51.

[280] أشرفوا: اطلعوا من فوق.

[281] الرَّاهب: زاهد النَّصارى.

[282] حَلُّوا رحالهم: أي: أنزلوها، وفتحوها.

[283] يتخلَّلهم: يمشي بينهم.

[284] خرَّ: سقط.

[285] الغضروف: رأس لوح الكتف.

ثمَّ رجع، فصنع لهم طعاماً، فلمَّا أتاهم به، وكان رسول الله ﷺ في رعية الإبل[286]، قال: أرسلوا إليه، فأقبل، وعليه غمامةٌ[287] تظلُّه، فلـمَّا دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشَّجرة، فلمَّا جلس مال فيْءُ الشَّجرة[288] عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشَّجرة مال عليه.

قال: فبينما هو قائمٌ عليهم، وهو يناشـدهم[289] ألا يذهبوا به إلى الرُّوم؛ فإن الرُّوم إذا عرفوه بالصِّفة سيقتلونه، فالتفت فإذا سبعةٌ قد أقبلوا من الرُّوم، فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءنا أنَّ هذا النَّبيَّ خارجٌ في هذا الشَّهر، فلم يبقَ طريقٌ إلا بُعث إليه بأناسٍ، وإنا قد أخبرنا خبره، بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحدٌ هو خيرٌ منكم؟

قالوا: إنَّما اخترنا خيره لك لطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحدٌ من النَّاس ردَّه؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه، وأقاموا معه.

قال: أنشدكم الله أيُّكم وليُّه[290]؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتَّى ردَّه أبو طالب[291].

وممَّا يستفاد من قصَّة بحيرا عدَّة أمورٍ؛ منها:

1 - أنَّ الصَّادقين من رهبان أهل الكتاب، يعلمون: أنَّ محمَّداً ﷺ هو الرَّسول للبشريَّة، وعرفوا ذلك لِمَا وجدوه من أماراتٍ وأوصافٍ عنه في كتبهم.

2 - إثبات سجود الشَّجر والحجر للنَّبيِّ ﷺ، وتظليل الغمام له، وميل فيء الشَّجرة عليه.

3 - أنَّ النَّبيَّ ﷺ استفاد من سفره، وتجواله مع عمِّه، وبخاصَّةٍ من أشياخ قريش؛ حيث اطَّلع على تجارِب الآخرين، وخبرتهم، واستفاد من آرائهم، فهم أصحاب خبرةٍ، ودرايةٍ، وتجربةٍ لم يمرَّ بها النَّبيُّ ﷺ في سِنِّه تلك.

4 - حذَّر بَحِيرا من النَّصارى، وبيَّن أنَّهم إذا علموا بالنَّبيِّ ﷺ، فإنَّهم سيقتلونه، وناشد

---

[286] رعية الإبل: رعايتها.

[287] غمامة: السَّحابة.

[288] مال فيء الشَّجرة عليه: مال ظلُّها.

[289] يناشدهم: يقسم عليهم.

[290] أيكم وليُّه: قريبه.

[291] أخرجه البيهقي في الدلائل (24/2 - 25) والترمذي (3620) والحاكم (615/2) وأبو نعيم في دلائله (109).

عمَّه، وأشـياخ مكَّة ألا يذهبوا به إلى الرُّوم؛ فإنَّ الروم إذا عرفوه بالصِّـفة سـيقتلونه. لقد كان الرُّومان على علمٍ بأنَّ مجيء هذا الرَّسول سيقضي على نفوذهم الاستعماريِّ في المنطقة، ومن ثَمَّ فهو العدوُّ الَّذي سيقضي على مصالح دولة روما، ويعيد هذه المصالح إلى أربابها، وهذا ما يخشاه الرُّومان.

تاسعاً: حرب الفِجَارِ:

اندلعت هذه الحرب بين قريش ومَنْ معهم من كنانة، وبين هوازن، وسـببها: أن عُروَةَ الرَّحَّال بن عُتْبَةَ بن هوازن أجار لطيمةً [292] للنُّعمان بن المنذر إلى سـوق عكاظ، فقال البرّاض بن قيس بن كنانة: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم، وعلى الخلق كلِّه. فخرج بها عروة، وخرج البرّاض يطلب غفلته حتَّى قتله، وعلمت بذلك كنانة فارتحلوا؛ وهوازن لا تشعر بهم، ثمَّ بلغهم الخبر، فاتَّبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتَّى جاء الليل، ودخلوا الحرم، فأمسـكت عنهم هوازن، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً، وعاونت قريش كنانة[293]، وشـهد الرَّسـول ﷺ بعض أيَّامهم، أخرجه أعمامه معهم. وسُمِّيت يوم الفِجَارِ بسـبب ما اسـتُحلَّ فيه من حرمات مكَّة؛ التي كانت مقدَّسةً عند العرب[294].

وقد قال ﷺ عن تلك الحرب: «كنت أُنبِّل على أعمامي»، أي أردُّ عليهم نبل عدوِّهم إذا رموهم بها[295].

وكان النبي ﷺ حينئذٍ ابن أربع عشرة، أو خمس عشرة سنة، وقيل: ابن عشرين، ويُرَجِّحُ الأوَّل: أنَّه كان يجمع النِّبال، ويناولها لأعمامه؛ ممَّا يدلُّ على حداثة سِنِّهِ.

وبذلك اكتسب الجرأة، والشَّجاعة، والإقدام، وتمرَّن على القتال منذ ريعان شبابه، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب التي تبدؤها، حتَّى ألَّـف الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضَّلالات بانتشار نور الإسلام بينهم[296].

---

[292] اللَّطيمة: الجمال التي تحمل الطِّيب والثِّياب والتِّجارة، وما أشبه ذلك.

[293] قريش فرع من كنانة.

[294] وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة، ص 53.

[295] ابن هشام (198/1) والسيرة الحلبية (127/1 - 129).

[296] وقفات تربويَّة، ص 53.

عاشراً: تهيئة النَّاس لاستقبال نبوّة محمَّدٍ ﷺ:

شاءت حكمة الله تعالى، أن يُعدَّ الناس لاستقبال نبوَّة محمَّد ﷺ بأمورٍ؛ منها:

1 – بشارات الأنبياء بمحمَّد ﷺ:

دعا إبراهيم (عليه السلام) ربَّه أن يَبعث في العرب رسولاً منهم، فأرسل محمَّداً إجابةً لدعوته. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129].

وذكر القرآن الكريم: أنَّ الله تعالى أنزل البشارة بمبعث محمَّد ﷺ، في الكتب السَّماوية المنزلة على الأنبياء السَّابقين، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157].

وبشَّر به عيسى (عليه السلام)، وأخبرنا الله تعالى عن بشارة عيسى، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: 6].

وأعلمَ اللهُ تعالى جميع الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) ببعثته، وأمرهم بتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان به، واتّباعه؛ إن هم أدركوه(297)، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81].

---

(297) دراسة تحليلية لشخصية الرَّسول ﷺ، ص 101، 102.

وقد وقع التَّحريف في نسخ التَّوراة، والإنجيل، وحُذِف منهما التَّصريح باسم محمَّد ﷺ، إلا توراة (السَّامرة)، وإنجيل (برنابا) الذي كان موجوداً قبل الإسلام وحرَّمت الكنيسة تداوله في آخر القرن الخامس الميلادي، وقد أيَّدته المخطوطات التي عثر عليها في منطقة البحر الميت حديثاً، فقد جاء في إنجيل (برنابا) العبارات المصرِّحة باسم النَّبيِّ محمَّد ﷺ، مثل ما جاء في الإصحاح الحادي والأربعين منه، ونصُّ العبارة: «29 - فاحتجب الله، وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس. 30 - فلما التفت آدم رأى مكتوباً فوق الباب: لا إله إلا الله محمَّدٌ رسول الله»[298].

قال ابن تيميَّة: «والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمَّدٍ ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترةٌ عنهم» ثمَّ قال: «ثمَّ العلم بأنَّ الأنبياء قبله بَشَّروا به يُعلم من وجوه:

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتب، ممَّن أسلم، وممَّن لم يسلم، بما وجدوه من ذكره بها؛ وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار: أنَّ جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه، وأنَّه رسولُ الله، وأنَّه موجودٌ عندهم، وكانوا ينتظرونه، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لمَّا دعاهم إلى الإسلام، حتَّى آمن الأنصار به، وبايعوه»[299].

فمن حديث سلمة بن سلامة بن وقش (رضي الله عنه)، وكان من أصحاب بدرٍ، قال: «كان لنا جارٌ من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث النَّبيِّ ﷺ بيسيرٍ، فوقف على مجلس عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذٍ أَحْدَثُ مَنْ فيه سناً، عليَّ بردةٌ مضطجعاً فيها بفناء أهلي، فذكر البعث، والقيامة، والحساب، والميزان، والجنَّة، والنَّار، فقال ذلك لقومٍ؛ وكانوا أهل شركٍ، وأصحاب أوثان، لا يرون: أنَّ بعثاً كائنٌ بعد الموت. فقالوا له: ويحك يا فلان! ترى هذا كائناً: أنَّ النَّاس يُبعثون بعد موتهم إلى دارٍ فيها

---

[298] السِّيرة النبوية الصَّحيحة، للعمري (118/1).

[299] الجواب الصَّحيح، ابن تيميَّة، دار العاصمة، 2006م، (340/1).

جنَّةٌ، ونارٌ، ويُجزون فيها بأعمالهم؟! قال: نعم، والذي يُحلف به! ولودَّ: أنَّ له بحظِّه من تلك النَّار أعظم تنُّورٍ[300] في الدُّنيا يحمونه، ثمَّ يدخلونه إيَّاه، فيطبق به عليه[301] وأن ينجو من تلك النَّار غداً.

قالوا له: ويحك! وما آية ذلك؟ قال: نبيٌّ يبعث من نحو هذه البلاد، وأشـــار بيده نحو مكَّة، واليمن.

قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليَّ – وأنا من أحدثهم سناً – فقال: إن يستنفد هذا الغلام عُمرَه؛ يدركه.

قال سلمة: «فو الله! ما ذهب الليل والنَّهار، حتَّى بعث الله تعالى رسوله ﷺ، وهو حيٌّ بين أظهرنا، فآمنَّا به، وكفر به بغياً وحسداً؛ فقلنا: ويلك يا فلان! ألست بالَّذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى، وليس به»[302].

وقد قال ابن تيميَّة – رحمه الله! –: «قد رأيت أنا من نُسَـخِ الزَّبور ما فيه تصـريحٌ بنبوَّة محمَّدٍ ﷺ باسمه، ورأيت نسخةً أخرى بالزَّبور فلم أرَ ذلك فيها، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكون في بعض النُّسخ من صفات النَّبيِّ ﷺ ما ليس في أخرى»[303].

وقد ذكر عبد الله بن عمرٍو (رضـي الله عنهما) صـفة رسـول الله ﷺ في التَّوراة، فقال: «والله! إنه لموصـوف في التَّوراة بصـفته في القرآن: يا أيها النَّبيُّ إنَّا أرسـلناك شـاهداً ومبشـراً ونذيراً، وحِرزاً للأميّين[304]، أنت عبدي، ورسولي، سمَّيتك المتوكِّل، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سـخَّابٍ في الأسواق[305]، ولا يدفع بالسَّيِّئة السَّيِّئة، ولكن يعفو، ويصفح، ولن يقبضـه الله

---

(300) التنُّور: الفرن.

(301) يطبق عليه: يغلق عليه.

(302) أخرجه أحمد (467/3) والبيهقي في الدلائل (78/2 – 79) وابن هشام (225/1 – 226).

(303) الجواب الصَّحيح، (340/1).

(304) حرزاً للأميّين: حفاظاً لهم.

(305) السَّخب: رفع الصَّوت بالخصام.

حتَّى يقيم به الملَّة العوجاء[306]؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً»[307].

ومن حديث كعب الأحبار، قال: «إنِّي أجد في التَّوراة مكتوباً: محمَّدٌ رسول الله، لا فظٌّ، ولا غليظٌ، ولا سَخَّابٌ في الأسواق، ولا يجزي السَّيئة بالسَّيئة، ولكن يعفو، ويصفح، أمَّته الحمَّادون، يحمدون الله في كلِّ منزلةٍ، ويكبِّرونه على كل نجدٍ، يأتزرون إلى أنصافهم، ويوضِّئون أطرافهم، صَفُّهم في الصَّلاة وصَفُّهم في القتال سواءٌ، مناديهم ينادي في جوِّ السَّماء، لهم في جوف اللَّيل دويٌّ كدويِّ النَّحل، مولده بمكَّة، ومهجره بطابة، وملكه بالشَّام»[308].

2 – بشارات علماء أهل الكتاب بنبوَّته ﷺ:

أخبر سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه في قصَّة إسلامه المشهورة، عن راهب عَمُّورية حين حضرته المنيَّة، قال لسلمان: «إنَّه قد أظلَّ زمان نبيٍّ مبعوثٍ بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مُهاجَره إلى أرضٍ بين حَرَّتين، بينهما نخلٌ، به علاماتٌ لا تخفى، يأكل الهديَّة، ولا يأكل الصَّدقة، بين كتفيه خَاتم النُّبوَّة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد؛ فافعل».

ثمَّ قصَّ سلمان خبر قدومه إلى المدينة، واسترقاقه، ولقائه برسول الله ﷺ حين الهجرة، وإهدائه له طعاماً على أنَّه صدقة، فلم يأكل منه الرَّسول ﷺ، ثمَّ إهدائه له طعاماً على أنَّه هدية، وأكله منه، ثمَّ رؤيته خاتم النُّبوَّة بين كتفيه، وإسلامه على إثر ذلك»[309].

ومن ذلك إخبار أحبار اليهود ورجالاتها بقرب مبعثه – عليه الصَّلاة والسَّلام – ومن ذلك قصَّة أبي التَّيِّهان، الَّذي خرج من بلاد الشَّام، ونزل في بني قريظة، ثمَّ توفي قبل البعثة النَّبويَّة بسنتين، فإنَّه لما حضرته الوفاة؛ قال لبني قريظة: يا معشر يهود! ما ترونه أخرجني من

---

[306] الملَّة العوجاء: ملَّة إبراهيم التي غيَّرتها العرب عن استقامتها.

[307] البخاري (2125 و4838) وأحمد (174/2) والبيهقي في الدلائل (/374 – 375).

[308] أخرجه البيهقي في الدلائل (376/1 – 377).

[309] أخرجه أحمد (441/5 – 444) والحاكم (599/3 – 602) والبيهقي في الدلائل (83/2 – 97) وأبو نعيم في دلائله (199) وابن هشام (228/1 – 234).

أرض الخَمر، والخمير - الشَّـــام - إلى أرض البؤس والجوع - يعني: الحجاز -؟ قالوا: أنت أعلم. قال: إنِّي قدمت هذه البلدة أتوكَّفُ - أنتظر - خروج نبيٍّ قد أظلَّ زمانه، وكنت أرجو أن يبعث، فأتَّبعه.

وقد شـــاع حديث ذلك، وانتشـــر بين اليهود، وغيرهم، حتَّى بلغ درجة القطع عندهم، وبناءً عليه كان اليهود يقولون لأهل المدينة المنوَّرة: إنَّه قد تقارب زمان نبيٍّ يُبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم[310]، وكان ذلك الحديث سبباً في إسلام رجالٍ من الأنصار، وقد قالوا: «إنَّ ممَّا دعانا إلى الإسلام، مع رحمة الله تعالى، وهداه؛ لما كنَّا نسمع من رجال اليهود، وكُنَّا أهلَ شـركٍ، أصـحاب أوثان، وكانوا أهل كتابٍ، عندهم علمٌ ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شـــرورٌ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون؛ قالوا لنا: إنَّه تقارب زمان نبيٍّ يبعث الان، نقتلكم معه قتل عادٍ، وإرم»[311].

وقد قال هرقل ملك الرُّوم عندما تسـلَّم رسـالة النَّبيِّ ﷺ: «وقد كنت أعلم: أنَّه خارجٌ، ولم أكن أظنُّ: أنَّه منكم»[312].

3 - الحالة العامَّة الَّتي وصل إليها النَّاس:

لخَّص الأستاذ النَّدوي الحال الَّتي كان عليها العرب وغيرهم وقتذاك بقوله: كانت الأوضاع الفاسدة، والدَّرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السَّادس المسيحيِّ أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون، ومعلِّمون من أفراد النَّاس، فلم تكن القضيَّة قضية إصلاح عقيدةٍ من العقائد، أو إزالة عادةٍ من العادات، أو قبول عبادةٍ من العبادات، أو إصـلاح مجتمع من المجتمعات، فقد كان يكفي له المصلحون، والمعلمون الذين لم يَخْلُ منهم عصرٌ، ولا مصرٌ.

ولكنَّ القضـيَّة كانت قضـية إزالة أنقاض الجاهليَّة، ووثنيَّةٍ تخريبيَّةٍ، تراكمت عبر القرون،

---

(310) دراسة تحليليَّة، د. محمَّد قلعجي، ص 107.

(311) ابن هشامٍ، بإسنادٍ حسن، (231/1).

(312) أخرجه البخاري (7) ومسلم (1773).

والأجيال، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء، والمرسلين، وجهود المصلحين، والمعلمين، وإقامة بناءٍ شامخٍ مشيد البنيان، واسع الأرجاء، يسع العالم كلّه، ويؤوي الأمم كلّها، قضية إنشاء إنسانٍ جديدٍ، يختلف عن الإنسان القديم في كلِّ شيءٍ، كأنَّه ولد من جديد أو عاش من جديد. قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122].

قضية اقتلاع جرثومة الفساد، واستئصال شأفة الوثنيَّة، واجتثاثها من جذورها؛ بحيث لا يبقى لها عينٌ، ولا أثرٌ، وترسيخ عقيدة التَّوحيد في أعماق النَّفس الإنسانيَّة ترسيخاً لا يتصوَّر فوقه، وغرس ميلٍ إلى إرضاء الله، وعبادته، وخدمة الإنسانيَّة، والانتصار للحقِّ يتغلَّب على كلِّ رغبةٍ، ويقهر كلَّ شهوةٍ، ويجرف كلَّ مقاومة وبالجملة الأخذ بِحُجَزِ الإنسانيَّة المنتحرة؛ الَّتي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدُّنيا والآخرة، والسُّلوك بها على طريقٍ أوَّلها سعادةٌ يحظى بها العارفون المؤمنون، وآخرها جنَّة الخلد؛ الَّتي وُعِد المتَّقون، ولا تصوير أبلغ، وأصدق من قوله تعالى في معرض المنّ ببعثة محمَّد ﷺ[313]: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103].

4 – إرهاصات نبوّته ﷺ:

ومن إرهاصات نبوّته ﷺ، تسليم الحجر عليه قبل النُّبوَّة، فعن جابر بن سَمُرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّي لأعرف حجراً بمكَّة كان يسلِّم عليَّ قبل أن أبعث، إنّي لأعرفه الآن»[314]. ومنها: الرُّؤيا الصَّادقة، وهي أول ما بدئ له من الوحي، فكان لا يرى رؤيا إلا

[313] الأساس في السُّنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة، سعيد حوَّى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1995م، (180/1، 181).

[314] أخرجه أحمد (89/5) ومسلم (2277) والترمذي (3624).

جاءت مثل فلق الصُّبح[315] وحُبِّب إليه ﷺ العزلة، والتَّحنُّث «التعبد»، فكان يخلو في غار حراء – وهو جبلٌ يقع في الجانب الشَّماليِّ الغربيِّ من مكَّة – ويتعبَّد فيه الليالي ذوات العدد، فتارةً عشرة، وتارةً أكثر من ذلك إلى شهر، ثمَّ يعود إلى بيته، فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزوَّد من جديدٍ لخلوةٍ أخرى، ويعود إلى غار حراء، وهكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك[316].

[315] أخرجه البخاري (3) ومسلم (160).

[316] فقه السِّيرة النَّبويَّة، للبوطي، ص 60.

الفصل الثالث: قبل بزوغ النور: تجليات القيم الإنسانية والحضارية في السيرة النبوية قبل البعثة النبوية

تجسدت القيم الإنسانية والحضارية في حياة نبيّنا محمد ﷺ قبل البعثة بوضوح وجلاء، مما جعل سيرته مثالاً يحتذى به في الأخلاق والفضائل. كانت هذه الفترة من حياته مليئة بالمواقف التي أظهرت نبل أخلاقه وسمو قيمه. فقد عُرف بالأمانة والصدق حتى لقب بـ "الصادق الأمين"، وكان يعامل الناس بالعدل والإنصاف، ويشاركهم في حل مشكلاتهم ويسعى لنشر السلم والوئام بينهم.

وتبرز تجليات هذه القيم في تلك الحقبة، في مشاركته في حلف الفضول، حيث اتفق مع عدد من شرفاء مكة على نصرة المظلوم وإعادة الحقوق إلى أهلها، بغض النظر عن دينهم أو عرقهم، مما يعكس فهمه العميق لقيمة العدل. كما كان له دور بارز في حل النزاعات، مثل نزاع إعادة بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود، حيث توصل إلى حل يُرضي جميع الأطراف بحكمته التي أكرمه الله تعالى بها.

هذه المواقف تُظهر أن حياة نبينا محمد ﷺ، كان نموذجًا للقيم الإنسانية والحضارية حتى قبل بعثته، مما جعل دعوته لاحقًا تلقى قبولًا واسعًا بين الناس، الذين عرفوه بالأخلاق الحميدة والسلوك الحسن.

أولاً: أخلاق النبي ﷺ قبل البعثة (الصادق الأمين):

تعد الأخلاق أحد الأسس الرئيسة التي تقوم عليها المجتمعات الإنسانية والحضارات؛ إنها تتعلق بالمبادئ والقيم التي تحدد ما هو الصحيح وما هو الخطأ، وتوجه سلوك الناس نحو تحقيق الخير والصلاح على النحو الذي يرتضيه رب العزة سبحانه.

وللأخلاق في المنهج الرباني أهميةٌ كبرى، فصاغها على وفق اتجاهه في الاعتقاد، وبناها على أساس الحقيقة الكبرى للكون والحياة، وغاية الجنس البشري وماله، ومهمة وجوده من حيث هو خليفة في الأرض، يقيم فيها شريعة الله، ومنهاجه.

والأخلاق في الإسلام ثابتة، وليست نسبية، فلا تتغير من فرد إلى فرد، أو من مجتمع إلى مجتمع آخر، أو من زمن إلى زمن آخر، بل هي قيم ثابتة تزداد ثباتاً وضرورة كلما مرّت الإنسانية بتجارب في حياتها الأرضية، وهي شرط لاكتمال إنسانية الفرد وصلاح مجتمعه[317].

إننا نحن المسلمين لدينا مرجع تفصيلي وافٍ بصحيح الأخلاق وفاسدها، وما يحمد منها وما يذم، وقد اتفقت على ذلك كلمة الرسل جميعاً؛ لأن الأخلاق أحد الأصول المشتركة التي لا تتغير في دين الله عز وجل؛ فالأخلاق من لدن آم ثم نوح، هي نفسها الأخلاق التي دعا إليها الإسلام على لسان سيد البشر محمد ﷺ .

وشاء الله تعالى أن يبعث يكلف خير الناس على الإطلاق لحمل رسالة الله ، وتبليغها للناس، وهو الصادق الأمين محمد ﷺ، وفي الحديث: «لما خلق الله الخلق اختار العرب ثم اختار من العرب قريشا ثم اختار من قريش بني هاشم ثم اختارني من بني هاشم فأنا خيرة من خيرة»[318]، وقد كان النبي ﷺ متمثلًا – من قبل البعثة والاصطفاء – بعظيم الأخلاق، وكريم القيم، فهو –كما وسمه قومه – الصادق الأمين، وهو صاحب الخلق العظيم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ **[القلم: 4]**. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ومجاهد: (لعلى دين عظيم، لا دين أحب إليَّ ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام)[319].

---

[317] القيم الأخلاقية في المنهج النبوي وسبل تعزيزها في المؤسسات التربوية، عطاف منصور عياصرة، جامعة غرداية، 2018م، ص 22.

[318] اخرجه الحاكم في المستدرك، (97/4).

[319] تهذيب مدارج السَّالكين، لابن القيّم، هذَّبه عبد المنعم صالح العلي العزّي، مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة الثالثة، 1409هـ 1989م، (2/ 653).

وقال الحسن ـ رضي الله عنه ـ: (هو آداب القرآن)[320].

ومعنى الآية واضح؛ أي: ما كان يأمر به من أمر الله، وينهى عنه من نهي الله. والمعنى: إنك لعلى الخلق الذي اثرك الله به في القرآن[321].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عندما سئلت عن خلق رسول الله (ﷺ) فقالت: «**كان خلقه القرآن**»[322].

لقد كان النَّبيُّ ﷺ محطَّ أنظار مجتمعه، وصار مضرب المثل فيهم، حتَّى إنَّهم لقبوه بالأمين، وقد هفت إليه قلوب الرِّجال والنِّساء على السَّواء؛ بسبب الخُلق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيَّه ﷺ، وما زال يزكو، وينمو؛ حتَّى تعلقت به قلوب قومه، وهذا يعطينا صورةً حيَّةً عن قيمة الأخلاق في المجتمع، وعن احترام صاحب الخُلق ولو في المجتمع المنحرف[323].

1. أخبار صدقه وأمانته قبل البعثة:

– أرادت قريش أن تعيد ترميم الكعبة بعد أن تصدّعت جدرانها على إثر سيل ضربها، وبينما كانت القبائل مشغولة في بناء الكعبة، ثار خلاف بينهم، وهو أنهم اختلفوا فيمن ينال وضع الحجر الأسود، حتى اقترح أبو أمية بن المغيرة على شيئاً توافقوا عليه، قال ابن إسحاق في ذلك: قال بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان عامئذ أسن قريش كلها، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم –فيما تختلفون فيه– أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ففعلوا.

فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: "هلم إليَّ ثوبا"، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده،

---

[320] تهذيب مدارج السَّالكين، المصدر السابق، (2/ 653).

[321] تهذيب مدارج السَّالكين، المصدر السابق، (2/ 653).

[322] تفسير الطبري، (14/ 18).

[323] فقه السِّيرة، للغضبان، ص 110، 111.

ثم قال: "لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا"، ففعلوا: حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه[324]. وهكذا قضى النبي ﷺ، بتصرفه الحكيم، والبسيط على حرب دامية، فقد كان العرب في تلك الأيام يتقاتلون على أتفه الأسباب كسقي الإبل، وسباق الفرس، وتفضيل قوم على قوم في الشعر، وقد لا تنتهي مثل هذه الحروب طوال عشرات السنن[325].

كانت طريقة فضِّ التنازع موفَّقةً، وعادلةً، ورضي بها الجميع، وحقنت دماءً كثيرةً، وأوقفت حروباً طاحنةً، وكان مِنْ عدل حكمه ﷺ أن رضيت به جميع القبائل، ولم تنفرد بشرف وضع الحجر قبيلةٌ دون الأخرى، وهذا مِنْ توفيق الله لرسوله ﷺ، وتسديده قبل بعثته. إنَّ دخول رسول الله ﷺ من باب الصَّفا كان قَدَراً من الله لحلِّ هذه الأزمة المستعصية، الَّتي حُلَّت نفسياً قبل أن تُحلَّ على الواقع، فقد أذعن الجميع لما يرتضيه محمَّد ﷺ، فهو الأمين الَّذي لا يَظْلِمُ، وهو الأمين الَّذي لا يحابي، ولا يفسد، وهو الأمين على البيت، والأرواح، والدِّماء[326].

– لما بلغ هرقل ملك الروم كتابُ النبي داعيا له إلى الإسلام طلب ناسا من قومه يسألهم عنه، فجيء له برهط فيهم أبو سفيان بن حرب فكان مما قال له: (هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟) قال: لا، قال هرقل: (ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله!!)[327].

– وحين سأل أحدهم أبا جهل: أمحمد صادق أم كاذب؟ قال له: ويحك إن محمدا لا يكذب قط![328]. قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ

---

(324) سيرة ابن هشام، ت طه عبد الرؤوف سعد، (1/ 182).

(325) رحمة للعالمين، المنصور فوري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2012م، ص40.

(326) السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 125.

(327) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، (2/ 662).

(328) تفسير الطبري، (7/ 182).

الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ **[الأنعام: 33]**؛ جاء في سبب نزول هذه الآية، أنَّ أبا جهل قال للنبيّ ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نُكذب الذي جئت به، فنزلت هذه الآية[329].

2. الصدق في الإسلام:

الصدق هو قيمة إنسانية أساسية تُعدّ من أسمى الفضائل التي يمكن أن يتحلى بها الإنسان. يُعنى الصدق بقول الحقيقة والتمسك بها في جميع الأحوال، وهي قيمة عظيمة تُمتّن العلاقة مع الله، وتوثقها مع الأفراد والمجتمعات، فينتج عن ذلك بيئة صالحة مجتمعة ومتوافقة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ **[الزمر: 33-34]** ؛ أي: أنّ الذي جاء بالصدق والقول الحق وهو رسول الله ص وخاتم الأنبياء وإمام الرسل، والذين صدقوا به وآمنوا بأنه رسول من عند الله وهم أتباعه المؤمنون، وأيقنوا أن القرآن كلام الله تبيان كل شيء وخير وسعادة للبشرية جمعاء، فأولئك هم الذين اتقوا الله، وتجنبوا الشرك، وتبرؤوا من الأصنام والأوثان.

وثواب هؤلاء ما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي لهم ما يطلبون عند ربهم في الجنان، من رفع الدرجات، ودفع المضرّات، وتكفير السيئات، فضلا عن أن في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[330].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ **[التوبة: 119]**؛

نداء جديد للذين آمنوا: بالتّقوى، والتّقوى: هي امتثال أوامر الله، وتجنب نواهيه؛ اتقوا غضب الله، وسخطه: بإطاعة أوامره؛ التزموا الصّدق، والثّبات على دين الله تعالى، وطاعته، ولا تكونوا كالمعذِّرين الّذين جاؤوا بالأعذار الكاذبة، وكونوا مع الصّادقين: وهم الأنبياء،

[329] زاد المسير في علم التَّفسير، لأبي الفرج جمال الدِّين عبد الرحمن بن عليٍّ الجوزيِّ القرشيِّ البغداديِّ، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الأولى، 1384هـ 1965م (2/ 23).

[330] التفسير المنير، الزحيلي (24/ 8).

والرّسل، ولم يقل: كونوا من الصّادقين؛ أيْ: كونوا أنبياء ورسلاً، كونوا معهم في الدّنيا: بالصّدق، والطّاعة بامتثال الأوامر؛ تكونوا في صحبتهم بالآخرة[331].

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: "إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا" [متفق عليه].

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة" [رواه الترمذي].

وقال الثوري في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ **[الزمر: 60]** قال هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين[332].

قال ابن القيم (رحمه الله): وهي منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي مَن لم يَسِرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين.

وبه تميَّز أهل النِّفاق من أهل الإيمان، وسكَّان الجنان من أهل النِّيران. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيءٍ إلَّا قطعه، ولا واجه باطلًا إلَّا أرداه وصرعه. من صال به لم تردَّ صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، ومحكُّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي منه دخل الواصلون إلى حضرة ذي الجلال.

وهو أساس بناء الدِّين، وعمود فسطاط اليقين. ودرجته تاليةٌ لدرجة النُّبوَّة التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنان تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصِّدِّيقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مددٌ متَّصلٌ ومعينٌ[333].

[331] تفسير القرآن الثري الجامع، محمد الهلال، دار المعراج، 2022م، (11/ 33).

[332] إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، مكتبة الإيمان، 1900م، (4/ 387).

[333] مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط عطاءات العلم، 2010م، (2/ 627).

3. الأمانة في الإسلام:

الأمانة تُعدُّ من أهم القيم الأخلاقية التي تساهم في إصلاح المجتمعات الإنسانية، وللأمانة مكانة كبيرة في الإسلام، وقد وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بأهمية كبيرة. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ **[النساء: 58]**؛ الأمانات كل ما ائتمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به. فأمر الله عباده بأدائها أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار؛ والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله.

وفي قوله: ﴿إِلَى أَهْلِهَا﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمِن، ووكيلُه بمنزلته؛ فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤديا لها[334].

قال الفخر الرازي (رحمه الله): واعلم أن معاملة الإنسان إما أن تكون مع ربه أو مع سائر العباد، أو مع نفسه، ولا بد من رعاية الأمانة في جميع هذه الأقسام الثلاثة.

أما رعاية الأمانة مع الرب: فهي في فعل المأمورات وترك المنهيات، وهذا بحر لا ساحل له، فأمانة اللسان ألا يستعمله في الكذب والغيبة والنميمة والكفر والبدعة والفحش وغيرها، وأمانة العين أن لا يستعملها في النظر إلى الحرام، وأمانة السمع أن لا يستعمله في سماع الملاهي والمناهي، وسماع الفحش والأكاذيب وغيرها، وكذا القول في جميع الأعضاء.

وأما القسم الثاني: وهو رعاية الأمانة مع سائر الخلق فيدخل فيها رد الودائع، ويدخل فيه ترك التطفيف في الكيل والوزن، ويدخل فيه ألا يفشي على الناس عيوبهم، ويدخل فيه عدل الأمراء مع رعيتهم وعدل العلماء مع العوام بأن لا يحملوهم على التعصبات الباطلة، بل يرشدونهم إلى اعتقادات وأعمال تنفعهم في دنياهم وأخراهم.

---

[334] تفسير السعدي، ص 183.

وأما القسم الثالث: وهو أمانة الإنسان مع نفسه فهو ألا يختار لنفسه إلا ما هو الأنفع والأصلح له في الدين والدنيا، وأن لا يقدم بسبب الشهوة والغضب على ما يضره في الآخرة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»

فقوله: ﴿يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾؛ يدخل فيه الكل.

وقال ميمون بن مهران: ثلاثة يؤدين إلى البر والفاجر: الأمانة والعهد وصلة الرحم. وقال القاضي: لفظ الأمانة وإن كان متناولا للكل، إلا أنه تعالى قال في هذه الآية: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها فوجب أن يكون المراد بهذه الأمانة ما يجري مجرى المال، لأنها هي التي يمكن أداؤها إلى الغير[335].

وقال تعالى في ذكر صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ **[المؤمنون: 8]**.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **[الأنفال: 27]**.

وقال رسول الله ﷺ: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان"[336].

وقال ﷺ: " أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك"[337].

ثانياً: عمل النبي ﷺ في الرعي والتجارة (العمل قيمة إنسانية):

يعد العمل في الإسلام قيمة إنسانية ذات مكانة عالية، بل هو في الإسلام شكل من أشكال العبادة التي يؤجر عليها الإنسان إذا نوى من خلاله إعفاف نفسه، ونيل رضى الله وخدمة المجتمع.

---

(335) تفسير الرَّازي، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، الطَّبعة الثالثة، (10/ 110).

(336) أخرجه البخاري، (21/1).

(337) أخرجه الترمذي، (1264).

ولقد حث القرآن الكريم على الضرب في الأرض لطلب الرزق، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **[الجمعة: 10]**، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ **[المزمل: 20]**.

وتبعا لتوجيه القرآن الكريم كانت أفعال النبي ﷺ، وأقواله، وتقريراته حاثة على العمل، والتي منها(338):

قول النبي ﷺ لما سئل أيّ الكسب أطيب، فقال: " عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور"(339). وقال ﷺ: " ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده"(340).

وذم النبي ﷺ سؤال الناس بغير حاجة أيّما ذمّ، فقال: " لا يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم"(341).

هذا ما يتعلق بتوجيهه ﷺ للأفراد، أما ما يتعلق بإدارة الدولة، فقد اعتنى ﷺ بالجانب الاقتصادي والمالي للدولة، وخطط لذلك على كافة المجالات، من حيث: الصناعة والتجارة والزراعة، فقد حرص ﷺ على إدارة اقتصاد الدولة بشكل صحيح ضمن التقدم المادي ورعاية مصالح الدولة، فأنشأ سوقا للمسلين في المدينة إذ كان اليهود قبل الهجرة يحتكرون التجارة فيها، ويسيطرون على معظم الموارد، وقد أراد الرسول ﷺ إنهاء هذا الاحتكار وتشجيع أثرياء المسلمين على مزاولة النشاط الاقتصادي. وهذا يعد بمثابة تطواف سريع لنظرة الشريعة

(338) القيم التربوية في السيرة النبوية، د. مهدي رزق الله أحمد، 2012م، ص 116.

(339) أخرجه الحاكم، (10/2).

(340) أخرجه البخاري، (2072).

(341) أخرجه مسلم، (1041).

الإسلامية للعمل كقيمة إنسانية، أما ما يتعلق بموضوعنا وهو مزاولة النبي ﷺ للأعمال بيده قبل البعثة، فإنه ﷺ زاول عملين قبل البعثة:

1. عمل النبي ﷺ برعي الغنم:

معلوم أن النبي ﷺ كان في كفالة عمه أبي طالب بعد أن توفي جدّه عبد المطلب وهو غلام صغير، وكان أبو طالب مُقِلاً في الرِّزق؛ فعمل النَّبيُّ ﷺ برعي الغنم مساعدةً منه لعمه، فلقد أخبر ﷺ عن نفسه الكريمة، وعن إخوانه من الأنبياء: أنَّهم رعوا الغنم، أمَّا هو فقد رعاها لأهل مكَّة؛ وهو غلامٌ، وأخذ حقَّه عن رعيه، ففي الحديث الصَّحيح قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا رَعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم! كنت أرعاها على قراريط لأهل مكَّة» [342].

إنَّ رعي الغنم كان يتيح للنَّبيِّ ﷺ الهدوء الذي تتطلَّبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصَّحراء، ويتيح له التَّطلُّع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل، وظلال القمر، ونسمات الأسحار، يتيح له لوناً من التَّربية النَّفسيَّة: من الصَّبر، والحلم، والأناة، والرَّأفة، والرَّحمة [343].

وتذكِّرنا رعايته للغنم بأحاديثه ﷺ؛ الَّتي توجِّه المسلمين للإحسان للحيوانات [344]، فكان رعي الغنم للنَّبيِّ ﷺ دربةً، ومراناً له على سياسة الأمم.

ورعي الغنم يتيح لصاحبه عدَّة خصالٍ تربويَّةٍ منها:

أ - **الصَّبر**: على الرَّعي من طلوع الشمس إلى غروبها، نظراً لبطء الغنم في الأكل:

---

[342] القيراط: جزءٌ من الدِّينار، أو الدِّرهم. أخرجه البخاري (2262) وابن ماجه (2149).

[343] محمَّدٌ رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصادق عرجون، (177/1).

[344] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري، (106/1).

فيحتاج راعيها إلى الصَّبر، والتَّحمُّل، وكذا تربية البشر[345].

إنَّ الرَّاعي لا يعيش في قصرٍ منيفٍ، ولا في ترفٍ، وسرفٍ، وإنَّما يعيش في جوٍّ حارٍّ شديد الحرارة، وبخاصَّةٍ في الجزيرة العربيَّة، ويحتاج إلى الماء الغزير؛ ليُذهب ظمأه، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطَّعام، وشظف العيش، فينبغي أن يحمل نفسه على تحمُّل هذه الظُّروف القاسية، ويألفها، ويصبر عليها[346].

ب - **التَّواضع**: إذ إنَّ طبيعة عمل الرَّاعي خدمةُ الغنم، والإشرافُ على ولادتها، والقيام بحراستها، والنَّوم بالقرب منها، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها، أو شيءٌ من روثها، فلا يتضجَّر من هذا، ومع المداومة والاستمرار يَبْعد عن نفسه الكبر والكبرياء، ويرتكز في نفسه خلق التَّواضع.

وقد ورد في صحيح مسلمٍ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْرٍ». قال رجلٌ: إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً. قال: «إنَّ الله جميلٌ يحب الجمال، الكبر: بطرُ الحقِّ، وغَمْطُ النَّاس»[347].

ج - **الشَّجاعة**: فطبيعة عمل الرَّاعي الاصطدام بالوحوش المفترسة، فلابدَّ أن يكون على جانبٍ كبيرٍ من الشَّجاعة، تؤهِّله للقضاء على الوحوش، ومنعها من افتراس أغنامه.

د - **الرَّحمة، والعطف**: إنَّ الرَّاعي يقوم بمقتضى عمله بمساعدة الغنم؛ إن هي مرضت، أم كُسرت، أو أصيبت، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها، وعلاجها والتَّخفيف من آلامها، فمن يرحم الحيوان يكون أشدَّ رحمةً بالإنسان، وبخاصَّةٍ إذا كان رسولاً أرسله الله تبارك وتعالى لتعليم الإنسان، وإرشاده، وإنقاذه من النَّار، وإسعاده في الدَّارين[348].

---

(345) مدخل لفهم السِّيرة، لليحي، ص 124.

(346) السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 114، 115.

(347) أخرجه مسلم (91) والترمذي (1999) والحاكم (26/1).

(348) مدخل لفهم السِّيرة، ص 127.

هـ - حبُّ الكسب من عرق الجبين:

إنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يغنيَ محمداً ﷺ عن رعي الغنم، ولكن هذه تربيةٌ له، ولأمَّته للأكل من كسب اليد، وعرق الجبين، ورعي الغنم نوعٌ من أنواع الكسب باليد، إنَّ صاحب الدَّعوة يجب أن يستغني عمَّا في أيدي الناس، ولا يعتمد عليهم، فبذلك تبقى قيمته، وترتفع منزلته، ويبتعد عن الشُّبه، والتَّشكيك فيه، ويتجرَّد عمله لله تعالى، ويردُّ شبهة الكفرة الظَّلمة، الَّذين يصوِّرون للنَّاس: أنَّ الأنبياء أرادوا الدُّنيا بدعوتهم[349] ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ **[يونس: 78]** .

هكذا يقول فرعون لموسى، ونظراً لسيطرة حبِّ الدُّنيا وحطامها على عقولهم يظنُّون: أنَّ أيَّ تفكيرٍ، وأيَّ حركةٍ مرادٌ بها الدُّنيا، ولهذا قال الأنبياء - عليهم السَّلام - لأقوامهم، مبينين استغناءهم عنهم: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ **[هود: 29]**.

روى البخاريُّ عن المقدام رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[350].

ولا شكَّ: أنَّ الاعتماد على الكسب الحلال يكسب الإنسان الحرِّيَّة التَّامَّة، والقدرة على قول كلمة الحقِّ، والصَّدْع بها[351]، وكم من الناس يطأطئون رؤوسهم للطُّغاة، ويسكتون على باطلهم، ويجارونهم في أهوائهم خوفاً على وظائفهم عندهم![352].

إنَّ صاحب أيِّ دعوةٍ لن تقوم لدعوته أيُّ قيمةٍ في النَّاس، إذا ما كان كسبه، ورزقه من وراء دعوته، أو على أساسٍ مِنْ عطايا النَّاس، وصدقاتهم، ولذا كان صاحب الدَّعوة الإسلاميَّة

---

[349] مدخل لفهم السِّيرة، ص (137).

[350] أخرجه البخاري (2072).

[351] مدخل لفهم السِّيرة، المصدر السابق، ص (128).

[352] فقه السِّيرة، للغضبان، ص (93).

أحرى النَّاس كلِّهم بأن يعتمد في معيشته على جهده الشَّخصيّ، أو موردٍ شريفٍ لا استجداء فيه؛ حتَّى لا تكون عليه لأحدٍ من النَّاس مِنَّةٌ، أو فضلٌ في دنياه، فيعوقه ذلك من أن يصدع بكلمة الحقِّ في وجهه، غير مبالٍ بالموقع الَّذي قد تقع من نفسه.

وهذا المعنى وإنْ لم يكن قد خطر في بال الرَّسول ﷺ في هذه الفترة؛ إذ إنَّه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأنٍ في الدَّعوة، والرِّسالة الإلهيَّة، غير أنَّ هذا المنهج الَّذي هيَّأه الله له ينطوي على هذه الحكمة، ويوضح: أنَّ الله تعالى قد أراد ألا يكون في شيءٍ من حياة الرَّسولﷺ قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته، أو يؤثِّر عليها أيَّ تأثيرٍ سلبيٍّ، فيما بعد البعثة[353].

إنَّ إقبال النَّبيِّ ﷺ على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرِّزق يشير إلى دلائل مهمَّةٍ في شخصيَّته المباركة؛ منها: الذوق الرَّفيع، والإحساس الدَّقيق اللَّذان جمَّل الله تعالى بهما نبيَّهﷺ . لقد كان عمُّه يحوطه بالعناية التَّامَّة، وكان له في الحنوِّ، والشَّفقة كالأب الشَّفوق، ولكنَّه ﷺ ما إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتَّى أقبل يكتسب، ويُتعب نفسه لمساعدة عمِّه في مؤونة الإنفاق، وهذا يدلُّ على شهامةٍ في الطَّبع، وبرٍّ في المعاملة، وبذلٍ للوسع[354].

والدَّلالة الثانية تتعلَّق ببيان نوع الحياة الَّتي يرتضيها الله تعالى لعباده الصَّالحين في دار الدُّنيا، لقد كان سهلاً على الله تعالى أن يهيئ للنَّبيِّ ﷺ - وهو في صدر حياته - من أسباب الرَّفاهية، ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح، ورعاية الأغنام سعياً وراء الرِّزق، ولكنَّ الحكمة الربَّانيَّة تقتضي منَّا أن نعلم: أنَّ خير مال الإنسان ما اكتسبه بكدِّ يمينه، ولقاء ما يقدِّمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه، وشرُّ المال ما أصابه الإنسان وهو مستلقٍ على ظهره

---

[353] فقه السِّيرة، للبوطي، ص 50.

[354] فقه السِّيرة، المصدر السَّابق، ص 51.

دون أن يرى أيَّ تعبٍ في سبيله، ودون أن يبذل أيَّ فائدةٍ للمجتمع في مقابله[355].

2. عمل النبي ﷺ بالتجارة:

كانت خديجة بنت خويلد رضـــي الله عنها أرملةً[356] ذات شـــرفٍ، ومالٍ، تســـتأجر الرِّجال ليتَّجروا بمالها، فلـــمَّا بلغها عن محمَّد ﷺ صدق حديثه، وعظم أمانته، وكَرَم أخلاقه، عرضـــت عليه أن يخرج في مالها إلى الشَّـــام تاجراً، وتعطيه أفضـــل ما تعطي غيره من التُّجار، فقبل، وسافر معه غلامها ميسرةُ، وقدما الشَّام، وباع محمَّد ﷺ سلعته الَّتي خرج بها، واشترى ما أراد من السِّلع، فلمَّا رجع إلى مكَّة، وباعت خديجة ما أحضره لها؛ تضاعف مالها.

وقد حصـــل الرَّســـول ﷺ في هذه الرِّحلة على فوائد عظيمة بالإضـــافة إلى الأجر الَّذي ناله؛ إذ مرَّ بالمدينة الَّتي هـاجر إليهـا من بعد، وجعلهـا مركزاً لـدعوته، وبالبلاد التي فتحهـا، ونشـــر فيها دينه، كما كانت رحلته ســـبباً لزواجه من خديجة، بعد أن حدَّثها ميســـرة عن سماحته، وصـــدقه، وكريم أخلاقه[357]، ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا، وأُخبرت بشـمائله الكريمة، ووجدت ضـالَّتها المنشـودة، فتحدثت بما في نفسـها إلى صـديقتها نفيسة بنت منبِّه، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوَّج خديجة[358]، فرضي بذلك، وعرض ذلك على أعمامه، فوافقوا كذلك، وخرج معه عمُّه حمزة بن عبد المطلب، فخطبها إليه، وتزوَّجها رســول الله ﷺ وأصـدقها عشـرين بَكرةً، وكانت أوَّل امرأةٍ تزوَّجها رسـول الله ﷺ، ولم يتزوَّج غيرها؛ حتَّى ماتت رضـــي الله عنها[359]، وقد وَلَدَتْ لرســـول الله ﷺ غلامين، وأربع بنات. وابناه هما: القاسم، وبه كان ﷺ يُكنى، وعبد الله، ويلقَّب بالطَّاهر، والطَّيِّب.

وقد مات القاســـم بعد أن بلغ ســـناً تمكنه من ركوب الدَّابة، ومات عبد الله وهو طفل،

---

[355] فقه السِّيرة، المصدر السَّابق، 51.

[356] تزوجها عتيق بن عائذ، ثمَّ مات عنها، فتزوَّجها أبو هالة، ومات عنها أيضاً.

[357] رسالة الأنبياء، لعمر أحمد عمر، (27/3).

[358] مواقف تربويَّة، ص 56.

[359] السِّيرة النَّبوية، لأبي فارس، ص 122.

وذلك قبل البعثة. أمَّا بناته فهنَّ: زينب، ورقيَّة، وأمُّ كلثوم، وفاطمة. وقد أسلمن، وهاجرن إلى المدينة، وتزوجن رضي الله عنهن[360]. هذا وقد كان عُمرُ الرَّسول ﷺ، حين تزوَّج خديجة رضي الله عنها خمساً وعشرين سنةً، وكان عمرها أربعين سنةً[361].

دروسٌ وعبرٌ وفوائد:

أ - إنَّ الأمانة، والصِّدق أهمُّ مواصفات التَّاجر النَّاجح، وصفة الأمانة، والصِّدق في التِّجارة في شخصية النَّبيِّ ﷺ، هي الَّتي رغَّبت السَّيدة خديجة في أن تعطيه مالها ليتاجر به، ويسافر به إلى الشَّام، فبارك الله لها في تجارتها، وفتح الله لها من أبواب الخير ما يليق بكرم الكريم.

ب - إنَّ التِّجارة موردٌ من موارد الرِّزق الَّتي سخَّرها الله لرسوله ﷺ قبل البعثة، وقد تدرَّب النَّبيُّ ﷺ على فنونها، وقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ: أنَّ التَّاجر الصَّدوق الأمين في هذا الدِّين يُحشر مع النَّبيِّين، والصدِّيقين، والشُّهداء، وهذه المهنة مهمَّة للمسلمين، ولا يقع صاحبها تحت إرادة الآخرين، واستعبادهم، وقهرهم، وإذلالهم؛ فهو ليس بحاجة إليهم، بل هم في حاجة إليه، وبحاجةٍ إلى خبرته، وأمانته، وعفَّته.

ج - كان زواج الحبيب المصطفى ﷺ للسَّيدة خديجة بتقدير الله تعالى، ولقد اختار الله - سبحانه وتعالى - لنبيِّه زوجةً تناسبه، وتؤازره، وتُخفِّف عنه ما يصيبه، وتعينه على حمل تكاليف الرِّسالة، وتعيش همومه[362].

قال الشَّيخ محمَّد الغزالي - رحمه الله! -: وخديجة مَثلٌ طيِّبٌ للمرأة الَّتي تكمِّل حياة الرَّجل العظيم. إنَّ أصحاب الرِّسالات يحملون قلوباً شديدة الحساسية، ويلقون غبْناً بالغاً من الواقع الَّذي يريدون تغييره، ويقاسون جهاداً كبيراً في سبيل الخير الَّذي يريدون فرضه، وهم

---

[360] رسالة الأنبياء، (28/3).

[361] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 122.

[362] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (122/1، 123).

أحوج ما يكونون إلى من يتعهَّد حياتهم الخاصَّة بالإيناس، والتَّرفيه، وكانت خديجة سبَّاقةً إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمَّدٍ ﷺ أثرٌ كريم[363].

د - إنَّ النَّبيّ ﷺ ذاق مرارة فقد الأبناء، كما ذاق من قبل مرارة فقد الأبوين، وقد شاء الله - وله الحكمة البالغة - ألا يعيش له ﷺ أَحدٌ من الذُّكور، حتَّى لا يكون مدعاةً لافتتان بعض النَّاس بهم، وادِّعائهم لهم النُّبوَّة، فأعطاه الذُّكور تكميلاً لفطرته البشرية، وقضاءً لحاجات النَّفس الإنسانيَّة، ولئلا يتنقَّص النَّبيَّ في كمال رجولته شانئ، أو يتقوَّل عليه متقوِّلٌ، ثمَّ أخذهم في الصِّغر، وأيضاً ليكون ذلك عزاءً، وسلوى لِلَّذين لا يُرزقون البنين، أو يُرزقون ثمَّ يموتون، كما أنَّه لونٌ من ألوان الابتلاء، وأشدُّ النَّاس بلاءً الأنبياء[364]، وكأنَّ الله أراد للنَّبيِّ ﷺ أن يجعل الرِّقَّة الحزينة جزءاً من كيانه؛ فإنَّ الرِّجال الذين يسوسون الشُّعوب لا يجنحون إلى الجبروت، إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة، والأثرة، وعاشت في أفراحٍ لا يخامرها كدر، أمَّا الرَّجل الَّذي خبر الآلام؛ فهو أسرع النَّاس إلى مواساة المحزونين، ومداواة المجروحين[365].

هـ - يتَّضح للمسلم من خلال قصَّة زواج النَّبيِّ ﷺ من السَّيدة خديجة، عدم اهتمام النَّبيِّ ﷺ بأسباب المتعة الجسديَّة، ومكمِّلاتها، فلو كان مهتماً بذلك - كبقيَّة الشَّباب - لطمع فيمن هي أقلُّ منه سناً، أو فيمن لا تفوقه في العمر، وإنَّما رغب النَّبيُّ ﷺ لشرفها، ومكانتها في قومها؛ فقد كانت تلقَّب في الجاهلية بالعفيفة الطَّاهرة.

و - في زواج النَّبيِّ ﷺ من السَّيدة خديجة ما يلجم ألسنة وأقلام الحاقدين على الإسلام، من المستشرقين وعبيدهم العلمانيِّين، الَّذين ظنُّوا أنَّهم وجدوا في موضوع زواج النَّبيِّ ﷺ مقتلاً يصاب منه الإسلام، وصوَّروا النَّبيَّ ﷺ في صورة الرَّجل الشَّهوانيِّ الغارق في لذَّاته، وشهواته،

---

[363] فقه السِّيرة، للغزالي، ص 75.

[364] أخرجه الترمذي (2398) وابن ماجه (4023).

[365] فقه السيرة، المصدر السابق، ص 78.

فنجد: أنَّ النَّبيَّ ﷺ عاش إلى الخامســـة والعشــرين من عمره في بيئةٍ جاهليَّةٍ عفيف النَّفس، دون أن ينساق في شيءٍ من التَّيَّارات الفاسدة؛ الَّتي تموج حوله، كما أنَّه تزوَّج من امرأةٍ لها ما يقارب ضـــعف عمره، وعاش معها دون أن تمتدَّ عيناه إلى شـــيءٍ ممَّا حوله، وإنَّ ما حوله الكثير، وله إلى ذلك أكثر من سبيل، إلى أن يتجاوز مرحلة الشَّباب، ثمَّ الكهولة، ويدخل في سن الشُّيوخ، وقد ظلَّ هذا الزَّواج قائماً حتَّى توفِّيت خديجة رضي الله عنها عن خمسةٍ وستين عاماً، وقد ناهز النَّبيُّ ﷺ الخمسين من العمر، دون أن يفكِّر خلالها بالزَّواج بأيِّ امرأةٍ أخرى، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزَّمن الَّذي تتحرَّك فيه رغبة الاستزادة من النِّسـاء، والميل إلى تعدُّد الزَّوجات للدَّوافع الشَّـهوانية؛ ولكن النبي ﷺ لم يفكر في هذه الفترة في أن يضـمَّ إلى خديجة مثلها من النِّسـاء، زوجةً، أو أمَةً، ولو أراد؛ لكان الكثير من النِّسـاء، والإماء طوعَ بنانه.

أمَّا زواجه ﷺ بعد ذلك من السَّيدة عائشة، وغيرها من أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهن، فإنَّ لكلٍّ منهن قصَّـةً، ولكلِّ زواج حكمةً وسـبباً، يزيدان في إيمان المسـلم بعظمة محمَّد ﷺ، ورفعة شأنه، وكمال أخلاقه(366).

إن النظر إلى مزاولة النبي ﷺ الأعمال بنفســه قبل البعثة، يبرز جوانب إنســانية مهمة، منها: التواضع والقدوة الحسنة، فقد عمل النبي ﷺ برعي الأغنام، وهو عمل متواضع يقوم به عامة الناس، وهذا يقدم قدوة حسنة للناس في التواضع والعمل الشريف. كما يبرز الاستقلال والاعتماد على النفس، فإنه قد عمل في سـن مبكرة كما تقدم، وهذا يبين قدر المسؤولية التي كان يتمتع بها ﷺ من صـــغره. كما أنَّ عمله بيده قبل البعثة يظهر أنَّ النبي ﷺ كان يقدّر قيمة العمل وأهميته في بناء الشخصية وتحقيق الكرامة الإنسانية.

(366) فقه السِّيرة النَّبويَّة، للبوطي، ص 53، 54.

ثالثاً: مشاركته ﷺ في حلف الفضول (العدالة فوق العصبية):

عاش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مطلع حياته مع قومه يشاركهم وجدانهم، إذ كان يتجه إلى الخير، ويتجنب الشر ولا ينغمس، فهو يفعل ما يتفق مع الفطرة المستقيمة الي فطره الله تعالى عليها، والمنهاج القويم الذي هداه الله تعالى إليه وأدبه بأدبه.

ومن ذلك حلف الفضول الذي قال فيه ابن كثير إنه كان أكرم حلف وأشرفه في العرب وقد كان ذلك الحلف، والنبي عليه الصلاة والسلام قد بلغ العشرين، وقد أجمع الرواة على ذلك، وقالوا إنه كان بعد حرب الفجار. كان حلف الفضول في شهر ذي القعدة، وكان الفجار قبله بأربعة أشهر، أى أن الفجار كان في شهر رجب وهو من الأشهر الحرم، ولم يذكروا أن حرب الفجار كان والحج قائم، وشهر رجب ليس من أشهر الحج، وإن كان من الأشهر الحرم[367].

إذن كان حِلْفُ الفُضُول بعد رجوع قريش من حرب الفجار، وسببه: أنَّ رجلاً من زبيد[368] قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، ومنعه حقَّه، فاستعدى عليه الزَّبيديُّ أشراف قريش، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فهرٍ وأهل المروءة، ونادى بأعلى صوته:

يا آل فهرٍ لِمَظْلومٍ بضاعَته ... بِبطْنِ مَكَّة نَائِى الدَّارِ والنَّفر
وَمُحْرِمٍ أشعثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُيا ... للرِّجالِ وبَيْنَ الحِجْرِ والحَجَر
إنَّ الحرام لِمَنْ تَمَّتْ كَرَامَتُهُ ... ولا حرَامَ لِثَوْبِ الفَاجِر

فقام الزُّبير بن عبد المطلب، فقال: ما لهذا مترك. فاجتمعت بنو هاشم، وزُهرة، وبنو تَيْم بن مرَّة في دار عبد الله بن جُدْعان، فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا في شهرٍ حرامٍ، وهو ذو

---

[367] خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، 2007م، (1/ 135).

[368] زبيد: بلد باليمن.

[369] الرَّوض الأنف، للسُّهيلي، (1/155، 156).

القعدة، فتعاقدوا، وتحالفوا بالله ليكونُنَّ يداً واحدةً مع المظلوم على الظَّالم، حتَّى يُردَّ إليه حقُّه ما بلَّ بحرٌ صُوفَةً، وما بقي جَبَلا ثبير وحراء مكانهما[370].

ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزَّبيديِّ، فدفعوها إليه.

وسَمَّتْ قريش هذا الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر.

وفي هذا الحلف قال الزُّبير بن عبد المطلب:

إنَّ الفُضُـــولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا ... ألاَّ يُقيمَ ببطْن مكَّـةَ ظَـالِمُ
أَمْرٌ عَلَيْـهِ تَعَـاقَـدُوا وتَوَاثَقُوا ... فَـالجَـارُ وَالْمُعْتَرُّ[371] فِيهِمْ

قد حضر النَّبيُّ ﷺ هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظُّلم، ورفعوا به منار الحقِّ، وهو يعتبر من مفاخر العرب، وعرفانهم لحقوق الإنسان[372]، وقد قال ﷺ: «شهدت حلف المطيِّبين مع عمومتي؛ وأنا غلام، فما أحبُّ أنَّ لي حُمْرَ النَّعم وأنِّي أنكثه»[373].

وقال أيضـــاً: «لقد شـــهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحبُّ أنَّ لي به حُمْرَ النَّعم، ولو دعيتُ به في الإسلام لأجبت»[374].

إنّ بريق الفرح- بهذا الحلف- يظهر في ثنايا الكلمات التي عبّر بها رســول الله ﷺ عنه، فإنّ هذه الحمية للحق ضدّ أي ظالم مهما عزّ، ومع أي مظلوم مهما هان؛ هي روح الإسلام الامر بالمعروف، الناهي عن المنكر، الواقف عند حدود الله. ووظيفة الإسلام أن يحارب البغي في سياسات الأمم، وفي صلات الأفراد على سواء[375].

وإن ذلك الحلف كان لازما، لأن مكة كانت بلد العرب، وثمرات العرب تجيء إليها فلا بد أن يستقر فيها الأمن، ويكون بلد الاطمئنان والمحافظة على الحقوق، ولا يكون فيها اعتداء

---

(370) السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (213/1).

(371) المعتر: الزَّائر من غير البلاد.

(372) السِّيرة النَّبوية، لأبي شهبة، (214/1).

(373) أخرجه أحمد (190/1) والبخاري في الأدب المفرد (567) وأبو يعلى (844 و845 و846).

(374) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (367/3) وابن هشام (141/1 - 142.

(375) فقه السيرة، الغزالي، دار الشروق، 2006م، ص77.

حتى يجيء الناس إليها ولأنها يحج إليها الناس من كل فج عميق، فلا بد أن يتعاون أهلها على جعلها مكانا تقدس فيه الحقوق كما يقدس البيت، ولأنها أرض البيت الذى جعله الله تعالى مثابة للناس وأمنا، فلا يكون الأمن للأرواح فقط، بل يكون للأرواح، وللأموال، ولكل ما يحتاج اليه اطمئنان النفس[376].

ويرى المتتبّع لأوضاع جزيرة العرب بصفة عامة، ووضع مكّة المكرمة مركز الجزيرة الدينيّ والثقافيّ والسياسيّ وواقعها، أنّ الباعث لأهل الضّمائر الحيّة على إنشاء هذا الحلف لم يكن حادثة تتعلّق بفرد واحد أو لبعض حقوق مهضومة لأفراد معدودين، بل كان الباعث القويّ هو القلق من حالة الفوضى وعدم الثقة التي كانت تسود مكة وما حولها، والشعور بالحاجة إلى الأمن والاستقرار- خصوصا بعد حرب الفجار- واحترام الحقوق والكرامات، وحماية الغرباء والوافدين إلى مكّة من التجار والصنّاع[377].

دروسٌ وعبرٌ وفوائد:

1 - إنَّ العدل قيمةٌ مطلقةٌ، وليست نسبيّة، وإنَّ الرَّسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين، فالقيم الإيجابيّة تستحقُّ الإشادة بها حتَّى لو صدرت من أهل الجاهليّة[378].

2 - كان حلف الفضول واحةً في ظلام الجاهليّة، وفيه دلالةٌ بيّنةٌ على أنَّ شيوع الفساد في نظامٍ، أو مجتمعٍ لا يعني خلوَّه من كلِّ فضيلةٍ، فمكَّة مجتمعٌ جاهليٌّ هيمنت عليه عبادة الأوثان، والمظالم، والأخلاق الذَّميمة، كالظُّلم، والزِّنى، والرِّبا، ومع هذا كان فيه رجال أصحاب نخوةٍ، ومروءة، يكرهون الظُّلم، ولا يقرُّونه، وفي هذا درسٌ عظيمٌ للدُّعاة في مجتمعاتهم؛

---

[376] خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، (1/ 137).

[377] السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدويّ، دار التَّوزيع والنَّشر الإسلاميَّة، القاهرة، ص175.

[378] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري، (112/1).

التي لا تُحَكِّمُ الإسلامَ، أو يُحارَبُ فيها الإسلام[379].

3 – إنَّ الظُّلم مرفوضٌ بأيِّ صورةٍ، ولا يشترط الوقوف ضدَّ الظالمين فقط عندما ينالون من الدُّعاة إلى الله، بل مواجهة الظَّالمين قائمةٌ؛ ولو وقع الظُّلم على أقلِّ الناس[380]. إنَّ الإســـلام يحارب الظُّلم، ويقف بجانب المظلوم، دون النَّظر إلى لونه، ودينه، ووطنه، وجنسه[381].

4 – جواز التَّحالف والتَّعاهد على فعل الخير؛ فهو من قبيل التَّعاون المأمور به في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ **[المائدة: 2]** .

ويجوز للمسلمين أن يتعاقدوا في مثل هذه الحال؛ لأنَّه تأكيدٌ لشيءٍ مطلوبٍ شرعاً، على ألا يكون ذلك شبيهاً بمسجد الضِّرار، بحيث يتحوَّل التعاقد إلى نوعٍ من الحزبيَّة الموجَّهة ضد مسـلمين آخرين ظلماً، وبغياً، وأمَّا تعاقد المسـلمين مع غيرهم على دفع ظلمٍ، أو في مواجهة ظالمٍ؛ فذلك جائزٌ لهم، على أن تُلحظ في ذلك مصـلحة الإسـلام والمسـلمين في الحاضـر والمستقبل، وفي هذا الحديث دليلٌ، والدَّليل فيه قوله ﷺ: «ما أحبُّ أنَّ لي به حُمْر النَّعَم»؛ لما يحقِّق من عدلٍ، ويمنع من ظلمٍ، أو النكث به مقابل حمر النَّعم، وقوله ﷺ: «ولو دعيت به في الإسـلام لأجبت»، ما دام أنَّه يردع الظَّالم عن ظلمه، وقد بيَّن ﷺ استعداده للإجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف[382].

5 – على المســـلم أن يكون في مجتمعه إيجابياً فاعلاً، لا أن يكون رقماً من الأرقام على

---

(379) فقه السيرة النَّبوية، للغضبان، ص 110.

(380) فقه السيرة النَّبوية، المصدر السابق، ص 110.

(381) السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 121.

(382) الأساس في السُّنَّة، (172/4).

هامش الأحداث في بيئته ومجتمعه، فقد كان النَّبيُّ ﷺ محطَّ أنظار مجتمعه، وصار مضرب المثل فيهم، حتَّى إنَّهم لقبوه بالأمين، وقد هفت إليه قلوب الرِّجال والنِّساء على السَّواء؛ بسبب الخُلق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيَّه ﷺ، وما زال يزكو، وينمو؛ حتَّى تعلقت به قلوب قومه، وهذا يعطينا صورةً حيَّةً عن قيمة الأخلاق في المجتمع، وعن احترام صاحب الخُلق ولو في المجتمع المنحرف[383].

يُعد حلف الفضول مثالاً تاريخياً بارزاً يُجسّد قيمة العدل ويرفض العصبية في المجتمع الجاهلي بمكة الذي عم فيه الفساد واستشرى فيه الظلم والجور. وقد تأسس هذا الحلف كرد فعل على حالة الفوضى وعدم الثقة التي كانت تسود مكة وما حولها، خصوصاً بعد حرب الفجار، في تلك الفترة، شعرت القبائل بأهمية التكاتف لتحقيق الأمن والاستقرار واحترام الحقوق والكرامات، وحماية الغرباء والوافدين إلى مكة من التجار والصناع وغيرهم. كما تُعدّ مشاركة النبي ﷺ بهذا الحلف، تجسيداً لأسمى معاني العدل، ونبذ الظلم والجور، فمشاركته تأكيدٌ على وقوفه إلى جانب المظلومين والدفاع عن حقوقهم، بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية، أو مكاناتهم الاجتماعية. مشاركته ﷺ في هذا الحلف هي خطوةٌ نحو المحافظة على مجتمع يسوده الحق والإنصاف والعدل، ويُحترم فيه الإنسان، ويصان فيه حقه، وتحفظ فيه كرامته.

رابعاً: مشاركته ﷺ في بناء الكعبة الشريفة (الدور الإيجابي والفعال في المجتمع):

ما من أمر جامع فيه خير في ذاته، وللناس كافة، إلا اشترك فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بفضل من المال والعمل، وإنَّ قريشا، بل العرب أجمعون كان يربطهم رباط لا ينقطع، لأنه يتجدد آنا بعد آن، وهو يتكون من عنصرين: أحدهما الكعبة المكرمة التي بناها أبو الأنبياء الخليل إبراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم، وهي أول بيت وضع للناس، والحج إليها،

[383] فقه السِّيرة، للغضبان، ص 110، 111.

وإقامة المناسك فيها.

ثانيهما: اعتقادهم أن الله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض. وقد كانوا حريصين على تلك الرابطة، لا يتركونها، ولا يقطعونها، وخصوصا قريشا، إذ وجدوا فيه عِزّهم الذي يعتزون به، وشرفهم الذي يتفاخرون به أمام العرب جميعا، ويجعل لهم سيادة وحكما، وحسبهم أن العرب يتقاتلون إلا في أرضهم، فإذا جاؤوا إليهم كانوا في حرم آمن، كما منَّ الله سبحانه وتعالى عليهم، فقال تعالت كلماته: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً، وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ، أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[384].

لـمَّا بلغ محمَّد ﷺ خمساً وثلاثين سنةً، اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة؛ لما أصابها من حريق، وسيلٍ جارفٍ؛ صدَّع جدرانها، وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم عليه السلام رَضماً[385] فوق القامة، فأرادوا هدمها؛ ليرفعوها، ويسقفوها، ولكنَّهم هابوا هدمها، وخافوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثمَّ قام عليها، وهو يقول: اللَّهمَّ لم نزغ! ولا نريد إلا الخير.

وهدم من ناحية الرُّكنين؛ فتربَّص النَّاس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب؛ لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيءٌ؛ فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد غادياً يهدم، وهدم الناس معه حتى انتهوا إلى حجارةٍ خُضْر كالأَسْنمة[386] اخذٌ بعضها ببعضٍ.

وكانوا قد جزَّؤوا العمل وخصُّوا كلَّ قبيلةٍ بناحيةٍ، واشترك سادة قريش، وشيوخها في نقل الحجارة، ورفعها، وقد شارك النَّبيُّ ﷺ، وعمُّه العباس في بناء الكعبة، وكانا ينقلان الحجارة،

---

[384] خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، (1/ 150).

[385] الرَّضم: حجارةٌ منضودةٌ بعضها على بعضٍ من غير طين.

[386] الأسنمة: جمع سنام، وهو أعلى ظهر البعير.

فقال العباس للنَّبيِّ ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخرَّ إلى الأرض[387]، وطمحت عيناه إلى السَّماء، ثمَّ آفاق، فقال: «إزاري! إزاري!»، فشدَّ عليه إزاره[388].

فلـمَّا بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه، كلُّ قبيلةٍ تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكادوا يقتتلون فيما بينهم، لولا أنَّ أبا أمية بن المغيرة قال: يا معشـر قريش! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوَّل مَنْ يدخل من باب المسـجد. فلـمَّا توافقوا على ذلك؛ دخل محمَّد ﷺ، فلـمَّا رأوه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا. فلـمَّا أخبروه الخبر، قال: «هلمُّوا ثوباً»، فأتوه به، فوضـع الرُّكن فيه بيديه، ثمَّ قال: «لتأخذْ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثَّوب، ثمَّ ارفعوا جميعاً» فرفعوه، حتَّى إذا بلغوا موضـعه، وضـعه بيده، ثمَّ بنى عليه[389]. وهذا حلّ حصـيف رضـي به القوم، ومن قبل كانت رؤيتهم لمحمد ﷺ مثار تيمّنهم واطمئنانهم، وهذا يدلّ على سناء المنزلة التي بلغها فيهم.

ومع جهد قريش في بناء الكعبة، فقد عجزت عن إبلاغها قواعد إبراهيم.

ولكن رسـول الله ﷺ بعد أن استقر له الأمر في الجزيرة لم يجد ضـرورة لتجديد زيادة بها، وآثر تركها على ما انتهت إليه؛ عن عائشـة رضـي الله عنها، قالت: قال لي النبي ﷺ: «ألم تري أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصـروا عن قواعد إبراهيم؟» قلت: يا رسـول الله، ألا تردها إلى قواعد إبراهيم؟ فقال: «لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت!» قال ابن عمر: لئن كانت عائشـة سمعت هذا من رسـول الله ﷺ، ما أرى أن رسـول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم. قال العلماء: والمراد بقول الرسـول ﷺ الانف، قرب العهد بالجاهلية، وضـعف اسـتمكان الإيمان، مما يجعل العرب ينفرون من هدم الكعبة وتغيير هيئتها ...

---

[387] ففعل ذلك، فوقع.

[388] أخرجه البخاري (1582) ومسلم (340).

[389] الحاكم (458/1 - 459) وعبد الرزاق (100/5 - 101) والبيهقي في الدلائل (56/2 - 57).

ولو كانت إعادة الكعبة كما بناها إبراهيم فريضة، ما تركها رسول الله ﷺ، ولكن الأمر أخف من أن تثار لأجله مشكلات عويصة[390].

وأصبح ارتفاع الكعبة ثماني عشرة ذراعاً، ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج؛ لئلا يدخلَ إليها كلُّ أحد، فيُدخلوا من شاؤوا؛ وليمنعوا الماء من التسرُّب إلى جوفها، وأُسند سقفها إلى ستَّة أعمدةٍ من الخشب، إلا أنَّ قريشاً قصَّرت بها النَّفقة الطَّيبة عن إتمام البناء على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحِجْر، وبنوا عليه جداراً قصيراً دلالةً على أنَّه منها، لأنَّهم شرطوا على أنفسهم ألاَّ يدخل في بنائها إلا نفقةٌ طيّبةٌ، ولا يدخلها مهر بَغِيٍّ، ولا بيع رباً، ولا مظلمةُ أحدٍ من النَّاس[391].

هذا السياق يدل على مدى تأثرهم بالكعبة المكرمة وتعظيمهم لها، ومكانتها عندهم، ويدل أيضا على أن الكعبة الشريفة واتصالها بالخليل إبراهيم جعلت حبلهم موصولا به، وأوجد ذلك فيهم نوعا من الوجدان الحي، كان هو النبت الذي صار زرع الإيمان والتوحيد من بعد ذلك[392].

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

1 - أهمِّيَّة الكعبة، وقداستها عند قريش، ويكفي أن باشر تأسيسها، ورفع قواعدها إبراهيم، وابنه إسماعيل - عليهما الصَّلاة والسَّلام - بأمرٍ من الله تعالى؛ لتكون أوَّل بيتٍ لعبادة الله وحدَه.

2 - بُنِيت الكعبة خلال الدَّهر كلِّه أربع مرَّات على يقينٍ؛ فأمَّا المرَّة الأولى منها، فهي الَّتي قام بأمر البناء فيها إبراهيم - عليه الصَّلاة والسلام - يعينه ابنه إسماعيل - عليه الصَّلاة والسَّلام -، والثانية: فهي تلك التي بنتها قريش قبل البعثة، واشترك في بنائها النَّبيُّ ﷺ،

---

[390] فقه السيرة، للغزالي، (ص85).

[391] وقفات تربويَّة، ص 57، ورسالة الأنبياء، لعمر أحمد عمر، (29/3، 30).

[392] خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، (1/ 150).

والثالثة: عندما احترق البيت في زمن يزيد بن معاوية، بفعل الحصار الَّذي ضربه الحُصين السُّكوني على ابن الزُّبير حتَّى يستسلم، فأعاد ابن الزُّبير بناءها، وأمَّا المرَّة الرَّابعة ففي زمن عبد الملك بن مروان بعدما قُتِل ابن الزُّبير، حيث أعاده على ما كان عليه زمن النَّبيِّ ﷺ [393]؛ لأنَّ ابن الزُّبير باشر في رفع بناء البيت، وزاد فيه الأذرع السِّتَّة التي أخرجت منه، وزاد في طوله إلى السَّماء عشرة أذرع، وجعل له بابين: أحدهما يُدخل منه، والآخر يُخرج منه، وإنَّما جرَّأه على إدخال هذه الزِّيادة حديث عائشة عن رسول الله ﷺ: «يا عائشة! لولا أنَّ قومك حديثو عهدٍ بجاهليَّةٍ؛ لأمرت بالبيت، فهُدم؛ فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً، فبلغتُ به أساس إبراهيم»[394].

3 – طريقة فضِّ التنازع كانت موفَّقةً، وعادلةً، ورضي بها الجميع، وحقنت دماءً كثيرةً، وأوقفت حروباً طاحنةً، وكان مِنْ عدل حكمه ﷺ أن رضيت به جميع القبائل، ولم تنفرد بشرف وضع الحجر قبيلةٌ دون الأخرى، وهذا مِنْ توفيق الله لرسوله ﷺ، وتسديده قبل بعثته. إنَّ دخول رسول الله ﷺ من باب الصَّفا كان قَدَراً من الله لحلِّ هذه الأزمة المستعصية، الَّتي حُلَّت نفسياً قبل أن تُحلَّ على الواقع، فقد أذعن الجميع لما يرتضيه محمَّد ﷺ، فهو الأمين الَّذي لا يَظْلِمُ، وهو الأمين الَّذي لا يحابي، ولا يفسد، وهو الأمين على البيت، والأرواح، والدِّماء[395].

4 – إنَّ حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النَّبيِّ ﷺ الأدبيَّة في الوسط القرشيِّ[396]، وحصل لرسول الله ﷺ في هذه الحادثة شرفان: شرف فصل الخصومة، ووقف القتال المتوقَّع بين قبائل قريش، وشرف تنافس القوم عليه وادَّخره الله لنبيِّه ﷺ، ألا وهو

(393) السِّيرة النَّبويَّة، للبوطي، ص 57، 58.

(394) البخاري (1586) ومسلم (401/1333).

(395) السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 125.

(396) السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري، (116/1).

وضعُ الحجر الأسود بيديه الشَّريفتين، وأخذه من البساط بعد رفعه، ووضعُه في مكانه من البيت[397].

5 - إنَّ المسلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلهيّ، وكمال التَّوفيق الرَّبَّانيّ في سيرة رسول الله ﷺ، كما يلاحظ كيف أنَّ الله أكرم رسوله ﷺ بهذه القدرة الهائلة على حلِّ المشكلات بأقرب طريقٍ، وأسهله، وذلك ما تراه في حياته كلِّها ﷺ، وذلك معلَمٌ من معالم رسالته، فرسالتُه إيصالٌ للحقائق بأقرب طريقٍ، وحلٌّ للمشكلات بأسهل أسلوبٍ، وأكمله[398].

6 - من حفظ الله لنبيِّه ﷺ في شبيبته، عن أقذار الجاهليَّة، وأدرانها، ومعائبها، ما وقع له عندما كان ينقل الحجر، أثناء بناء الكعبة، ورفع إزاره على رقبته، فخرَّ إلى الأرض، وطَمَحَتْ عينُه إلى السَّماء، ثمَّ آفاق يقول: إزاري! إزاري! فشد عليه إزاره، فما رُئِيَ بعد ذلك عُرْياناً ﷺ[399].

إن الدّاعيةَ ما لم يكن قوّاما على الحق في قومه، فلن يستطيع أن يقودهم إلى النور، ويخرجهم من الظلمات، والتميز والمفاصلة في السلوك والموقف والعقيدة. أمر أساسي بالنسبة للدعاة إلى الله.

والذين يضعفون أمام إغراءات الجاهلية يسقطون في مجتمعاتهم قبل أن يسقطوا في نفوسهم. لكن هناك خطا فاصلا واضحا يحسن أن يتبينه الدعاة إلى الله؛ هذا الخط هو الذي يحدد التعامل مع المجتمع الذي يعيشون فيه، فالمشاركة في أمور الخير والعمل لدفع الأذى والظلم، والعطف على آلام الناس والشعور بأحاسيسهم والتعايش مع أفراحهم، والمواساة في أحزانهم- ما لم يكن في ذلك منكر أو إثم- هذه واجبات على الداعية أن يؤديها، ويساهم

(397) السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 125، 126.

(398) الأساس في السُّنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة، (175/1).

(399) أخرجه البخاري (1582) ومسلم (340).

فيها، وليست تفضلا يتفضل به على الناس هذا الخط الواضح يمكن أن نعبر عنه بكلمة جامعة هو المشاركة في الفضائل، والتنزه عن الجهالات والرذائل، والترفع عن سفاسف الأمور، ومباذلها الرخيصة[400].

نفقه كلّ ذلك من خلال مشاركة النبي ﷺ لقومه في حرب الفجار، وبناء الكعبة وحلف الفضول، والتحكيم في الحجر الأسود، وهو المحفوظ من الله تعالى، والمصنوع على عينه. فلو كان في هذه الأمور خطأ أو خلل لنزه الله تعالى نبيه عن ذلك، كما رأينا في الفقرة الأولى في صرفه عليه الصلاة والسلام من ربه عن انحرافات الجاهلية وعباداتها وعقائدها وممارساتها، والخلق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيه ﷺ، وما زال يزكو وينمو حتى أصبح محط أنظار مجتمعه، وصار مضرب المثل فيهم، حتى ليلقبوه بالأمين. وتهفو قلوب الرجال والنساء إليه على السواء- رغم العجيج الفارغ للمتبذلين والفاسقين- يعطينا صورة حية عن قيمة الأخلاق في المجتمع، وعن احترام صاحب الخلق ولو في المجتمع المنحرف.

وهذه المقدمات هي التي مكنت الرسول ﷺ من إيقاف حرب مدمرة في قومه من خلال التحكيم في وضع الحجر الأسود، فقد اغتبط الجميع أن كان الداخل هو (الأمين)، وأعلنوا رضاءهم بحكمه قبل أن يصدر حكمه لثقتهم بنزاهته، وتجرده وموضوعيته.

كيف استطاع بعبقريته ﷺ أن يطرح بهذه البداهة والحكمة والحزم فكرة وضع الحجر في الثوب، ومساهمة الجميع في حمله وتشرفهم في وضعه في مكانه.

لقد كان جزءا من قومه حين وقع الاعتداء عليهم، فدافع عنهم، ورمى بأسهم وأنبل لأعمامه في حرب الفجار.

وكان جزءا من قومه يوم شارك في عقد حلف الفضول وأن يكونوا يدا واحدة على الظالم، وحمى قومه من حرب عنيفة قد تأكل الأخضر واليابس، وأحل الوئام مكان الخصام،

[400] فقه السيرة النبوية، لمنير الغضبان، ص105.

وغدا قلبَ مجتمعه، وصاحبَ السيادة فيه[401].

ختاماً، إن المشاركة الفعَّالة في معالجة مشكلات المجتمع تُعد ركنا أساسياً في تحقيق القيم الكبرى كالعدل والحرية، ومن يسعى لتطبيق هذه القيم العظيمة، يساهم بشكل كبير في بناء مجتمع متحضّر قوي ومتماسك يسوده العدل والإنصاف والمساواة والحرية.. يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ **[المائدة: 2]**. ويقول سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ **[التوبة: 71]**.

---

[401] فقه السيرة النبوية، لمنير الغضبان، ص107.

الفصل الرابع: بزوغ النور: القيم الإنسانية والحضارية في السيرة النبوية المكية

يستعرض هذا الفصل تجليات القيم الإنسانية والحضارية في السيرة النبوية خلال العهد المكي، حيث بدأت رسالة النبي محمد ﷺ تتشكل وتبرز في مجتمع مكة المفعم بالتحديات والمخاطر. في هذه الفترة، تألق النبي المصطفى ﷺ؛ بقيمه النبيلة، ومبادئه الإنسانية، مما كان له دور حاسم في مواجهة التحديات الاجتماعية والأخلاقية والنفسية لدى المكيين. ومن خلال استعراض الأحداث والتفاعلات التي سطعت فيها تلك القيم، نلقي الضوء على كيفية تأثير هذه المبادئ في تشكيل الأسس الحضارية للمجتمع الإسلامي الناشئ.

أولاً: النبي ﷺ وخديجة رضي الله عنها (الوفاء كقيمة إنسانية عظيمة في حياة النبي):

في تاريخنا الإسلامي، تُجسّد حياة نبينا محمد ﷺ، مع أمنا خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)، نموذجاً يحتذى به للعلاقة الزوجية الناجحة المبنية على الحب والاحترام المتبادل، والتشارك والتشاور، والإعانة على المعروف والخير. وعندما التقى النبي ﷺ بخديجة لم يكن ذلك مجرد بداية لحياة جديدة، بل كان بداية لشراكة حقيقية، كان لها أثرها في الإسلام، ونشر رسالته، فقد كان لخديجة رضي الله عنه دور محوري في مساندة النبي ﷺ ودعمه منذ اللحظات الأولى لنزول الوحي، حيث كانت أول من آمن برسالته، ودعمته معنويا ومادياً، ووقفت بجانبه في تلك اللحظات العصيبة بالنسبة للنبي ﷺ . إن علاقة النبي ﷺ بخديجة رضي الله عنها لم تكن مجرد علاقة عائلية وحسب، بل كانت شراكة متكاملة أثرت بعمق في مسيرة الدعوة الإسلامية.

1. تعرف النبي ﷺ على خديجة رضي الله عنها من خلال التجارة وزواجه منها:

مرّ معنا أن خديجة بنت خويلد رضـي الله عنها كانت أرملةً[402] ذات شـرفٍ، ومالٍ، تستأجر الرِّجال ليتَّجروا بمالها، فلـمَّا بلغها عن محمَّد ﷺ صدق حديثه، وعظم أمانته، وكَرَم أخلاقه، عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشَّـام تاجراً، وتعطيه أفضـل ما تعطي غيره من التُّجار، فقبل، وسافر معه غلامها ميسرةُ، وقدما الشَّام، وباع محمَّد ﷺ سلعته الَّتي خرج بها، واشترى ما أراد من السِّلع، فلـمَّا رجع إلى مكَّة، وباعت خديجة ما أحضره لها؛ تضاعف مالها.

ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا، وأُخبرت بشـمائله الكريمة، ووجدت ضالَّتها المنشودة، فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبِّه، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوَّج خديجة[403]، فرضـي بذلك، وعرض ذلك على أعمامه، فوافقوا كذلك، وخرج معه عمُّه حمزة بن عبد المطلب، فخطبها إليه، وتزوَّجها رسول الله ﷺ وأصدقها عشرين بَكرةً، وكانت أوَّل امرأةٍ تزوَّجها رسـول الله ﷺ ولم يتزوَّج غيرها؛ حتَّى ماتت رضـي الله عنها[404].

كان زواج الحبيب المصـطفى ﷺ للسَّـيدة خديجة بتقدير الله تعالى، ولقد اختار الله – سـبحانه وتعالى – لنبيِّه زوجةً تناسـبه، وتؤازره، وتُخفِّف عنه ما يصـيبه، وتعينه على حمل تكاليف الرِّسالة، وتعيش همومه[405].

قال الشَّـيخ محمَّد الغزالي – رحمه الله! –: وخديجة مَثلٌ طيِّبٌ للمرأة الَّتي تكمِّل حياة الرَّجل العظيم. إنَّ أصحاب الرِّسالات يحملون قلوباً شديدة الحساسية، ويلقون غبْناً بالغاً من

[402] تزوجها عتيق بن عائذ، ثمَّ مات عنها، فتزوَّجها أبو هالة، ومات عنها أيضاً.

[403] مواقف تربويَّة، ص 56.

[404] السِّيرة النَّبوية، لأبي فارس، ص 122.

[405] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (122/1، 123).

الواقع الَّذي يريدون تغييره، ويقاسون جهاداً كبيراً في سبيل الخير الَّذي يريدون فرضه، وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهَّد حياتهم الخاصَّة بالإيناس، والتَّرفيه، وكانت خديجة سبَّاقةً إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمَّدٍ ﷺ أثرٌ كريم[406].

2. مساندة خديجة رضي الله عنها للنبي ﷺ في أصعب الظروف وأشدّ الأحوال:

كان النَّبيُّ ﷺ قد بلغ الأربعين من عمره، وكان يخلو في غار حراء بنفسه ويتفكَّر في هذا الكون، وخالقه، وكان تعبُّده في الغار يستغرق ليالي عديدةً؛ حتَّى إذا نفد الزَّاد؛ عاد إلى بيته، فتزوَّد لليالٍ أخرى[407]، وفي نهار يوم الإثنين من شهر رمضان جاءه جبريل لأوَّل مرَّةٍ داخل غار حراء[408]، وقد نقل البخاريُّ في صحيحه حديث عائشة رضي الله عنها، والبخاريُّ «أبو الصِّحاح، وكتب السُّنن، والمسانيد، وكتب التاريخ»، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أوَّلُ ما بُدىءَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّالحة في النَّوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح، ثمَّ حُبِّبَ إليه الخلاءُ، فكان يخلو بغار حراء، فَيَتَحَنَّثُ فيه – وهو التَّعبُّد – الليالي ذواتِ العددِ، قبل أن يَنْزِعَ إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثمَّ يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتَّى جاءه الحقُّ؛ وهو في غار حراءٍ، فجاءه الملكُ، فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني، فغَطَّني حتَّى بلغ مني الجهدَ، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثانية حتَّى بلغ مني الجهدَ، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثالثة، ثمَّ أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ **[العلق: 1-5]** ».

فرجع بها رسولُ الله ﷺ يَرْجُفُ فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زَمِّلُوني، زَمِّلُوني، فَزَمَّلُوه حتَّى ذهب عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خَشيتُ على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً! إنَّك لتصل الرَّحم، وتحمل الكَلَّ[409]، وتُكسبُ

---

[406] فقه السِّيرة، للغزالي، ص 75.

[407] صحيح السِّيرة، للعلي، ص 67.

[408] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري، (125/1).

[409] تحملُ الكَلَّ: تنفق على الضَّعيف، واليتيم، والعيال، والكلُّ أصله: الثِّقل، والإعياء.

المعدومَ[410]، وتقري الضَّـيفَ، وتعين على نوائب الحقِّ[411]. فانطلقت به خديجة، حتَّى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسـد بن عبد العُزَّى ابن عمِّ خديجة، وكان امرأً تنصَّـر في الجاهليَّة، وكان يكتب الكتاب العِبْرَانِيَّ، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانيَّة ما شـاء الله أن يكتب، وكان شـيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عمِّ، اسْمَعْ من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسـول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا هو النَّاموس[412] الَّذي نزَّل الله على موسـى، يا ليتني فيها جَذَعاً[413]! ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله ﷺ: أوَ مُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركْني يومُك؛ أنصرْك نصراً مُؤَزَّراً[414]، ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوحي[415]».

3. أثر خديجة رضي الله عنها في خدمة الدعوة:

«فرجع بها رسول الله ﷺ يَرْجُفُ فؤادُهُ، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زمِّلوني! زملوني! فزمَّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً! إنَّك لتصـل الرَّحم، وتحمل الكلَّ، وتكسـب المعدوم، وتقري الضَّيف، وتعين على نوائب الحقِّ»[416].

كان موقف خديجة رضـي الله عنها يدلُّ على قوَّة قلبها؛ حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر، واستقبلت الأمر بهدوءٍ، وسكينةٍ، ولا أدلَّ على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى

---

[410] وتكسب المعدوم: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد، ومكارم الأخلاق.

[411] نوائب الحقّ: الكوارث، والحوادث.

[412] النَّاموس: هو جبريل ـ عليه السَّلام ـ صاحب سرِّ الخير.

[413] جَذعاً: شاباً قوياً.

[414] مؤزَّراً: قوياً بالغاً.

[415] فتر الوحي: تأخَّر نزوله.

[416] البخاري (3) ومسلم (160).

ورقة بن نوفل، وعرضها الأمر عليه[417].

كان موقف خديجة رضي الله عنها من خبر الوحي يدلُّ على سعة إدراكها؛ حيث قارنت بين ما سمعت وواقع النَّبيِّ ﷺ، فأدركت: أنَّ من جُبِلَ على مكارم الأخلاق لا يخزيه الله أبداً، فقد وصفته بأنَّه يصل الرَّحم، وكون الإنسان يصل أقاربه دليلٌ على استعداده النَّفسيِّ لبذل الخير، والإحسان إلى النَّاس؛ فإنَّ أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه، فإن نجح في احتواء أقاربه، وكسبهم بما له عليهم من معروفٍ؛ كان طبيعياً أن ينجح في كسب غيرهم من النَّاس[418].

كانت أمُّ المؤمنين السَّيدة خديجة رضي الله عنها قد سارعت إلى إيمانها الفطريِّ، وإلى معرفتها بسنن الله تعالى في خلقه، وإلى يقينها بما يملك محمَّدٌ ﷺ من رصيد الأخلاق، وفضائل الشَّمائل، ليس لأحدٍ من البشر رصيدٌ مثله في حياته الطَّبيعيَّة الَّتي يعيش بها مع النَّاس، وإلى ما ألهمت بسوابق العناية الربَّانيَّة الَّتي شهدت آياتها؛ من حفاوة الله تعالى بمحمَّدٍ ﷺ، في مواقف لم تكن من مواقف النُّبوَّة والرِّسالة، ولا من إرهاصاتها المعجزة، وأعاجيبها الخارقة، ولكنَّها كانت من مواقف الفضائل الإنسانيَّة السَّارية في حياة ذوي المكارم، من أصحاب المروءات في خاصَّة البشر[419].

كانت موقنةً بأنَّ زوجها فيه من خصال الجبلَّة الكماليَّة، ومحاسن الأخلاق الرَّصينة، وفضائل الشِّيم المرضيَّة، وأشرف الشَّمائل العليَّة، وأكمل النَّحائز[420] الإنسانيَّة، ما يضمن له الفوز ويحقِّق له النَّجاح، والفلاح، فقد استدلَّت بكلماتها العميقة على الكمال المحمَّديِّ[421]،

---

[417] التَّاريخ الإسلاميّ، للحميدي، (61/1).

[418] التَّاريخ الإسلاميّ، المصدر السابق، (64/1).

[419] محمَّدٌ رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصادق عرجون، (307/1).

[420] النحائز: جمع النَّحيزة، وهي الطبيعة، يقال: هو كريم النَّحيزة.

[421] محمد رسول الله، لمحمَّد الصادق عرجون، (307/1، 308).

فقد استنبطت خديجة رضي الله عنها من اتِّصاف محمَّدٍ ﷺ بتلك الصِّفات: أنَّه لن يتعرَّض في حياته للخزي أبداً؛ لأنَّ الله تعالى فطره على مكارم الأخلاق، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها.

ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعيَّة: أنَّ الله تعالى جمَّل أحداً من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة، ثمَّ أذاقه الخزي في حياته، ومحمَّدٌ ﷺ بلغ من المكارم ذروتها، فطرةٌ فطره الله عليها لا تُطاوَل، ولا تُسامَى[422].

ولم تكتفِ خديجة رضي الله عنها بمكارم أخلاق النَّبيِّ ﷺ على نبوَّته؛ بل ذهبت إلى ابن عمِّها العالم الجليل ورقة بن نوفل – رحمه الله! – الَّذي كان ينتظر ظهور نبيٍّ آخر الزَّمان، لما عرفه من علماء أهل الكتاب من دنوِّ زمانه، واقتراب مبعثه، وكان لحديث ورقة أثرٌ طيِّبٌ في تثبيت النَّبيِّ ﷺ وتقوية قلبه، وقد أخْبَرَ النَّبيَّ ﷺ بأنَّ الذي خاطبه هو صاحب السِّرِّ الأعظم، الَّذي يكون سفيراً بين الله تعالى، وأنبيائه – عليهم الصَّلاة والسَّلام – ومن أشعار ورقة التي تدل على انتظاره لمبعث النَّبيِّ ﷺ قوله:

لَـجَجْتُ وكنتُ في الـذِّكْرى لَجُوجَا ... لِهَمٍّ طَالَما بَعَثَ النَّشِـيجَا
وَوَصْفٍ من خَدِيجةَ بَعْدَ وَصْفٍ ... فَقَدْ طَالَ انْتِظَارِي يا خَدِيجَا
بِبَطْنِ المكَّتَيْنِ[423] عَلَى رَجَائي ... حَدِيْثَكِ أن أرَى مِنْهُ خُرُوجا
بما خَبَّرْتِنَا مِنْ قَوْلِ قَسٍّ ... مِنَ الرُّهْبَانِ أكْرَهُ أن يَعُوجا
بأنَّ مُحَمَّداً سَيَسُودُ فِينَا ... ويَخْصِمُ مَنْ يَكُونُ لهُ حَجِيجا

النَّبيِّ ﷺ، وشهد له النَّبيُّ ﷺ بالجنَّة، فقد جاء في روايةٍ أخرجها الحاكم بإسناده عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لا تسبُّوا ورقة، فإنِّي رأيت له جنَّةً، أو

---

[422] محمد رسول الله، لمحمَّد الصادق عرجون، (232/1).

[423] بطن المكَّتين: جانبي مكَّة، أو بطاحها، وظواهرها.

[424] سيرة ابن هشام، (194/1).

جنَّتين»[425].

وعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ خديجة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ عن ورقة، فقال: «قد رأيته فرأيت عليه ثياباً بيضـاً، فأحسـبه لو كان من أهل النَّار لم يكن عليه ثياب بيض». قال الهيثميُّ: وروى أبو يعلى بسندٍ حسنٍ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ رسـول الله ﷺ سـئل عن ورقة بن نوفل، فقال: «أبصـرته في بُطْنان[426] الجنَّة وعليه السُّندس»[427].

لقد قامت خديجة رضـي الله عنها بدورٍ مهمٍّ في حياة النَّبيِّ ﷺ؛ لما لها من شـخصـيةٍ في مجتمع قومها، ولما جُبلت عليه من الكفاءة في المجالات النَّفسـيَّة، الَّتي تقوم على الأخلاق العالية؛ من الرَّحمة، والحلم، والحكمة، والحزم، وغير ذلك من مكارم الأخلاق. والرَّسـول ﷺ قد وفقه الله تعالى إلى هذه الزَّوجة المثاليَّة؛ لأنَّه قدوةٌ للعالمين، وخاصَّـةً الدُّعاة إلى الله، فقيام خديجة بذلك الدَّور الكبير إعلامٌ من الله تعالى لجميع حملة الدَّعوة الإسلاميَّة بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال، من التأسِّي برسول الله ﷺ، حتَّى يتحقَّق لهم بلوغ المقاصد العالية الَّتي يسعون لتحقيقها[428].

إنَّ السـيدة خديجة رضـي الله عنها مثالٌ حسـنٌ، وقدوةٌ رفيعةٌ لزوجات الدُّعاة، فالدَّاعية إلى الله ليس كباقي الرِّجال الَّذين هم بعيدون عن أعباء الدَّعوة، ومن الصَّعب أن يكون مثلهم في كلِّ شيءٍ؛ إنَّه صاحب هَمٍّ، ورسالةٍ، هَمٍّ على ضياع أمَّته، وانتشار الفساد، وزيادة شوكة أهله، وهَمٍّ لما يصيب المسـلمين في مشـارق الأرض، ومغاربها، من مؤامراتٍ، وظلمٍ، وجوعٍ، وإذلالٍ، وما يصـيب الدُّعاة منهم من تشـريدٍ، وتضـييقٍ، وتنكيلٍ، وبعد ذلك هو صـاحب

---

[425] أخرجه الحاكم (609/2) والبزار (2750 و2751) ومجمع الزوائد (416/9).

[426] بُطنان: البُطنان من الشَّيء: وسطُه.

[427] أبو يعلى (2047) ومجمع الزوائد (416/9).

[428] التَّاريخ الإسلامي، للحميدي، (69/1).

رسالة؛ واجب عليه تبليغها للآخرين، وهذا الواجب يتطلَّب وقتاً طويلاً يأخذ عليه أوقات نومه، وراحته، وأوقات زوجته، وأبنائه، ويتطلَّب تضحيةً بالمال والوقت، والدُّنيا بأسرها، ما دام ذلك في سبيل الله ومرضاته، وإن أوتيت الزَّوجة من الأخلاق، والتَّقوى، والجمال، والحسب ما أوتيت، إنَّه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدَّعوة، وأهمِّيتها، وتدرك تماماً ما يقوم به الزَّوج، وما يتحمَّله من أعباء، وما يعانيه من مشاقّ، فتقف إلى جانبه تيسِّر له مهمَّته وتعينه عليها، لا أن تقف عائقاً، وشوكةً في طريقه(429).

إنَّ المرأة الصَّالحة لها أثرٌ في نجاح الدَّعوة، وقد اتَّضح ذلك في موقف خديجة رضي الله عنها، وما قامت به من الوقوف بجانب النَّبيِّ ﷺ وهو يواجه الوحي لأوَّل مرَّةٍ، ولا شكَّ: أنَّ الزَّوجة الصَّالحة المؤهَّلة لحمل مثل هذه الرِّسالة، لها دورٌ عظيمٌ في نجاح زوجها في مهمَّته في هذه الحياة، وبخاصةٍ الأمور التي يعامل بها النَّاس، وإنَّ الدَّعوة إلى الله تعالى هي أعظم أمر يتحمَّله البشر، فإذا وُفِّق الدَّاعية لزوجةٍ صالحةٍ ذات كفاءةٍ، فإنَّ ذلك من أهمِّ أسباب نجاحه مع الآخرين(430)، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «الدُّنيا متاعٌ، وخير متاع الدُّنيا المرأةُ الصَّالحةُ»(431).

4 - إسلام السَّيدة خديجة رضي الله عنها:

كان أوَّل من آمن بالنَّبيِّ ﷺ من النِّساء، بل أوَّل من آمن به على الإطلاق، السَّيدة خديجة رضي الله عنها، فكانت أوَّل من استمع إلى الوحي الإلهي من فم الرَّسول الكريم ﷺ، وكانت أوَّل من تلا القرآن بعد أن سمعته من صوت الرَّسول العظيم ﷺ، وكانت كذلك أوَّل من تعلَّم الصَّلاة من رسول الله ﷺ، فبيتُها هو أوَّل مكان تُلي فيه أوَّل وحيٍ نزل به جبريل

---

(429) وقفات تربوية من السِّيرة النبوية، للبلالي، ص 40.

(430) التَّاريخ الإسلاميِّ، للحميدي، (68/1).

(431) أحمد (168/2) ومسلم (1467) والنسائي في السنن الكبرى (5325) وابن ماجه (1855).

على قلب المصطفى الكريم بعد غار حراء[432].

كان أوَّل شيءٍ فرضه الله من الشرائع بعد الإقرار بالتَّوحيد، إقامة الصَّلاة، وقد جاء في الأخبار حديث تعليم الرَّسول ﷺ زوجه خديجة الوضوء، والصَّلاة، حين افتُرضت على رسول الله: أتاه جبريل وهو بأعلى مكَّة، فهمز له بعَقبهِ في ناحية الوادي، فانفجرت منه عينٌ، فتوضَّأ جبريلُ عليه السلام، ورسولُ الله ﷺ ينظر ليُرِيَه كيفية الطُّهور للصَّلاة، ثمَّ توضَّأ رسولُ الله ﷺ كما رأى جبريل توضَّأ، ثمَّ قام جبريل عليه السلام فصلَّى به، وصلَّى النَّبيُّ ﷺ بصلاته، ثمَّ انصرف جبريل عليه السلام، فجاء رسول الله ﷺ خديجة رضي الله عنها، فتوضَّأ لها يريها كيف الطُّهور للصَّلاة، كما أراه جبريل عليه السلام، فتوضَّأت كما توضَّأ رسول الله ﷺ، ثمَّ صلَّى بها رسولُ الله ﷺ، كما صلَّى به جبريل عليه السلام، فصلَّت بصلاته[433].

5. وفاة خديجة رضي الله عنها:

توفِّيت السَّيدة خديجة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين[434]في العام نفسه لوفاة أبي طالبٍ عمّ النبي صلى الله عله وسلم[435].

وبموت أبي طالبٍ؛ الَّذي أعقبه موت خديجة رضي الله عنها، تضاعف الأسى، والحزن على رسول الله ﷺ، بفقد هذين الحبيبين؛ اللَّذين كانا دعامتين من دعائم سير الدَّعوة في أزماتها، فقد كان أبو طالب السَّندَ الخارجيَّ الَّذي يدفع عنه القوم، وكانت خديجة رضي الله عنها السَّند الدَّاخلي الَّذي يخفِّف عنه الأزمات والمحن.

---

[432] المرأة في العهد النَّبويّ، عصمة الدِّين كركر، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، الطَّبعة الأولى، 1993م، ص 36.

[433] ابن هشام (260/1 - 261).

[434] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري، (185/1).

[435] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، المصدر السابق، (185/1).

6. وفاء النَّبيّ ﷺ للسَّيدة خديجة (رضي الله عنها):

كان رســـول الله ﷺ مثالاً عالياً للوفاء، وردِّ الجميل لأهله، فقد كان في غاية الوفاء مع زوجته المخلصـــة في حياتها، وبعد مماتها، وقد بشَّـــرها ﷺ ببيتٍ في الجنَّة في حياتها، وأبلغها سلام الله – جلَّ وعلا – وسلام جبريل عليه السلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى جبريلُ النَّبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله! هذه خديجة قد أتتك، معها إناءٌ فيه إدامٌ – أو طعامٌ، أو شرابٌ – فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السَّلام من ربِّها – عزَّ وجلَّ – ومني، وبشِّرها ببيت في الجنَّة من قَصَبٍ[436]لا صَخَبَ فيه، ولا نَصَبَ»[437].

وتذكر عائشـــة رضـــي الله عنها وفاء النَّبيِّ ﷺ لخديجة بعد وفاتها بقولها: «ما غرتُ على أحدٍ من نساء النَّبيِّ ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكنْ كان النَّبيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذكرها، وربما ذبح الشَّاة، ثمَّ يُقطِّعُها أعضاء، ثمَّ يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنَّه لم يكن في الدُّنيا امرأةٌ إلا خديجةُ؟ فيقول: إنَّها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد»[438].

وأظهر ﷺ البشاشة، والسُّرور لأخت خديجة، لـــمَّا استأذنت عليه لتذكُّره خديجة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «استأذنت هالةُ بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف اســـتئذان خديجة[439] فارتاح لذلك، فقال: اللهم هالةُ بنتُ خويلدٍ! فغِرْت، فقلت: وما تَذْكُرُ من عجوزٍ من عجائز قريش، حمراء الشِّـــدْقَيْنِ[440] هلكت في الدَّهر؛ فأبدلك الله خيراً منها»[441]. وأظهر ﷺ الحفاوة بامرأةٍ كانت تأتيهم زمن خديجة، وبيَّن: أن حفظ العهد

---

[436] يعنى من لؤلؤ، أو ذهب.

[437] أخرجه البخاري (3820) ومسلم (2432).

[438] أخرجه البخاري (3818) ومسلم (2435) واللفظ للبخاري.

[439] يعني: لتشابه صوتيهما.

[440] يعني: لا أسنان لها من الكبر.

[441] البخاري (3821) ومسلم (2437).

من الإيمان[442].

في ضـوء ما تم استعراضـه من تفاصيل العلاقة العميقة بين النبي ﷺ وزجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، يتضح بجلاء كيف تجسدت قيمة الوفاء عند النبي صلى الله عليه في أسمى صـورها، حيث ظهر ذلك واضحاً في تقديره لها بعد موتها، حتى كن نساؤه يغرن منها لكثرة ما يذكرها.

هذا الوفاء الذي تجســد في شـــخص النبي محمد ﷺ يقدم درســاً قيماً في كيفية بناء العلاقات الإنســانية، مبنياً على الاحترام والإخلاص والوفاء. لقد كانت علاقة النبي ﷺ بخديجة رضي الله عنها نموذجاً يُحتذى به في الحفاظ على القيم الإنسانية الرفيعة، ويستمر في إلهام الأجيال بعمق معاني الوفاء والإخلاص.

ثانياً: القيم الإنسانية والحضارية المؤسسة للجماعة الإسلامية الأولى:

تتجسد القيم الإنسانية التي ربّى فيها نبيّنا محمد ﷺ الجماعة الأولى من أصحابه في تعاليم الإسلام والنهج النبوي الذي اتبعه في تربيته لهم. ومن أبرز هذه القيم:

1. التقوى والإخلاص :زرع النبي ﷺ في نفوس أصحابه حب الله والخشية منه، ودعاهم إلى الإخلاص في الأعمال والنيات، مستشهدًا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ **[التوبة: 119]**.
2. العدل والمساواة :أكد نبينا ﷺ على العدل والمساواة بين الناس بغض النظر عن العرق أو اللون أو الوضع الاجتماعي، وقال: "إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد."

---

[442] التاريخ الإسلامي، للحميدي، (71/1).

3. الرحمة والرفق :كان النبي ﷺ رحيمًا بأصحابه، حتى أنه قال: "إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ".

4. الصبر والتسامح :كان يعلمهم الصبر على الأذى والتسامح مع الآخرين، ويقول: "لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ".

5. الصدق والأمانة :غرس في نفوسهم قيمة الصدق والأمانة في كل معاملات الحياة، حيث قال: "إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا."

6. التعاون والإيثار :حثهم على التعاون فيما بينهم والإيثار، حتى قال: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى."

هذه القيم الإنسانية التي ربّى النبي ﷺ أصحابه عليها جعلت منهم جيلًا متميزًا قادرًا على بناء مجتمع قوي ومتماسك، ونشر رسالة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

وكانت الجماعة الأولى قد برزت فيها خصائص مهمّة؛ جعلتها تتقدّم بخطواتٍ رصينةٍ نحو صياغة الشّخصية المسلمة، الّتي تقيم الدّولة المؤمنة، وتصنع الحضارة الرّائعة، ومن أبرز هذه الخصائص:

1 – الاستجابة الكاملة للوحي، وعدم التّقديم بين يديه:

إنَّ العلم، والفقه الصَّحيح الكامل في العقائد، والشّرائع، والآداب وغيرها، لا يكون إلا عن طريق الوحي المنزَّل – قرآناً وسنَّةً – وذلك بالعلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، ومعرفة ما يجب له، وما ينزَّه عنه – سبحانه وتعالى – والعلم بالملائكة، والكتاب، والنّبيّين، والعلم بالآخرة، والجنَّة، والنّار، والعلم بالشّرائع المجملة والمفصَّلة، والأحكام المتعلِّقة بالمكلَّفين، والعلم

بالمسلك الصَّحيح الَّذي ينبغي سلوكه في سائر الأحوال: في الغضب والرِّضا، في القصد والغنى، في الأمن والخوف، في الخير والشَّرِّ، في الهدنة والفتنة، والتزام الدَّليل الشَّرعيِّ هو منهج الَّذين أنعم الله عليهم بالإيمان الصَّحيح[443]. قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: 181] .

لقد كان الصَّحابة رضي الله عنهم أعظم من غيرهم انتفاعاً بالدَّليل والوحي، وتسليماً له؛ لأسبابٍ عديدةٍ؛ منها:

أ – نزاهة قلوبهم، وخلوُّها من كلِّ ميلٍ أو هوًى غير ما جاءت به النُّصوص، واستعدادها التَّامُّ لقبول ما جاء عن الله، ورسوله ﷺ، والإذعان، والانقياد له انقياداً مطلقاً دون حرجٍ، ولا تردُّدٍ، ولا إحجامٍ.

ب – معاصرتهم لوقت التَّشريع، ونزول الوحي، ومصاحبتهم للرَّسول ﷺ، ولذلك كانوا أعلم النَّاس بملابسات الأحوال الَّتي نزلت النُّصوص فيها، والعلم بملابسات الواقعة أو النَّصِّ من أعظم أسباب فقهه، وفهمه، وإدراك مغزاه.

ج – وكانت النُّصوص – قرآناً وسنَّةً – تأتي في كثيرٍ من الأحيان لأسبابٍ تتعلَّق بهم – بصورةٍ فرديَّةٍ، أو جماعيَّةٍ – فتخاطبهم خطاباً مباشراً، وتؤثِّر فيهم أعظم التأثير؛ لأنَّها تعالج أحداثاً واقعيَّةً، وتعقب في حينها، حيث تكون النُّفوس مشحونةً بأسباب التأثُّر، متهيِّئةً لتلقِّي الأمر، والاستجابة له.

د – قد أعفاهم قرب عهدهم بالنَّبيِّ ﷺ من الجهد الَّذي احتاج إليه من بعدهم في تمييز النُّصوص، وتصحيحها، فلم يحتاجوا – في غالب أحوالهم – إلى سلسلة الإسناد، ولا معرفة الرِّجال، والعلل، وغيرها، ولم يختلط عليهم الصَّحيح بغيره، ومن ثمَّ لم يقع عندهم التردُّد في ثبوت النَّص الَّذي وقع عند كثيرٍ ممَّن جاء بعدهم – خاصَّةً من أصحاب النُّفوس المريضة، أو

---

[443] صفة الغرباء، سلمان العودة، دار ابن الجوزيِّ، الطَّبعة الثَّانية، 1412هـ، 1991م، ص 83.

من الجهلة الَّذين لم يدرســـوا السُّـــنَّة، ويفقهوها روايةً، ودرايةً[444] – فكانوا إذا سمعوا أحداً يقول: قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارُهم، كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما[445].

2 – التَّأثُّر الوجدانيُّ العميق بالوحي والإيمان:

كان الصَّـــحابة يتعاملون مع العلم الصَّـــحيح، ليس كحقائق علميَّةٍ مجرَّدةٍ يتعامل معها العقل فحســـب، دون أن يكون لها علاقةٌ بالقلب، والجوارح؛ فقد أورثهم العلم بالله، وأسمائه، وصـفاته، وأفعاله – محبَّته، والتألُّه إليه، والشَّـوق إلى لقائه، والتَّمتُّع بالنَّظر إلى وجهه الكريم في جنَّة عدنٍ، وأورثهم تعظيمه، والخوف منه، والحذر من بأســـه، وعقابه، وبطشـــه، ونقمته، وأورثهم رجاء ما عنده، والطَّمع في جنَّته، ورضـــوانه، وحســـن الظَّنِّ به، فاكتملت لديهم – بذلك – آثار العلم بالله، والإيمان به، وهي الحبُّ، والخوف، والرَّجاء.

وأورثهم العلم بالجنَّة، والنَّار الرَّغبةَ في النَّعيم الأبديِّ السَّـــرمديِّ، والخوف من مقاســـاة العذاب الرَّهيب، فقلوبهم تتراوح بين نعيمٍ ترجوه، وتخشـــى فوته، وعذابٍ تحذره، وتخشـــى وقوعه؛ فتعلَّقت قلوبهم بالآخرة – فكرةً، وخوفاً، ورجاءً – حتَّى كأنَّهم يرون البعث، والقيامة، والميزان، والصِّـــراط، والجنَّة، والنَّار رأيَ العين. وأورثهم علمهم بالقدر، وأنَّه أمرٌ قد فُرِغ منه – التَّوكُّل على الله، وعدم التَّوكلِ على الأسباب، وعدم الفرح بما أوتوا، ولا الأسَى على ما مُنعوا، والإجمال في الطَّلب؛ إذ لن يفوت المرء ما قدِّر لـه، ولن يأتيه ما لم يقدَّر، كما غرس في نفوســـهم الشَّـــجاعة، والإقدام. وأورثهم علمُهم بالموت، وإيمانُهم به – العزوفَ عن الدُّنيا، والإقبال على الآخرة، والدَّوام على العمل الصَّـــالح؛ إذ لا يدري المرء متى يموت، والموت منه قريب. وهذه المعاني الوجدانيَّة هي المقصـــود الأعظم من تحصـــيل العلم، وإذا فقدت فلا ينفع مع فقدها علمٌ، بل هو ضررٌ في العاجل، والاجل[446].

---

[444] صفة الغرباء، ص 92 . 93.

[445] صفة الغرباء، المصدر السابق، ص 94.

[446] صفة الغرباء، ص 97.

ولقد كان للصَّحابة رضي الله عنهم من هذه المعاني الوجدانيَّة أعظم نصيبٍ؛ لأنَّ إيمانهم كان أعمق، وأكمل من إيمان غيرهم، ولقد تلقَّوه غضَّاً طريَّاً من النَّبيِّ ﷺ لم يَعْلَقْ بغبرة الأهواء، والغفلان[447].

وكان الصَّحابة فرساناً بالنَّهار، ورهباناً باللَّيل، لا يمنعهم علمُهم، وإيمانُهم الحقُّ وخشوعُهم للهِ من القيام بشؤونهم الدُّنيويَّة؛ من بيعٍ، وشراءٍ، وحرثٍ، ونكاحٍ، وقيامٍ على الأهل، والأولاد، وغيرهم فيما يحتاجون إليه، وكانوا بعيدين كلَّ البعد عن الإعجاب بالنَّفس، الَّذي أصيب به بعض المتعبِّدين ممَّن جاء بعدهم، فترتَّب عليه ازدراؤهم، واحتقارهم لأعمال الآخرين، واستهانةٌ بمجهوداتهم في سبيل الدِّين، وحطٌّ من قدرهم، فأصبحوا في الحقيقة متعبِّدين في محراب (الذَّات)، معظِّمين لأنفسهم، وهذا مصدر كلِّ رذيلةٍ خلقيَّةٍ، وسببٌ لمحق كلِّ عملٍ صالحٍ. والَّذين يصابون بهذه البليَّة المردية يشعرون بأنَّهم - وحدهم - الأوصياء على الدِّين، ويغلقون عقولهم، وأعينهم عن رؤية فضائل الآخرين، فلا يرون إلا العيوب والمساوئ؛ بل تصبح الفضائل عندهم عيوباً، ومساوئ[448].

3. مدرسة الأرقم بن أبي الأرقم:

كان النَّبيُّ ﷺ يهتمُّ بالتَّخطيط الدَّقيق المنظَّم، ويحسب لكلِّ خطوةٍ حسابها، وكان مدركاً تماماً: أنَّه سيأتي اليوم الذي يُؤمر فيه بالدَّعوة علناً، وجهراً، وأنَّ هذه المرحلة سيكون لها شدَّتها، وقوَّتها، فحاجة الجماعة المؤمنة المنظَّمة تقتضي أن يلتقي الرَّسول المربِّي مع أصحابه، فكان لابدَّ من مقرٍّ لهذا الاجتماع، فقد أصبح بيت خديجة رضي الله عنها لا يتَّسع لكثرة الأتباع، فوقع اختيار النَّبيِّ ﷺ وصحبه رضي الله عنهم على دار الأرقم بن أبي الأرقم؛ إذ أدرك الرَّسول ﷺ: أنَّ الأمر يحتاج إلى الدِّقَّة المتناهية في السِّرِّيَّة، والتَّنظيم، ووجوب التقاء القائد

(447) صفة الغرباء، المصدر السابق، ص 102.

(448) صفة الغرباء، ص 103 . 104.

المرِبّي بأتباعه في مكانٍ آمنٍ بعيدٍ عن الأنظار؛ ذلك: أنَّ استمرار اللِّقاءات الدَّوريَّة المنظَّمة بين القائد، وجنوده هو خير وسيلةٍ للتَّربية العمليَّة، والنَّظرية، وبناء الشَّخصيَّة القياديَّة الدَّعويَّة.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الرَّسول ﷺ كان يعدُّ أتباعه؛ ليكونوا بناة الدَّولة، وحملة الدَّعوة، وقادة الأمم حرصُه الشَّديد على هذا التَّنظيم السِرّيِّ الدَّقيق، فلو كان مجرد داعية لما احتاج الأمر إلى كلِّ هذا.

ولو كان يريد مجرَّد إبلاغ الدَّعوة للنَّاس؛ لكان خير مكانٍ في الكعبة؛ حيث منتدى قريشٍ كلِّها، ولكن الأمر غير ذلك؛ فلابدَّ من السِّرِّيَّة التَّامَّة في التَّنظيم، وفي المكان الَّذي يلتقي فيه مع أصحابه، وفي الطَّريقة الَّتي يحضرون بها إلى مكان اللِّقاء[449].

تَذْكُرُ كتب السِّيرة: أنَّ اتِّخاذ دار الأرقم مَقَراً لقيادة الرَّسول ﷺ كان بعد المواجهة الأولى الَّتي برز فيها سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه. قال ابن إسحاق: «وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلُّوا؛ ذهبوا في الشِّعاب، فاستخفَوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه في نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ في شِعْبٍ من شِعاب مكَّة؛ إذ ظهر عليه نفرٌ من المشركين؛ وهم يصلُّون، فناكَرُوهم. وعابوا عليهم ما يصنعون حتَّى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بِلَحي[450] بعيرٍ، فشجَّه فكان أوَّل دمٍ أُريق في الإسلام»[451].

أصبحت دار الأرقم مركزاً جديداً للدَّعوة يتجمَّع فيه المسلمون، ويتلقَّون عن رسول الله ﷺ كلَّ جديدٍ من الوحي، ويستمعون له ﷺ وهو يذكِّرهم بالله، ويتلو عليهم القرآن، ويضعون بين يديه كلَّ ما في نفوسهم وواقعهم؛ فيربيهم ﷺ على عينه كما تربَّى هو على عين

---

[449] دولة الرَّسول(ﷺ) من التَّكوين إلى التَّمكين، لكامل سلامة الدقس، دار عمَّار، عمَّان، الطَّبعة الأولى، 1415هـ 1994م، ص 218.

[450] اللَّحي: اللَّحي من الإنسان: العظم الَّذي تنبت عليه اللِّحية، ومن الحيوان العظم الذي على الفخذ.

[451] ابن هشام (281/1 - 282).

الله – عزَّ وجلَّ – وأصبح هذا الجمع هو قرَّة عين النَّبيِّ ﷺ [452] .

4. شخصيَّة النَّبيِّ ﷺ وأثرها في صناعة القادة:

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أعظم مدرسـةٍ للتَّربيَة والتَّعليم عرفتها البشـريَّة، كيف لا، وأســتاذها هو رســولُ الله ﷺ أســتاذ البشـريَّة كلِّها، وتلاميذها هم الدُّعاة والهداة، والقادة الرَّبانيُّـون الَّذين حرَّروا البشرية من رِقِّ العبودية، وأخرجوهم من الظُّلمات إلى النُّـور، بعد أن ربَّاهم الله تعالى على عينه تربيةً غير مسبوقةٍ، ولا ملحوقةٍ؟![453].

في دار الأرقم وفَّق الله تعالى رسـوله ﷺ إلى تكوين الجماعة الأولى من الصَّـحابة، الَّذين نقلهم من هباء الجاهلية إلى نور الإيمان، وأصـبحوا جميعاً من عظماء الرِّجال ومشـاهير العالم، وصنَّاع التَّاريخ البشريِّ، حيث قاموا بأعظم دعوة عرفتها البشريَّة.

إنَّ خريجي مدرســة الأرقم من عظماء الرِّجال في العالم، وهُمُ الَّذين قامت عليهم الدَّعوة، والجهاد، والدَّولة، والحضارة فيما بعد؛ فلم يَجُدِ الزَّمان بواحدٍ مثل أبي بكرٍ الصِّدِّيق، وعمرَ بن الخطَّاب، وعثمان بن عفَّان، وعليِّ بن أبي طالبٍ، وسعدِ بن أبي وقَّاصٍ... إلخ.

لقد استطاع الرَّسول المربِّي الأعظم ﷺ أن يربِّي في تلك المرحلة السـرِّيَّة، وفي دار الأرقم، أفذاذ الرِّجال الَّذين حملوا راية التَّوحيد والجهاد والدَّعوة؛ فدانت لهم الجزيرة، وقاموا بالفتوحات العظيمة في نصف قرن.

كانت قدرة النَّبيِّ ﷺ فائقةً في اختيار العناصر الأولى للدَّعوة، في خلال السَّنوات الثَّلاث الأولى من عمر الدَّعوة، وتربيتهم وإعدادهم إعداداً خاصّـــاً ليؤهِّلهم لتســلُّم القيادة، وحمل الرِّســالة، فالرِّســالات الكبرى، والأهداف الإنســانيَّة العظمى، لا يحملها إلا أفذاذ الرِّجال، وكبار القادة، وعمالقة الدُّعاة. كانت دار الأرقم مدرســةً من أعظم مدارس الدُّنيا، وجامعات

---

[452] التَّربية القياديَّة، لمنير الغضبان، دار الوفاء، المنصورة، الطَّبعة الأولى، 1418 هـ 1998 م، (198/1).

[453] دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، ص 219.

العالم، التقى فيها الرَّسـول المربِّي ﷺ بالصَّـفوة المختارة من الرَّعيل الأوَّل (السَّـابقين الأوَّلين)، فكان ذلك اللِّقاء الدَّائم تدريباً عمليّاً لجنود المدرسـة على مفهوم الجنديَّة، والسَّـمع، والطَّاعة، والقيادة، وآدابها، وأصولها، ويشحـذ فيـه القائد الأعلى جنـده وأتباعـه بالثِّقـة بالله، والعزيمة، والإصـــرار، ويأخذهم بالتَّزكية والتَّهذيب، والتَّربية، والتَّعليم. كان هذا اللِّقاء المنظَّم يشـــحذ العزائم، ويقوِّي الهمم، ويدفع إلى البذل، والتَّضحية، والإيثار[454].

كانت نقطة البدء في حركة التَّربية الرَّبانيَّة الأولى لقاء المدعو بالنَّبيِّ ﷺ، فيحدث للمدعو تحوُّلٌ غريب واهتداءٌ مفاجئ بمجرَّد اتِّصـــاله بالنَّبيِّ ﷺ، فيخرج المدعو من دائرة الظَّلام إلى دائرةِ النُّور، ويكتسب الإيمان، ويطرح الكفر، ويقوى على تحمل الشَّدائد، والمصائب في سبيل دينه الجديد، وعقيدته السَّمحة.

كانت شـخصـية رسـول الله ﷺ المحرِّك الأوَّل للإسـلام؛ فشـخصـيته ﷺ تملك قوى الجذب، والتأثير على الآخرين، فقد صنعه الله على عينه، وجعله أكمل صورةٍ لبشرٍ في تاريخ الأرض، والعظمـة دائمـاً تُحَبُّ، وتحـاط من النَّـاس بالإعجـاب، ويلتفُّ حولها المعجبون، يلتصقون بها التصاقاً بدافع الإعجاب والحبِّ، ولكن رسول الله ﷺ يضاف إلى عظمته تلك: أنَّه رســـول الله، مُتلقِّي الوحي من الله، ومبلِّغه إلى الناس، وذلك بُعْدٌ آخر له أثره في تكييف مشـــاعر ذلك المؤمن تجاهه؛ فهو لا يحبُّه لذاته فقط، كما يُحبُّ العظماء من النَّاس، ولكن أيضاً لتلك النَّفحة الرَّبَّانيَّة الَّتي تشمله من عند الله، فهو معه في حضرة الوحي الإلهيِّ المكرَّم؛ ومن ثَمَّ يلتقي في شـخص الرَّسـول ﷺ البشـر العظيم، والرَّسـول العظيم، ثمَّ يصـبحان شـيئاً واحداً في النِّهاية، غير متميِّز البداية، ولا النِّهاية، حبٌّ عميقٌ شاملٌ للرَّسول البشر، أو للبشر الرَّسول، ويرتبط حبُّ الله بحبِّ رسوله ﷺ، ويمتزجان في نفسه، فيصبحان في مشاعره نقطة ارتكاز المشـاعر كلِّها، ومحور الحركة الشُّعورية، والسُّـلوكية كلِّها، كذلك كان هذا الحبُّ الَّذي

---

[454] دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، ص 220.

حرَّك الرَّعيل الأوَّل من الصَّــحابة هو مفتاح التَّربية الإســلاميَّة، ونقطة ارتكازها، ومنطلقها الَّذي تنطلق منه[455].

5. المادة الدراسية في دار الأرقم:

كانت المادَّة الدراســية الَّتي قام بتدريســها النَّبيُّ ﷺ في دار الأرقم، القرآن الكريمَ، فهو مصدر التَّلقِّي الوحيد، فقد حَرَصَ الحبيب المصطفى ﷺ على توحيد مصدر التَّلقِّي، وتفرُّده، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج، والفكرة المركزيَّة الَّتي يتربَّى عليها الفرد المســلم، والأسرة المسلمة، والجماعة المسلمة، وكان روح القُدُس ينزل بالآيات غضَّةً طريَّةً على رسول الله ﷺ، فيسمعها الصَّحابة من فم رسول الله ﷺ مباشرةً، فَتُسْكَب في قلوبهم، وتتسرَّب في أرواحهم، وتجري في عروقهم مجرى الدَّم، وكانت قلوبهم، وأرواحهم تتفاعل مع القرآن، وتنفعل به، فيتحوَّل الواحد منهم إلى إنسانٍ جديدٍ؛ بقيمه، ومشاعره، وأهدافه، وسلوكه، وتطلُّعاته. لقد حرص الرَّسول ﷺ حرصاً شديداً على أن يكون القرآن الكريم وحده هو المادَّة الدراسية، والمنهج الَّذي تتربَّى عليه نفوس أصحابه، وألا يختلط تعليمهم بشيءٍ من غير القرآن[456].

في دار الأرقم تعلَّموا: أنَّ القرآن الكريم، وتوجيهات الحبيب المصطفى ﷺ، هما الدُّستور الأعلى؛ للدَّعوة، والحياة، والدَّولة، والحضارة. كان القرآن الكريم المادَّة الدراسية الوحيدة الَّتي تلقَّاها تلاميذ مدرســة الأرقم على يد المربِّي الأعظم محمَّد ﷺ، فهو المصــدر الوحيد للتلقِّي، وعليه تربَّى الجيل الفريد من هذه الأمَّة العظيمة، فهو كتاب هذه الأمَّة الحيُّ، ورائدها النَّاصح، وهو مدرستها الَّتي تتلقَّى فيها دروس حياتها.

لقد تلقَّى الرَّعيل الأوَّل القرآن الكريم بجدِّيَّةٍ، ووعيٍ، وحرصٍ شديدٍ على فهم توجيهاتــه، والعمل بها بدقَّــةٍ تامَّةٍ، فكانوا يلتمسون من آياته ما يوجههم في كلِّ شأنٍ من شؤون حياتهم

---

[455] منهج التَّربية الإسلاميَّة لمحمد قطب، دار الشُّروق، الطَّبعة الخامسة، 1403 هـ،1983 م، ص 34 . 35.

[456] دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، ص 225.

الواقعيَّة، والمستقبليَّة.

نشـأ الرَّعيل الأوَّل على توجيهات القرآن الكريم، وجاؤوا صـورةً عمليَّةً لهذه التَّوجيهات الرَّبَّانيَّة، فالقرآن كان هو المدرسة الإلهيَّة، الَّتي تخرَّج منها الدُّعاة، والقادة الرَّبَّانيُّون، ذلك الجيل الَّذي لم تعرف له البشـريَّة مثيلاً من قبلُ، ومن بعدُ. لقد أنزل الله القرآن الكريم على قلب رسـوله ﷺ؛ لينشـئ به أمَّةً، ويقيم به دولةً، وينظِّم به مجتمعاً؛ وليربِّيَ به ضـمائر، وأخلاقاً، وعقولاً، ويبني به عقيدةً، وتصـوُّراً، وأخلاقاً ومشـاعر، فخرَّج الجماعة المسـلمة الأولى الَّتي تفوَّقت على سـائر المجتمعات في جميع المجالات؛ العقديَّة، والرُّوحيَّة، والخلقيَّة، والاجتماعيَّة، والسياسية، والحربيَّة[457].

6. الأسباب في اختيار دار الأرقم:

كان اختيار دار الأرقم لعدَّة أسبابٍ؛ منها:

1 - أنَّ الأرقم لم يكن معروفاً بإسـلامه، فما كان يخطر ببال أحدٍ أن يتمَّ لقاء محمَّدٍ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بداره.

2 - أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم رضـي الله عنه من بني مخزوم، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لـواء الحرب ضدَّ بني هاشم، ولم يكن الأرقم معروفاً بإسلامه، ولن يخطر في البال أن يكون اللِّقاء في داره؛ لأنَّ هذا يعني: أنه يتمُّ في قلب صفوف العدوِّ.

3 - أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم كان فتىً عند إسلامه؛ فلقد كان في حدود السَّادسة عشرة من عمره، ويوم أن تفكِّر قريش في البحث عن مركز التجمُّع الإسلامي، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصِّغار من أصحاب محمَّدٍ ﷺ؛ بل يتَّجه نظرها، وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه ﷺ.

قد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التَّجمُّع على الأغلب في أحد دور بني هاشـم، أو

---

[457] دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، ص 335.

في بيت أبي بكرٍ رضـــي الله عنه، أو غيره؛ ومن أجل هذا نجد أنَّ اختيار هذا البيت كان في غاية الحكمة من النَّاحية الأمنيَّة، ولم نســمع أبداً: أنَّ قريشــاً داهمت ذات يومٍ هذا المركز، وكشفت مكان اللِّقاء[458].

7. صفات الرعيل الأول من الصحابة:

كانت الفترة الأولى من عمر الدَّعوة تعتمد على السِّرِّيَّة، والفرديَّة، وكان التَّخطيط النَّبويُّ دقيقاً، ومنظَّماً، وسياسية محكماً، فما كان اختيار رسول الله ﷺ لدار الأرقم لمجرَّد اجتماع المسلمين فيها لسماع نصائح، ومواعظ، وإرشادات؛ وإنَّما كانت مركزاً للقيادة، ومدرسةً للتَّعليم، والتَّربية، والإعداد، والتَّأهيل للدَّعوة، والقيادة، بالتَّربيَة الفرديَّة العميقة الهادئة، وتعهُّد بعض العناصر، والتَّركيز عليها تركيزاً خاصَّاً؛ لتأهيلها لأعباء الدَّعوة، والقيادة، فكأنَّ الرَّسول المربِّي ﷺ قد حدَّد لكلِّ فردٍ من هؤلاء عمله بدقَّةٍ، وتنظيمٍ حكيمٍ، فالكلُّ يعرف دوره المنوط به، والكلُّ يدرك طبيعة الدَّعوة، والمرحلة الَّتي تمرُّ بها، والكلُّ ملتزمٌ جانب الحيطة، والحذر، والسِّرِّيَّة والانضباط التَّامِّ[459].

كان بناء الجماعة المؤمنة في الفترة المكِّيَّة يتمُّ بكلِّ هدوءٍ وتدرُّجٍ وسرِّيَّةٍ، وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى - عزَّ وجلَّ - المتمثِّل في قوله تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ **[الكهف: 28]**.

إنَّ الآية الكريمة تأمر النَّبيَّ ﷺ بأن يصبر على تقصير، وأخطاء المستجيبين لدعوته، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم، خاصَّةً إن كانت خطأً، وأن يصبر على تردُّدهم في قبول

---

[458] المنهج الحركيُّ للسِّيرة النَّبويَّة لمنير محمَّد الغضبان، مكتبة المنار، الأردن، الطَّبعة الثالثة، 1411هـ 1990 م، (49/1).

[459] دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، ص 237.

التَّوجيهات، وأن يجتهد في تصـــبيرهم على فتنة أعداء الدَّعوة، وأن يوضِّـــح لهم طبيعة طريق الدَّعوة، وأنَّها شـــاقَّةٌ، وألا يغرِّر به مغرِّرٌ ليبعده عنهم، وألا يســـمع فيهم منتقِصـــاً، وألا يطيع فيهم متكبِّراً أغفل اللهُ قلبَه عن حقيقة الأمور، وجوهرها[460].

إنَّ الآية الكريمة السَّـــابقة من ســـورة الكهف تصـــف لنا بعض صـــفات الجماعة المســـلمة الأولى، والَّتي من أهمِّها:

أ – الصبر في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾

إنَّ كلمة الصَّبر تتردَّد في القرآن الكريم، وفي أحاديث النَّبيِّ ﷺ، ويوصي النَّاس بها بعضُهم بعضاً، وتبلغ أهمِّيَّتُها أن تصير صفةً من أربعٍ للفئة النَّاجية من الخسران، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ **[العصر: 1-3]** ؛ فحكم المولى – عزَّ وجلَّ – على جميع النَّاس بالخسران إلا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

1 – الإيمان بالله.

2 – العمل الصَّالح.

3 – التَّواصي بالحقِّ.

4 – التَّواصي بالصَّبر.

لأنَّ نجاة الإنســـان لا تكون إلا إذا أكمل الإنســـان نفســـه بالإيمان، والعمل الصـــالح، وأكمل غيره بالنُّصح، والإرشاد، فيكون قد جمع بين حقِّ الله، وحقِّ العباد، والتواصي بالصَّبر ضـرورةٌ؛ لأنَّ القيام على الإيمان، والعمل الصَّالح، وحراسة الحقِّ، والعدل من أعسر ما يواجه الفرد، والجماعة، ولا بدَّ من الصَّـــبر على جهاد النَّفس، وجهاد الغير، والصَّـــبر على الأذى والمشـــقَّة، والصَّـــبر على تبجُّح الباطل، والصَّـــبر على طول الطَّريق، وبطء المراحل، وانطماس

---

[460] الطَّريق إلى جماعة المسلمين لحسين بن محسن بن علي جابر، دار الوفاء بالمنصورة – مصر، الطبعة الخامسة 1413هـ 1992م ، ص 170.

المعالم، وبُعْدِ النِّهاية[461].

ب – كثرة الدُّعاء والإلحاح على الله:

وهذا يظهر في قوله تعالى:؛ فالدُّعاء بابٌ ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، فإذا فتح للعبد؛ تتابعت عليه الخيرات، وانهالت عليه البركات، فلا بدَّ من تربية الأفراد الَّذين يُعَدُّون لحمل الرِّسالة، وأداء الأمانة، على حسن الصِّلة بالله، وكثرة الدُّعاء؛ لأنَّ ذلك من أعظم، وأقوى عوامل النَّصر[462].

ج – الإخلاص:

ويظهر في قوله تعالى: فلا بدَّ عند إعداد الأفراد إعداداً ربَّانيّاً أن يتربَّى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ على أن تكون أقواله، وأعماله، وجهاده كلُّه، لوجه الله، وابتغاء مرضاته، وحسن مثوبته من غير نظرٍ إلى مغنمٍ، أو جاهٍ، أو لقبٍ، أو تقدُّمٍ، أو تأخر، وحتَّى يصبح جنديّاً من أجل العقيدة والمنهج الرَّبانيّ، ولسان حاله قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴿١٦٣﴾﴾ **[الأنعام: 162-163]**.

إنَّ الإخلاص ركنٌ من أركان قبول العمل، ومعلومٌ: أنَّ العمل عند الله لا يُقبل إلا بالإخلاص، وتصحيح النِّيَّة، وبموافقة السُّنَّة، والشَّرع.

د – الثَّبات:

ويظهر في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 28].

وهذا الثبات المذكور فرعٌ عن ثباتٍ أعمَّ ينبغي أن يتَّسم به الدَّاعية الرَّبانيُّ، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ **[الأحزاب: 23]**.

---

[461] الظِّلال (3968/6).

[462] فقه التَّمكين في القرآن الكريم، لعليٍّ محمَّد الصَّلاَّبي، دار البيارق، عمَّان، الطَّبعة الأولى 1999م، ص221.

ففي الآيات الكريمة ثلاث صفاتٍ: إيمانٌ، ورجولةٌ، وصدقٌ. وهذه العناصر مهمَّةٌ للثَّبات على المنهج الحقِّ؛ لأنَّ الإيمان يبعث على التمسُّك بالقيم الرَّفيعة، والتشبُّث بها، ويبعث على التَّضحية بالنَّفس؛ ليبقى المبدأ الرَّفيع. والرُّجولة محرِّكةٌ للنَّفس نحو هذا الهدف، غير مهتمةٍ بالصَّغائر، والصَّغار، وإنَّما دائماً دافعةٌ نحو الهدف الأسمى، والمبدأ الرَّفيع. والصِّدق يحول دون التحوُّل، أو التغيير، أو التبديل، ومن ثمَّ يورث هذا كلُّه الثبات الذي لا يتلوَّن معه الإنسان، وإن رأى شعاع السَّيف على رقبته، أو رأى حبل المشنقة ينتظره، أو رأى دنيا يصيبها، أو امرأةً ينكحها.

ولا شكَّ: أنَّ اللَّبنات الَّتي تعدُّ لحمل الدَّعوة، وإقامة الدَّولة، وصناعة الحضارة، تحتاج إلى الثَّبات الَّذي يعين على تحقيق الأهداف السَّامية، والغايات الجميلة، والقيم الرَّفيعة[463].

ثالثاً: المربّي والمعلم الأول والأعظم للبشرية (القيم الإنسانية والحضارية في التربية النبوية):

يُعد تعليم النبي ﷺ لأصحابه وتربيتهم نموذجًا فريدًا في تاريخ الإنسان، إذ تميز بدمج البعد الروحي والأخلاقي مع القيم الحضارية والإنسانية. فقد أسس مجتمعًا قويًا متماسكًا على مبادئ العدالة والمساواة والرحمة، والأمانة، والصدق والتعاون، مما ساهم في بناء حضارة إسلامية عظيمة أثرت في العالم بأسره. هذه التربية النبوية لم تقتصر على الجوانب الدينية (الشعائرية) فقط، بل شملت أيضًا تعليم الأخلاق الفاضلة وتعزيز العلاقات الإنسانية، مما جعلها تجربة تربوية متكاملة تتسم بالشمولية والعمق. وفيما يلي، استعراض لأبرز سمات هذه التربية، وأثرها على الرعيل الأول ومن بعدهم.

(463) دعوة الله بين التكوين والتَّمكين، د. علي جريشة، مكتبة وهبة، مصر، الطَّبعة الأولى، 1406هـ، 1986م، ص 91 - 92.

1. تزكية أرواح الرَّعيل الأوَّل بأنواع العبادات:

قال تعالى: ﴿وَيَسْـأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: 85]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: 72]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَـوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّـمْعَ وَالأَبْصَـارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: 9]، وقد رَبَّى رسول الله ﷺ أصحابه على تزكية أرواحهم، وأرشدهم إلى الطَّريق الَّتي تساعدهم على تحقيق ذلك المطلب، من خلال القرآن الكريم؛ ومن أهمِّها:

أ. التَّدبُّر في كون الله ومخلوقاته، وفي كتاب الله تعالى؛ حتَّى يشعروا بعظمة الخالق، وحكمته سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

ب – التأمُّل في علم الله الشَّامل، وإحاطته الكاملة بكلِّ ما في الكون؛ بل ما في عالم الغيب والشَّهادة؛ لأنَّ ذلك يملأ الرُّوح، والقلب بعظمة الله، ويطهِّر النَّفس من الشكوك، والأمراض. قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)﴾ **[الأنعام: 59-60]**.

ج – عبادة الله – عزَّ وجلَّ – وهي من أعظم الوسـائل لتربية الرُّوح وأجلِّها قدراً؛ إذ العبادةُ غاية التذلُّلِ لله سبحانه، ولا يستحقُّها إلا الله وحده؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، والعبادات الَّتي تسمو بالرُّوح وتطهِّر النفس نوعان:

– النَّوع الأوَّل: العبادات المفروضة كالطَّهارة، والصَّلاة، والصِّيام، والزَّكاة، والحجِّ وغيرها.

– النوع الثَّاني: العبادات بمعناها الواسـع، الَّذي يشـمل كلَّ عملٍ يعمله الإنسـان، أو يتركه، بل كلّ شـعورٍ يُقبِل عليه الإنسـان تقرُّباً به إلى الله تعالى، بل يدخل فيها كلُّ شـعورٍ يطرده الإنسـان من نفسـه تقرُّباً به إلى الله تعالى، ما دامت نيَّة المتعبِّد بهذا العمل هي إرضـاء الله سبحانه وتعالى، فكلُّ الأمور مع نيَّة التَّقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى عبادةٌ يُثاب صاحبها،

وتربِّي روحه تربيةً حسنةً[464].

إنَّ تزكية الرُّوح بالصَّلاة، وتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، والتَّسبيح له سبحانه أمرٌ مهمٌّ في الإسلام؛ فإنَّ النَّفس البشريَّة إذا لم تتطهَّر من أدرانها، وتتَّصل بخالقها فلن تقوم بالتَّكاليف الشَّرعية الملقاة عليها، والعبادة والمداومة عليها، تعطي الرُّوح وقوداً وزاداً، ودافعاً قويّاً إلى القيام بما تؤمر به، ويدلُّ على هذا أمر الله الرَّسول ﷺ في ثالث سورةٍ نزلت عليه بالصَّلاة والذِّكر، وترتيل القرآن.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ **[المزمل: 1-8]**.

إنَّ الاستعداد للأمر الثَّقيل، والتَّكاليف الشَّاقَّة يكون بقيام اللَّيل والمداومة على الذِّكر والتِّلاوة، وقد حرص رسول الله ﷺ بتوجيهٍ من ربِّه - عزَّ وجلَّ - على تربية الصَّحابة من أوَّل إسلامهم على تطهير أرواحهم وتزكيتها بالعبادة[465].

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلُّوا؛ ذهبوا في الشِّعاب، واستخْفَوا بصلاتهم[466].

ولـمَّا خاف ﷺ في بداية الإسلام على أصحابه، وعرف: أنَّ الكفار لا يتركونهم يمارسون الصَّلاة، وقراءة القرآن علناً، دخل بهم دار الأرقم، وصار يصلِّي بهم، ويعلِّمهم كتاب الله - عزَّ وجلَّ - ولولا أهمِّية تزكية الرُّوح بالعبادة، والصَّلاة، والتِّلاوة؛ لأمرهم بتركها عند الخوف، حتَّى إنَّه بعد أن اكتشفت قريش المكان الَّذي يصلِّي فيه الرَّسول ﷺ بأصحابه لم يترك الرَّسول ﷺ الصَّلاة، والتِّلاوة لأجل الخوف[467].

وقد حضَّ الله تعالى في القرآن المكِّيِّ على إقامة الصَّلاة، وأثنى على الَّذين يخشعون في صلاتهم، والَّذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجل إحياء ليلهم بذكر الله، وعلى الذين يدعون

---

[464] تفسير ابن كثير، (4/312. 313).

[465] منهج الرَّسول في غرس الرُّوح الجهاديَّة في نفوس أصحابه، للسَّيِّد محمَّد نوح، نشرته جامعة الإمارات العربيَّة المتَّحدة، الطَّبعة الأولى، 1411 هـ، 1990 م، ص 19 إلى 34.

[466] فقه الدَّعوة إلى الله، لعبد الحليم محمود، دار الوفاء، الطَّبعة الأولى 1410 هـ 1990 م، (1/471، 472).

[467] أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة، د. عليٌّ العليانيُّ، دار طيبة، الطَّبعة الأولى، 1405 هـ 1985م، ص 69.

الله ويسبّحونه، ويذكرونه، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④﴾ **[المؤمنون: 4-1]**.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ *تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ **[السجدة: 15 – 17]**.

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ **[هود: 114]** .

وقال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ⑦⑧ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ⑦⑨﴾ **[الإسراء: 78-79]**.

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ①③⓪ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ①③① وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ①③②﴾ **[طه: 130-132]**.

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ③⑨ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ④⓪﴾ **[ق: 39-40]**.

وهذه الآيات الأخيرة تدلُّ على أنَّ العُدَّةَ في حال الضيق والشدَّة هي الإكثار من الصَّلاة، والذِّكر، وتلاوة القرآن، والالتجاء إلى الله سبحانه وحده، والإكثار من الدُّعاء[468].

إنَّ الصَّلاة تأتي في مقدّمة العبادات الَّتي لها أثرٌ عظيمٌ في تزكية روح المسلم، ولعلَّ من أبرز آثارها الَّتي أصابت الرَّعيل الأوَّل:

2 – الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه:

أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الَّذين استجابوا لأمره، فقال عزَّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ

---

[468] سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي، 1997م، (404/2).

اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الشورى: 38] .

ولا تتحقَّق معاني العبودية الصَّادقة لله سبحانه وتعالى، إلا إذا اقترنت بصدق التوجُّه إليه، والإخلاص له سبحانه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام: 162-163].

وكان الرَّعيل الأوَّل يرى: أنَّ لكل عملٍ من أعمال الصَّلاةِ عبوديةً خاصةً، وتأثيراً في النَّفس، وتزكيةً للرُّوح؛ فقراءة سورة الفاتحة مع التدبُّر تشعرهم بعبوديَّتهم لله تعالى، فعندما يتلو العبد قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يثبت كلَّ كمال لله - سبحانه وتعالى - ويحمده على ما وفَّقه إليه من الطَّاعة، وما أنعم عليه من النِّعم، ويثني عليه بصفاته، وأسمائه الحسنى[469].

وكذلك عندما يتلو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقرُّ بالتَّوحيد والاستعانة بالله وحده، فالله هو المعبود، وهو المستعان، وكلُّ استعانةٍ بغير الله فهي خذلانٌ وذلٌّ.

وعندما يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فهو إقرارٌ من العبد بأنَّه مفتقرٌ إلى الهداية، والثَّبات على طريق الحقِّ، وأنَّه محتاجٌ إلى ثمار الهداية، والاستزادة منها، والبعد عن سبيل المغضوب عليهم، والضَّالِّين[470].

وعندما ينحني للرُّكوع يكبِّر ربَّه معظماً له، ناطقاً بتسبيحه، فيجتمع في هذا الرُّكن خضوع الجوارح، وخضوع القلب، ثمَّ يأتي السُّجود، فيجعل العبدُ أشرف أعضائه، وأعزَّها متذللاً لله سبحانه، ويتبع هذا انكسارُ القلب، وتواضعُه، فيسجد القلب لربِّه كما سجد الجسد[471]، وحَرِيٌّ به في هذهِ الحال أن يكون أقرب ما يكون من ربِّه، وكلَّما ازداد تواضعاً وخشوعاً لربِّه في سجوده، ازداد منه قرباً، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: 19].

وفي الحديث النَّبويِّ الشريف: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ؛ فأكثروا

---

(469) أهمية الجهاد في نشر الدعوة، ص 70.

(470) أهميَّة الجهاد في نشر الدَّعوة إلى الله، ص 72.

(471) منهج الإسلام في تزكية النَّفس، د. أنس أحمد كرزون، دار نور المكتبات، دار ابن حزم، الطَّبعة الثانية، 1418 هـ 1997 م، (221/1).

الدُّعاءَ»[472].

وعندما يعتدل جالساً، يتمثَّل جاثياً بين يدي ربِّه، ملقياً نفسه بين يديه، معتذراً إليه ممَّا جناه، راغباً إليه أن يغفر له، ويرحمه، وهكذا تتجلَّى في كلِّ أفعال الصَّلاة العبوديةُ لله سبحانه، وإقبالُ العبد على ربِّه، وتوحيده، وتقوية الإيمان به الَّذي هو أساس التَّزكية، وهذه أعظم ثمرةٍ من ثمرات الصَّلاة، وهي الَّتي تنير للعبد طريق حياته، وتمنحه طهارة القلب، وطمأنينة النَّفس[473].

أ- مناجاة العبد لربِّه:

وقد بيَّن رسول الله ﷺ مشهداً من مشاهد هذه المناجاة، فقد قال رسول الله ﷺ: « قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بيني وبين عبدي نِصْفَين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبدُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجَّدني عبدي، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[474].

لقد تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من النَّبيِّ ﷺ: أنَّ هذه المناجاة، من أعظم أسباب تزكية النَّفس، وتقوية الإيمان، إذا هيَّأ العبد نفسه لها، وأقبل عليها إقبال العبد المتشوِّق للوقوف بين يدي ربِّه، الوافد عليه، المنتظر لرحمته، وفضله؛ يستمدُّ العون منه سبحانه في كلِّ أموره وأعماله.

ب - طمأنينة النَّفس، وراحتها:

كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أمرٌ؛ صلَّى[475]، وقد جُعلت قرَّة عينه في الصَّلاة[476]، وقد علَّم الرَّسول ﷺ الصَّحابة كثيراً من السُّنن والنَّوافل ليزدادوا صلةً بربِّهم، وتأمن بها

---

[472] الموازنة بين ذوق السَّماع، وذوق الصَّلاة، والقرآن، للإمام ابن قيِّم الجوزيَّة، تحقيق مجدي فتحي السَّيِّد، ص 35 . 40.

[473] الموازنة بين ذوق السَّماع، المصدر السابق، (ص 43 . 46)، الخشوع في الصَّلاة، لابن رجب، دار الرسالة، القاهرة، 2006م، ص 20 . 22.

[474] أخرجه أحمد (241/2 - 242) ومسلم (395) وأبو داود (821) والترمذي (2953) وابن ماجه (3784).

[475] أخرجه أبو داود (1319) وأحمد (388/5).

[476] أخرجه أحمد (128/3 و199 و285) والنسائي (61/7) والحاكم (160/2).

نفوسهم، وتصبح الصَّلاة سلاحاً مهمًّاً لحلِّ همومهم ومشاكلهم.

ج. الصَّلاة حاجزٌ عن المعاصي:

قال الله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 45].

كان الصَّحابة رضي الله عنهم عندما يؤدُّون صلاتهم، تستريح بها نفوسُهم، وتمدُّهم بقوَّةٍ دافعةٍ لفعل الخيرات، والابتعاد عن المنكرات، وتغرس في نفوسهم مراقبة الله - عزَّ وجلَّ - ورعاية حدوده، والتَّغلُّب على نوازع الهوى، ومجاهدة النَّفس، فكانت لهم سياجاً منيعاً حماهم من الوقوع في المعاصي [477]، كما أيقن الصَّحابة رضي الله عنهم: أنَّ الصَّلاة تكفِّر السَّيِّئات، وترفع الدَّرجات. قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: 114].

وغير ذلك من الآثار التَّربويَّة، والنَّفسيَّة الطَّيِّبة؛ الَّتي تتضافر، فيغنمها العبد المصلِّي، فتؤدِّي الصَّلاة دورها في تزكية النَّفس، وطهارتها، ويتحقَّق قول رسول الله ﷺ: «والصَّلاة نورٌ»[478]؛ فهي نورٌ تضيء لصاحبها طريق الهداية، وتحجزه عن المعاصي وتهديه إلى العمل الصَّالح، وهي نورٌ في قلبه بما يجد من حلاوة الإيمان، ولذَّة المناجاة لربِّه، وهي نورٌ بما تمنح النَّفس من تزكيةٍ، وطمأنينةٍ، وراحةٍ، وبما تمدُّ من أمنٍ، وسكينةٍ، وهي نورٌ ظاهرٌ على وجه المقيم لها في الدُّنيا، تتجلَّى بها وَضَاءَةُ الوجه وبهاؤه؛ بخلاف تارك الصَّلاة [479]، وهي نورٌ له يوم القيامة[480].

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: 12].

كان الصَّحابة يكثرون من الذِّكر، والدُّعاء، وتلاوة القرآن الكريم، والاستماع إليه، واغتنام

---

[477] مسلمٌ، كتاب الصَّلاة، باب ما يقال في الرُّكوع والسُّجود، رقم (482).

[478] أخرجه مسلم (223) والترمذي (3517) والنسائي (5/5 - 6) وابن ماجه (280) وأحمد (342/5 و343و344).

[479] منهج الإسلام في تزكية النَّفس، الدكتور أحمد أبو السعادات، جامعة أم القرى، 1995م، (222/1).

[480] منهج الإسلام في تزكية النفس، (227/1).

السَّاعات الفاضلة في قيام اللَّيل، ومجاهدة النَّفس على الخشوع والتدبُّر وحضور القلب، فكان ذلك من أعظم القربات إلى الله تعالى، وله آثار عظيمةٌ في تزكية النَّفس، وسموّ الرُّوح، وترقيتها إلى مقامات الكمال؛ فمن أعظم ما ظفر به الصَّـــحابة من آثار الذِّكر، والدُّعاء، والتِّلاوة مناجاةُ الله، وتحقيقهم مقامات العبوديَّة التي تُعلي مكانتهم عند الله تعالى.

قال رســـول الله ﷺ: «يقول الله - عزَّ وجلَّ - أنا عند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني؛ إن ذكرني في نفســـه؛ ذكرتُه في نفســـي، وإن ذكرني في ملأٍ؛ ذكرته في ملأٍ هم خيرٌ منهم، وإن تقرَّبَ مني شـــبراً؛ تقرَّبت إليه ذراعاً، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعاً؛ تقرَّبت منه باعاً، وإنْ أتاني يمشي؛ أتيته هَرْوَلَةً»(481).

ومن أعظم أنواع الذِّكر الَّتي مارسها الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم تلاوة القرآن الكريم، فقد عظمت محبَّة الله في قلوبهم، وازدادت خشيتهم له - سبحانه وتعالى - فقد شفى القرآن نفوسَـــهم من أمراضـــها، وتحقَّق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقرآن مَا هُوَ شِـفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: 82].

وقوله سـبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قرآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّـلَتْ آياتهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. وكان للصَّـحابة مع الدُّعاء شـأنٌ عظيمٌ، فقد علَّمهم النَّبيُّ ﷺ: أنَّه مِنْ أجلى مظاهر العبودية، والمناجاة لله سبحانه وتعالى، قال رسول الله ﷺ: «الدُّعاء هو العبادة»(482)، ولقد أمر سبحانه وتعالى عباده بالدُّعاء، وتوعَّد من يستكبر، فيترك الدُّعاء؛ وكأنه مستغنٍ عن ربه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْـــتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْـــتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60].

---

(481) أخرجه البخاري (7405) ومسلم (2675).

(482) أخرجه أبو داود (1479) والترمذي (3372) وابن ماجه (3828) وابن حبان (887) والحاكم (491/1).

قال ابن كثير – رحمه الله –: «يستكبرون عن عبادتي؛ أي: عن دعائي، وتوحيدي»[483].

كان النَّبيُّ ﷺ يبيِّن لهم حاجة القلب إلى غذاءٍ دائمٍ؛ من ذكرٍ، ودعاءٍ، وتلاوة قرآن؛ ليكون ذلك تحصيناً لهم من الأمراض، والآفات، وبيَّن لهم ما يستحبُّ للمسلم من الأدعية، والأذكار في الصَّباح والمساء، وعند دخول المنزل، أو الخروج منه، وعند دخول السُّوق، أو الأكل، أو اللبس، وغير ذلك من الأعمال اليوميَّة؛ حتى يبقى في وقايةٍ دائمةٍ من كلِّ مرضٍ، فإذا أصيب بمرض عارضٍ، كالقلق، والكآبة، والاضطراب العصبيِّ، أو غيرها، كانت تلك الأذكار والدَّعوات البلسم الشَّافي؛ الَّذي تطمئنُّ به القلوب، وتحيا به النُّفوس، ومن بين تلك الأذكار والدَّعوات المأثورة الَّتي علَّمها رسولُ الله ﷺ لأصحابه، دعاء الشِّدَّة، والكرب؛ الَّذي يقول فيه: «لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا اللهُ ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا اللهُ ربُّ السَّموات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم»[484].

إنَّ رسول الله ﷺ عَلَّمَ أصحابه كيف يلجؤون إلى الله سبحانه وقت الضِّيق؛ ليجدوا المأمن، والسَّكينة، فلا يفزعوا، ولا يقلقوا، وهم موقنون بأنَّ الله معهم، وأنَّه ناصرهم، ومتولِّي أمرهم، ومؤيِّدهم، وأنَّه يجيب دعاء المضطرين[485].

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ **[النمل: 62]** .

إنَّ الذِّكر والدُّعاء، وتلاوة القرآن، وقيام اللَّيل، والنَّوافل بأنواعها، لها أثرٌ عظيمٌ في تزكية النفس، وسموِّ الرُّوح، ومهما كتبنا في هذا الموضوع؛ فلا يمكن أن نحيط به في صفحاتٍ أو كتبٍ؛ وإنَّما هذا جزءٌ من كلٍّ وغيضٌ من فيضٍ.

3. التزكية العقلية:

كانت تربية النَّبيِّ ﷺ لأصحابه شاملةً؛ لأنَّها مستمدةٌ من القرآن الكريم، الَّذي خاطب

---

[483] منهج الإسلام في تزكية النفس، (233/1).

[484] أخرجه البخاري (6345) ومسلم (2730).

[485] أشار إلى هذا المعنى النَّوويُّ في شرحه على مسلم (100/3)، والإمام ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم، ص 190.

الإنسان ككلٍّ يتكون من الرُّوح، والجسد، والعقل، فقد اهتمَّت التَّربية النَّبويَّة بتربية الصَّحابي على تنمية قدرته في النَّظر، والتأمُّل، والتفكُّر، والتدبُّر؛ لأنَّ ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدَّعوة إلى الله، وهذا مطلبٌ قرآنيٌّ، أرشد إليه ربنا – سبحانه وتعالى – في محكم تنزيله.قال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيات وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: 101] .

وقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخرةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: 20].

وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [ص: 29] .

وقال جلَّ شأنُه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا(٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا(٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا(٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا(٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا(٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(٣٢)﴾ **[عبس: 24-32]**.

والعقل يعتبر أحد طاقات الإنســـان المهمَّة، وقد جعله المولى – عزَّ وجلَّ – مناط التَّكليف، فمن حُرم العقل لجنونٍ أو غيره، فهو غير مكلَّفٍ، ويســـقط عنه التَّكليف قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: 36] .

إنَّ العقل نعمةٌ من الله على الإنسان يتمكَّن بها من قبول العلم، واستيعابه؛ ولذلك وضع القرآن الكريم منهجاً لتربية العقل، سار عليه رسول الله ﷺ لتربية أصحابه؛ ومن أهمِّ نقاط هذا المنهج:

أ – تجريد العقل من المســـلَّمات المبنيَّة على الظنِّ والتَّخمين، أو التبعيَّة والتقليد، فقد حذَّر القرآن الكريم من ذلك في الآية الكريمة التَّالية؛ قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: 28] .

ب – إلزام العقل بالتَّحرِّي والتَّثبُّت، قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: 6].

ج – دعوة العقل إلى التدبُّر والتأمُّل في نواميس الكون . قال الله تعالـــى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّـــاعَةَ لآَتِيَةٌ فَاصْــفَحْ الصَّــفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85].

د – دعوة العقل إلى التأمُّل في حكمة ما شـــرع الله لعباده من عباداتٍ، ومعاملاتٍ، وأخلاقٍ، وآداب، وأسـلوب حياةٍ كاملٍ، في السِّـلم والحرب، في الإقامة والسَّـفر؛ لأنَّ ذلك يُنْضِجُ العقل، وينمِّيه، وبتعرُّفه على تلك الحكم يعطيه أحسن الفرص، ليطبق الشَّرع الرَّبانيَّ في حياته، ولا يبغي عنه حولاً؛ لما فيه من السَّـكينة، والطمأنينة، والسَّـعادة للبشـريَّة، ولأنَّ الله – سبحانه وتعالى – إنَّما شرع ما شرع لذلك.

قال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْــطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِــلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: 119] .

هـ – دعوة العقل إلى النَّظر إلى سـنَّة الله في النَّاس عبر التَّاريخ البشـريّ؛ ليتَّعظ النَّاظر في تاريخ الاباء، والأجداد، والأسـلاف، ويتأمَّل في سـنن الله في الأمم، والشُّـعوب، والدُّول. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّـمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَـأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخرينَ﴾ [الأنعام: 6] .

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لـــمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَـا كَـانُوا لِيُؤْمِنُوا كَـذَلِـكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس 13– 14] .

وقال سـبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَـدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاروا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: 9] .

كانت هذه الآيات الكريمة ترشـد الصَّـحابة إلى اسـتخدام عقولهم وفق المنظور الرَّبانيّ؛ لكي لا تضـلَّ عقولهم في التيه؛ الَّذي ضـلَّ فيه كثيرٌ من الفلاسـفة، الَّذين قدَّسـوا العقل،

وأعطوه أكثر ممَّا يستحقُّ[486]، وقد كان لهذه التَّربية القرآنيَّة آثار عمليَّة عظيمةٌ.

4. التَّربية الجسديَّة:

حَرَصَ النَّبيُّ ﷺ على تربية أصحابه جسديّاً، واستمدَّ أصول تلك التَّربية من القرآن الكريم، بحيث يؤدِّي الجسم وظيفته، الَّتي خلق لها، دون إسرافٍ أو تقتيرٍ، ودون محاباةٍ لطاقة من طاقاته على حساب طاقةٍ أخرى.

إنَّ الله أرشد عباده في القرآن الكريم، إلى ما أحلَّه من الطَّيبات، وما حرَّمه من الخبائث، وأنكر على أولئك الَّذين يُحرِّمون على أنفسهم الطَّيبات، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أخرج لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 32].

ولاشكَّ: أنَّ الإنسان عندما يلبِّي حاجاته البدنيَّة، بإمكانه بعد ذلك أن يؤدِّيَ وظائفه الَّتي كلَّفه الله بها في الدُّنيا؛ من عبادة الله، واستخلافٍ في الأرض، وإعمارها، وتعارفٍ، وتعاونٍ على البرِّ والتَّقوى مع إخوانه في الدِّين؛ ولذلك ضبط القرآن الكريم حاجات الجسم البشريِّ على النَّحو التَّالي:

أ - ضَبَطَ حاجته إلى الطَّعام، والشَّراب بقوله تعالى: ﴿يَابَنِي آدم خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: 31] .

ب - ضَبَطَ حاجته إلى الملبس، بأن أوجب من اللِّباس ما يستر العورة، ويحفظ الجسم من عاديات الحرِّ والبرد، وندب ما يكون زينةً عند الذَّهاب إلى المسجد. قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ **[الأعراف: 31]**.

ج - ضَبَطَ الحاجة إلى المأوى بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: 80] .

د - ضَبَطَ حاجته إلى الزَّواج والأسرة بإباحة النِّكاح، بل إيجابه في بعض الأحيان، وتحريم الزِّنى، والمخادنة، واللِّواط، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ۝ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ

---

[486] تفسير ابن كثير، (86/4).

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: 5-7].

هـ – ضَبَطَ حاجته إلى التَّملُّك والسِّيادة، وأباح التَّملُّك للمال، والعقار، وَفْقَ ضوابط شرعيَّةٍ، قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد: 7].

و – ضَبَطَ الإسلام السِّيادة بتحريم الظُّلم، والعدوان، والبغي. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: 21] ، وقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: 37]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل 90].

ز – ضَبَطَ حاجته إلى العمل، والنَّجاح؛ بأن جعل من اللَّازم أن يكون العمل مشروعاً، وغير مضرٍّ بأحدٍ من النَّاس، ونادى المسلمين أن يعملوا في هذه الدُّنيا ما يكفل لهم القيام بعبء الدَّعوة والدِّين، وما يدَّخرون عند الله سبحانه، قال تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 129].

وربط العلم بالإيمان في كثيرٍ من آيات القرآن الكريم، وشرط في العمل أن يكون صالحاً، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: 30]، وطالب بالإحسان في العمل، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 90].

ح – وحذَّر سبحانه من الدَّعة والبطر، والاغترار بالنِّعمة، فقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: 58] .

هذه بعض الأسس الَّتي قامت عليها التربية النَّبويَّة للأجسام، حتى تستطيع أن تتحمَّل أثقال الجهاد، وهموم الدَّعوة، وصعوبة الحياة.

لقد ربَّى النَّبيُّ ﷺ صحابته على المنهج الكريم، منهج تزكية الأرواح، وتنوير العقول،

والمحافظة على الأجساد، وتقويتها؛ لإعداد الشَّخصيَّة الإسلاميَّة الرَّبَّانيَّة المتوازنة، ولقد نجحت تربيته ﷺ في تحقيق أهدافها المرسومة.

5. تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق، وتنقيتهم من الرَّذائل:

إنَّ الأخلاق الرَّفيعة جزءٌ مهمٌّ من العقيدة؛ فالعقيدة الصَّحيحة لا تكون بغير خلقٍ، وقد ربَّى رسولُ الله ﷺ صحابته على مكارم الأخلاق، بأساليب متنوعةٍ، وكان ﷺ يتلو عليهم ما ينزل من قرآن، فإذا سمعوه، وتدبَّروه؛ عملوا بتوجيهاته.

والمتدبِّر للقرآن المكِّيِّ يجده مليئاً بالحثِّ على مكارم الأخلاق، وعلى تنقية الرُّوح، وتصفيتها، من كلِّ ما يعوق سيرها إلى الله تعالى، ورسول الهدى ﷺ القدوة الكاملة، والمربِّي النَّاصح للأمَّة كان على خلقٍ عظيمٍ(487)؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ **[القلم: 4]** ومعنى الآية واضحٌ، أي: ما كان يأمر به من أمر الله، وينهى عنه من نهي الله، والمعنى: إنَّك لعلى الخلق الَّذي اثرك الله به في القرآن(488).

وعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ، قالت: «إنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله ﷺ كان القرآن »(489) وقد جمع الله تعالى لنبيِّنا مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ **[الأعراف: 199]** .

قال مجاهد في معنى الآية: يعني : خذ العفو من أخلاق النَّاس ، وأعمالهم من غير تخسيسٍ ، مثل قبول الأعذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتَّفتيش عن حقائق بواطنهم(490).

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: وهو كلُّ ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، وأعْرَفُهُ التَّوحيدُ، ثُمَّ حقوق العبوديَّة، وحقوق العبيد(491)، ثمَّ قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾، يعني: إذا سفه عليك الجاهل، فلا تقابله بالسَّفه، كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ

---

(487) منهج الإسلام في تزكية النَّفس، (331/1).

(488) فقه التَّمكين في القران الكريم، للصلاَّبي، (ص 354).

(489) أخرجه مسلم (746) وأحمد (54/6) وأبو داود (1342).

(490) أهمية الجهاد في نشر الدَّعوة، ص 64، 65.

(491) تهذيب مدارج السَّالكين، (653/2).

عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ [الفرقان: 63]، وهكذا كان خلقه ﷺ؛ «كان النَّبيُّ ﷺ أحسنَ النَّاس خُلُقاً»[492].

وكان النَّبيُّ ﷺ يربِّي أصحابه على حسن الخُلُق، ويحثُّهم عليه، فعن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخُلُق، وإنَّ الله تعالى لَيُبْغِض الفاحشَ البذيءَ»[493].

وسئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل النَّاس الجنة؟ فقال: «تقوى الله، وحسنُ الخلق»، وسئل عن أكثر ما يُدخل الناسَ النار؟ فقال: «الفمُ، والفرجُ»[494]، وقد بيَّن ﷺ لأصحابه عظم ثواب حُسْنِ الخُلُق، فقال: «إنَّ من أحبِّكم إليَّ، وأقربكم منِّي مجلساً يوم القيامة أحاسِنَكم أخلاقاً، وإنَّ أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مني يوم القيامة، الثَّرْثارون، والمتشدِّقونَ، والمتفيهقون» قالوا: يا رسول الله! قد علمنا (الثرثارون، والمتشدِّقون)، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبِّرون»[495].

الثَّرثار: هو كثير الكلام بغير فائدةٍ دينيَّةٍ. والمتشدِّق: المتكلِّم بملء فيه تفاصحاً وتعاظماً، وتطاولاً، وإظهاراً لفضله على غيره، والمتفيهق: هو الَّذي يتوسَّع في الكلام، ويفتح به فاهه، وأصله: من الْفَهْقِ، وهو الامتلاء[496].

لقد سار النَّبيُّ ﷺ على المنهج القرآنيّ في تربية أصحابه على الأخلاق الكريمة، وكانت الأخلاق تعرض مع العبادة، والعقائد في وقتٍ واحدٍ؛ لأنَّ العلاقة بين الأخلاق والعقيدة واضحةٌ في كتاب الله تعالى، وقد بيَّن سبحانه لرسوله ﷺ، وللمسلمين، الأخلاقيات الإيمانيَّة الَّتي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بـ (لا إله إلا الله)، والأخلاقيات الجاهليَّة الَّتي ينبغي أن ينبذها المؤمنون، والحقيقة: أنَّ التَّنديد بأخلاقيات الجاهلية قد بدأ منذ اللَّحظة الأولى، مع التنديد بفساد تصوُّراتهم الاعتقاديَّة، واستمرَّ معه حتَّى النِّهاية.

---

[492] أخرجه البخاري (6203) ومسلم (659).

[493] أخرجه أبو داود (4799) والترمذي (2002) وابن حبان (476).

[494] أخرجه أحمد (392/2) والترمذي (2004) وابن ماجه (4246) وابن حبان (476) والبخاري في الأدب الفرد (289 و294).

[495] أخرجه الترمذي (2018).

[496] تهذيب مدارج السَّالكين، المصدر السابق، (655/2).

إنَّ الأخلاق ليست شيئاً ثانوياً في هذا الدِّين، وليست محصورةً في نطاقٍ معيَّنٍ من نُطُقِ السُّلوك البشريِّ؛ إنَّما هي ركيزةٌ من ركائزه، كما أنَّها شاملةٌ للسُّلوك البشريِّ كلِّه، كما أنَّ المظاهر السُّلوكيَّة كلَّها ذات الصِّبغة الخلقيَّة الواضحة، هي التَّرجمة العمليَّة للاعتقاد، والإيمان الصَّحيح؛ لأنَّ الإيمان ليس مشاعر مكنونةً في داخل الضَّمير فحسبٍ؛ إنَّما هو عملٌ سلوكيٌّ ظاهرٌ كذلك، بحيث يحقُّ لنا حين لا نرى ذلك السُّلوك العمليَّ، أو حين نرى عكسه أن نتساءل: أين الإيمان إذاً؟ وما قيمته إذا لم يتحوَّل إلى سلوكٍ؟!

ولذلك نجد القرآن الكريم يربط الأخلاق بالعقيدة ربطاً قويّاً، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ؛ منها:

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ **[المؤمنون: 1-11]**؛ فالسورة تبدأ بتقرير الفلاح للمؤمنين بهذا التَّوكيد: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾، ثُمَّ تصف هؤلاء المؤمنين بذلك الوصف المطوَّل المفصَّل، الذي يُعْنَى بإبراز الجانب الخلقي لأولئك المؤمنين، موحياً إيحاءً واضحاً أنَّ هذه الأخلاقيات - من جهةٍ - هي ثمرة الإيمان، وأنَّ الإيمان - من جهةٍ أخرى - هو سلوكٌ ملموسٌ يُترجِم عن العقيدة المكنونة.

إنَّهم بادئ ذي بدء خاشعون في صلاتهم، فذلك أوَّل مظهرٍ للمؤمن الصَّادق: أن تكون صلاتُه - وهي اللَّحظة التي يقف فيها متعبِّداً لربِّه، ذاكراً له في قلبه، متَّصلاً به بروحه - صلاةً خاشعةً بما ينبئ عن صدق الصِّلة باللهِ؛ الَّتي يرتفع نبضها وحرارتها في أثناء الصَّلاة، ثمَّ تثنِّي السُّورة بصفة سلوكيَّة أخرى ذات دَلالةٍ، هي: أنَّهم عن اللغو معرضون؛ فاللَّغو لا ينبئ عن نفسٍ جادَّةٍ، والإيمان الصَّحيح يورث النَّفس الجدَّ بما يشعرها من ثقل التَّكاليف، وجدِّيتها، والجدُّ ليس تقطيباً دائماً ولا عبوساً، ولكنَّ اللَّغو - من جانبٍ آخر - لا يستقيم مع جدِّية الشُّعور بعظم الأمانة؛ التي يحملها الإنسان أمام خالقه، ثمَّ إنَّ هؤلاء المؤمنين لابدَّ أن تكون في قلوبهم الحساسية لحقِّ الله في أموالهم، وهو الزَّكاة.

ولابدَّ أن يكونوا ملتزمين بأوامر الله في علاقات الجنس؛ فلا يتعدَّون حدود الله، وملتزمين بأوامره في علاقتهم الاجتماعيَّة؛ فيحفظون الأمانة، ويرعون العهد، وبهذا نفهم فَهْم الصَّحابة للأخلاق، فهي ثمرةٌ طبيعيَّةٌ للعقيدة الصَّحيحة، وكذلك العبادة الحيَّة الخاشعة لله، هكذا تعلَّموا من القرآن الكريم، ومن هدي حبيبهم الصَّادق الأمين ﷺ .

لقد رسم القرآن الكريم لهم صورةً تفصيليَّةً للشَّخصيَّة المؤمنة، فكانت العبادة أوَّل مَعْلَمٍ واضح فيها؛ فنظروا كيف جعل الله في أوصاف المؤمنين أول وصفٍ لهم الخشوعَ في الصَّلاة، وآخر أوصافهم المحافظة عليها، ووصفهم بفعل الزَّكاة، وهي عبادةٌ، مع الفضائل الخلقيَّة الأخرى.

إنَّ القرآن الكريم يبرز جانب العبادة أحياناً، وجانب الأخلاق أحياناً أخرى؛ لمناسباتٍ واعتباراتٍ توجب هذا الإبراز، ففي سورة الذَّاريات كانت العناية بالعبادة في وصف المتقين: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ **[الذاريات: 16-19]**.

وفي سورة الرَّعد كانت العناية بالجانب الأخلاقيِّ في وصف أصحاب العقول، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ **[الرعد: 19-22]**.

ومع أنَّ معظم الأوصاف هنا أخلاقيَّةٌ - لمناسبة أولي الألباب - مثل الوفاء والصِّلة، والصَّبر، والإنفاق؛ لكنَّ الملحوظ فيها أنَّها ليست مجرَّد أخلاقٍ (مدنيَّة)، وإنَّما هي أخلاقٌ ربَّانيَّة، أخلاقٌ فيها معنى العبادة، والتَّقوى، فهم إنَّما يوفون (بعهد الله)، وإنما يصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهم إنَّما يفعلون ويتركون؛ لأنَّهم ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾، وهم إنَّما يصبرون؛ فهم في كلِّ أخلاقهم وسلوكهم يرجون ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، ويرجون اليوم الآخر[497].

---

[497] تهذيب مدارج السَّالكين، (657/2).

لقد تربَّى الصَّحابة رضي الله عنهم على أنَّ العبادة نوعٌ من الأخلاق؛ لأنَّها من باب الوفاء لله، والشُّكر للنِّعمة، والاعتراف بالجميل، والتَّوقير لمن هو أهل التَّوقير، والتَّعظيم، وكلُّها من مكارم الأخلاق[498]، كانت أخلاقُ الصَّحابة ربَّانيَّة، باعثها الإيمان بالله، وحاديها الرَّجاء في الآخرة، وغرضها رضوان الله، ومثوبته، فكانوا يصدقون في الحديث، ويؤدُّون الأمانة، ويوفون بالعهود، ويصبرون في البأساء والضَّرَّاء، وحين البأس، ويغيثون الملهوف، ويرحمون الصَّغير، ويوقِّرون الكبير، ويرعون الفضيلة في سلوكهم؛ كلُّ ذلك ابتغاء وجه الله، وطلباً لما عنده تعالى؛ فقد كانت بواعثهم وطوايا نفوسهم، كما قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12)﴾ **[الإنسان: 11-12]**.

إنَّ أخلاق المؤمن عبادةٌ؛ لأنَّ مقياسه في الفضيلة، والرَّذيلة، ومرجعه فيما يأخذ وما يدع، هو أمر الله ونهيه؛ بالضَّمير وحدَه ليس بمعصومٍ، وكم من أفرادٍ وجماعاتٍ رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال![499].

والعقل وحده ليس بمأمونٍ؛ لأنَّه محدودٌ بالبيئة والظُّروف، ومتأثِّر بالأهواء والنِّزاعات، وفي الاختلاف الشَّاسع للفلاسفة الأخلاقيِّين في مقياس الحكم الخلقيِّ، دليلٌ واضحٌ على ذلك، والعرف لا ثبات له، ولا عموم؛ لأنَّه يتغيَّر من جيلٍ إلى جيل، وفي الجيل الواحد من بلدٍ إلى بلدٍ، وفي البلد الواحد من إقليمٍ إلى إقليم؛ ولذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون الَّذي لا يضلُّ، ولا ينسى، ولا يتأثَّر، ولا يجور[500].

إنَّ الأخلاق في التَّربية النَّبويَّة شيءٌ شاملٌ، يعمُّ كلَّ تصرُّفات الإنسان، وكلَّ أحاسيسه، ومشاعره، وتفكيره؛ فالصَّلاة لها أخلاقٌ هي الخشوع، والكلام له أخلاقٌ هي الإعراض عن اللَّغو، والجنس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله، وحرماته، والتَّعامل مع الآخرين له أخلاقٌ هي التوسُّط بين التقتير والإسراف، والحياة الجماعيَّة لها أخلاقٌ، هي أن يكون الأمر شورى بين النَّاس، والغضب له أخلاقٌ هي العفو والصَّفح، ووقوع العدوان من الأعداء تستتبعه أخلاقٌ هي الانتصار - أي: ردُّ العدوان - وهكذا لا يوجد شيءٌ واحدٌ في حياة المسلم

(498) دراساتٌ قرآنيَّةٌ، لمحمَّد قطب، دار الفكر، 2007م، ص 130.

(499) العبادة في الإسلام، القرضاوي، مكتبة وهبة، 2007م، ص 123.

(500) الوسطيَّة في القران الكريم، ص 591.

ليست له أخلاق تُكيِّفه، ولا شيءٌ واحدٌ ليست له دَلالةٌ أخلاقيَّةٌ مصاحبةٌ.

هذا أمر، والأمر الآخر – وهو الأهمُّ – أنَّ الأخلاق في المفهوم القرآني هي لله، وليست للبشـــر، ولا لأحدٍ غير الله؛ فالصِّـــدق لله، والوفاء بالعهد للهِ، واتِّقاء المحرَّمات في علاقات الجنس لله، والعفو، والصَّـفح لله، والانتصـار من الظُّلم لله، وإتقان العمل لله، كلُّها عبادةٌ لله، تُقَدَّمُ لله وحدَه؛ خشيةً لله، وتقوى، وتطلُّعاً إلى رضـاه، إنَّها ليسـت صـفقةً بشـريَّةً للكسـب، والخسارة، إنَّما هي صفقةٌ تُعقد مع الله[501].

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٥٣)﴾ **[الأنعام: 151-153]**. ذلك هو الميثاق الأخلاقيُّ الشَّامل الَّذي التزم به الصَّحابة، ومَنْ سار على هديهم؛ اتِّباعاً لصراط الله المستقيم، فهو – إذاً – من العقيدة مرتبطٌ بها ارتباطاً أساسية، لا ينفصل عنها بحالٍ.

إنَّ الأعمال الخلقيَّة تدخل في جميع الجوانب، ويرتقي بها الوحي الإلهيُّ إلى ذروةٍ متفرّدة حين يجعلها ديناً، وعبادةً ومحلاً لثواب الله تعالى، أو عقابه الأليم عند المخالفة[502]، وإذا تأمَّلنا في الآيات السَّـابقة من سـورة الأنعام، نجدها قد اشـتملت على العناية بالضَّـروريات الخمس، وهي: «ما لابدَّ منها في قيام مصـــالح الدِّين، والدُّنيا؛ حيث إنَّها إذا فقدت لم تجرِ مصـالح الدُّنيا على اسـتقامةٍ، بل على فسـادٍ، وتهارجٍ وفوت حياةٍ، وفي الأخرى فوت النَّجاة والنَّعيم، والرُّجوع بالخســران المبين»[503] إنَّ دعوة النَّبيِّ ﷺ من أهدافها إرجاع النَّاس إلى مقاصـد الشَّريعة، والَّتي من ضـمنها المحافظة على الضَّروريات الخمس، فقد اشـتملت الآيات

(501) الإيمان والحياة، للقرضاوي، مؤسسة الرسالة، 2007م، ص 256.

(502) الوسطية في القران، ص 592.

(503) دراساتٌ قرانية، ص 139.

الكريمة السَّابقة على العناية بالضَّروريات، وهي:

أ – حفظ الدِّين: وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تُشْـرِكُوا بِهِ شَـيْئًا﴾، وفي قوله تعالى: لأنَّه ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يستقيم دينٌ مع الشِّرك بالله تعالى، فأمَرَ سبحانه عباده أن يوحِّدوه بالعبادة، وأن يتَّبعوا صراطه المستقيم، الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ونهاهم عن اتِّباع سُبُل الشيطان؛ فإنَّها غيٌّ وضلالٌ، وفي سلوكها إعراضٌ عن دين الحقِّ، واتِّباعٌ لأهواء النفوس، ووسواس الشَّيطان[504]، وقد قام النَّبيُّ ﷺ بالمحافظة على الدِّين من خلال العمل به، والجهاد من أجله، والدَّعوة إليه، والحكم به، وردِّ كلِّ ما يخالفه[505].

ب – حفظ النَّفس: في قوله تعالى: وقوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ﴾ وقد وضعت الشَّريعة الوسائلَ الكفيلة ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ بإذن اللهَّ – بحفظ النَّفس من التَّعدِّي عليها، ومن هذه الوسائل[506]: تحريمُ الاعتداء عليها، وسدُّ الذَّرائع المؤدِّية إلى القتل، كالقِصاص، وضرورةُ إقامة البيِّنة في قتل النَّفس، وضمان النَّفس، وتأخير تنفيذ القِصاص؛ بحيث إذا خشيَ مِنْ قَتْلِ غير القاتل؛ وجب عليه العفو، وكذلك إباحة المحظورات حالَ الضَّرورة[507].

ج – حفظ النَّسل: في قوله تعالى: ومن أعظم الفواحش الزِّنى؛ الَّذي وصفه الله تعالى في ايةٍ أخرى بأنَّه ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: 32].

إنَّ حفظ النَّسل من الركائز الأساسية في الحياة، ومن أسباب عمارة الأرض، وفيه تكمن قوَّة الأمَّة، وبه تكون مرهوبة الجانب، عزيزة القدر، تحمي دينها، وتحفظ نفسها، وتصون عرضها، ومالها؛ ولذلك عُنِيَت الشَّريعة بحماية النَّسل، ومنع كلِّ ما من شأنه أن يقف في

---

[504] الوسطيَّة في القران الكريم، ص 594.

[505] الموافقات في أصول الأحكام، لأبي إسحاق إبراهيم موسى اللخمي الشهير بالشَّاطبي، دار الفكر، 1341 هـ، (8/2).

[506] مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة، د. محمَّد سعد اليوبي، دار الهجرة، الرِّياض، الطَّبعة الأولى 1418هـ 1998 م، ص 188.

[507] مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة، المصدر السابق، ص 194.

طريق سلامته، ووضعت ضوابط، وأصولاً شرعيَّةً مهمَّةً في هذا الباب[508].

د – حفظ المال: في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ﴾ وقوله: . ومن وسائل حفظ المال في الشَّريعة: تحريم الاعتداء ﴿أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، وتحريم إضاعة المال، وما شُرِعَ من الحدود في العهد المدنيّ؛ كحدِّ السَّرقة، وحدِّ الحرابة، وضمان المتلفات، ومشروعيَّة الدِّفاع عن المال، وتوثيق الدُّيون والإشهاد عليها، وتعريف اللُّقَطَة، وما يتبعه[509].

هـ حفظ العقل: وأمَّا حفظ العقل، فمطلوب أيضاً؛ لأنَّ التَّكليف بهذه الأمور لا يكون إلا لمن سلم عقله، ولا يقوم بها فاسد العقل، وفي قوله تعالى: إشارةٌ إلى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، والله أعلم[510]، وقد حرَّم الإسلام كلَّ ما من شأنه إفساد العقل، وإدخال الخَلل عليه[511].

وهكذا القرآن الكريم يعلم، ويربِّي الصَّحابة على العقائد، والعبادة، والأخلاق، ومقاصد الشَّريعة في وقتٍ واحدٍ، إنَّ الأخلاق الرَّبَّانيَّة تصدر من القرآن الكريم بتقرير التَّوحيد، والعبودية لله تعالى، وهذا بدوره تأكيدٌ أساسيٌّ على حقائق وأصول هذا المنهج القرآنيِّ، الَّتي تتبع جميعها هذا المدخل التَّأسيسي، وبذلك يتقرَّر:

– أنَّ الله تعالى هو وحده مصدر الشَّرائع جميعاً، وهو شارع القيم، والمعايير الأخلاقية؛ الَّتي تنسجم مع الفطرة، وتوافق العقل السَّليم.

– أنَّ الأخلاق دينٌ ملتزمٌ به، بل هي أصلٌ من أصول المنهج الرَّبانيِّ، وليست مجرَّد فضائل فرديَّةٍ، أو آداب اجتماعيَّةٍ، أو أذواقٍ حضاريَّةٍ.

– أنَّ الأخلاق قيمٌ أساسية في حياة البشر، ينبغي أن تحظى بالثَّبات والاستقرار، وبالتَّالي يمنع الطَّواغيت من التلاعب بها، أو تشكيلها حسب المصالح والأهواء[512].

وقد احتوى القرآن الكريم على العديد من الآداب الفذَّة، الَّتي تعطي أسمى التَّوجيهات في

---

[508] الموافقات، (27/4).

[509] مقاصد الشَّريعة، ص 212.

[510] مقاصد الشَّريعة، المصدر السابق، ص 257.

[511] مقاصد الشَّريعة، المصدر السابق، ص 287.

[512] مقاصد الشَّريعة، المصدر السابق، ص 189.

باب الفضائل، والآداب الفرديَّة، والاجتماعيَّة، ففي سورة الإسراء جاءت آيات كريمةٌ هي من أجمع الآيات؛ للحثِّ على الخُلُق المحمود، والتَّنفير من الخُلُق المذموم.

قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴿٣٨﴾﴾ **[الإسراء: 23-38]**.

إنَّ الله – سبحانه وتعالى – قد جعل التَّوحيد – أي: إفراد الله بالعبادة – على رأس هذا المنهج الخُلقيّ؛ الَّذي رسمته الآيات مدحاً، وذماً؛ لأنَّ التَّوحيد له في الحقيقة جانبٌ أخلاقي أصيل؛ إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل، والإنصاف، والصِّدق مع النَّفس، كما أنَّ الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأوَّل، مثل الكِبْر، عن قبول الحقّ، والاستكبار عن اتِّباع الرُّسل غروراً، وأَنَفَةً، أو الولوع بالمراء والجدل بالباطل مغالبةً، وتطلُّعاً للظُّهور، أو تقليداً وجموداً على الإلف، والعرف مع ضلاله وبهتانه، وكلُّها – وأمثالها – أخلاق سوء تُهلك أصحابها، وتصدُّهم عن الحقِّ بعدما تبيَّن، وعن سعادة الدَّارين، مع استيقان أنفسهم بأنَّ طريق الرُّسل هو السَّبيل إليها.

والآيات بعد ذلك تذكر أنماطاً خُلُقيَّةً متعدِّدة الجوانب في شؤون الأسرة؛ مثل برِّ الوالدين، وما جاء فيه من وصايا غايةً في السُّموِّ، والإحسان، والوفاء بالجميل، ومثل برِّ الأقارب، والضعفاء، وفي شؤون المال، والإنفاق بالنَّهي عن التبذير، والأمر بالاعتدال بين الشُّحِّ المطْبق، والبسط المستغرق، وقد نفَّر الله تعالى من التَّبذير بإضافته إلى شرِّ الخلق: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: 27]. ونفَّر من الحرص، والإمساك عن الإنفاق بتصويره على أبشع مثالٍ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: 29] وتأمر الآيات الكريمة بخلقٍ جميلٍ غايةً في السُّموِّ، وهو الحرص على الكلمة الطَّيبة، إذا لم يجد الإنسان من المال ما يَسَعُ به النَّاس: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: 28] وهي وصيَّةٌ ذات أثرٍ بالغٍ في إحسان العلائق بين ﴿ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا ﴾، بل ربَّما فضَّلوها على العطاء المادِّيِّ؛ خاصَّةً إذا اقترن بالمنِّ، والأذى، ثمَّ تتحدَّث الآيات عن سوء الخلق بالبغي والاستطاعة، وقساوة القلب، وجفافه من الرَّحمة، وجمود العاطفة الكريمة، ويتمثَّل ذلك في مظهره الجنائيِّ، وهو القتل، وخاصَّةً قتل الابنة الصَّغيرة.

نعم، القتل جريمةٌ جنائيَّةٌ تسلك في قانون العقوبات القصاصيَّة، ولكنَّها هنا تُعالَج من زاويتها الأخلاقيَّة؛ التي تستهدف الوقاية، وتعمل على تغيير الإرادة، وتوجيهها وجهةً صالحةً لتحريم الفعل، وتجريمه، وإصلاح عقيدة صاحبه: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، وبهدم القيم الاجتماعيَّة الجائرة الَّتي صنعت هذا المنكر، وسوَّغته بلا نكيرٍ، وتنهى الآيات عن الزِّنى، وهو بالمقياس نفسه جريمةٌ خلقيَّةٌ أساسها البغي، والاستطالة على الأعراض، والحرمات، وإهدار العفاف، والشَّرف، والاستهانة بكلِّ كريمٍ من القيم الإنسانيَّة العليا، وتأمر الآيات، وتنهى عن أمورٍ مردُّها إلى خلق الأمانة أو الخيانة، والجدِّ أو العبث، والتَّواضع العزيز أو الكبر، والغرور؛ فمن الأمانة حفظ مال اليتيم حتَّى يبلغ أشدَّه، والوفاء بالعهد، وتوفية الكيل والميزان، والخيانة أضدادها، ومن الجدِّ اشتغال الإنسان بما ينفعه، وعدم تتبُّعه ما ليس به شأنٌ، ولا علمٌ: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: 36] والعبث كلُّ العبث اشتغال الإنسان بما نُهِيَ عنه، ومن التَّواضع العزيز شعور الإنسان بحدوده، ومعرفتُه قدر نفسه، فيضعها في مواضعها الصَّحيحة، ومن الكبر والغرور ذلك التَّطاول المبنيُّ على الجهل، والطيش، والحماقة ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ

تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِْبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء: 37] .

ولأنَّ هذه الوصايا جامعةٌ لك ما يصلح شأن الإنسان ختمها الله تعالى بقوله الحكيم: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر﴾ [الإسراء: 39].

فسمَّاها حكمةً، وختمها بالدَّعوة إلى التوحيد، والنَّهي عن الشِّرك كما بدأها؛ لأنَّ الإيمان بالله تعالى مِفْتَاحُ كلِّ خيرٍ، وحافظُه، وحارسُه، والكفر به مفتاحُ كلِّ شرٍّ وباعثُه[513].

هكذا كانت تربية القرآن الكريم للصَّف المؤمن، فقد كانت قائمةً على التخلُّق بمحاسن الأخلاق، ونَبْذِ سيِّئها.

6. تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق من خلال القصص القرآنيّ:

إنَّ القصص القرآنيَّ غنيٌّ بالمواعظ، والحكم، والأصول العقديَّة، والتَّوجيهات الأخلاقيَّة، والأساليب التَّربويَّة، والاعتبار بالأمم والشُّعوب، والقصص القرآنيُّ ليس أموراً تاريخيَّةً لا تفيد إلا المؤرِّخين، وإنَّما هو أعلى، وأشرف، وأفضل من ذلك، فالقصص القرآنيُّ مليءٌ بالتَّوحيد، والعلم، ومكارم الأخلاق، والحجج العقليَّة، والتَّبصرة، والتَّذكرة، والمحاورات العجيبة.

وأضرب لك مثلاً من قصَّة يوسف عليه السلام، متأمِّلاً في جانب الأخلاق الَّتي عُرضت في مشاهدها الرَّائعة، قال علماء الأخلاق، والحكماء: «لا ينتظم أمر الأمَّة إلا بمصلحين، ورجال أعمالٍ قائمين، وفضلاء مرشدين هادين، لهم شروطٌ معلومةٌ، وأخلاقٌ معهودةٌ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيّاً؛ فله أربعون خَصْلَةً ذكروها، كلُّها آداب، وفضائل بها يسوسُ أمتَه، وإن كان رئيساً فاضلاً، اكتفوا من الشُّروط الأربعين ببعضها، وسيِّدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين، وجمال النَّبيِّين، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدياً لاختيار الأكفاء في مهامِّ الأعمال؛ إذ قد حاز الملك، والنبوة! ونحن لا قِبَل لنا بالنُّبوة لانقطاعها، وإنَّما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة، ولنذكر منها اثنتي عَشْرَةَ خَصْلَةً هي أهمُّ خصال رئيس المدينة الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكَّر في القرآن، وتنبيهاً للمتعلِّمين السَّاعين للفضائل»[514].

---

[513] مقاصد الشريعة، ص236.

[514] المنهاج القرآنيُّ في التَّشريع، لعبد السَّتار فتح الله سعيد، مطابع دار الطِّباعة الإسلاميَّة، الطَّبعة الأولى، 1413 هـ 1992 م، (ص 425 ـ 433).

أهمُّ ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

- العفَّة عن الشَّهوات؛ ليضبط نفسه، وتتوافر قوَّته النَّفسيَّة: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24].

- الحلم عند الغضب؛ ليضبط نفسه: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 77].

- وضع اللِّين في موضعه، والشِّدَّة في موضعها: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (60)﴾ [يوسف: 59-60] فبداية الآية لينٌ، ونهايتها شدَّةٌ.

- ثقته بنفسه بالاعتماد على ربِّه: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55].

- قوَّة الذَّاكرة ليمكنه تذكر ما غاب، ومضى له سنون؛ ليضبط السِّياسات، ويعرف للنَّاس أعمالهم: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [يوسف: 58].

- جودة المصوِّرَة والقوَّة المخيِّلة؛ حتَّى تأتي بالأشياء تامَّة الوضوح: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4].

- استعداده للعلم، وحبُّه له، وتمكُّنه منه: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: 38]، و ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

- شفقته على الضُّعفاء، وتواضعه مع جلال قدره، وعلوِّ منصبه، فقد خاطب الفتيين المسجونين بالتَّواضع، فقال: ﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39]، وحادثهما في أمور دينهما، ودنياهما بقوله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: 37]، و ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: 37]، وشهدا له بقولهما: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ

مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 36] .

– العفو عند المقدرة: ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: 92] .

– إكرام العشيرة: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: 93] .

– قوّة البيان والفصاحة بتعبير رؤيا الملِك واقتداره على الأخذ بأفئدة الرّاعي والرّعيّة والسُّوقة، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنيّة على الحكمة، والعلم: ﴿فلـمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف: 54] .

– حسن التّدبير: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: 47] تالله! ما أجملَ القرآن! وما أبهج العلم!

لاشكَّ أنَّ العلاقة بين القصص القرآنيّ والأخلاق متينةٌ؛ لأنَّ من أهداف القصص القرآنيّ التذكير بالأخلاق الرَّفيعة؛ الَّتي تفيد الفرد، والأسرة، والجماعة، والدَّولة، والأمَّة، والحضارة، كما أنَّ من أهداف القصص القرآنيّ التنفير من الأخلاق الذَّميمة؛ الَّتي تكون سبباً في هلاك الأمم والشُّعوب، ولقد استفاد الصَّحابة الكرام من تربية النّبيّ ﷺ لهم، ومن المنهج الَّذي سار عليه، فهذا جزءٌ من الأخلاق القرآنيَّة النَّبويَّة أردت به التمثيل وليس الاستقصاء، وفي سنَّة رسول الله ﷺ وهديه مزيدٌ من التَّفصيل والبيان، وإنَّ المنهج النَّبويَّ القرآنيَّ الرَّبانيَّ في الأخلاق نمطٌ فريدٌ، وعجيبٌ، ليس له مقاربٌ، ولا نظيرٌ؛ لأنه من ربِّ العالمين، وقد تفرَّد بأمورٍ وخصائص، زاد من قوَّتها واكتمالها وجودُها مجتمعةً على هذا الوجه المحْكَم، ومنها:

– وجود المرجع الوافي للأخلاق في المنهج الرَّبانيّ متمثِّلاً في الكتاب والسُّنَّة، وقد حدَّدا ما يُحْمَدُ، أو يُذمُّ.

– وجود ما يضبط السُّلوك ويبعث على العلم، وهو رجاء الله والدَّار الآخرة.

– وجود القدوة العمليَّة، وهي من أسس التَّربية الخلقيَّة، وقد تمثَّل ذلك بأوفى معانيه في رسول الله ﷺ [515]؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4].

لقد أولى المنهاج النبويُّ الكريم – المستمدُّ من كتاب ربِّ العالمين – الأخلاق أهمِّيَّةً كبيرةً،

---

(515) المنهاج القرانيُّ للتَّشريع، ص 433.

وحثَّ على التمسُّك بفضائلها بمختلف الأساليب، وحذَّر من ارتكاب مرذولها بشتَّى الطُّرق، ونظرة القرآن إلى الأخلاق منبثقةٌ من نظرته إلى الكون والحياة، والإنسان، فإذا كانت العقائد تشكِّل أركان الصَّرح الإسلاميّ؛ فإنَّ التَّشريعات تكوِّن تقسيمات حُجراته، وممرَّاته، ومداخله، والأخلاق تُضفي البهاء، والرَّونق، والجمال على الصَّرح المكتمل، وتصبغه الصِّبغة الرَّبَّانيَّة المتميِّزة، وإذا كانت العقيدة الإسلاميَّة تشكِّل جذور الدَّوحة الإسلاميَّة، وجذعها، فإنَّ الشَّريعة تمثِّل أغصانها، وتشعُّباتها، والأخلاق تكوِّن ثمارها اليانعة، وظلالها الوارفة، ومنظرها البهيج النَّضِر[516].

لقد استخدم المنهاج النَّبويُّ أساليب التَّأثير والاستجابة، والالتزام في تربيته للصَّحابة؛ لكي يحوِّل الخلق من دائرة النَّظريات، إلى صميم الواقع التَّنفيذيّ، والعمل التَّطبيقيّ، سواءٌ كانت اعتقاديَّةً، كمراقبة الله تعالى، ورجاء الآخرة، أو عباديَّةً كالشَّعائر الَّتي تعمل على تربية الضَّمائر، وصقل الإرادات، وتزكية النَّفس. ومع تطوُّر الدَّعوة الإسلاميَّة، ووصولها إلى الدَّولة أصبحت هناك حوافز إلزاميَّةٌ تأتي من خارج النفس، متمثلةً في:

أ - التَّشريع:

الَّذي وُضع لحماية القيم الخلقيَّة، كشرائع الحدود، والقِصاص؛ الَّتي تحمي الفرد، والمجتمع من رذائل البغي على الغير: (بالقتل، أو السَّرقة)، أو انتهاك الأعراض: (بالزِّنى والقذف) أو البغي على النَّفس، وإهدار العقل: (بالخمر، والمسكرات المختلفة).

ب - سلطة المجتمع:

الَّتي تقوم على أساس ما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والتَّناصح بين المؤمنين، ومسؤوليَّة بعضهم على بعض، وقد جعل الله تعالى هذه المسؤوليَّة قرينة الزَّكاة، والصَّلاة، وطاعة الله ورسوله ﷺ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71].

---

[516] تفسير القاسمي، (310/9).

بل جعلها المقوّم الأصـــليّ لخيريَّة هذه الأمَّة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أخرجت لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 110] .

وقد ظهرت هذه السُّلطة، وأثرها في الفترة المدنيَّة:

ج – سلطة الدَّولة:

الَّتي وجب قيامها، وأقيمت على أسس أخلاقيَّةٍ وطيدةٍ، ولزمها أن تقوم على رعاية هذه الأخلاق، وبثِّها في سائر أفرادها ومؤسَّساتها، وتجعلها من مهامِّ وجودها ومبرراته[517].

وبذلك اجتمع للخلق الإسلاميِّ أطراف الكمال كلِّه، وأصبح للمجتمع الأخلاقي نظام واقعي مثالي، بسبب الالتزام بالمنهج الرباني.

هذه بعض الخطوط في البناء العقائديِّ والرُّوحيِّ والأخلاقيِّ في الفترة المكِّيَّة ، ولقد اتت هذه التَّربية أُكُلَها، فقد كان ما يزيد على العشرين من الصَّحابة الكرام من الخمسين الأوائل السَّابقين إلى الإسلام، يمارسون مسؤولياتٍ قياديَّةً بعد توسع الدَّعوة، وانطلاقها في عهد النَّبيِّﷺ وبعد وفاته، وأصبحوا القادة الكبار للأمَّة، وعشرون آخرون معظمهم استشهدوا، أو ماتوا على عهد رسول الله ﷺ ؛ فكان في الرَّعيل الأول أعظم شخصيات الأمَّة على الإطلاق، كان فيه تسعةٌ من العشرة المبشَّرين بالجنَّة، وهم أفضل الأمَّة بعد رسول الله ﷺ، ومنهم نماذج أسهمت في صناعة الحضارة العظيمة بتضحياتهم الجسيمة، كعمَّار بن ياسر، وعبد الله بن مسعودٍ، وأبي ذرٍّ، وجعفر بن أبي طالب، وغيرهم رضي الله عنهم، وكان من هذا الرَّعيل أعظم نساء الأمَّة خديجة رضي الله عنها، ونماذج عاليةٌ أخرى، مثل أمِّ الفضل بنت الحارث، وأسماء ذات النِّطاقين، وأسماء بنت عُمَيس، وغيرهنَّ.

لقد أتيح للرَّعيل الأوَّل أكبر قدرٍ من التَّربية العقديَّة، والرُّوحيَّة، والعقليَّة، والأخلاقيَّة على يد مربِّي البشريَّة الأعظم محمّدٍ ﷺ، فكانوا هم حداة الرَّكب، وهداةُ الأمَّة[518]، فقد كان

---

[517] الوسطيَّة في القرآن الكريم، ص 603.

[518] المنهاج القرانيُّ في التَّشريع، ص 425.

رسـول الله ﷺ يزكّيهم، ويربّيهم وينقّيهم من أوضـار الجاهليّة، فإذا كان السّـعيد الذي فاز بفضل الصُّحبة مَنْ رأى رسول الله ﷺ ولو مرّةً واحدةً في حياته، وامن به، فكيف بمن كان الرَّفيق اليوميَّ له، ويتلقّى منه، ويعبق من نوره، ويتغذّى من كلامه، ويتربَّى على عينه(519)؟!!

رابعاً: الهجرة إلى الحبشة (النموذج الإنساني للجوء وآداب الإقامة في الإسلام):

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 41].

فقد نقل القرطبيُّ – رحمه الله! قول قتادة – رحمه الله! –: «المراد أصحاب محمَّد ﷺ، ظلمهم المشركون بمكَّة، وأخرجوهم؛ حتَّى لحق طائفةٌ منهم بالحبشة، ثمَّ بوَّأهم الله تعالى دار الهجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين»(520).

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: يريد جعفر بن أبي طالبٍ، والَّذين خرجوا معه إلى الحبشة(521).

قال تعالى: ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: 56].

قال ابن كثيرٍ – رحمه الله! –: «هذا أمرٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الَّذي لا يقدرون فيه على إقامة الدِّين إلى أرض الله الواسعة؛ حتَّى يمكن إقامة الدِّين... إلى أن قال: ولهذا لـمَّا ضاق على المستضعفين بمكَّة مقامهم بها؛ خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة؛ ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنْزِلين هناك، أصحمةَ النَّجاشيَّ ملك

---

(519) المنهاج القرانيُّ في التَّشريع، ص 433.

(520) الجامع لأحكام القران، (107/10).

(521) الجامع لأحكام القران، المصدر السابق، (240/15).

الحبشة، رحمه الله تعالى!»[522].

1. الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة:

أ – أسباب الهجرة إلى الحبشة:

اشتدَّ البلاء على أصحاب رسول الله ﷺ، وجعل الكفَّار يحبسونهم، ويعذِّبونهم بالضَّرب، والجوع، والعطش، ورمضاء مكَّة، والنَّار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدَّة البلاء وقلبه مطمئنٌ بالإيمان، ومنهم من تصلَّب في دينه، وعصمه الله منهم، فلمَّا رأى رسولُ الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية؛ لمكانه من الله، ومن عمِّه أبي طالب، وأنَّه لا يقدر على أن يمنعهم ممَّا هم فيه من البلاء؛ قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظْلَم عنده أحدٌ، وهي أرض صِدْقٍ، حتَّى يجعل الله لكم فرجاً ممَّا أنتم فيه»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أوَّل هجرةٍ كانت في الإسلام [523].

وقد ذكر الباحثون أسباباً عديدةً في سبب هجرة المسلمين إلى الحبشة؛ منها: ما ذكرت، ومنها: ظهور الإيمان: حيث كثُر الدَّاخلون في الإسلام، وظهر الإيمان، وتحدَّث الناس به. قال الزُّهري في حديثه عن عروة في هجرة الحبشة: فلمَّا كثر المسلمون، وظهر الإيمان، فتُحدِّث به؛ ثار المشركون من كفَّار قريش بمن امن من قبائلهم، يعذِّبونهم، ويسجنونهم، وأرادوا فتنتهم عن دينهم، فلمَّا بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ ؛ قال لِلَّذين امنوا به: «تفرَّقوا في الأرض»، قالوا: فأين نذهب يا رسول الله؟! قال: «ها هنا»، وأشار إلى أرض الحبشة[524].

ومنها: الفرار بالدِّين:

كان الفرار بالدِّين خشية الافتتان فيه سبباً مهماً من أسباب هجرتهم للحبشة. قال ابن إسحاق: «فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى أرض الحبشة؛ مخافة

---

[522] تفسير ابن كثير للآية رقم (56) من سورة العنكبوت، (335/5).

[523] الهجرة في القران الكريم، لأحزمي سامعون، ص 290.

[524] المغازي النبويَّة، للزُّهري، تحقيق: سهيل زكَّار، ص 96.

الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم»[525].

ومنها: نشر الدَّعوة خارج مكَّة:

قال الأستاذ سيِّد قطب: «وَمِنْ ثَمَّ كان الرَّسول ﷺ يبحث عن قاعدةٍ أخرى غير مكَّة، قاعدةٍ تحمي هذه العقيدة، وتكفل لها الحرِّيَّة، ويتاح فيها أن تتخلَّص من هذا التجميد؛ الذي انتهت إليه في مكَّة، حيث تظفر بحرية الدَّعوة، وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد، والفتنة، وهذا في تقديري، كان هو السَّبب الأوَّل، والأهمَّ للهجرة، ولقد سبق الاتجاه إلى الحبشة؛ حيث هاجر إليها كثيرٌ من المؤمنين الأوائل، والقول بأنَّهم هاجروا إليها لمجرَّد النَّجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قويَّةٍ، فلو كان الأمر كذلك؛ لهاجر إذاً أقلُّ الناس وجاهةً، وقوَّةً، ومنعةً من المسلمين، غير أنَّ الأمر كان على الضدِّ من هذا، فالموالي المستضعفون الَّذين كان ينصبُّ عليهم معظم الاضطهاد، والتَّعذيب، والفتنة لم يهاجروا؛ إنَّما هاجر رجالٌ ذوو عصبياتٍ، لهم من عصبيتهم - في بيئة قبليَّةٍ - ما يعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة، وكان عدد القرشيين يؤلِّف غالبية المهاجرين»[526].

ووافق الغضبان سيِّداً فيما ذهب إليه، يقول: «وهذه اللَّفتة العظيمة من (سيِّد) -رحمه الله- لها في السِّيرة ما يعضُدها، ويساندها، وأهمُّ ما يؤكِّدها في رأيي هو الوضع العامُّ الَّذي انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة، فلم نعلم أنَّ رسول الله ﷺ قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة، حتَّى مَضَتْ هجرةُ يثرب، وبدرٌ، وأحد، والخندق، والحديبية، فلقد بقيت يثرب معرَّضةً لاجتياحٍ كاسحٍ من قريش خمس سنوات، وكان آخر هذا الهجوم والاجتياح في الخندق، وحين اطمأنَّ رسول الله ﷺ إلى أنَّ المدينة قد أصبحت قاعدةً أمينةً للمسلمين، وانتهى خطر اجتياحها من المشركين، عندئذٍ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة، فلم يعد ثمَّة ضرورةٌ لهذه القاعدة الاحتياطيَّة، الَّتي كان من الممكن أن يلجأ إليها رسول الله ﷺ، ولو سقطت يثرب في يد العدوِّ»[527].

---

[525] السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام، (398/1).

[526] في ظلال القران، (29/1).

[527] المنهج الحركي للسِّيرة، (67/1، 68).

ويميل الأستاذ دروزة إلى أنَّ فتح مجالٍ للدَّعوة في الحبشة، كان سبباً من أسباب هجرة الحبشة؛ حيث يقول: «بل إنَّه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النَّصرانيَّة أمل وجود مجالٍ للدَّعوة فيها، وأن يكون هدف انتداب جعفر متَّصلاً بهذا الأمل»[528].

وذهب إلى هذا القول الدُّكتور سليمان بن حمد العودة: «وممَّا يدعم الرَّأي القائل بكون الدَّعوة للدِّين الجديد في أرض الحبشة سبباً، وهدفاً من أسباب الهجرة إسلامُ النَّجاشيِّ، وإسلام آخرين من أهل الحبشة، وأمرٌ آخر، فإذا كان ذهاب المهاجرين للحبشة بمشورة النَّبيِّ ﷺ، وتوجيهه، فبقاؤهم في الحبشة إلى فتح خيبر بأمرِ النَّبيِّ ﷺ وتوجيهه، وفي صحيح البخاريِّ: فقال جعفر للأشعريِّين حين وافقوه بالحبشة: «إنَّ رسول الله ﷺ بعثنا هنا، وأمرنا بالإقامة؛ فأقيموا معنا»[529].

وهذا يعني: أنَّهم ذهبوا لمهمَّة معيَّنةٍ – ولا أشرف من مهمَّة الدَّعوة لدين الله – وأنَّ هذه المهمَّة قد انتهت حين طُلِب المهاجرون[530].

ومنها البحث عن مكانٍ آمنٍ للمسلمين:

كانت الخطَّة الأمنيَّة للرَّسول ﷺ تستهدف الحفاظ على الصَّفوة المؤمنة؛ ولذلك رأى الرَّسول ﷺ: أنَّ الحبشة تعتبر مكاناً امناً للمسلمين، ريثما يشتدُّ عود الإسلام، وتهدأ العاصفة، وقد وجد المهاجرون في أرض الحبشة ما أمَّنهم، وطمأنهم، وفي ذلك تقول أمُّ سلمة رضي الله عنها: «لـمَّا نزلنا أرض الحبشة؛ جَاوَرْنا بها خيرَ جارٍ النَّجاشيَّ، أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤْذَى»[531].

---

(528) سيرة الرَّسول ﷺ (265/1) عن الشَّامي، ص 111.

(529) أخرجه البخاري (4230).

(530) الهجرة الأولى في الإسلام، د. سليمان العودة، ص 34.

(531) السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام، تحقيق: همام أبو صعليك، (413/1).

ب – لماذا اختار النَّبيُّ ﷺ الحبشة؟

هناك عدَّة أسبابٍ تساعد الباحث في الإجابة عن هذا السُّؤال؛ منها:

– النَّجاشيُّ العادل:

أشار النَّبيُّ ﷺ إلى عدل النَّجاشيِّ بقوله لأصحابه: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظلم عنده أحدٌ»[532].

– النَّجاشيُّ الصَّالح:

فقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ ثناؤه على ملك الحبشة، بقوله: «قد تُوفي اليوم رجلٌ صالحٌ من الحبشة، فهَلُمَّ فَصَلُّوا عليه»[533]. ويظهر هذا الصَّلاح في حمايته للمسلمين، وتأثُّره بالقرآن الكريم عندما سمعه من جعفر رضي الله عنه، وكان معتقده في عيسى – عليه السَّلام – صحيحاً.

– الحبشة متجر قريش:

إنَّ التِّجارة كانت عمادَ الاقتصاد القرشيِّ، والحبشة تُعَدُّ من مراكز التِّجارة في الجزيرة، فربَّما عرفها بعض المسلمين عندما ذهبوا إليها في التِّجارة، أو ذكرها لهم مَنْ ذهب إليها قبلهم، وقد ذكر الطَّبريُّ في معرض ذكره لأسباب الهجرة للحبشة: «وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش، يتَّجرون فيها، يجدون فيها رَفَاغاً [534] من الرِّزق، وأمناً، ومتجراً حسناً»[535].

كما ذكر ابن عبد البرِّ: أنَّ رسول الله ﷺ حين دخل الشِّعْب، أمر مَنْ كان بمكَّة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكانت متجراً لقريش[536].

وذكر ابن حبَّان – ضمن أسباب اختيار الحبشة مكاناً للهجرة –: أنَّها كانت أرضاً

---

[532] السِّيرة النَّبويَّة، المصدر السابق، (397/1).

[533] أخرجه البخاري (1320) ومسلم (66/952).

[534] رَفَاغاً: الرَّفْغ والرَّفاغة: سعة العيش، والخصب.

[535] مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزُّبير، ص 104.

[536] الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير، ص 27.

دفيئة، ترحل إليها قريش رحلة الشِّتاء[537].

- **الحبشة البلد الآمن:**

كانت قبائل العرب في تلك الفترة تدين بالولاء والطَّاعة لقريش، وتسمع وتطيع لأمرها في الغالب؛ إذ لها نفوذٌ عليها، وكانت القبائل في حاجةٍ لقريش في حَجِّها، وتجارتها، ومواسمها، وفوق ذلك كانوا يشاركون قريشاً في حرب الدَّعوة، وعدم الاستجابة للنبيِّ ﷺ ، وقد أشار ابن إسحاق إلى نماذج من هؤلاء العرب الَّذين رفضوا عرضه، ودعوته[538]، فإذا كان هذا في داخل الجزيرة، فلم يكن في حينها في خارج الجزيرة بلدٌ أكثر أمناً من بلاد الحبشة، ومن المعلوم بُعْدُ الحبشة عن سطوة قريش من جانبٍ، كما أنَّها لا تدين لقريشٍ بالاتِّباع كغيرها من القبائل[539]. وفي حديث ابن إسحاق عن أسباب اختيار الحبشة مكاناً للهجرة: أنَّها: أرض صِدْقٍ، وأن بها مَلِكاً لا يُظْلم عنده أحدٌ[540]، فهي أرض صدقٍ، وملكها عادلٌ، وتلك من أهمِّ سمات البلد الآمن[541].

- **محبة الرَّسول ﷺ للحبشة، ومعرفته بها:**

ففي حديث الزُّهريِّ: أنَّ الحبشة كانت أحبَّ الأرض إلى رسول الله ﷺ أن يهاجر إليها[542]، ولعلَّ تلك المحبة لها أسبابٌ منها:

- حكم النَّجاشيِّ العادل.
- التزام الأحباش بالنَّصرانيَّة، وهي أقرب إلى الإسلام من الوثنيَّة؛ ولذلك فرح المؤمنون بانتصار الروم النَّصارى على فارسٍ المجوس المشركين، في الفترة المكِّية سنة ثمانٍ من

---

[537] السِّيرة النَّبويَّة وأخبار الخلفاء، ص 72.

[538] السِّير والمغازي، تحقيق سهيل زكَّار، ص 232.

[539] هجرة الرَّسول ﷺ وأصحابه في القران والسُّنَّة، ص 97.

[540] السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام، (397/1).

[541] الهجرة الأولى في الإسلام، ص 46.

[542] مغازي الزُّهري، ص 96.

البعثة، كما في القرآن[543].

- معرفة الرَّسول ﷺ بأخبار الحبشة، من خلال حاضنته أمِّ أيمن رضي الله عنها، وأمُّ أيمن هذه ثبت في صحيح مسلمٍ، وغيره: أنَّها كانت حبشيَّةً[544]، ونُقل ذلك عن ابن شهابٍ، وفي سنن ابن ماجه: أنَّها كانت تصنع للنَّبيِّ ﷺ طعاماً، فقال: ما هذا؟ فقالت: طعام نصنعه بأرضنا، فأحببت أن أصنع لك منه رغيفاً[545]..

ولم تستطع أن تغيِّر لكنتها الحبشية، ورخَّص لها النَّبيُّ ﷺ فيما لا تستطيع نطقه، فلا يُستبعد حديثها للنَّبيِّ ﷺ عن طبيعة أرضها، ومجتمعها، وحكَّامها[546]، كما أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان خبيراً بطبائع وأحوال الدُّول الَّتي كانت في زمانه.

ج – وقت خروج المهاجرين، وسرِّيَّة الخروج، والوصول إلى الحبشة:

غادر أصحاب رسول الله ﷺ مكَّة في رجب من السَّنة الخامسة للبعثة، وكانوا عشرة رجالٍ، وأربع نسوةٍ، وقيل: خمس نسوةٍ، وحاولت قريش أن تدركهم لتردَّهم إلى مكَّة، وخرجوا في إثرهم حتَّى وصلوا البحر، ولكنَّ المسلمين كانوا قد أبحروا، متوجِّهين إلى الحبشة[547].

وعند التأمُّل في فقه المرويَّات يتبيَّن لنا سِرِّيَّة خروج المهاجرين الأوائل؛ ففي رواية الواقديّ: «فخرجوا متسلِّلين سرَّاً»[548]، وعند الطَّبريِّ[549]، وممَّن يذكر السِّرِّيَّة في الهجرة: ابن سيِّد

---

[543] صحيح السِّيرة النَّبويَّة، (152/2).

[544] أخرجه البخاري (2630) ومسلم (1771).

[545] أخرجه ابن ماجه (3336).

[546] الهجرة الأولى في الإسلام، ص 48، ويعتبر مبحث الحبشة جلُّه قد أخذ من هذا الكتاب والذي بعده.

[547] الهجرة في القرآن الكريم لأحزمي سامعون جزولي، مكتبة الرُّشد، الرِّياض، الطَّبعة الأولى، 1417 هـ 1996 م، ص 290، 291.

[548] طبقات ابن سعد، (204/1).

[549] تاريخ الطَّبري، (329/2).

النَّاس[550]، وابن القيِّم[551]، والزُّرقانيُّ[552]. ولــــمَّا وصل المسلمون إلى أرض الحبشة أكرم النَّجاشــــيُّ مثواهم، وأحســـن لقاءهم، ووجدوا عنده من الطُّمأنينة، والأمن ما لم يجدوه في وطنهم، وأهليهم، فعن أمِّ سلمة زوج النَّبيِّ ﷺ قالت: «لـــمَّا نزلنا أرض الحبشة، جَاوَرْنا بها خيرَ جارٍ – النَّجاشيَّ – أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله لا نُؤْذَى، ولا نسمع شيئاً نكرهه»[553].

2. أسباب عودة المسلمين إلى مكَّة بعد هجرتهم الأولى:

أ – شبهة عودة المهاجرين بسبب قصَّة الغرانيق:

يعزو بعض المؤرِّخين والمفسِّرين عودة المسلمين من الحبشة بعد الهجرة إلى مكَّة لأسطورة راجت كثيراً، واحتلَّت مساحاتٍ واسعةً من كتب المستشرقين، قاصدين بذلك ترويجها، وجعلها حقيقةً واقعةً في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة.

إنَّ الَّذين تعرضوا لذكر تلك الأسطورة ينهجون حيالها مناهج شتَّى؛ فمنهم مَنْ يذكرها، ويســـكت عنها، لا ينفيها، ولا يثبتها، ومنهم مَنْ يحاول إثباتها، ومنهم مَنْ يورد الأدلَّة على بطلانها[554].

وتلك الأسطورة تتلخَّص في: أنَّ رسول الله ﷺ جلس يوماً عند الكعبة، وقرأ سورة النَّجم، حتَّى بلغ قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ۝٢٠﴾ **[النجم: 19-20]**. قرأ بعدها: «تلك الغرانيق العُلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لترجى»، فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخيرٍ قبل اليوم، وقد علمنا أنَّ الله يرزق، ويحيي، ويميت، ولكنَّ آلهتنا تشفع عنده، فلـــمَّا بلغ السَّجدة سجد، وسجد معه المسلمون، والمشركون كلُّهم، إلا شيخاً من قريش، رفع إلى جبهته

---

[550] عيون الأثر، (116/1).

[551] زاد المعاد، (23/3).

[552] شرح المواهب، (271/1). البداية والنِّهاية (96/3 , 97). وسيرة ابن هشام، (344/1 . 452) والهجرة في القرآن الكريم، ص 292 إلى 294.

[553] سبق تخريجه.

[554] مختصر سيرة الرَّسول ﷺ، لمحمَّد بن عبد الوهاب، ص 84.

كفّاً من حصى، فسجد عليه[555].

وصَافَى المشركون رسول الله ﷺ، وكفُّوا عن أذى المسلمين، وشاع ذلك حتَّى بلغ مَنْ في الحبشة، فاطمأنُّوا إلى حسن إقامتهم في مكَّة، وممارستهم عباداتهم امنين، فعادوا إلى مكَّة.

تلك خلاصة الأسطورة، والَّذين ذكروا القصَّة – مع اختلاف مواقفهم منها – يقولون: إنَّ رسول الله ﷺ لـمَّا قالت قريش: «إمَّا جعلت لالهتنا نصيباً، فنحن معك» كبر عليه ذلك، وجلس في بيته حتَّى أمسى، ثمَّ أتاه جبريل، فقرأ عليه سورة النَّجم، فقال جبريل: أوجئتك بهاتين الكلمتين؟ يقصد «تلك الغرانيق العلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لترجى» فحزن الرَّسول ﷺ حزناً شديداً، وخاف من ربِّه، فأنزل الله عليه: [556]﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: 52]، وحينئذٍ عاد الرَّسول ﷺ إلى عيب الهتهم، وتسفيه عقولهم، وعادوا هم كذلك إلى إيذاء المسلمين.

ب – تفنيد القصة الباطلة:

أنكر هذه القصَّة الكثير من علماء الإسلام السَّابقين، والمحَدِّثين، نقلاً، وعقلاً؛ وذلك لأنَّها تتنافى مع عصمة الرَّسول ﷺ ؛ بل وتطعن في نبوَّته ﷺ، كما أنَّها تتهاوى أمام البحث العلميّ، ومن الأدلة النقليَّة على بطلانها:

أ – أنَّ القرآن الكريم بيَّن بوضوح: أنَّ النبي ﷺ لا يستطيع أن يتقوَّل على الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ(٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٤٦)﴾ **[الحاقة: 44-46]**.

ب – أنَّ الله – عزَّ وجلَّ – قد أخبر أنَّه يحفظ القرآن من أن يُدخل عليه ما ليس منه، أو يُنقص منه شيءٌ، أو يُحرَّف عن مواضعه. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

---

[555] فتح القدير (416/3)، وفتح الباري (355/8)، وأسباب النزول للسُّيوطي على هامش الجلالين، (16/2)، والهجرة في القران الكريم، ص 296.

[556] الهجرة في القران الكريم، ص 298.

لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

ولو صحَّ: أنَّ الرَّسول ﷺ نطق في أثناء قراءته بالكلمتين المذكورتين، لدخل في القرآن ما ليس منه، فلا يكون هناك حفظٌ، وهو مخالفٌ للنَّصِّ.

ج - قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 99]، وهل هناك بشرٌ أصدق إيماناً، وأشدُّ توكُّلاً على الله من الأنبياء، ولا سيَّما خاتمهم ﷺ ؟! وقد أقرَّ رئيس الشَّياطين بأنَّه لا سلطان له على عباد الله المخلصين، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: 82-83].

وَمَنْ أحقُّ من الأنبياء بالاصطفاء؟! ومن أشدُّ إخلاصاً منهم لله؟! ونبيُّنا محمَّد ﷺ على رأس المصطفين الأخيار، وفي الذِّروة منهم إخلاصاً لله[557].

وقد ذكر القاضي عياض: أنَّ مَنْ ذكرها من المفسرين، وغيرهم لم يسندها أحدٌ منهم، ولا رفعها إلى صاحبٍ، إلا رواية البزَّار، وقد بيَّن البزَّار: أنَّه لا يعرف من طريقٍ يجوز ذكره سوى ما ذكره، وفيه ما فيه[558].

ورأى ابن حجر: وما قيل من أنَّ ذلك - السُّجود من المشركين - بسبب إلقاء الشَّيطان في أثناء قراءة رسول الله ﷺ لا صحَّة له عقلاً، ولا نقلاً[559].

ورأى ابن كثير: أنه قد ذكر كثيرٌ من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثيرٍ من المهاجرين إلى أرض الحبشة، ظنَّاً منهم: أنَّ مشركي قريش قد أسلموا، ولكنَّها من طرقٍ كلِّها مرسلةٌ، ولم أرها مسندةً من وجهٍ صحيح. والله أعلم[560].

- **وأمَّا بطلان القصَّة من جهة العقل**: فقد قام الدَّليل العقليُّ، وأجمعت الأمَّة، على عصمته ﷺ من مثل هذا؛ إذ لو جاز هذا من الرَّسول ﷺ لجاز عليه الكذب،

---

[557] الشِّفا، (117/2).

[558] فتح الباري، عند شرح حديث، رقم (4862).

[559] تفسير ابن كثير والبغوي، (600/6 وما بعدها)، نقلاً عن الهجرة في القران، ص 298.

[560] القاموس المحيط، (281/3) مادَّة (الغرنوق).

والكذب على الرّسول ﷺ محالٌ؛ إذ صدور مثل هذه القصّة عن الرّسول ﷺ محالٌ، ولو قاله عمداً، أو سهواً لم يكن هناك عصمةٌ، وهو مردودٌ، كما أنَّ القصّة تخالف عقيدة التّوحيد الّتي من أجلها بَعَثَ اللهُ نبيَّه ﷺ .

- **وأمّا بطلان القصّة لغويّاً**: فلأنَّه لم يرد قطُّ عن العرب أنَّهم وصفوا آلهتهم بـ (الغرانيق)، في الشِّعر، ولا في النَّثر، والّذي تعرفه اللغة أنَّ (الغُرْنُوق) اسم لطائرٍ مائيّ أسود، أو أبيض، ومن معانيه: الشَّابُّ الأبيض الجميل[561]، ولا شيء من معانيه اللُّغويَّة يلائم معنى الالهة والأصنام حتَّى يطلق عليهما في فصيح الكلام؛ الّذي يُعرَض على أمراء الفصاحة والبيان، فكيف يفرح به المشركون، ويعتبرونه ذكراً لآلهتهم بالخير؟![562].

إنَّ قصّة الغرانيق لا تثبت من جهة النّقل، وهي مخالفةٌ للقرآن الكريم، ولما قام عليه الدَّليل العقلي، كما أنكرتها اللُّغة، وهذا ممَّا يدلُّنا على أنَّ حديث الغرانيق مكذوبٌ، اختلقته الزَّنادقة، الّذين يسعون لإفساد العقيدة والدِّين، والطَّعن في سيِّد الأنبياء، وإمام المرسلين ﷺ [563] .

ج - الأسباب الحقيقية لعودة المسلمين:

عاش المسلمون ثلاثة أشهر من بدء الهجرة، وحدث تغيُّر كبيرٌ على حياة المسلمين في مكَّة، ونشأت ظروفٌ لم تكن موجودةً من قبل، بعثت في المسلمين الأمل في إمكان نشر الدَّعوة في مكَّة؛ حيث أسلم في تلك الفترة حمزة بن عبد المطلب، عمُّ رسول الله ﷺ؛ عصبيَّة لابن أخيه، ثمَّ شرح الله صدره للإسلام؛ فثبت عليه، وكان حمزةُ أعزَّ فتيان قريش، وأشدَّهم شكيمةً، فلمَّا دخل في الإسلام؛ عرفت قريش: أنَّ رسول الله ﷺ قد عزَّ، وامتنع، وأنَّ عمه سيمنعه، ويحميه، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[564].

---

[561] الهجرة في القرآن الكريم، ص 298، 299.

[562] السّيرة النّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة، لأبي شهبة، (372/1).

[563] مختصر سيرة الرّسول ﷺ، لمحمَّد بن عبد الوهاب، ص 90.

[564] السّيرة النّبويّة (294/1)، وعازُّوا قريشاً: أي: غلبوهم.

وبعد إسلام حمزة رضي الله عنه أسلم عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، وكان عمر ذا شكيمةٍ لا يرام، فلمَّا أسلم؛ امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ، وبحمزة؛ حتَّى عازُّوا قريشاً[565].

كان إسلام الرَّجلين العظيمين بعد خروج المسلمين إلى الحبشة، فكان إسلامهما عزَّةً للمسلمين، وقهراً للمشركين، وتشجيعاً لأصحاب رسول الله ﷺ على المجاهرة بعقيدتهم.

قال ابن مسعودٍ: «إنَّ إسلام عمرَ كان فتحاً، وإنَّ هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمةً، ولقد كنَّا ما نصلي عند الكعبة حتَّى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً؛ حتَّى صلَّى عند الكعبة، وصلَّينا معه»[566].

وعن ابن عمر قال: لـمَّا أسلم عمر؛ قال: أيُّ قريش أنقل للحديث؟ قيل له: جميل بن مَعْمر الجُمَحي، قال: فغدا عليه، قال عبد الله: وغدوت معه أتبع أثره، وأنظر ماذا يفعل، حتَّى جاءه، فقال له: أعلمت يا جميل! أنِّي أسلمت، ودخلت في دين محمَّد؟ قال: فوالله ما راجعه حتَّى قام يجرُّ رداءه، وتبعه عمر، واتَّبعتُ أبي؛ حتَّى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش! - وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطَّاب قد صبأ[567]. قال: يقول عمر مِنْ خلفه: كذب! ولكنِّي أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّداً عبده، ورسوله. وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم، ويقاتلونه، حتَّى قامت الشَّمس على رؤوسهم، وَطَلِحَ (أي: أعيا) فقعد، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمئةٍ، لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا[568].

«لقد أصبح المسلمون إذاً في وضعٍ غير الَّذي كانوا فيه قبل الهجرة إلى الحبشة، فقد

---

[565] السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام، (365/1).

[566] صبأ: خرج من دين إلى دينٍ اخر، القاموس المحيط، باب الهمزة، (20/1).

[567] سبل الهدى والرَّشاد، للصالحي، (498/2، 499).

[568] تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ، لمحمَّد سيد الوكيل، ص 59، والهجرة في القران الكريم، ص 302.

امتنعوا بحمزة، وعمر رضـــي الله عنهما، واســـتطاعوا أن يصـــلُّوا عند الكعبة بعد أن كانوا لا يقدرون على ذلك، وخرجوا من بيت الأرقم بن أبي الأرقم مجاهرين، حتَّى دخلوا المســـجد، وَكَفَّت قريش عن إيذاءهم بالصُّورة الوحشيَّة الَّتي كانت تعذِّبهم بها قبل ذلك، فالوضع قد تغيَّر بالنسبة للمسلمين، والظُّروف الَّتي كانوا يعيشون فيها قبل الهجرة قد تحوَّلت إلى أحسن، فهل ترى هذا يخفى على أحد؟! وهل تظنُّ: أنَّ هذه التَّغييرات الَّتي جرت على حياة المســـلمين في مكَّة لم تصل إلى أرض الحبشة، ولو عن طريق البحَّارة الَّذين كانوا يمرُّون بجدَّة؟!

لا بدَّ: أنَّ كلَّ ذلك قد وصـــلهم، ولا شـــكَّ: أنَّ هؤلاء الغرباء قد فرحوا بذلك كثيراً، ولا يســـتغرب أحدٌ بعد ذلـك أن يكون الحنين إلى الوطن - وهو فطرةٌ فطر الله عليهـا جميع المخلوقات - قد عاودهم، ورغبت نفوسهم في العودة إلى حيث الوطن العزيز، مكَّة أمُّ القرى، وإلى حيث يوجد الأهل، والعشـــيرة، فعادوا إلى مكَّة في ظلِّ الظُّروف الجديدة، والمشـــجِّعة، وتحت إلحاح النَّفس، وحنينها إلى حرم الله، وبيته العتيق»[569].

لقد رجع المهاجرون إلى مكَّة بســـبب ما علموا من إســـلام حمزة، وعمر، واعتقادهم: أنَّ إسلام هذين الصَّحابيَّيْن الجليلين، سيعتزُّ به المسلمون، وتقوى به شوكتُهم.

ولكنَّ قريشـــاً واجهت إســـلام حمزة، وعمر رضـــي الله عنهما، بتدبيراتٍ جديدة، يتجلَّى فيها المكر والدَّهاء من ناحيةٍ، والقسوة، والعنف من ناحيةٍ أخرى، فزادت في أسلحة الإرهاب الَّتي تستعملها ضدَّ النَّبيِّ ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، سلاحاً قاطعاً، وهو سلاح المقاطعة الاقتصادية - وقد تحدَّثت عنه - وكان من جرَّاء ذلك الموقف العنيف، أن رجع المسلمون إلى الحبشة مرَّةً ثانيةً، وانضمَّ إليهم عددٌ كبير ممَّن لم يهاجروا قبل ذلك[570].

---

(569) القول المبين في سيرة سيِّد المرسلين ﷺ، د. محمد النَّجار، ص 111، والهجرة في القران الكريم، ص 302.

(570) طبقات ابن سعدٍ الكبرى، لمحمَّد بن سعد الزُّهري، دار صادر، ودار بيروت للطِّباعة والنشر، (ط. بيروت)، 1376هـ 1957م، (207/1)، والهجرة في القران الكريم، ص 303.

3. هجرة المسلمين الثَّانية إلى الحبشة:

قال ابن سعدٍ: قالوا: لـــمَّا قدم أصحاب النَّبيِّ ﷺ مكَّة من الهجرة الأولى؛ اشتدَّ عليهم قومهم، وسطت بهم عشائرهم، ولقوا منهم أذىً شديداً، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشـــة مرَّةً ثانيةً، فكانت خرجَتُهم الثَّانية أعظمها مشـــقَّةً، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً، ونالوهم بالأذى، واشتدَّ عليهم ما بلغهم عن النَّجاشي من حسن جواره لهم، فقال عثمان بن عفَّان: يا رسول الله! فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة ولـــست معنا ؟ فقال رسول الله ﷺ: « أنتم مهاجرون إلى الله تعالى، وإلـــيَّ، لكم هاتان الهجرتـــان جميعـــاً» قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله[571]!

وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم، وعدَّتهم - كما قال ابن إسـحاق وغيره - ثلاثةٌ وثمانون رجلاً؛ إن كان عمَّار بن ياســـر فيهم، واثنان وثمانون رجلاً؛ إن لم يكن فيهم. قال السُّـهيلي: وهو الأصـحُّ عند أهل السِّـير كالواقديِّ، وابن عقبة، وغيرهما[572]، وثماني عشـرة امرأةً: إحدى عشـرة قرشـيَّاتٌ، وسـبعٌ غير قرشـيَّاتٍ، وذلك عدا أبنائهم الَّذين خرجوا معهم صغاراً، ثمَّ الذين وُلِدوا لهم فيها[573].

أ - سعي قريش لدى النَّجاشيِّ في ردِّ المهاجرين:

لـمَّا رأت قريش: أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا، واطمأنُّوا بأرض الحبشة، وأنَّهم قد أصـابوا بها داراً واسـتقراراً، وحُسْـنَ جوارٍ من النَّجاشـيِّ، وعبدوا الله، لا يؤذيهم أحدٌ؛ ائتمروا فيما بينهم أن يبعثوا وفداً للنَّجاشيِّ لإحضـار مَنْ عنده من المسـلمين إلى مكَّة بعد أن يوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة، إلا أنَّ هذا الوفد خدم الإسلام والمسلمين من حيث لا يدري، فقد أسفرت مكيدته عند النَّجاشيِّ عن حوارٍ هادف، دار بين أحد المهاجرين، وهو جعفر بن أبي

---

[571] الرَّوض الأنف، للسهيلي، (228/3).

[572] الهجرة في القران الكريم، ص 303.

[573] الهجرة في القران الكريم، ص 304.

طالب، وبين ملك الحبشة، أسفر هذا الحوار عن إسلام النَّجاشيِّ، وتأمين المهاجرين المسلمين عنده.

فعن أمِّ سلمة بنت أبي أميَّـــة بن المغيرة زوج النَّبيِّ ﷺ قالت: لـــمَّا نزلنا أرض الحبشة، جاوَرْنا بها خيرَ جارٍ (النَّجاشــيِّ)؛ أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤْذَى، ولا نســمع شيئاً نكرهه، فلـــمَّا بلغ ذلك قريشاً؛ ائتمروا أن يبعثوا إلى النَّجاشي فينا رجلين جَلْدين[574]، وأن يُهْدوا للنَّجاشـيِّ هدايا ممَّا يستطرف من متاع مكَّة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الآدم[575]، فجمعوا له آدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته[576] بِطْريقاً إلا أَهْدَوْا له هديَّةً، ثمَّ بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة ابن المغيرة المخزوميَّ، وعمرو بن العاص بن وائل السَّــهميَّ، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كلِّ بطريق هديَّته قبل أن تكلِّموا النَّجاشـــيَّ فيهم، ثمَّ قدِّما للنَّجاشيِّ هداياه، ثمَّ سلاه أن يُسْلِمَهم إليكما قبل أن يكلِّمهم. قالت: فخرجا، فقدما على النَّجاشـــيِّ، ونحن عنده بخير دارٍ، وخير جارٍ، فلم يبقَ من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلِّما النَّجاشـيَّ، ثم قالا لكلِّ بطريقٍ منهم: إنَّه صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن، ولا أنتم، وقد بَعَثَنَا إلى الملك فيهم أشــرافُ قومهم من ابائهم، وأعمامهم؛ لتردُّوهم إليهم، فإذا كلَّمنا الملك فيهم؛ فأشــيروا عليه بأن يُسْـلِمَهم إلينا، ولا يكلِّمهم، فإنَّ قومهم أعلى بهم عيناً[577]، وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم . ثمَّ إنهما قرَّبا هداياهما إلى النَّجاشـيِّ، فقبلها منهما، ثمَّ كلَّماه، فقالا له: أيها الملك! إنَّه قد صبأ إلى بلدك منا غلمانٌ سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن، ولا أنت، وقد بَعَثَنَا فيهم أشـــرافُ

[574] الجلد: القوَّة والشدَّة.

[575] الأدم: جمع أديم، وهو الجلد المدبوغ.

[576] جمع بطريق: وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الرُّوم.

[577] أعلى بهم عيناً: قال السُّهيلي: أي: أبصر بهم، أي: أعينهم وأبصارهم فوق عين غيرهم في أمرهم، والرَّوض الأنف، (92/1).

قومهم من ابائهم، وأعمامهم، وعشـــائرهم؛ لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيءٌ أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، من أن يسمع النَّجاشـيُّ كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صـدقا أيها الملك! قومُهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأَسْلِمْهم إليهما، فليردَّاهم إلى بلادهم، وقومهم.

قالت: فغضب النَّجاشيُّ، ثمَّ قال: لا هَيْمُ[578] الله! إذاً لا أسلمهم إليهما ولا أكاد[579]، قوماً جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَنْ ســواي، حتَّى أدعوهم، فأســألهم ما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون؛ أسـلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك؛ منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم، ما جاوروني[580].

ب – حوارٌ بين جعفر، والنَّجاشيّ:

ثمَّ أرسل النَّجاشيُّ إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فدعاهم، فلمَّا جاءهم رسوله؛ اجتمعوا، ثمَّ قال بعضـــهم لبعضٍ: ما تقولون للرَّجل؛ إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علَّمنا، وما أَمَرَنا به نبيُّنا ﷺ، كائناً في ذلك ما هو كائن. فلـــمَّا جاؤوه، وقد دعا النَّجاشـيُّ أسـاقفته[581]، فنشـــروا مصـــاحفهم[582] حوله، ســـألهم، فقال: ما هذا الدِّين الَّذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني، ولا دين أحدٍ من هذه الأمم؟

قالت: فكان الذي كلَّمه جعفر بن أبي طالبٍ رضـــي الله عنه، فقال له: أيُّها الملك! كنَّا قوماً أهل جاهليَّة، نعبد الأصـــنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسِـــيء الجوار، ويأكل القويُّ منَّا الضَّعيف، فكنَّا على ذلك، حتَّى بعث اللهُ إلينا رسولاً نعرف نسبه،

---

[578] والمعنى: لا والله!

[579] لا أكادُ: أي: ولا أخشى أن يلحقني فيه كيد، وفي سيرة ابن هشام: ولا يُكادُ قوم جاوروني.

[580] أخرجه أحمد (290/5) وقال: إسناده صحيح، ورقمه (22498).

[581] أساقفته: جمع الأسقف، وهو العالم والرَّئيس من علماء النَّصارى.

[582] أي: أناجيلهم، وكانوا يسمُّونها مصاحف.

وصــدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصـــدق الحديث، وأداء الأمانة، وصــلة الرَّحم، وحســن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدِّماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزُّور، وأكل مال اليتيم، وقَذْف المحصــنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشــرك به شــيئاً، وأمرنا بالصَّــلاة، والزَّكاة، والصِّــيام. قالت: فعدَّد عليه أمور الإســلام - فصــدَّقناه، وامنَّا به، واتَّبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشـرك به شـيئاً، وحرَّمنا ما حَرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذَّبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلَّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبائث، فلمَّا قهرونا، وظلمونا، وشقُّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلى بلدك، واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلَمَ عندك أيُّها الملك[583].

قالت: فقال له النَّجاشـيُّ: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شـيءٍ؟ قال له جعفر: نعم، فقال له النَّجاشيُّ: فاقرأه عليَّ.

فقرأ عليه صــدراً من ﴿كهيعص﴾، قالت: فبكى، والله النَّجاشــيُّ، حتَّى أَخْضَــلَ[584] لحيته، وبكت أساقفته، حتَّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثمَّ قال النَّجاشيُّ: إنَّ هذا - والله! - والَّذي جاء به موسى، ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ، انطلقا؛ فوالله لا أُسْلِمُهم إليكما أبداً، ولا يُكادون[585].

ج - محاولة أخرى للدَّس بين المهاجرين والنَّجاشيّ:

قالت: فلمَّا خرج كلٌّ من: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، من عند النَّجاشيّ؛ قال عمرو بن العاص: والله! لآتينَّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم[586]. قالت: فقال له

---

[583] مسند الإمام أحمد (202/1، 203).

[584] ابتلت بالدُّموع: يقال خضل وأخضل: إذا ندي، النهاية (43/3).

[585] مسند الإمام أحمد (202/1، 203)، ولا يُكادون: لعل المعنَّى: ولا يعودون إلى قومهم ليكيدوهم، ويعذِّبوهم.

[586] أستأصل به خضراءهم: أي بما أجتثُّ به شجرة حياتهم.

عبد الله بن ربيعة - وكان أتقى الرَّجلين فينا -: لا تفعل؛ فإنَّ لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله! لأخبرنَّه أنَّهم يزعمون: أن عيسى ابن مريم عبدٌ، قالت: ثمَّ غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك! إنَّهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً؛ فأرسل إليهم، فاسألهم عمَّا يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قطُّ، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعضٍ: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول - والله! - فيه ما قاله الله، وما جاء به نبيُّنا كائناً في ذلك ما هو كائن، فلمَّا دخلوا عليه؛ قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالبٍ: نقول فيه الَّذي جاء به نبيُّنا، هو عبد الله، ورسولُه، وروحه، وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء(587) البَتُول(588).

قالت: فضرب النَّجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثمَّ قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العود، فتناخرت(589) بطارقتُه حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله! اذهبوا فأنتم شُيُومٌ بأرضي (والشُّيوم الامنون)؛ من سبَّكم غَرِمَ، ثمَّ من سبَّكم غرم، فما أُحِبُّ أن لي دَبَراً ذهباً، وأنِّي اذيتُ رجلاً منكم، والدَّبر بلسان الحبشة الجعل، ردُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله! ما أخذ اللهُ مني الرَّشوة حين رد عليَّ مُلْكي؛ فاخذَ الرَّشوة فيه، وما أطاع النَّاس فيَّ، فأطيعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مَقْبُوحَيْنِ، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جارٍ(590).

ج - إسلام النَّجاشيِّ:

وقد أسلم النَّجاشيُّ، وصدَّق بنبوَّة النَّبيِّ ﷺ، وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه؛ لِمَا

---

(587) العذراء: الجارية التي لم يمسَّها رجلٌ، وهي البكر.

(588) يقال امرأة بتول: منقطعة عن الرِّجال، لا شهوة لها فيهم.

(589) فتناخرت: أي: تكلَّمت، وكأنه كلامٌ مع غضبٍ ونفورٌ.

(590) أخرجه أحمد (1/202 - 203) و(5/290 - 292) وابن هشام (1/357 - 362) وأبو نعيم في دلائل النبوة (194) والبيهقي في الدلائل (2/301 - 304).

علمه فيهم من الثَّبات على الباطل، وحرصهم على الضَّلال، وجمودهم على العقائد المنحرفة - وإن صادمت العقل، والنَّقل - فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله ﷺ نعى النَّجاشيَّ في اليوم الَّذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلَّى، فصفَّ بهم، وكبَّر عليه أربع تكبيراتٍ»[591]، وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ حين مات النَّجاشيُّ: «مات اليوم رجلٌ صالحٌ؛ فقوموا، فصلُّوا على أخيكم أصحمة»[592]. وكانت وفاته - رحمه الله! - سنة تسعٍ عند الأكثر، وقيل: سنة ثمانٍ قبل فتح مكَّة»[593].

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

1 - إنَّ ثبات المؤمنين على عقيدتهم، بعد أن يُنْزِلَ بهم الأشرار، والضَّالون أنواع العذاب، والاضطهاد دليلٌ على صِدْق إيمانهم، وإخلاصهم في معتقداتهم، وسموِّ نفوسهم، وأرواحهم، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضَّمير، واطمئنان النَّفس والعقل. وما يأملونه من رضا الله - جلَّ شأنه -، أعظمُ بكثير ممَّا ينالُ أجسادَهم، من تعذيبٍ، وحرمانٍ، واضطهادٍ؛ لأنَّ السيطرة في المؤمنين الصَّادقين، والدُّعاة المخلصين، تكون دائماً وأبداً لأرواحهم، لا لأجسادهم، وهم يسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم، من حيث لا يبالون بما تتطلَّبه أجسامهم، من راحةٍ، وشبعٍ، ولذَّةٍ، وبهذا تنتصر الدَّعوات، وبهذا تتحرَّر الجماهير من الظُّلمات، والجهالات[594].

2 - ممَّا يتبادر إلى الذِّهن من هذه الهجرة العظيمة، شفقة الرَّسول الكريم ﷺ على أصحابه، ورحمته بهم، وحرصه الشَّديد للبحث عمَّا فيه أمنهم وراحتهم، ولذلك أشار عليهم

---

[591] الهجرة في القران الكريم، ص 309.

[592] أخرجه البخاري (3877).

[593] أُسْدُ الغابة في معرفة الصَّحابة، لعلي بن أبي الكرم (ابن الأثير)، (99/1)، الإصابة في تمييز الصَّحابة، لأحمد بن عليِّ بن حجر العسقلانيِّ، تحقيق عليِّ محمَّد البجاويِّ، دار النَّهضة، مصر، (109/1).

[594] السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ، د. مصطفى السِّباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة التَّاسعة، 1406هـ 1986م، ص 57.

بالذَّهاب إلى الملك العادل؛ الَّذي لا يُظْلم أحدٌ عنده، فكان الأمر كما قال ﷺ، فأمنوا في دينهم، ونزلوا عنده في خير منزلٍ[595]، فالرَّسول ﷺ هو الَّذي وجَّه الأنظار إلى الحبشة، وهو الَّذي اختار المكان الامن لجماعته، ودعوته؛ كي يحميها من الإبادة، وهذه تربيةٌ نبويَّةٌ لقيادات المسلمين في كلِّ عصرٍ أن تخطِّط بحكمةٍ، وبُعْد نظرٍ لحماية الدَّعوة، والدُّعاة، وتبحث عن الأرض الامنة الَّتي تكون عاصمةً احتياطيَّةً للدَّعوة، ومركزاً من مراكز انطلاقها - فيما لو تعرَّض المركز الرَّئيسيُّ للخطر، أو وقع احتمال اجتياحه - فجنود الدَّعوة هم الثَّروة الحقيقية، وهم الَّذين تنصبُّ الجهود كلُّها لحفظهم، وحمايتهم دون أن يتمَّ أيُّ تفريطٍ في أرواحهم، وأمنهم، ومسلمٌ واحدٌ يعادل ما على الأرض من بشرٍ خارجين عن دين الله، وتوحيده[596].

3 - كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددةً، ولذلك حرص النَّبيُّ ﷺ على اختيار نوعياتٍ معيَّنةٍ لتحقيق هذه الأهداف، كشرح قضيَّة الإسلام، وموقف قريشٍ منه، وإقناع الرَّأي العامِّ بعدالة قضيَّة المسلمين على نحو ما تفعله الدُّول الحديثة من تحرُّكٍ سياسيٍّ، يشرح قضاياها، وكسب الرَّأي العامِّ إلى جوارها[597]، وفتح أرضٍ جديدةٍ للدَّعوة، فلذلك هاجر سادات الصَّحابة في بداية الأمر، ثمَّ لحق بهم أكثر الصَّحْب، وأوكل الأمر إلى جعفر رضي الله عنه[598].

4 - إنَّ وجود ابن عمِّ رسول الله ﷺ جعفر، وصهره عثمان، وابنته رقيَّة - رضي الله عنهم جميعاً - في مقدِّمة المهاجرين له دلالةٌ عميقةٌ، تشير إلى أنَّ الأخطار لا بدَّ أن يتجشَّمها المقرَّبون إلى القائد، وأهله، ورحمه، أمَّا أن يكون خواصُّ القائد في منأىً عن الخطر، ويُدْفَع إليه الأبعدون غير ذوي المكانة؛ فهو منهجٌ بعيدٌ عن نهج النَّبيِّ ﷺ [3].

---

[595] الهجرة في القران الكريم، ص 312.

[596] التَّربية القياديَّة، للغضبان، (333/1).

[597] أضواء على الهجرة، لتوفيق محمَّد سبع، مطبعة الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميرية، 1393 هـ، 1973 م، ص 427.

[598] التَّربية القياديَّة، (333/1).

5 – مشروعية الخروج من الوطن – وإن كان الوطن مكَّة على فضلها – إذا كان الخروج فراراً بالدِّين – وإن لم يكن إلى دار إسلام – فإنَّ أهل الحبشة كانوا نصارى، يعبدون المسيح، ولا يقولون: هو عبد الله، وقد تبيَّن ذلك في هذا الحديث – يعني: حديث أمِّ سلمة المتقدِّم – وسُمُّوا بهذه مهاجرين، وهم أصحاب الهجرتين الَّذين أثنى الله تعالى عليهم بالسَّبق، فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ﴾

6 – إنَّ اختيار الرَّسول ﷺ الهجرة إلى الحبشة يشير إلى نقطةٍ استراتيجيَّةٍ مهمَّةٍ، تمثَّلت في معرفة الرَّسول ﷺ بما حوله من الدُّول، والممالك، فقد كان يعلم طيِّبها مِنْ خبيثها، وعادلها مِنْ ظالمها، الأمر الَّذي ساعد على اختيار دارٍ امنةٍ لهجرة أصحابه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدَّعوة؛ الَّذي لا بدَّ أن يكون ملمّاً بما يجري حوله، مطَّلعاً على أحوال، وأوضاع الأمم، والحكومات[599].

7 – يظهر الحسُّ الأمنيُّ عند الرَّعيل الأوَّل في هجرتهم الأولى، وكيفية الخروج، فيتمثَّل في كونه تمَّ تسلُّلاً، وخفيةً؛ حتَّى لا تفطن له قريشٌ، فتحبطه، كما أنَّه تمَّ على نطاقٍ ضيِّقٍ، لم يزد على ستة عشر فرداً، فهذا العدد لا يلفت النَّظر في حالة تسلُّلهم، فرداً، أو فردين، وفي الوقت ذاته يساعد على السَّير بسرعةٍ، وهذا ما يتطلَّبه الموقف؛ فالرَّكب يتوقَّع المطاردة، والملاحقة في أيِّ لحظةٍ، ولعلَّ السِّرِّيَّة المضروبة على هذه الهجرة، فوَّتت على قريشٍ العلم بها في حينها، فلم تعلم بها إلا مؤخَّراً، فقامت في إثرهم؛ لتلحق بهم، لكنَّها أخفقت في ذلك، فعندما وصلت البحر لم تجد أحداً، وهذا ممَّا يؤكِّد على أنَّ الحذر هو ممَّا يجب أن يلتزمه المؤمن في تحرُّكاته الدَّعوية، فلا تكون التَّحرُّكات كلُّها مكشوفةً، ومعلومةً للعدوِّ؛ بحيث يترتَّب عليها الإضرار به وبالدَّعوة.

8 – لم ترضَ قريشٌ بخروج المسلمين إلى الحبشة، وشعرت بالخطر الَّذي يهدِّد مصالحها

---

(599) في السِّيرة النَّبويَّة جوانب الحذر والحماية، الدُّكتور إبراهيم علي محمَّد أحمد، وزارة الأوقاف، بدولة قطر، الطَّبعة الأولى رجب 1417 هـ، ص 101.

في المستقبل، فربَّما تكبر الجالية هناك، وتصبح قوَّةً خطرةً، ولذلك جدَّ المشركون، وشرعوا في الأخذ بالأسباب لإعادة المهاجرين، وبدأت قريشٌ تلاحق المهاجرين؛ لكي تنزع هذا الموقع الجديد منهم في تخطيطٍ محكمٍ ذكيٍّ؛ بالهدايا إلى النَّجاشيِّ، والهدايا إلى بطارقته، ووُضِعتِ الخطَّة داخل مكَّة، وكيف تُوزَّع الهدايا، وما نوعية الكلام الَّذي يرافق الهدايا، وصفات السُّفراء، فعمرٌو من أصدقاء النَّجاشي ومعروفٌ بالدَّهاء. ما أحوجنا إلى ألا نستصغر عدوَّنا، وألا ننام عن مخطَّطاته، وأن نعطيه حجمه الحقيقيَّ، وندرس تحرُّكاته؛ لنستعدَّ لمواجهة مخطَّطاته الماكرة![600].

9 - نُفِّذت خطَّة قريشٍ بحذافيرها كاملةً، ولكنَّها فشلت؛ لأنَّ شخصية النَّجاشيِّ الَّتي تمَّ جوارها رفضت أن تسلِّم المسلمين قبل السَّماع منهم؛ وبذلك أتاحت الفرصة للمسلمين؛ ليعرضوا قضيَّتهم العادلة، ودينهم القويم.

10 - اجتمع الصَّحابة حين جاءهم رسول النَّجاشي، طلب منهم الحضور، وتدارسوا الموقف، وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم، وكلُّ أمرٍ يتمُّ عن طريق الشُّورى هو أدعى إلى نجاحه؛ لأنَّه يضمُّ خلاصة عقولٍ كثيرةٍ. وتبدو مظاهر السُّموِّ التَّربويِّ في كون الصَّحابة لم يختلفوا، بل أجمعوا على رأيٍ واحدٍ، ألا وهو: أن يُعرض الإسلامُ كما جاء به رسولُ الله ﷺ، كائناً في ذلك ما هو كائن، وعزموا على عرض الإسلام بعزةٍ؛ وإن كان في ذلك هلاكهم[601].

11 - كان وَعْيُ القيادة النَّبويَّة على مستوى الأحداث، ولذلك وُضِع جعفر بن أبي طالبٍ على إمارة المسلمين في الهجرة، وتمَّ اختياره من قِبَلِ المسلمين المهاجرين؛ ليتحدَّث باسمهم بين يدي الملك؛ وليتمكَّن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص، وقد امتازت شخصيَّة جعفر بعدَّة أمورٍ، جعلتها تتقدَّم لسدِّ هذه الثُّغرة العظيمة؛ منها: أنَّ جعفر بن أبي

[600] التَّربية القياديَّة، (317/1).

[601] التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميديِّ، (92/2).

طالبٍ من ألصـــق النَّاس برســـول الله ﷺ، فقد عاش معه في بيتٍ واحدٍ، فهو أخبر النَّاس بقائد الدَّعوة، وسيِّد الأمَّة من بين كلِّ المهاجرين إلى الحبشة.

وهذا الموقف بين يدي النَّجاشـــيِّ يحتاج إلى بلاغةٍ، وفصـــاحةٍ، وبنو هاشـــم قمَّةُ قريش نسباً، وفضـلاً، وجعفر في الذُّؤابة[602] من بني هاشـم، والله تعالى قد اختار هاشماً من كنانة، واختار نبيَّه من بني هاشم؛ فهو أفصح النَّاس لساناً، وأوسطهم نسباً.

وهو ابن عمِّ رسول الله ﷺ، وهذا يجعل النَّجاشيَّ أكثر اطمئناناً، وثقةً بما يعرض عن ابن عمِّه[603].

خُلُقُ جعفر المقتبس من مشـكاة النُّبوَّة، وجمال خَلْقِه المنحدر من أصـلاب بني هاشـم، فقد قال رسولُ الله ﷺ لجعفر: «أشبهت خَلْقي، وخُلُقي»[604]. فالسَّفير بين يدي النَّجاشي كان قدوةً لسـفراء المسـلمين على مرِّ الزَّمان، وكرِّ العصـور، فقد اتَّصـف بسـمات السُّـفراء المسلمين؛ كالإسلام، والانتماء إليه، والفصاحة، والعلم، وحسن الخلق، والصَّبر، والشَّجاعة، والحكمة، وسعة الحيلة، والمظهر الجذَّاب[605].

12 - كان موقف جعفر، وإخوانه مثالاً تطبيقيّاً لقول رسول الله ﷺ: «من التمس رضا الله بسـخط النَّاس؛ كفاه الله مُؤْنَة النَّاس، ومن التمس رضـا النَّاس بسـخط الله؛ وَكَلَهُ الله إلى النَّاس»[606]، فهؤلاء الصَّـحابة رضـي الله عنهم قد التمسـوا رضـا الله - عزَّ وجلَّ - مع أنَّ الظَّاهر في الأمر: أنَّه يترتَّب عليه في هذه القضـيَّة سـخط أولئك النَّصـارى، وهم الَّذين لهم الهيمنة عليهم، فكانت النَّتيجة: أنَّ الله - عزَّ وجلَّ - ســخَّر لهم ملك الحبشـــة، حتَّى نطق بالحقِّ الموافق لدعوة النَّبيِّ ﷺ، مع مخالفته الصَّــريحة لمعتقدهم المنحرف؛ الَّذي قام عليه

---

[602] الذُّؤابة من كلِّ شيء: أعلاه.

[603] التَّربية القياديَّة، (335/1).

[604] أخرجه البخاري (2699) والترمذي (3765).

[605] سفراء النَّبيِّ ﷺ، لمحمود شيت خطاب، (252/2 إلى 317).

[606] أخرجه الترمذي (2414) وابن حبان (276) وابن المبارك في الزهد (66).

مُلْكُهُم، وما يغلب على الظَّنِّ من ثورة النَّصارى المتعصِّبين عليه[607].

13 – كانت بداية إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه بأرض الحبشة، وهذا بلا شكٍّ أثرٌ من آثار الهجرة للحبشـــة، وبرهانٌ على ما حقَّقه المهاجرون من مكاســـب للدَّعوة، من خلال مكوثهم بأرض الحبشـة، وإن كانت كثيرٌ من المرويات تتَّجه إلى أن بداية إسـلام عمرو بن العاص كانت على يد النَّجاشـيِّ، وهو المشـهور كما يقول ابن حجر[608]، وهي لطيفةٌ لا مثل لها؛ إذ أسـلم صـحابيٌّ على يد تابعيٍّ، كما يقول الزُّرقاني[609]، وهناك ما يفيد إسـلام عمرو على يد جعفر رضي الله عنه.

21 – يرتبط زواج الرَّسول ﷺ بأمِّ حبيبة بهجرة الحبشـة ارتباطاً وثيقاً، ويحمل هذا الزَّواج منه ﷺ لإحدى المهاجرات الثابتات معنىً كبيراً، وكان عقد الزَّواج على أمِّ حبيبة رضـــي الله عنها؛ وهي في أرض الحبشة، وجاء تأكيده في كتب السُّنَّة، فقد روى أبو داود في سننه بسندٍ صـحيح عن أمِّ حبيبة رضـي الله عنها: أنَّها كانت تحت عبيد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزوَّجها النَّجاشيُّ النَّبيَّ ﷺ، وأمهرها عنه أربعة الاف، وبعث بها إلى الرَّسول ﷺ مع شُرَحبيل بن حسنة[610].

كانت الهجرة إلى الحبشة استجابة للأذى والاضطهاد الذي تعرض له المسلمون في مكة، فهي اسـتجابة للحاجة الإنسـانية التي تبحث عن الحماية والمكان الآمن فارة بدينها وعقيدتها من الظلم والبطش. وقد كان المسـلمون أول جسـر للتواصـل بين الحضـارة الإسـلامية الناشـئة والحضارة المسيحية في الحبشة.

إنّ الهجرة إلى الحبشة تعتبر نموذجًا حضاريًا يحتذى به في كيفية تعامل الحضارات المختلفة

---

(607) التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميديِّ، (105/2).

(608) الهجرة الأولى في الإسلام، ص 167.

(609) شرح المواهب اللَّدنية، للقسطلانيِّ، لمحمَّد بن عبد الباقي الزُّرقاني، دار المعرفة، بيروت، (271/1).

(610) أخرجه أبو داود (2107).

مع بعضها البعض بروح من الاحترام والعدالة والتفاهم. إنها تعكس القيم الإنسانية المشتركة وتبرز أهمية التعايش السلمي والتعاون الدولي في بناء علاقات حضارية مستدامة.

خامساً: (البعد الإنساني والحضاري للدعوة النبوية):

تتجلى في دعوة النبي ﷺ أبعاد إنسانية وحضارية ساهمت في انتشار الإسلام وترسيخه كرسالة عالمية، وقد ظهرت في دعوته ﷺ هذه القيم من عدة جوانب:

- تحرير الإنسان من عبودية الأشياء وربطه بالخالق؛ بدعوة الإنسان لتوحيد العبادة، دعوة عظيمة تتعلق بجوهر الإنسان وكرامته، فتوحيد الله أساس للكرامة الإنسانية في زمن شاعت فيه عبادة الأصنام والأوثان، وجاء محمد ﷺ بدعوته؛ ليعلن أن الله واحد لا شريك له، أن جميع البشر سواء أمام الله، ليدرك الإنسان أنه مخلوق مكرم، له حقوق وعليه واجبات، ليس لأحد أن يتحكم فيه أو يستعبده.

- العدالة والرحمة؛ فإن الدعوة النبوية جاءت لترسيخ قيم العدل والرحمة بين الناس، فكان ﷺ، يدعو إلى العدل بين الناس على مختلف أجناسهم، كما أنّه نهى عن الظلم بكل أشكاله.

- الإصلاح الاجتماعي؛ سعت الرسالة المحمدية، إلى إصلاح المجتمع من خلال القضاء على الفساد، الأخلاقي والاجتماعي، مثل الربا، والظلم، واستعباد الناس.

- الأخلاق والمعاملات؛ وقد ركّزت الدعوة المحمدية على الأخلاق الرفيعة في المعاملات، فقد حث النبي ﷺ على الصدق، والأمانة، والتواضع، والإحسان للضعفاء والمساكين والفقراء.

كان النَّبيُّ ﷺ، يقتدي بالأنبياء والمرسلين الَّذين سبقوه في الدَّعوة إلى الله، فهذا نوح لبث في قومه داعياً ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14]، فكانت هذه الأعوام الطَّويلة عملاً دائباً، وتنويعاً متكرِّراً: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ

إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ **[نوح: 1-9]**، ومع امتداد الزّمن الطّويل ما توقف عن الدّعوة، ولا ضَعُفَتْ همَّته في تبليغها، ولا ضَعُفَتْ بصيرته، وحيلته في تنويع أوقاتها وأساليبها. قال الالوسي في تفسيره: أي: إلى الإيمان والطّاعة ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾، أي: دائماً من غير فتورٍ﴿لَيْلاً وَنَهَارًا ﴾، ولا توانٍ، ثمَّ وصف إعراضهم الشَّديد، وإصرارهم العنيد، ثمَّ علَّق على قوله تعالى: فقال: أي دعوتهم مرَّةً بعد مرَّةٍ ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، وكرَّةً غِبَّ كرَّةٍ على وجوهٍ مختلفةٍ، وأساليب متفاوتةٍ، وهو تعميمٌ لوجوه الدَّعوة، بعد تعميم الأوقات، وقوله: يُشْعِر بمسبوقية الجهر ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾، وهو الأليق بِمَنْ همُّه الإجابة؛ لأنَّه أقرب إليها؛ لما فيه من اللُّطف بالمدعوّ[611].

فكان النبي ﷺ ينوّع، ويبتكر في أساليب الدَّعوة، فدعا سرّاً وجهراً، وسلماً وحرباً، وجمعاً وفرداً، وسفراً وحضراً، كما أنَّه ﷺ قصَّ القصص، وضرب الأمثال، واستخدم وسائل الإيضاح بالخطِّ على الأرض، وغيره، كما رغَّب وبشَّر، ورهَّب وأنذر، ودعا في كلِّ انٍ، وعلى كلِّ حالٍ، وبكلِّ أسلوبٍ موثّرٍ فعَّالٍ[612]،

1. هجرة النبي ﷺ إلى الطائف:

كان رسـول الله ﷺ يسـعى لإيجاد مركزٍ جديدٍ للدَّعوة بعد الضـيق الحاصـل في مكة، وطلبَ النُّصْـرة من ثقيفٍ، لكنَّها لم تسـتجب له، وأغرت به صـبيانها، فرشـقوه بالحجارة، وفي طريق عودته من الطَّائف التقى بعَدَّاس الَّذي كان نصـرانيّاً، فأسـلم، وأرَّخ الواقديُّ الرِّحلة في شوَّال سنة عشر من المبعث بعد موت أبي طالب، وخديجة، وذكر: أنَّ مدَّة إقامته بالطَّائف،

---

[611] تفسير الالوسي، المسمَّى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني، للالوسي (محمود الالوسي البغدادي)، إدارة الطِّباعة المصطفائية بالهند، بدون ذكر سنة الطَّبع، (89/10).

[612] مقومات الدَّاعية النَّاجح، د. علي بادحدح، دار الأندلس الخضراء، جدَّة الطَّبعة الأولى 1417 هـ، 1996 م، ص 123.

كانت عشرة أيام(613).

أ – لماذا اختار الرَّسول ﷺ الطَّائف؟:

كانت الطَّائف تمثل العمق الاستراتيجيَّ لملأ قريش؛ بل كانت لقريش أطماعٌ في الطَّائف، ولقد حاولت في الماضـي أن تضـمَّ الطَّائف إليها، ووثبت على وادي وَجٍّ؛ وذلك لما فيه من الشَّـجر، والزَّرع؛ حتَّى خافتهم ثقيفٌ، وحالفتهم، وأدخلت معهم بني دَوْسٍ(614). وقد كان كثيرٌ من أغنياء مكَّة يملكون الأملاك في الطَّائف، ويقضون فيها فصل الصَّيف، وكانت قبيلة بني هاشمٍ، وعبد شمسٍ على اتِّصال مستمرٍ مع الطَّائف، كما كانت تربط مخزوماً مصالحُ ماليَّةٌ مشتركة بثقيفٍ(615)، فإذا اتَّجه الرَّسول ﷺ إلى الطَّائف، فذلك توجُّهٌ مدروسٌ، وإذا استطاع أن يجد له فيها موضع قدمٍ، وعصبةً تناصره، فإنَّ ذلك سيفزع قريشاً، ويهدِّد أمنها، ومصالحها الاقتصـاديَّة تهديداً مباشـراً، بل قد يؤدِّي لتطويقها، وعزلها عن الخارج. وهذا التَّحرك الدَّعويُّ السِّياسـيُّ الاسـتراتيجيُّ، الَّذي قام به الرَّسول ﷺ يدلُّ على حرصـه في الأخذ بالأسباب، لإيجاد دولةٍ مسلمةٍ، أو قوَّةٍ جديدةٍ، تطرح نفسـها داخل حلبة الصِّراع؛ لأنَّ الدَّولة، أو إيجاد القوَّة الَّتي لها وجودها من الوسائل المهمَّة في تبليغ دعوة الله إلى النَّاس.

عندما وصـل النبي ﷺ إلى الطائف، اتجه مباشـرة إلى مركز السـلطة، وموضـع القرار السياسي في الطائف(616).

ب. أين كان موضع السُّلطة في الطَّائف؟

كان بنو مالكٍ، والأحلاف – بحكم أسـبقيتهم الزَّمنيَّة للاسـتيطان – هما المسـيطرين عليها، وتنتهي إليهما قيادتُها، فكانت لهما الرِّئاسـة الدِّينية المتمثِّلة في رعاية المسـجد،

(613) طبقات ابن سعد، (221/1)، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (185/1).

(614) فتح الباري، كتاب الكفالة، شرح حديث رقم (2294).

(615) أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكِّي، للتجاني عبد القادر حامد، الطَّبعة الأولى، 1416 هـ، 1995 م، عمَّان، الأردن، دار البشير، ص 173.

(616) أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكِّي، المصدر السَّابق، ص 174.

وبالإضافة إلى الزَّعامة السياسية العامَّة، والعلاقة الخارجيَّة، والنُّفوذ الاقتصاديّ؛ إلا أنَّهما مع ذلك لم يكونا في وضعٍ يمكنهما من الدِّفاع عن منطقة الطَّائف؛ الَّتي كانت من أخصب بلاد العرب، وأكثرها جذباً للأنظار والأطماع، فكانا يخافان قبيلة هوازن، ويخافان قريشاً، ويخافان بني عامر، وكلُّها قبائل قويَّةٌ وقادرةٌ على الانقضاض والاستلاب، ولذلك فقد اعتمد زعماء الطَّائف على سياسة المهادنة، وحفظ الاستقرار السِّياسيِّ عن طريق المعاهدات والموازنات، وهي الطَّريقة عينها التي كانت تسير عليها قريش، فصار بنو مالكٍ يوثِّقون علاقاتهم مع هوازن؛ ليأمنوا شرَّها، وصار الأحلاف يرتبطون بقريشٍ ليأمنوا جانبها[617].

هذا، ولم يكن الرَّسول ﷺ غافلاً عن هذه الشَّبكة من العلاقات، والمعاهدات، وهو يتَّجه إلى الطائف، بل كان يعرف: أنَّ الطَّائف لم تكن توجد بها سلطةٌ مركزيَّةٌ واحدةٌ، وإنما يقتسم السُّلطة فيها بطنان من بطون العرب، بموجب اتفاقيَّةٍ داخليَّةٍ، وأنَّ أيّاً منهما كان يدور في فلك قبيلةٍ خارجيَّةٍ أقوى، فإذا استطاع أن يستميل إليه أيّاً منهما، فسوف يكون لذلك أثرٌ كبير في ميزان القوى السياسية، هذا على وجه العموم، أمَّا إذا استطاع على وجه الخصوص أن يستميل إليه الأحلاف، وهو المعسكر المتحالف مع قريشٍ؛ فإنَّ خطَّته تكون قد بلغت تمامها، وهو أمرٌ غير مستحيلٍ، فهو يعلم أنَّ موادَّة هذا المعسكر لقريشٍ لا تقوم على القناعة المذهبيَّة، أو الولاء الدِّينيِّ، بقدر ما تقوم على أساس التَّخوُّف من قريشٍ، وعلى هذا التَّقدير للوضع السِّياسيِّ، اتجه الرَّسول ﷺ مباشرةً - حينما دخل الطَّائف - إلى بني عمرو بن عمير، الَّذين يترأسون الأحلاف، ويرتبطون بقريشٍ، ولم يذهب إلى بني مالكٍ الَّذين يتحالفون مع هوازن[618].

قال ابن هشام في السِّيرة: لـمَّا انتهى رسولُ الله ﷺ إلى الطَّائف؛ عَمَدَ إلى نفرٍ من ثقيفٍ، هم يومئذٍ سادة ثقيف، وأشرافهم، وهم إخوةٌ ثلاثةٌ: عبد يا لَيْل بن عمرو ابن عُميرٍ،

---

[617] أصول الفكر السياسي في القران، ص 174.

[618] أصول الفكر السياسي في القران، المصدر السابق، ص (175).

ومسـعود بن عمرو بن عُميرٍ، وحَبيب بن عمرو بن عُمَير بن عُقْدة بن غِيَرة بن عَوْف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأةٌ من قريش من بني جُمح[619]؛ غير أنَّ بني عمرٍو كانوا شـديدي الحذر، وكثيري التَّخوُّف، فلم يستجيبوا لدعوة الرَّسول ﷺ ؛ بل بالغوا في السَّفه وسوء الأدب معه، فقام رسـول الله ﷺ من عندهم، وقد يئس من خير ثقيفٍ، وقال لهم: «إذا فعلتم ما فعلتم؛ فاكتموا عنِّي»[620]، وكره رسـول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيُذْئرهم[621] ذلك عليه، فقد كان رسول الله ﷺ يود أن يتمَّ اتصالاته تلك في جوٍ من السِّرِّيَّة، وألا تنكشف تحرُّكاته لقريشٍ؛ فقد كان النَّبيُّ ﷺ يهتمُّ كثيراً بجوانب الحيطة، والحذر، فقد:

– كان خروجه من مكَّة على الأقدام، حتى لا تظنَّ قريش أنه ينوي الخروج من مكَّة؛ لأنَّه لو خرج راكباً؛ فذلك ممَّا يثير الشُّبهة، والشُّكوك، وأنَّه ينوي الخروج والسَّفر إلى جهةٍ ما، ممَّا قد يُعرِّضه للمنع من الخروج من مكَّة دون اعتراضٍ من أحد.

– واختيار الرَّسـول ﷺ زيداً كي يرافقه في رحلته فيه جوانب أمنيَّةٌ؛ فزيد هو ابن رسـول الله ﷺ بالتَّبنِّي، فإذا راه معه أحدٌ؛ لا يثير ذلك أيَّ نوعٍ من الشَّـكِّ، لقوَّة الصِّلة بينهما، كما أنَّه ﷺ عرف زيداً عن قربٍ، فعلم فيه الإخلاص، والأمانة، والصِّـدق، فهو إذاً مأمونُ الجانب، فلا يُفشي سرّاً، ويُعتَمد عليه في الصُّحبة، وهذا ما ظهر عندما كان يقي النَّبيَّ ﷺ من الحجارة بنفسه، حتى أُصيب بشجاجٍ في رأسه.

– وعندما كان ردُّ زعماء الطَّائف ردّاً قبيحاً مشُوباً بالاستهزاء، والسُّخرية؛ تحمَّله الرَّسول ﷺ، ولم يغضب، أو يَثُرْ؛ بل طلب منهم أن يكتموا عنه، فهذا تصرُّفٌ غايةً في الحيطة، فإذا علمت قريش بهذا الاتِّصال، فإنَّها لا تسخر منه فحسب؛ بل ربَّما شدَّدت عليه في العذاب، والاضطهاد، وحاولت رصد تحرُّكاته داخل، وخارج مكَّة.

---

[619] سيرة ابن هشام، (78/2).

[620] سيرة ابن هشام، المصدر السابق، (78/2).

[621] فيُذْئرهم: يجرِّئهم ويثيرهم.

ج. تضرُّعٌ ودعاءٌ:

كان بنو عمرو لئاماً، فلم يكتموا خبر الرَّسـول ﷺ ؛ بل أَغْرَوْا به سـفهاءهم، وعبيدهم، يسبُّونه، ويرمون عراقيبه بالحجارة، حتَّى دميت عقباه، وتلطَّخت نعلاه، وسال دمه الزَّكي على أرض الطَّائف، وما زالوا به، وبزيد بن حارثة حتَّى ألجؤوهما إلى حائطٍ (أي: بســتان) لعتبة، وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظلِّ شجرةٍ من عنبٍ، فجلس فيه هو وصــاحبه زيد، ريثما يسـتريحان من عنائهما، وما أصــابهما، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويَرَيَان ما لقي من سـفهاء أهل الطَّائف، ولم يحرِّكا سـاكناً، وفي هذه الغمرة من الأسى، والحزن، والالام النفسيَّة، والجسمانية توجه الرَّسول ﷺ إلى ربِّه بهذا الدُّعاء؛ الَّذي يفيض إيماناً، ويقيناً، ورضاً بما ناله في الله، واسترضـاء الله: «اللَّهمَّ! إليك أشكو ضعف قوَّتي، وقِلَّة حيلتي، وهواني على النَّاس، يا أرحم الرَّاحمين! أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربِّي، إلى مَنْ تكِلني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني؟[622] أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضــبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسـع لي. أعوذ بنور وجهك؛ الذي أشـرقت له الظلمات، وصَلُح عليه أمر الدُّنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضَــبك، أو يحلَّ عليَّ ســخطُك، لك العُتْبى[623] حتَّى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك!»**(624)**.

وإنَّا لنلمح في هذا الدُّعاء عمق توحيد النَّبيِّ ﷺ، ومبلغ تجرُّده لله - جلَّ وعلا - فهو لم يشعر بهذا الحزن المفضي، والهمِّ المتواصل؛ ليدرأ عن نفسه الأذى، أو ليجلب لنفسه شيئاً من حياة الهدوء، والنَّعيم؛ بل هو يستعذب كلَّ هذا الأذى من أجل الله تعالى، غير أنَّه مشفقٌ من

---

[622] تجهمه: استقبله بوجهٍ كريهٍ غير مرحِّب به، ولا راغبٍ فيه.

[623] العتبى: الاسترضاء والرِّضا.

[624] ابن هشام في السيرة النبوية (61/2 - 62) والقرطبي في تفسيره (195/16) والطبراني في المعجم الكبير (346/25) والهيثمي في مجمع الزوائد (35/6). ذهب الدكتور العمري إلى تضعيف الحديث في كتابه السِّيرة النَّبوية الصحيحة (186/1)، وذهب إبراهيم العلي إلى صحَّته، وبيَّن أنَّ للحديث شاهداً يقوِّيه، ولذلك اعتبره صحيحاً وذكره في كتابه (صحيح السِّيرة النَّبويَّة) ص 136، وذهب الدكتور عبد الرحمن عبد الحميد البر مدرس الحديث وعلومه بجامعة الأزهر إلى أنَّ الحديث بطريقيه قويٌّ مقبول، وخرَّج طرقه في كتابه الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص 38.

غضب ربِّه سبحانه أن يكون قصَّر في أمرٍ من أمور الدَّعوة، من غير أن يشعر، فيتعرَّض لشيءٍ من غضب مولاه - جلَّ وعلا - فرضوان الله تعالى إذاً هو الهدف الأعلى عند رسول الله ﷺ، وهو المطلب الأعظم الَّذي تُسَخَّر له كلُّ المطالب، وإذا كان البلاء من الله تعالى من أجل أن يحلَّ رضاه، وينجلي سخطه؛ فأهلاً بالبلاء، فهو ساعتئذٍ نعمةٌ، ورخاء.

وختم رسول الله ﷺ دعاءه بالكلمة العظيمة، الَّتي يقولها، وعلَّم أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره: «ولا حول ولا قوة إلا بك!» فلا تحوُّل للمؤمن من حال الشِّدَّة إلى حال الرَّخاء، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى، ولا قوَّة على مواجهة الشَّدائد، وتحمُّل المكاره، إلا بالله جلَّ وعلا[625].

إنَّ الدُّعاء من أعظم العبادات، وهو سلاحٌ فعَّال في مجال الحماية للإنسان، وتحقيق أمنه، فمهما بلغ العقل البشريُّ من الذَّكاء، والدَّهاء؛ فهو عرضةٌ للزَّلل، والإخفاق، وقد تمرُّ على المسلم مواقف يعجز فيها عن التَّفكير، والتَّدبير تماماً، فليس له مخرج منها سوى أن يجأر إلى الله بالدُّعاء؛ ليجد فرجاً، ومخرجاً، فعندما لحق برسول الله ﷺ من أهل الطَّائف الأذى، والطَّرد، والسُّخرية، والاستهزاء، وأصبح هائماً على وجهه؛ لجأ إلى الله بالدُّعاء، فما أن انتهى من الدُّعاء، حتَّى جاءت الإجابة من ربِّ العالمين، مع جبريل وملك الجبال[626].

د. الرَّحمة، والشَّفقة النَّبويَّة:

كانت رحمته، وشفقته العظيمة هي الَّتي تغلب في المواقف العصيبة؛ الَّتي تبلغ فيها المعاناة أشدَّ مراحلها، وتضغط بعنف على النَّفس لتشتدَّ وتقسو، وعلى الصَّدر ليضيق ويتبرَّم، ومع ذلك تبقى نفسه الكبيرة، ورحمته العظيمة، هي الغالبة[627].

عن عائشة رضي الله عنها زوج النَّبيِّ ﷺ، أنَّها سألت رسول الله ﷺ: هل أتى عليك

---

[625] التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميديِّ، (20/3).

[626] في السِّيرة النَّبوية، قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص 112، 113.

[627] مقوّمات الدَّاعية النَّاجح، ص 76.

يومٌ كان أشدَّ من أُحُد؟ قال: لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يوم العَقَبَة؛ إذ عرضْتُ نفسي على ابْنِ عَبْدِ يَالَيْلِ بْنِ عَبْدِ كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أَسْتفقْ إلا وأنا بقَرْنِ الثَّعالب[628]، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم. فناداني مَلَكُ الجبال، فسلَّم عليَّ، ثمَّ قال: يا محمد! فقال: ذلك فيما شئتَ، إن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهم الأخشبينِ. فقال النَّبيُّ ﷺ: بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ من أصلابهم من يعبد الله وحدَه لا يشرك به شيئاً[629].

كانت إصابته ﷺ يوم أحدٍ، أبلغ من النَّاحية الجسميَّة، أمَّا من النَّاحية النفسيَّة؛ فإنَّ إصابته يوم الطَّائف أبلغ، وأشدُّ؛ لأنَّ فيها إرهاقاً كبيراً لنفسه، ومعاناةً فكريَّةً شديدةً، جعلته يستغرق في التَّفكير من الطَّائف إلى قَرْن الثَّعالب[630].

هـ. من مناهج التَّغيير:

كان مُقْتَرَحَ ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين، وهو يدخل تحت أسلوب الاستئصال، وقد نفذ في قوم نوحٍ، وعادٍ، وثمودٍ، وقوم لوطٍ. قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ **[العنكبوت: 40]**.

وكان هناك اقتراحٌ آخر، وهو أن يستمرَّ في هجرته، والابتعاد عن مكَّة، والطَّائف الكافرتين؛ فالأولى أخرجته، والثَّانية خذلته، وعرض ذلك الأمرَ زيدُ بن حارثة على رسول الله ﷺ . قال ابن القيِّم: إنَّ رسول الله ﷺ بعد أن لم يجد ناصراً في الطَّائف، انصرف إلى مكَّة؛

[628] هو قرن المنازل، ميقات أهل نجد، ويسمَّى الان السيل الكبير.

[629] أخرجه البخاري (3231) ومسلم (1795).

[630] التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميديِّ، (3/26، 27).

ومعه مولاه زيد بن حارثة محزوناً، وهو يدعو بدعاء الطَّائف المشـــهور، فأرســـل ربُّه – تبارك وتعالى – مَلَكَ الجبال إليه يستأمره أن يطبق الأخشـبين على أهل مكَّة، وهما جبلاها اللَّذان كانت بينهما، فقال: «لا، بل أستأني بهم؛ لعلَّ الله يخرج من أصلابهم من يعبده، ولا يشرك به شـــيئاً»، وأقام بنخلةَ أياماً، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم؛ وقد أخرجوك – يعني: قريشاً – وخرجت تستنصر، فلم تُنصر – يعني: الطَّائف – فقال ﷺ: «يا زيد! إن الله جاعلٌ لما ترى فرجاً، ومخرجاً، وإنَّ الله ناصرٌ دينَهُ، ومظهرٌ نبيَّه»[631].

إنَّ النَّبيَّ ﷺ رفض منهج الاستئصـال، وامتنع عن فكرة الاعتزال، أو الهجرة المستمرَّة، ونظر إلى المســـتقبل بنور الإيمان، وقرَّر الدُّخول إلى مكَّة الكافرة ليواصـــل جهاده الميمون، ويستثمر كلَّ ما يستطيعه من أجل دعوة التَّوحيد، لم يَخْتَرِ النَّبيُّ ﷺ أحد المنهجين السَّابقين؛ بل تقدَّم نحو المنهج البديل؛ الَّذي عزم عليه، وهو منهج يقوم على فكرة دخول مكَّة الكافرة، وليس الانســحاب منها، ويقوم على ضــرورة الوجود على الأرض ذاتها، الَّتي يقف عليها الكافرون، واعتصار مؤسَّساتها، واستثمار علاقاتها، وتحوير غاياتها؛ ليتغذَّى بكلِّ ذلك مجتمع المؤمنين، الَّذي سيولد من أحشائها؛ أي: أنَّه كان ﷺ يريد أن يتَّخذ من أصلاب الكافرين، مصانع بشرية تُخرج أجيالاً من المسلمين، المقاتلين في سبيل الله، فالنَّظر النَّبويُّ هنا مصوَّب نحو المستقبل بصورةٍ جليَّةٍ، ولم يكن ذلك يعني الانسحاب من الحاضر[632].

كان النَّبيُّ ﷺ قد عزم على دخول مكَّة مرَّةً ثانية، غير أنَّ ظاهر الأحوال تدلُّ على أنَّ دخول مكَّة لم يكن أمراً هيناً، ولا امناً، وهنالك احتمالٌ كبيرٌ للغدر به، أو اغتياله من قِبَلِ قريش، الَّتي لا يمكن أن تصبر أكثر؛ وهو قد أعلن الخروج عليها، وذهب يستنصر بالقبائل الأخرى، ويوقع بينها، وبين حلفائها؛ ثمَّ إنَّه حتَّى لو لم تكن هناك خطورةٌ على شخصه؛ فإنَّ دخوله إلى مكَّة بصـــورة «عادية» وقد طردته الطَّائف، سـيجعل أهل مكة يصـوِّرون الأمر

---

[631] زاد المعاد، (2/46).

[632] أصول الفكر السِّياسيِّ في القران المكِّيِّ، ص 176.

كهزيمةٍ كبيرةٍ أصــابت المســلمين، ويجترئون عليهم، ويزدادون ســفهاً؛ ولذلك فقد اتَّجه نظر الرَّســول ﷺ هذه المرَّة، إلى تفجير مكَّة من الدَّاخل، بدلاً من تطويقها من الخارج؛ أي: أنَّه أراد أن يتغلغل في داخل بطون قريش ذاتها، ويُوجِدُ له حلفاء من بينهم، ويُكوِّن له وجوداً في قلبها[633].

قال ابن القيِّم في كتابه زاد المعاد: ثمَّ إنَّه ﷺ لما انصــرف من الطَّائف، ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، من تصديقه، ونصرته، صار إلى حِراء، ثمَّ بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير؛ فبعث إلى سُــهيل بن عمرو، فقال له: إنَّ بني عامر لا تجير على بني كعب؛ فبعث إلى الْمُطْعِم بن عديٍّ – ســيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف – بعث إليه رجلاً من خُزاعة: أأدخل في جوارك؟ فقال: نعم. ودعا بنيه، وقومه، فقال: البَســوا السِّــلاح، وكونوا عند أركان البيت؛ فإنِّي قد أجرت محمَّداً، فدخل رسـول الله ﷺ، ومعه زيد بن حارثة، حتَّى انتهى إلى المســجد الحرام؛ فقام الْمُطْعِم بن عديٍّ على راحلته، فنادى: «يا معشرَ قريش! إنِّي قد أجرت محمَّداً؛ فلا يَهِجْه أحدٌ منكم»، فانتهى رسولُ الله ﷺ إلى الرُّكن، فاستلمه، وصلَّى ركعتين، وانصرف إلى بيته، والْمُطْعِم بن عديٍّ وولده محدقون به بالسِّلاح، حتَّى دخل بيته[634].

وفي جواب الأخنس، وسهيلٍ نظرٌ؛ لأنهما لو لم يكونا ممَّن يجير؛ لما سألهما رسول الله ﷺ ذلك؛ لمعرفته ﷺ لأعراف قومه، وعاداتهم، كيف وعامرٌ – الَّذي هو جدُّ ســهيل – وكعبٌ أخوان، أبوهما لؤيٌّ، فهما ســواء في مكانهما، يجير أحدهما على الآخر؟! هكذا قال الزُّرقانيُّ[635].

لقد تغيَّر الوضع كثيراً بسبب منهجيَّة الرَّسـول ﷺ الجديدة، فبدلاً من أن يدخل مكة

---

[633] أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكِّيِّ، ص 177، 178.

[634] زاد المعاد، (47/2).

[635] محمَّدٌ رسول الله ﷺ، لصادق عرجون، (324/2).

منهزماً، مختفياً، دخلها ويحرسه بالسِّلاح سيِّدٌ من سادات قريش، على مسمعٍ منهم، ومرأى، هذا ونلاحظ: أنَّ الرَّسول ﷺ قد اختار رجلاً من خزاعة، فبعثه رسولاً، وفي هذين الاختيارين حُنْكَةٌ سياسية مدهشةٌ، ووعيٌ تاريخيٌّ، ودبلوماسيٌّ عميقٌ؛ لأنَّ نوفلاً - وهو الأب الأكبر لقبيلة بني نوفل الَّتي يتزعَّمها الْمُطْعِم بن عديٍّ آنذاك - كان خصيماً لعبد المطَّلب جدِّ رسول الله ﷺ في الجاهليَّة، فقد وثب على أفنيةٍ، وساحاتٍ كانت لعبد المطَّلب، واغتصبها؛ فاضطرب عبد المطَّلب لذلك، واستنهض قومه، فلم ينهض كبير أحدٍ منهم؛ فكتب إلى أخواله من بني النَّجار من الخزرج قصيدةً يستنصرهم؛ فقدم عليه منهم جمع كثيف، فأناخوا بفِناء الكعبة، وتنكَّبوا القسيَّ، وعلَّقوا التِّراس؛ فلـمَّا رآهم نوفل؛ قال: لِشَرٍّ ما قدم هؤلاء؟ فكلَّموه، فخافهم، وردَّ أركاح عبد المطلب إليه؛ فلـمَّا نصر بنو الخزرج عبد المطَّلب، قالت خزاعة - وهم قد قووا، وعزُّوا -: والله! ما رأينا بهذا الوادي أحداً أحسن وجهاً، ولا أتمَّ خلقاً، ولا أعظم حِلماً من هذا الإنسان، يعنون: عبد المطلب، وقد نصره أخواله من الخزرج، ولقد ولدناه كما ولدوه، وإنَّ جدَّه عبد مناف سيِّد خزاعة، ولو بذلنا له؛ نَصَرَنا، وحَالَفَنا، وانتفعنا به، وبقومه، وانتفع بنا. فأتاه وُجُوهُهُم، فقالوا: يا أبا الحارث! إنَّا قد ولدناك كما ولدك قومٌ من بني النَّجار، ونحن بعد متجاورون في الدَّار، وقد أماتت الأيام ما يكون في قلوب بعضنا على قريشٍ من الأحقاد، فهلمَّ فنحالفك، فأعجب ذلك عبد المطَّلب، وقَبِلَهُ، وسارع إليه، ولم يحضر أحدٌ من بني نوفل، ولا عبد شمس[636].

هذا النَّص يشير إلى جذور الصِّراع التَّاريخيِّ القديم بين خزاعة، وقريش، حينما جمع قصيٌّ بن كلاب قريشاً من متفرقات المواقع، وقاتل بهم خزاعة الَّتي كان لديها رئاسة البيت، وسيادة العرب، فأخرج خزاعة من البيت، وقسم مكَّة أرباعاً على قريشٍ، فما زالت خزاعة مبغضةً لقريش، كارهين لها؛ ولـمَّا اضطرب الأمر بين قريشٍ، وعبد المطلب؛ تحالفت خزاعة مع عبد

[636] أنساب الأشراف، للبلاذُريِّ، تحقيق: محمَّد حميد الله، دار المعارف، (71/1).

المطَّلب؛ نكايةً بقريش، وإضعافاً لها؛ وليس صحيحاً: أنَّ الأيام قد أماتت ما كان في قلوب بعضهم على قريشٍ من الأحقاد، كما ذكر وفدهم؛ بل الصَّحيح: أنَّ الأحقاد لم تزل حيَّةً، والصِّراع لم يزل مستمرّاً، وممَّا يدل على ذلك: أنَّ بني نوفل، وبني عبد شمس لم يدخلا، ولم يحضرا هذا الحلف؛ إذ إنَّه حلفٌ مضادٌّ لهما.

فإذا بعث الرَّسول ﷺ رجلاً من خزاعة، إلى سيِّد قبيلة بني نوفل، فإنَّ هذا الفعل إشارةٌ ظاهرةٌ إلى تلك الوقائع التَّاريخية الَّتي ذكرناها، كما أنَّ فيها تذكيراً بالحلف القديم بين عبد المطلب، وخزاعة ضدَّ بني نوفل، وعبد شمس؛ ليفهم من ذلك: أنَّ الرسول ﷺ لا يقف معزولاً في مكَّة، وأنَّه قد يفعل ما فعله جدُّه عبد المطَّلب، فيتحالف مع خزاعة، أو يستنصر بالخزرج؛ فالرَّسول ﷺ لم يكن في الواقع يستعطف الْمُطْعِم بن عديٍّ سيِّد بني نوفل؛ ليدخل في جواره بقدر ما كان يهدِّده، ويثير مخاوفه، وحماية الْمُطْعِم بن عَدِيٍّ لرسول الله ﷺ لم تكن مجرَّد أَرْيَحِيَّةٍ، ونبلٍ بقدر ما كانت رعايةً لمصلحته، وحمايةً لوضعه، وصَمْتُ قريشٍ - وهي ترى محمَّداً ﷺ يدخل في جوار بني نوفل، وهم يحرسونه بالسِّلاح - لم يكن خوفاً من سلاح نوفل، وإنَّما خوفاً من سلاح خزاعة، وقسيِّ الخزرج[637].

كما لا ننسى: أنَّ المطعم ممَّن قام بنقض الصَّحيفة الظَّالمة - مع من ذكرنا فيما مضى - وممَّن تحسَّن موقفه بعد تقريع أبي طالبٍ له، عندما قال:

أَمُطْعِمُ لَمْ أَخـذلْـكَ فِيْ يَوْمِ نَجْـدَةٍ ... ولا مُعْظِمٍ عِنْدَ الأُمُورِ الجَلائِلِ
جَزَى اللهُ عَنَّـا عَبْـدَ شَمْسٍ وَنَوْفلاً ... عُقُوبَـةَ شَـرٍّ عَـاجِلاً غَيْرَ

وقد حفظ رسولُ الله ﷺ صنيع مُطْعِم بن عديٍّ، وعرف مدى الخطورة الَّتي عرَّض نفسه، وولده، وقومه لها من أجله، فقال عن أُسارَى بدرٍ السَّبعين يوم أسرهم: «لو كان الْمُطْعِمُ بنُ

---

[637] أصول الفكر السِّياسيِّ في القران المكي، ص 180.

[638] التَّحالف السِّياسيُّ في الإسلام لمنير محمَّد الغضبان، دار السَّلام، الطبعة الثانية، 1408 هـ، 1988 م، ص 36.

عديٍّ حيّاً ثمَّ كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى؛ لتركتُهم له»[639].

فرغم العداء العقديِّ؛ فرسـول الله ﷺ يفرِّق بين من يعادي هذه العقيدة، ويحارُبها، ومن يناصِرُها، ويسالمها، إنَّهم وإن كانوا كفاراً فليس من سمة النُّبوَّة أن تتنكَّر للجميل[640].

وقد أثنى شاعر الرَّسول ﷺ، حسَّان بن ثابتٍ على موقف المطعم، فقال في مدحه:

فَلَو كَـانَ مَجْـدٌ مُخْلِـدَ اليَوْمَ وَاحِـدَاً ... مِنَ النَّاسِ نَجَّى مَجْدُه اليومَ مُطْعِمَا

أَجَرْتَ رَسُـولَ اللهِ مِنْهمْ فَأَصْـبَحُوا ... عِبَـادَك مَـا لبَّى مُحِـلٌّ وَأَحْرَمَـا

فَلَوْ سُـئِلَتْ عَنْهُ مَعَدٌّ بِأَسْـرِهَا ... وَقَحْطَـانُ أَوْ بَاقِي بَقِيَّـة جُرْهُمَـا

لَـقَـالُـوا هُـوَ الموفِي بِخُـفْـرَةِ جَـارِهِ ... وَذِمَّتِـه يَوْمـاً إِذَا مَـا تجشَّـمَـا

وَمَـا تَطْلُعُ الشَّـمْسُ المنِيْرَةُ فَوْقَهمْ ... عَلَى مِثْلِـهِ فِيْهِمْ أَعَزَّ وَأَكْرَمَـا

إِبَاءٌ إذا يَأبَى وَأَلْـيَنُ شِـيْـمَـةً ... وَأَنْـوَمُ عَـنْ جارٍ إِذَا اللَّـيْـلُ

إنَّ كون النَّبيِّ ﷺ أقرَّ حسَّان بن ثابت في ثنائه البالغ على المطْعِم بن عديٍّ، وكونه ﷺ أثنى عليه أيضـاً؛ إلى حدِّ أنَّه أبدى اسـتعداده لأن يتنازل عن الأسـرى؛ لو كان المطعم حيّاً، وكلَّمه فيهم لدليلٌ واضحٌ على أنَّ من شريعة الإسـلام الاعتراف بفضـل أهل الفضـل، والثَّناء عليهم بما لهم من معروفٍ؛ وإن كانوا غير مسلمين[642].

وهكذا كان ﷺ يوظِّف الأعراف، والتَّقاليد الَّتي في مجتمعه لمصلحة الإسلام، فكان ينظر للبناء الاجتماعيِّ القائم، باعتباره حقيقةً موضـوعيَّةً تاريخيَّةً، وينظر للإنسـان الكافر ليس باعتباره رقماً حسـابيّاً منقطعاً، وإنَّما ينظر إليه كفردٍ في شـبكةٍ اجتماعيَّةٍ متداخلة العلاقات، ومتنوعة الدَّوافع، وإنَّ الإنسان يملك الفرصة، والإمكان لأن يتحوَّل هو نفسه، وطوع إرادتـه

(639) أخرجه البخاري (4024) وأبو داود (2689) وأحمد (80/4).

(640) التَّحالف السياسيُّ في الإسلام، ص 44.

(641) البداية والنِّهاية، (136/3).

(642) التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميديِّ، (32/3).

إلى قوَّةٍ اجتماعيَّةٍ مؤثِّـرةٍ، وله وزنٌ في اتِّخاذ القرار، ونقضه وَفْقاً للقيم الَّتي يختارها، والمطعم بن عديّ لم يكن فرداً، وإنَّما كان مؤسَّسةً، وهي مؤسَّسةٌ لم تولـد بميلاده، وإنَّما يرجع وجودهـا إلى تاريخٍ قديمٍ، تصـارعت فيها قيم التَّوحيد والإشـراك، فإن صـارت مؤسَّسـةً خالصـةً للكافرين الآن، فلا يعني ذلك استحالة الانتفاع بها، وتسخيرها للعودة للإيمان، والتَّوحيد[643].

و. قصَّة عَدَّاس النَّصرانيِّ، وإسلام الجنِّ:

لقد حقَّقت رحلة النَّبيِّ ﷺ انتصـاراتٍ دعويَّةً رفيعةَ المسـتوى؛ فقد تأثَّر بالدَّعوة الغلام النَّصرانيُّ عَدَّاس؛ الَّذي أسلم[644]، كما وصلت الدَّعوة إلى الجنِّ السَّبعة؛ الَّذين أسلموا، ثمَّ انطلقوا إلى قومهم مُنذِرِين.

- قصة عَدَّاس:

لـمَّا تعرَّض رسولُ الله ﷺ للأذى من أهل الطَّائف، وخرج من عندهم، وألجؤوه إلى حائطٍ لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، وراه عتبة، وشيبة؛ رَقَّا له، ودَعَوا غلاماً لهما نصرانيّاً يقال له: (عَدَّاس)، فقالا له: خُذْ قِطْفاً من هذا العنب، فضـعه في هذا الطَّبق، ثمَّ اذهب به إلى ذلك الرَّجل، فقل له يأكل منه. ففعل عدَّاس، ثمَّ أقبل به حتَّى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثمَّ قال له: كُلْ. فلـمَّا وضع رسولُ الله ﷺ فيه يَـدَهُ؛ قال: بسم الله، ثمَّ أكل، فنظر عَدَّاسٌ في وجهـه، ثمَّ قال: والله! إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هـذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: ومن أهل أيِّ البلاد أنت يا عدَّاس؟! وما دينك؟ قال: نصـرانيٌّ، وأنا رجلٌ من أهل نِينوى.

فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرَّجل الصَّالح يونس بن مَتَّى. فقال له عداسٌ: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ فقال رسـول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبيّاً، وأنا نبيٌّ، فأكبَّ عدَّاس على رسـول الله ﷺ يقبِّل رأسـه، ويديه، وقدميه. قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصـاحبه: أمَّا

---

[643] أصول الفكر السياسيِّ، ص 181.

[644] الرَّسول المبلِّغ، صلاح عبد الفتاح الخالديّ، دار القلم للطباعة والنشر، 1997م، ص 39، 40.

غلامُك؛ فقد أفسده عليك؛ فلـــمَّا جاءهما عدَّاسٌ؛ قالا له: ويلك يا عداس! ما لك تقبِّل رأس هذا الرَّجل، ويديه، وقدميه؟! قال: يا سـيِّدي، ما في الأرض شـيءٌ خيرٌ من هذا، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيٌّ! قالا له: ويحك يا عداس! لا يصـــرفنَّك عن دينك، فإنَّ دينك خيرٌ من دينه[645].

* إنَّ تسمية النَّبيِّ ﷺ قبل الأكل تطبيقٌ لسنَّةٍ من سُنَنِ الإسلام الظَّاهرة، وقد كان من بركة ذلك انجذابُ هذا الرَّجل النَّصرانيُّ إلى الإسلام، فما إن ذكر رسول الله ﷺ اسم الله تعالى قبل الأكل؛ حتَّى اهتز كيان ذلك المولى النَّصرانيِّ، وجاشت مشاعره، فأخبر النَّبيَّ ﷺ بعجبه من ذلك؛ حيث لا يعرف أهل تلك البلاد ذكر اسم الله تعالى.

* إنَّ التَّسمية قبل الأكل -كسائر السُّنن الظَّاهرة - من أسباب تميُّز المسلمين على من حولهم من الوثنيين، وهذا التميُّز يلفت أنظار الكفار، ويدفعهم إلى السُّـؤال عن سبب ذلك، ثمَّ يقودهم ذلك إلى فهم الدِّين الإسلاميِّ، والانجذاب إليه[646].

*كان يقين عدَّاس بنبوَّة رسـول الله قويّاً، يدلُّ على ذلك موقفه من سيِّديه عتبة، وشيبة ابني ربيعة لـمَّا أرادا الخروج إلى بدرٍ، وأمراهُ بالخروج معهما، حيث قال لهما: قتال ذلك الرَّجل الَّذي رأيت في حائطكما تريدان؟ فوالله! لا تقوم له الجبال، فقالا: ويحك يا عدَّاس! قد سحرك بلسانه[647].

* في قول عدَّاس: «والله ما على الأرض خير من هذا» مواساةٌ عظيمةٌ، فلئن اذاه قومه، فهذا وافد من العراق، مِنْ نينوى يكبُّ على يديه، ورجليه، ويقبِّلهما، ويشـــهد له بالرِّســالة، وإنَّ هذا لقَدَرٌ رَبَّانيٌّ، يسـوق مِنْ نينوى مَنْ يؤمن بالله ورسـوله؛ حيث كان الصَّـدُّ من أقرب

---

[645] ابن هشام (62/2 - 63)، وتفسير القرطبي (195/16 - 196)، وصحيح السِّيرة النَّبوية، ص 136، 137.

[646] التَّاريخ الإسلاميُّ، (22/3).

[647] سبل الهدى والرَّشاد، (578/2).

الناس إليه![648].

- إسلام الجنّ:

لمَّا انصرف النَّبيُّ ﷺ من الطَّائف، راجعاً إلى مكَّة، حين يئس من خير ثقيف، حتَّى إذا كان بنخلة؛ قام من جوف اللَّيل يصلِّي، فمرَّ به النَّفر من الجنِّ، الَّذين ذكرهم الله تعالى، وكانوا سبعة نفر من جنِّ أهل نصيبين، فاستمعوا لتلاوة الرَّسول ﷺ ؛ فلما فرغ من صلاته، ولَّوْا إلى قومهم مُنذرِين؛ قد امنوا، وأجابوا إلى ما سمعوا، فقصَّ الله تعالى خبرهم على النَّبيِّ ﷺ، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ **[الأحقاف: 29-30]**.

هبط هؤلاء الجنُّ على النَّبيِّ ﷺ وهو يقرأ ببطن نخلة، فلمَّا سمعوه؛ قالوا: ﴿أَنْصِتُوا﴾.

هذه الدَّعوة التي رفضها المشركون بالطَّائف تنتقل إلى عالمٍ آخر، هو عالم الجنِّ، فتلقَّوا دعوة النَّبيِّ ﷺ، ومضوا بها إلى قومهم، كما مضى بها أبو ذرٍّ الغفاريُّ إلى قومه، والطفيل بن عمرٍو إلى قومه، وضِمَادُ الأزديُّ إلى قومه، فأصبح في عالم الجنِّ دعاةٌ، يبلغون دعوة الله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ **[الأحقاف: 31]**.

وأصبح اسم محمَّد ﷺ تهفو إليه قلوب الجنِّ، وليس قلوب المؤمنين من الإنس فقط، وأصبح من الجنِّ حواريُّون، حملوا راية التَّوحيد، ووطَّنوا أنفسهم دعاةً إلى الله، ونزل في حقهم قرآن يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا

[648] التَّربية القياديَّة، (437/1).

شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ **[الجن: 1-13]**.

كان هذا الفتح الرَّبانيُّ في مجال الدَّعوة؛ ورسولُ الله ﷺ ببطن نخلة عاجزٌ عن دخول مكَّة، فهل يستطيع عتاة مكَّة، وثقيف أن يأسروا هؤلاء المؤمنين من الجنِّ، ويُنزلوا بهم ألوان التَّعذيب؟![649] وعندما دخل النَّبيُّ ﷺ مكَّة في جوار المطعم بن عدي، كان يتلو على صحابته سورة الجنّ، فتتجاوب أفئدتهم خشوعاً، وتأثُّراً من روعة الفتح العظيم في عالم الدَّعوة، وارتفاع رآياتها، فليسوا هم وحدهم في المعركة، هناك إخوانهم من الجنِّ يخوضون معركة التَّوحيد مع الشِّرك.

وبعد عدَّة أشهرٍ من لقاء الوفد الأول من الجنِّ برسول الله ﷺ، جاء الوفد الثَّاني متشوِّقاً لرؤية الحبيب المصطفى ﷺ، والاستماع إلى كلام ربِّ العالمين [650]. فعن علقمةَ قال: سألت ابن مسعود، فقلت: هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجنِّ؟ قال: لا، ولكنَّا كنَّا مع رسول الله ﷺ ذات ليلةٍ، ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلنا: اسْتُطِيرَ، أو اغْتِيلَ، قال: فبتنا بِشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ، فلمَّا أصبحنا؛ إذا هو جاء من قِبَلِ حِرَاءٍ، فقلنا: يا رسول الله! فقدناك، فطلبناك، فلم نجدك، فبتنا شرَّ ليلةٍ بات بها قومٌ، فقال: «أتاني داعي الجنِّ، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن»، قال: فانطلَقَ بنا، فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم. وسألوه الزَّاد، فقال: «لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسم الله عليه، يقع في أيديكم أوفرَ ما يكون لحماً، وكلُّ بَعْرَةٍ علفٌ لدوابِّكم» فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما؛ فإنَّهما طعام إخوانكم»[651].

---

[649] التربية القيادية، (1/443).

[650] التربية القيادية، المصدر السابق، (1/445).

[651] رواه مسلم (450) وأبو داود (85) والترمذي (18).

كان هذا الفتح العظيم، والنَّصر المبين، في عالم الجنّ، إرهاصاً، وتمهيداً لفتوحاتٍ وانتصاراتٍ عظيمة في عالم الإنس، فقد كان اللِّقاء مع وفد الأنصار بعد عدَّة أشهر[652].

وقد علَّق الدكتور البوطي على سماع الجنِّ من رسول الله ﷺ، في عودته من الطَّائف، فقال: «والَّذي يهمُّنا أن نعلمه بعد هذا كلِّه هو: أنَّ على المسلم أن يؤمن بوجود الجنِّ، وبأنَّهم كائناتٌ حيَّةٌ كلَّفها الله - عزَّ وجلَّ - بعبادته، كما كلَّفنا بذلك، ولئن كانت حواسُّنا، ومداركنا لا تشعر بهم، فذلك؛ لأنَّ الله - عزَّ وجلَّ - جعل وجودهم غير خاضعٍ للطَّاقة البصريَّة، الَّتي بثَّها في أعيننا، ومعلومٌ: أن أعيننا إنَّما تبصر أنواعاً معيَّنةً من الموجودات، بقدرٍ معيَّنٍ، وبشروطٍ معيَّنةٍ.

إنَّ وجود هذه المخلوقات مسندٌ إلى أخبار يقينيَّةٍ متواترةٍ وردت إلينا من الكتاب، والسُّنَّة، وصار وجود هذه المخلوقات أمراً معلوماً من الدِّين بالضَّرورة، والتَّكذيب بوجودها تكذيباً للخبر الصَّادق المتواتر إلينا عن الله - عزَّ وجلَّ - وعن رسوله ﷺ .

ولا ينبغي أن يقع العاقل في أشدِّ مظاهر الغفلة والجهل من حيث يزعم: أنَّه لا يؤمن إلا بما يتَّفق مع العلم، فيمضي يتبجَّح بأنَّه لا يعتقد بوجود الجانِّ، من أجل أنَّه لم يرَ الجانَّ، ولم يحسَّ بهم.

إنَّ من البداهة بمكانٍ: أنَّ مثل هذا الجاهل المتعالم يستدعي إنكار كثيرٍ من الموجودات اليقينيَّة لسببٍ واحدٍ، هو عدم إمكان رؤيتها، والقاعدة العلميَّة المشهورة تقول: عدم شعوري بالشَّيء لا يستلزم عدم الوجود؛ أي: عدم رؤيتك لشيءٍ تفتِّش عنه لا يستلزم أن يكون بحدِّ ذاته مفقوداً، أو غير مفقودٍ»[653].

وبعد هذا التَّكرُّم الرَّبانيُّ، الَّذي خُصَّ به النَّبيُّ ﷺ، في عالم الثَّقلين : الإنس، والجن حان وقت الحديث عن رحلته ﷺ إلى عالم السَّموات العلا، إلى عالم الملائكة، إلى حضرة الجليل

---

[652] التربية القيادية، المصدر السابق، (445/1).

[653] فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص 105، 106.

ســبحانه، إلى أن يرفعه إليه من بين هذه الخلائق جميعاً، ثُمَّ يعيده إليهم، فيحدثهم بما رأى في هذه الرِّحلة الميمونة الخالدة، الَّتي لم تعرف البشريَّة لها مثيلاً، ولن تعرف حتَّى يرث اللهُ الأرض، ومَنْ عليها[654].

2. المفاوضات مع وفود القبائل:

بعد رجوعه ﷺ من الطَّائف بدأ يعرض نفســه على القبائل في المواســم، يشــرح لهم الإســلام، ويطلب منهم الإيواء، والنُّصرة، حتَّى يبلِّغ كلام الله - عزَّ وجلَّ - وكان رســول الله ﷺ يتحرَّك في المواســم التِّجارية، ومواســم الحجِّ الَّتي تجتمع فيها القبائل وَفْق خطَّةٍ ســياســيَّةٍ دعويَّةٍ واضــحة المعالم، ومحدَّدة الأهداف، وكان يصــاحبه أبو بكر الصِّــدِّيق؛ الرَّجل الَّذي تخصَّص في معرفة أنساب العرب، وتاريخها، وكانا يقصدان «غُرَر النَّاس، ووجوه القبائل، وكان أبو بكر رضــي الله عنه، يســأل وجوه القبائل، ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدَّث رسولُ الله ﷺ، ويعرض دعوته»[655].

يقول المقريزي: «ثمَّ عرض ﷺ نفســه على القبائل أيَّام المواســم، ودعاهم إلى الإســلام، وهم بنو عامر، وغسَّــان، وبنو فَزَارة، وبنو مرَّة، وبنو حنيفة، وبنو ســليم، وبنو عبس، وبنو نصر، وثعلبة بن عكابة، وكندة وكلب، وبنو الحارث بن كعب، وبنو عذرة، وقيس بن الخطيم، وأبو اليسر أنس بن أبي رافع» وقد استقصى الواقديُّ أخبار هذه القبائل قبيلةً قبيلةً، ويقال: إنَّه ﷺ بدأ بكندة، فدعاهم إلى الإســلام، ثمَّ أتى كلباً، ثمَّ بني حنيفة، ثمَّ بني عامر، وجعل يقول: «مَنْ رجلٌ يحملني إلى قومه، فيمنعني؛ حتَّى أبلغ رســالة ربِّي؛ فإنَّ قريشــاً قد منعوني أن أبلِّغ رسالة ربِّي؟» هذا وأبو لهب وراءه يقول للنَّاس: لا تسمعوا منه؛ فإنَّه كذاب»[656].

وقد تعرَّض ﷺ للأذى العظيم، فقد روى التِّرمذيُّ عن جابرٍ رضــي الله عنه قال: كان النَّبيُّ ﷺ يعرض نفسه بالموقف، فيقول: «ألا رجلٌ يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن

---

[654] التَّربية القياديَّة، (446/1).

[655] الأنساب للسَّمعاني، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيَّة، حيدر اباد، الهند، 1382 هـ، 1962 م، (36/1).

[656] إمتاع الأسماع بما للرَّسول من الأبناء، والأموال، والحفدة، والمتاع للشَّيخ أحمد بن عليٍّ المقريزي، صحَّحه وشرحه محمود محمَّد شاكر، مطبعة لجنة التَّأليف والتَّرجمة بالقاهرة، 1941 م، (30/1، 31).

أبلِّغ كلام ربِّي»[657]، وظلّ النَّبيُّ ﷺ في تردُّده على القبائل يدعوهم، فيردُّون عليه أقبح الرَّدِّ، ويؤذونه، ويقولون: قومه أعلم به، وكيف يُصلحنا مَنْ أفسد قومه؟! فلفظوه[658] وكانت الشَّائعات الَّتي تنشرها قريشٌ في أوساط الحجَّاج تجد رواجاً، وقبولاً؛ مثل: الصابئ، وغلام بني هاشم الَّذي يزعم: أنَّه رسول، وغير ذلك، ولا شكَّ: أن هذا كان ممَّا يحزُّ في نفس الرَّسول ﷺ، ويضاعف ألم التَّكذيب، وعدم الاستجابة[659].

ولم يقتصر الأذى على ذلك، بل واجه الرَّسول ﷺ ما هو أشدُّ، وأقسى، فقد روى البخاريُّ في تاريخه، والطَّبرانيُّ في الكبير عن مدرك ابن منيب أيضاً، عن أبيه عن جدِّه رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهليَّة، وهو يقول: «يا أيها النَّاس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، فمنهم من تفلَ في وجهه، ومنهم من حثا عليه التُّراب، ومنهم من سبَّه؛ حتَّى انتصف النَّهار، فأقبلت جاريةٌ بِعُسٍّ من ماءٍ، فغسل وجهه، ويديه، وقال: «يا بنية ! لا تَخْشَيْ على أبيك غلبةً، ولا ذلَّةً !» فقلت: من هذه ؟ قالوا: زينب بنت رسول الله ﷺ، وهي جاريةٌ وضيئةٌ[660].

وقد كان أبو جهل، وأبو لهب – لعنهما الله – يتناوبان على أذيَّة رسول الله ﷺ عندما يدعو في الأسواق، والمواسم، وكان يجد منهما عنتاً كبيراً إضافةً إلى ما يلحقه من المدعوِّين أنفسهم[661].

أ. من أساليب النَّبيِّ ﷺ في الردِّ على مكائد أبي جهلٍ، والمشركين في أثناء الطَّواف على القبائل:

1 – مقابلة القبائل في اللَّيل:

فكان ﷺ من حكمته العالية يخرج لمقابلة القبائل في ظلام اللَّيل؛ حتَّى لا يحول بينه

(657) أخرجه أبو داود (4734) والترمذي (2925) وابن ماجه (201) وأحمد (390/3).
(658) الدُّرر، لابن عبد البرّ، ص 35، والسِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير، (185/2).
(659) المحنة في العهد المكِّيِّ، ص 53.
(660) المحنة في العهد المكي، المصدر السابق، ص53. البخاري في التاريخ الكبير (14/2/4) والطبراني في المعجم الكبير (342/20) ومجمع الزوائد (21/6).
(661) المحنة في العهد المكِّيِّ، ص 53.

وبينهم أحدٌ من المشركين[662]، وقد نجح هذا العمل في إبطال مفعول الدِّعاية المضادَّة؛ الَّتي كانت تتبعها قريشٌ، كلَّما اتَّصل الرَّسول ﷺ بقبيلةٍ من القبائل، والدَّليل على نجاح هذا الأسلوب المضادِّ، اتِّصال الرَّسول ﷺ بالأوس، والخزرج ليلاً، وَمِنْ ثمَّ كانت العقبة الأولى، والثَّانية ليلاً[663].

2 – ذهاب الرَّسول ﷺ إلى القبائل في منازلهم:

فقد أتى كلباً، وبني حنيفة، وبني عامر في منازلهم[664]؛ وبذلك يحاول أن يبتعد عن مطاردة قريش، فيستطيع أن يتفاوض مع القبائل بالطَّريقة المناسبة، دونما تشويشٍ، أو تشويهٍ من قريش.

3 – اصطحاب الأعوان:

كان أبو بكر، وعليٌّ رضي الله عنهما يرافقان الرَّسول ﷺ في بعض مفاوضاته، مع بعض القبائل، وربَّما كانت هذه الرُّفقة لأجل ألا يظنَّ المدعوُّون: أنَّه وحيدٌ، ولا أعوان له من أشراف قومه، وأقاربه، هذا إلى جانب معرفة أبي بكرٍ رضي الله عنه بأنساب العرب[665]، الأمر الَّذي يساعد الرَّسول ﷺ في التَّعرُّف على معادن القبائل، فيقع الاختيار على أفضلها؛ لتحمل تَبِعَات الدَّعوة.

4 – التأكُّد من حماية القبيلة:

ومن الجوانب الأمنيَّة المهمَّة، سؤاله ﷺ عن المنعة، والقوَّة لدى القبائل، قبل أن يوجِّه إليهم الدَّعوة، ويطلب منهم الحماية، فقوَّة، ومنعةُ القبيلة الَّتي تحمي الدَّعوة شيءٌ ضروريٌّ، ومهمٌّ لابدَّ منه؛ لأنَّ هذه القبيلة ستواجه كلَّ قوى الشَّرِّ، والباطل، فلابدَّ أن تكون أهلاً لهذا الدَّور، من حيث الاستعداد المعنويِّ والمادِّيِّ؛ الَّذي يرهب الأعداء، ويحمي حمى الدَّعوة، ويتحمَّل تبعات نشرها، مزيلاً لكلِّ العقبات؛ التي تقف في طريقها[666].

---

[662] تاريخ إسلام، نجيب أبادي، 2000م، (129/1)، نقلاً عن الرَّحيق المختوم.

[663] السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام، (44/2، 52)، وفي السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص 116.

[664] البداية والنِّهاية، لابن كثير، (140/3).

[665] في السِّيرة النَّبويَّة، قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص 116.

[666] في السِّيرة النَّبويَّة، المصدر السابق، ص 116، 117.

ب. المفاوضات مع بني عامر:

اختار الرَّسول ﷺ أن يُجري مفاوضاتٍ مع بني عامرٍ، وقامت تلك المفاوضات على دراسةٍ وتخطيطٍ، فالرَّسول ﷺ، وصاحبه أبو بكر، كانا يعلمان: أنَّ بني عامر قبيلةٌ مقاتلةٌ كبيرةُ العدد، وعزيزةُ الجانب؛ بل هي من القبائل الخمس الَّتي لم يمسَّها سِبَاءٌ[667]، ولم تتبع لملكٍ، ولم تؤدِّ إتاوة، مثلها مثل قريش، وخزاعة[668]، كما أنَّ الرَّسول ﷺ كان يعلم: أنَّ هنالك تضادّاً قديماً بين بني عامرٍ، وثقيف، فإذا كانت ثقيف امتنعت عليه من الدَّاخل، فلماذا لا يحاول أيضاً تطويقها من الخارج، والاستفادة في ذلك من بني عامر بن صعصعة، فإذا استطاع النَّبيُّ ﷺ أن يبرم حلفاً مع بني عامر؛ فإنَّ موقف ثقيفٍ سيكون على حافة الخطر.

يذكر أصحاب السِّيرة: أنَّ الرَّسول ﷺ لـمَّا أتى بني عامر بن صعصعة، فدعا إلى الله، وعرض عليهم نفسه، قال له رجلٌ منهم يقال له: بَيْحَرَة بن فِراس: والله! لو أني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب، ثمَّ قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك، ثمَّ أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمرُ لله يضعه حيث يشاء، فقال له: أَفَتُهْدَفُ نحورنا للعرب دونَك، فإذا أظهرك الله: كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك! فأبوا عليه[669].

ج. المفاوضات مع بني شيبان:

ففي رواية عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: لـمَّا أمر الله - عزَّ وجلَّ - نبيَّه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب؛ خرج، وأنا معه... إلى أن قال: ثمَّ دفعنا إلى مجلس آخر، عليه السَّكينة، والوقار، فتقدَّم أبو بكر، فسلَّم، فقال: مَنِ القوم؟ قالوا: شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، وقال: بأبي، وأمي! هؤلاء غُرَر النَّاس، وفيهم مفروقٌ قد غلبهم لساناً وجمالاً، وكانت له غديرتان تسقطان على تَرِيبَتَيْه، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكرٍ، فقال أبو بكر: كيف العَدَدُ فيكم؟ فقال مفروق: إنَّا لنزيد على الألف، ولن تُغلب ألفٌ من قلَّة.

---

[667] لم يمسَّها سِباءٌ: لم تُسْبَ نساؤها في الحرب.

[668] أصول الفكر السِّياسيّ، ص 182.

[669] ابن هشام (66/2) وأبو نعيم في الدلائل (215) والطبري في تاريخه (350/2 - 351) وابن سعد مختصراً (216/1).

فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروقٌ: إنا لأشدُّ ما نكون غضباً حين نلقى، وأشدُّ ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسِّلاح على اللِّقاح، والنَّصر من عند الله يديلنا مرَّةً، ويديل علينا أخرى، لعلَّك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم: أنَّه رسول الله ﷺ، فها هو ذا. فقال مفروق: إلامَ تدعونا يا أخا قريش؟! فقال رسول الله ﷺ: أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنِّي عبد الله ورسوله، وإلى أن تؤووني، وتنصروني؛ فإنَّ قريشاً قد تظاهرت على الله، وكذَّبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحقِّ، والله هو الغنيُّ الحميد، فقال مفروق: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش! فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ **[الأنعام: 151]**.

قال مفروق: دعوت والله! إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفِك قومٌ كذَّبوك، وظاهروا عليك، ثمَّ ردَّ الأمر إلى هانئ بن قبيصة، فقال: وهذا هانئ، شيخنا، وصاحب ديننا، فقال هانئ: قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريش! وإنِّي أرى تركنا ديننا، واتِّباعنا دينك لمجلس جلست إلينا لا أوَّل له، ولا آخر لذلٌّ في الرَّأي، وقلَّةُ نظرٍ في العاقبة؛ إنَّ الزَّلَّة مع العجلة، وإنَّا نكره أن نعقِد على مَنْ وراءنا عقداً، ولكن نرجع، وترجع، وننظر، ثمَّ كأنَّه أحبَّ أن يشركه المثنَّى بن حارثة، فقال: وهذا المثنَّى، شيخنا، وصاحب حربنا، فقال المثنَّى - وأسلم بعد ذلك -: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش! والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا، ومتابعتنا دينك، وإنَّا إنَّما نزلنا بين صريين؛ أحدهما: اليمامة، والآخر: السَّمامة، فقال له رسول الله ﷺ: ما هذان الصَّريان؟ قال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأمَّا ما كان من أنهار كسرى، فذنبٌ صاحبه غير مغفورٍ، وعذره غير مقبولٍ، وإنَّا إنما نزلنا على عهدٍ أخذه علينا كسرى، ألا نحدث حدثاً، ولا نُؤوي مُحدثاً، وإنِّي أرى هذا الأمر الَّذي تدعونا إليه يا أخا قريش! مما تكره الملوك، فإن أحببت أن نُؤويك وننصرك ممَّا يلي مياه العرب فعلنا. فقال رسول

الله ﷺ: ما أسأتم في الردِّ إذ أفصحتم بالصِّدق، وإنَّ دين الله – عزَّ وجلَّ – لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتَّى يورثكم الله تعالى أرضهم، وديارهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبِّحون الله وتقدِّسونه؟ فقال النُّعمان بن شريك: اللَّهمَّ فلك ذاك[670].

د. فوائد، ودروس، وعبر:

كانت النُّصرة الَّتي طلبها النَّبيُّ ﷺ ذات صفةٍ مخصوصةٍ، وذلك على النَّحو التالي:

1 – طلب الرَّسول ﷺ للنُّصرة من خارج مكَّة إنَّما بدأ ينشط بشكلٍ ملحوظٍ بعد أن اشتدَّ الأذى عليه عَقِبَ وفاة عمِّه أبي طالب؛ الَّذي كان يحميه من قريش، وذلك لأنَّ مَنْ يحمل الدَّعوة، لن يستطيع أن يتحرَّك التَّحرُّك الفعَّال لأجلها، وتوفير الاستجابة لها، في جوٍّ من العنف، والضَّغط، والإرهاب.

2 – كان عرض الرَّسول ﷺ نفسه على القبائل يطلب منهم النُّصرة، إنَّما هو بأمرٍ من الله – عزَّ وجلَّ – له في ذلك، وليس مجرَّد اجتهادٍ مِنْ قِبَلِ نفسه، اقتضته الظُّروف؛ الَّتي وصلت إليها الدَّعوة في مكَّة.

3 – حصر رسول الله ﷺ طلب النُّصرة في زعماء القبائل، وذوي الشَّرف، والمكانة ممَّن لهم أتباعٌ يسمعون لهم، ويُطيعون؛ لأنَّ هؤلاء هم القادرون على توفير الحماية للدَّعوة، وصاحبها.

4 – يلاحظ في سيرة النَّبيِّ ﷺ، بخصوص طلب النُّصرة: أنَّه كان يطلبها لأمرين اثنين:

أ – كان يطلبُ النُّصرة من أجل حماية تبليغ الدَّعوة؛ حتَّى تسير بين الناس محميَّة الجانب، بعيدةً عن الإساءة إليها، وإلى أتباعها.

ب – كان يطلب النُّصرة، من أجل أن يتسلَّم النَّبيُّ ﷺ مقاليد الحكم، والسُّلطان على أساس تلك الدَّعوة، وهذا ترتيبٌ طبيعيٌّ للأمور.

5 – رفض النَّبيُّ ﷺ أن يعطي القوى المستعدة لتقديم نُصرتها أيَّة ضماناتٍ، بأن يكون لأشخاصهم شيءٌ من الحكم، والسُّلطان على سبيل الثَّمن، أو المكافأة لما يقدِّمونه من نُصرةٍ،

---

[670] البداية والنِّهاية، (3/142، 143، 145)، وفيها زياداتٌ ليست عند الصَّالحي في سُبُل الرَّشاد، (2/596، 597). أبو نعيم في دلائل النبوة (214).

وتأييدٍ للدَّعوة الإسلاميَّة؛ وذلك لأنَّ الدَّعوة الإسلاميَّة إنَّما هي دعوةٌ إلى الله، فالشَّرط الأساسيُّ فيمن يؤمن بها، ويستعدُّ لنصرتها أن يكون الإخلاص لله، ونشدان رضاه هما الغاية الَّتي يسعى إليها من النُّصرة والتَّضحية، وليس طمعاً في نفوذٍ، أو رغبةٍ في سلطانٍ، وذلك لأنَّ الغاية التي يضعها الإنسان للشَّيء هي الَّتي تكيِّف نشاط الإنسان في السَّعي إليه، فلابدَّ - إذاً - أن تتجرَّد الغاية المستهدفة من وراء نُصرة الدَّعوة عن أيِّ مصلحةٍ مادِّيَّةٍ لضمان دوام التأييد لها، وضمان المحافظة عليها من أيِّ انحرافٍ، وضمان أقصى ما يمكن من بذل الدَّعم لها، وتقديم التَّضحيات في سبيلها[671]، فيجب على كلِّ من يريد أن يلتزم بالجماعة؛ الَّتي تدعو إلى الله ألا يشترط عليها منصباً، أو عرضاً من أعراض الدُّنيا؛ لأنَّ هذه الدَّعوة لله، والأمر لله يضعه حيث يشاء، والدَّاخل في أمر الدَّعوة إنَّما يريد ابتداءً وجه الله، والعمل من أجل رفع رايته، أمَّا إذا كان المنصب هو همَّه الشَّاغل؛ فهذه علامةٌ خطيرةٌ، تنبئ عن دَخَنٍ في نيَّة صاحبها[672]، لذا قال يحيى بن معاذ الرَّازي: «لا يفلح مَنْ شَمَمْتَ منه رائحة الرِّياسة»[673].

6 - ومن صفة النُّصرة؛ الَّتي كان رسول الله ﷺ يطلبها لدعوته من زعماء القبائل أن يكون أهل النُّصرة غير مرتبطين بمعاهداتٍ تتناقض مع الدَّعوة، ولا يستطيعون التحرُّر منها؛ وذلك لأنَّ احتضانهم للدَّعوة - والحالة هذه - يُعرِّضها لخطر القضاء عليها، مِنْ قِبَلِ الدُّول الَّتي بينهم وبينها تلك المعاهدات، والَّتي تجد في الدَّعوة الإسلاميَّة خطراً عليها، وتهديداً لمصالحها[674].

إنَّ الحماية المشروطة، أو الجزئية لا تحقِّق الهدف المقصود، فلن يخوض بنو شيبان حرباً ضدَّ كسرى؛ لو أراد القبض على رسول الله ﷺ وتسليمه، ولن يخوضوا حرباً ضدَّ كسرى؛ لو

[671] الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية لمحمد خير هيكل، الطَّبعة الأولى، 1414هـ، 1993م، دار البيارق، عمَّان، بيروت، (411/1).

[672] وقفات تربويَّة من السِّيرة النَّبويَّة، لعبد الحميد البلالي، ص 72.

[673] صفة الصفْوة، لابن الجوزيِّ، تحقيق: محمود خوري، ومحمَّد روَّاس قلعجي، دار المعرفة، بيروت، الطَّبعة الثانية، 1399هـ، (94/4).

[674] الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعيَّة، (412/1).

أراد مهاجمة محمَّد رسول الله ﷺ، وأتباعه، وبذلك فشلت المباحثات[675].

7 – «إنَّ دين الله لن ينصـــره إلا من حاطه من جميع جوانبه»، كان هذا الردُّ من النَّبيِّ ﷺ على المثنَّى بن حارثة حين عرض على النَّبيِّ ﷺ حمايته على مياه العرب دون مياه الفرس، فمن يسبر أغوار السِّياسة البعيدة؛ يَرَ بُعْدَ النَّظر الإسلاميِّ النَّبويِّ الَّذي لا يُسامى[676].

8 – كان موقف بني شيبان يتَّسم بالأَرْيَحِيَّةِ، والخلق، والرُّجولة، وينمُّ عن تعظيم هذا النَّبيِّ ﷺ، وعن وضـــوح في العرض، وتحديد مدى قدرة الحماية الَّتي يملكونها، وقد بيَّنوا: أنَّ أمر الدَّعوة ممَّا تكرهه الملوك، وقدَّر الله لشـيبانَ بعد عشـر سـنين، أو تزيد، أن تحمل هي ابتداءً عبء مواجهة الملوك بعد أن أشـرق قلبها بنور الإســلام، وكان المثنَّى بن حارثة الشَّــيبانيُّ صاحب حربهم، وبطلهم المغوار، الَّذي قاد الفتوح في أرض العراق، في خلافة الصِّدِّيق رضي الله عنه[677]، فكان وقومه من أجرأ المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرس، ولا يفكِّرون في قتالهم؛ بل إنَّهم ردُّوا دعوة النَّبيِّ ﷺ بعد اقتناعهم بها؛ لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس، الأمر الَّذي لم يكونوا يفكِّرون فيه أبداً، وبهذا نعلم عظمة هذا الدِّين؛ الَّذي رفع الله به المسلمين في الدُّنيا؛ حيث جعلهم سادة الأرض، مع ما ينتظرون في أخراه م من النَّعيم الدَّائم، في جنَّات النَّعيم[678].

إن رسالة النبي ﷺ لم تكن مجرد تهدف إلى إصلاح العقيدة – وهي أهمها ولا شك – بل كانت حركة إصـــلاحية شـــاملة عمت جميع جوانب الحياة الإنســـانية؛ إنها دعوة أعادت للإنسان كرامته من خلال توحيد الله، وإظهار قيم العدالة والمساواة، وتعزيز الروابط الاجتماعية والأخلاقية.

---

(675) التحالف السِّياسي في الإسلام، لمنير الغضبان، ص 53.

(676) التحالف السِّياسي في الإسلام، المصدر السابق، ص 64.

(677) التَّربية القياديَّة، (20/2).

(678) التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ، (69/3).

الفصل الخامس: تجليات القيم الإنسانية والحضارية في السيرة النبوية في العهد المدنيّ

تُعدُّ السيرة النبوية في العهد المدني فترةً زاخرةً بالدروس والعبر التي تعكس تجليات القيم الإنسانية والحضارية في أسمى صورها. ففي هذا العهد، شكلت المدينة المنورة ميداناً لنموذج حضاري متكامل، حيث تجسدت المبادئ الأخلاقية والتشريعية والإنسانية والحضارية في واقع الحياة اليومية، وذلك بفضل الله، ومن ثم بفضل الرؤية العميقة للنبي محمد ﷺ، إذ تجلى في هذا العهد مفهوم الرحمة، والعدالة، والتسامح، والتعاون بين أفراد المجتمع المديني، مما أسس لقاعدة متينة لمجتمع متماسك، وكان له تأثير عميق على بناء المجتمع الإسلامي الأول.

أولاً: القيم الحضارية والإنسانية في بيعتي العقبة الأولى والثانية:

بيعتا العقبة الأولى والثانية، تُعتبران من أهم المحطات في تاريخ الدعوة الإسلامية، حيث شهدتا بداية التأسيس لمجتمع إسلامي جديد قائم على مبادئ وقيم إنسانية وحضارية سامية. هذه البيعات لم تكن مجرد اتفاقيات سياسية أو عسكرية، بل حملت في طياتها أبعادًا أخلاقية وإنسانية عميقة، شكلت الأساس لبناء مجتمع تسوده العدالة، التعاون، والحرية.

1. بيعة العقبة الأولى:

تعد بيعة العقبة الأولى إحدى الأحداث المهمة في السيرة النبوية، والتي وقعت في موسم الحج، سنة 12 من البعثة النبوية؛ حيث قدم إلى مكة مجموعة من الأنصار (الأوس والخزرج)، وبايعوا النبي ﷺ على الإسلام.

وقد تحدَّث عبادةُ بن الصَّامت الخزرجيُّ عن البيعة، في العقبة الأولى، فقال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنيْ عَشَرَ رجلاً، فبايعْنا رسولَ الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض علينا الحرب، على ألاَّ نشرك بالله، ولا نسرق، ولا نزني، لا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا، وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفَّيتم

فلكم الجنَّة، وإن غَشِيتم من ذلك شيئاً، فأمركم إلى الله - عزَّ وجلَّ - إن شاء؛ غفر، وإن شاء؛ عذَّب»[679].

وبنود هذه البيعة، هي الَّتي بايع الرَّسول ﷺ عليها النِّساء فيما بعد، ولذلك عرفت باسم بيعة النِّساء[680]، وقد بعث الرَّسول ﷺ مع المبايعين مصعب بن عمير، يعلِّمهم الدِّين، ويقرئهم القرآن، فكان يُسمَّى بالمدينة (المقرئ)، وكان يؤمُّهم في الصَّلاة، وقد اختاره رسول الله ﷺ عن علمٍ بشخصيَّته من جهةٍ، وعلمٍ بالوضع القائم في المدينة من جهةٍ أخرى، حيث كان بجانب حفظه لما نزل من القرآن يملك من اللَّباقة، والهدوء، وحسن الخُلُق، والحكمة قدراً كبيراً، فضلاً عن قوَّة إيمانه، وشدَّة حماسه للدِّين، ولذلك تمكَّن خلال أشهرٍ أن ينشر الإسلام في معظم بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصاراً من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ، وأُسَيْد بن حُضَيْر، وقد أسلم بإسلامهما خلقٌ كثير من قومهم[681].

لقد نجحت سفارة مصعب بن عمير رضي الله عنه في شرح تعاليم الدِّين الجديد، وتعليم القرآن الكريم، وتفسيره، وتقوية الرَّوابط الأخويَّة بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحيةٍ، وبين النَّبيِّ ﷺ وصحبه بمكَّة المكرمة، لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدَّعوة.

وقد نزل مصعب بن عمير رضي الله عنه في يثرب على أسعد بن زُرارة رضي الله عنه[682]، ونشط المسلمون في الدَّعوة إلى الله، يقود تلك الحركة الدَّعوية الرَّائدة مصعب رضي الله عنه، وقد انتهج منهج القرآن الكريم في دعوته، وهذا هو الذي تعلَّمه من أستاذه ﷺ، وقد شرح لنا بعض الآيات القرآنيَّة المكِّيَّة بصورةٍ عمليَّةٍ حيَّةٍ، مثل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ

---

[679] أخرجه البخاري (18 و92 و38 و3999) ومسلم (1709).

[680] الغرباء الأوَّلون، ص 185.

[681] الغرباء الأوَّلون، المصدر السابق، ص 186، 187.

[682] السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة، لمحمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، الطَّبعة الثَّالثة، 1417هـ، 1996م، (441/1).

سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: 125].

أ. قصَّة إسلام أُسَيْد بن حُضير، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما:

كان سعد بن معاذ، وأُسَيْد بن حضير، سيِّديْ قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركَيْن على دين قومهما، فلمَّا سَمِعَا بمصعب بن عمير، ونشاطه في الدَّعوة إلى الإسلام؛ قال سعد لأُسَيْدٍ: لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرَّجلين، اللَّذين أتيا دارينا؛ ليُسَفِّها ضعفاءنا، فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارَينا؛ فإنَّه لولا أسعد بن زُرارةَ منِّي حيث قد علمت؛ كفيتُك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً، فأخذ أُسَيْد حربته، ثمَّ أقبل عليهما، فلمَّا رآه أسعد بن زرارة؛ قال: هذا سيِّد قومه، وقد جاءك؛ فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلسْ أكلِّمْه، فوقف عليهما مُتشتِّماً، فقال: ما جاء بكما تسفِّهان ضعفاءنا؟! اعتزلانا؛ إن كانت لكما بأنفسكما حاجةٌ، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: أو تجلسُ، فتسمع، فإن رضيت أمراً؛ قبلته، وإنْ كرهته؛ نكفُّ عنك ما تكره؟

قال أُسَيْد: أنصفتَ، ثمَّ ركَّز حربته، وجلس إليهما، فكلَّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا – فيما يُذكر عنهما –: والله! لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه، وتسهُّله، ثمَّ قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ، وأجْمَلَه! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدِّين؟ قالا له: تغتسل، فتتطهَّر، وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحقِّ، ثمَّ تصلِّي، فقام، فاغتسل، وطهَّر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحقِّ، ثمَّ قام فركع ركعتين، ثمَّ قال لهما: إنَّ ورائي رجلاً، إن اتَّبعْكما؛ لم يتخلَّفْ عنه أحدٌ من قومه، وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

ثمَّ أخذ حربته، وانصرف إلى سعدٍ، وقومه؛ وهم جلوسٌ في ناديهم، فلمَّا نظر إليه سعد مقبلاً، قال: أحلف بالله! لقد جاءكم أُسَيْد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم!!

فلمَّا وقف على النَّادي؛ قال له سعدٌ: ما فعلتَ؟ قال: كلَّمتُ الرَّجلين، فوالله! ما رأيت

بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببتَ، وقد حُدِّثت أنَّ بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زُرارةَ؛ ليقتلوه؛ وذلك أنَّهم عرفوا: أنه ابن خالتك لِيُخْفِرُوكَ[683].

فقام سعد مُغْضَباً مبادراً تخوُّفاً لِلَّذي ذكر لـه من أمر بني حارثـة، وأخذ الحربة في يده، ثمَّ قال: والله! ما أراك أغنيتَ شيئاً، ثمَّ خرج إليهما سعد، فوجدهما مطمئنَّيْن، فعرف: أنَّ أسَيْداً إنَّما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتِّماً، ثمَّ قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة! لولا ما بيني وبينك من القرابة؛ ما رُمْتَ هذا منِّي، أتغشانا في دارنا بما نكره؟! وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء - والله! - سيِّدُ مَنْ وراءَه مِنْ قومه، إن يتبعك؛ لا يتخلَّف منهم اثنان، فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع؟ فإن رضيتَ أمراً، ورغبتَ فيه قبلتَه، وإن كرهتَه عزلنا عنك ما تكره. فقال سعد: أنصفت، ثمَّ ركَّز الحربة، وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن. وذكر موسى بن عقبة: أنَّه قرأ عليه أوَّل سورة الزُّخرف، قالا: فعرفنا - والله! - في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه، وتسهُّله.

ثمَّ قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدِّين؟ قالا: تغتسل، فتتطَّهر، وتطهِّر ثوبيك، ثمَّ تشهد شهادة الحقِّ، ثمَّ تصلي ركعتين، فقام فاغتسل، وطهَّر ثوبيه، ثمَّ تشهَّد شهادة الحقِّ، ثمَّ ركع ركعتين، ثمَّ أخذ حربته، فأقبل عائداً إلى نادي قومه، ومعه أُسَيْد بن حُضَيْر، فلمَّا رآه قومه مقبلاً؛ قالوا: نحلف بالله، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلمَّا وقف عليهم؛ قال: يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيِّدنا، وأفضلنا رأياً، وأيمُننا نقيبةً! قال: فإنَّ كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام؛ حتَّى تؤمنوا بالله، ورسوله! قال: فوالله، ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ، ولا امرأة إلا مسلماً، أو مسلمةً.

ورجع أسعد، ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو النَّاس إلى الإسلام؛

---

[683] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (442/1).

حتَّى لم تبقَ دار من دُور الأنصار إلا وفيها رجالٌ مسلمون، ونساءٌ مسلماتٌ[684] إلا ما كـان من الأُصَيْرِم، وهو عمرو بـن ثابت بـن وقش؛ فإنَّـه تأخَّر إسلامه إلى يوم أُحُـدٍ، فأسلم؛ واستُشهِد بأحدٍ، ولم يصلِّ لله سجدةً قطُّ، وأخبر رسول الله ﷺ: أنَّه من أهل الجنَّة.

وقد روى ابن إسحاق بإسنادٍ حسنٍ عن أبي هريرة: أنَّه كان يقول: «حدِّثوني عن رجلٍ دخل الجنَّة لم يصلِّ صلاةً قطُّ، فإذا لم يعرفه النَّاس، قال: هو أُصَيْرِم بني عبد الأشهل»[685].

ب. فوائد، ودروسٌ، وعبرٌ:

1 - اتَّجه التَّخطيط النَّبويُّ للتَّركيز على يثرب بالذَّات، وكان للنَّفر السـتَّة الذين أسلموا، دورٌ كبيرٌ في بث الدَّعوة إلى الإسلام، خلال ذلك العام.

2 - كانت هناك عدَّة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام في المدينة؛ منها:

(أ) ما طبع الله عليه قبائل الخزرج، والأوس من الرِّقَّة، واللِّين، وعدم المغالاة في الكبرياء، وجحود الحقِّ، وذلك يرجع إلى الخصائص الدَّمويَّة والسُّلاليَّة؛ الَّتي أشار إليها رسول الله ﷺ حين وَفَد وَفْدٌ من اليمن، بقوله: «أتاكم أهل اليمن، هم أرقُّ أفئدةً، وألين قلوباً»[686] وهما ترجعان في أصليهما إلى اليمن، نزح أجدادهم منها في الزَّمن القديم[687]، فيقول القرآن الكريم مادحاً لهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] .

(ب) التَّشـاحن، والتَّطاحن الموجود بين قبيلتي المدينة، الأوس والخزرج، وقد قامت بينهما الحروب الطَّاحنة كيوم بُعاث، وغيره، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم، ممَّن كان نظراؤهم

---

[684] قصة إسلام سعد بن معاذ رواها الطبري في تاريخه (357/2 - 359) وابن سعد (420/3 - 421) والبيهقي في الدلائل (431/2 - 432) والطبراني في الكبير (362/20).

[685] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (444/1)، وصحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 291.

[686] أخرجه البخاري (4388) ومسلم (52).

[687] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي الحسن النَّدويِّ، ص 154.

في مكَّة، والطائف، وغيرها، حجر عثرة في سبيل الدَّعوة، ولم يبقَ إلا القيادات الشَّابَّة الجديدة، المستعدَّة لقبول الحقِّ؛ إضافةً إلى عدم وجود قيادةٍ بارزةٍ معروفةٍ، يتواضع الجميع على التَّسليم لها، وكانوا بحاجةٍ إلى من يأتلفون عليه، ويلتئم شملهم تحت ظلِّه. قالت عائشة رضي الله عنها: «كان يومُ بُعاثَ أمراً قدَّمه الله تعالى لنبيِّه ﷺ، فَقَدِمَ رسولُ الله ﷺ وقد افترق مَلَؤهم، وقُتِلت سَرَوَاتهم[688] وجُرِّحوا، فقدَّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام»[689].

(ج) مجاورتهم لليهود، ممَّا جعلهم على علمٍ - ولو يسيرٍ - بأمر الرِّسالات السَّماويَّة، وخبر المرسلين السَّابقين، وهم - في مجتمعهم - يعايشون هذه القضيَّة في حياتهم اليوميَّة، وليسوا مثل قريشٍ؛ التي لا يساكنها أهل كتاب، وإنَّما غاية أمرها أن تسمع أخباراً متفرِّقةً عن الرِّسالات، والوحي الإلهيِّ، دون أن تلحَّ عليها هذه المسألةُ، أو تشغل تفكيرها باستمرارٍ، وكان اليهود يهدِّدون الأوس، والخزرج بنبيٍّ قد أظلَّ زمانه، ويزعمون: أنَّهم سيتَّبعونه، ويقتلونهم به قتل عادٍ، وإرم! مع أنَّ الأوس، والخزرج كانوا أكثر من اليهود[690]، وقد حكى الله عنهم ذلك في كتابه العزيز. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 89].

وكان الأوس، والخزرج قد علوا اليهود دهراً في الجاهليَّة، وهم أهل شرك وهؤلاء أهل كتاب، فكانوا يقولون: إنَّ نبيّاً قد أظلَّ زمانه، نقتلكم به قتلَ عادٍ وإرم[691].

فلمَّا أراد الله إتمام أمره بنصر دينه؛ قيَّض ستَّة نفرٍ من أهل المدينة للنَّبيِّ ﷺ، فالتقى بهم عند العقبة - عقبة منى - فعرض عليهم الإسلام، فاستبشروا، وأسلموا، وعرفوا: أنَّه النَّبيُّ

---

[688] السَّرَوات: الأشراف.

[689] البخاري (3777 و3846 و3930) وأحمد (61/6) والبيهقي في دلائل النبوة (421/2).

[690] الغرباء الأوَّلون، ص 183.

[691] الدُّر الدُّرُّ المنثور في التَّفسير بالمأثور، للإمام السُّيوطي، النَّاشر محمَّد أمين دمج، بيروت، لبنان، (216/1).

الَّذي توعَّدَهم به اليهود، ورجعوا إلى المدينة، فأفشـوا ذكر النَّبيِّ ﷺ في بيوتها[692]، وكان هذا هو «بدء إسلام الأنصار» كما يسمِّيه أهل السِّير[693].

3 - حضر بيعة العقبة الأولى اثنان من الأوس، وهذا تطوُّر مهمٌّ لمصلحة الإسلام، فبعد الحرب العنيفة في بُعَاث اسـتطاع النَّفر السِّـتَّة من الخزرج، أن يتجاوزوا قصَّـة الصِّـراعات الدَّاخلية، ويُحضروا معهم سبعةً جدداً، فيهم اثنان من الأوس، وهذا يعني أنَّهم وفوا بالتزاماتهم؛ الَّتي قطعوها على أنفسهم في محاولة رأب الصَّدع، وتوجيه التَّيَّار لدخول الإسلام في المدينة؛ أوسها، وخزرجها، وتجاوز الصِّراعات القبليَّة القائمة.

4 - كان التَّطُّور الجديد الَّذي أثمرته بيعة العقبة قد بعث مصعب بن عمير ممثلاً شخصيّاً للرَّسـول ﷺ إلى المدينة؛ يعلِّم النَّاس القرآن الكريم، ومبادئ الإسـلام، واسـتطاع مصـعب بحكمته، وحصافته، وذكائه السِّياسيِّ أن يحقِّق انتصاراتٍ كبيرةً للإسلام[694].

5 - اسـتطاع سـفير رسـول الله ﷺ أن يفعل في عامٍ واحدٍ الكثير، وما ذلك إلا بتوفيق الله تعالى، ثمَّ بصـدق ذلك الدَّاعية وإخلاصـه، فأين سـفراء دول المسـلمين اليوم من سـفير رسول الله ﷺ، فعلى ولاة الأمر أن يختاروا السَّفير المؤمن الملتزم الموهوب؛ الَّذي يستطيع أن يمثِّل بلاده، ودينه قولاً وعملاً، وخُلُقاً وسلوكاً، فيرى النَّاسُ، ويسمعون من خلاله.

6 - اسـتطاع السَّـفير مصـعب رضـي الله عنه أن يهيِّئ البيئة الصَّـالحة، لانتقال الدَّعوة والدَّولة إلى مقرِّها الجديد؛ حيث اسـتطاع ترجمة روح بيعة العقبة الأولى عمليّاً وسـلوكيّاً، والَّتي تعني الالتزام التَّامَّ بنظام الإسلام[695].

7 - بذل الرَّسـول ﷺ كلَّ ما يملك من جهدٍ لتعبئة الطَّاقات الإسـلاميَّة في المدينة، ولم

---

(692) ابن هشام، (44/1).

(693) ابن هشام، المصدر السابق، (39/1، 44).

(694) التَّحالف السِّياسيُّ، ص 71.

(695) دولة الرَّسول ﷺ من التَّكوين إلى التَّمكين، ص 356.

يكن هناك أدنى تقصـــيرٍ للجهد البشـــريِّ الممكن في بناء القاعدة الصُّــلبة، الَّتي تقوم على أكتافها الدَّولة الجديدة، واحتلَّ هذا الجهد سنتين كاملتين من الدَّعوة، والتَّنظيم[696].

8 - نجحت التعبئة الإيمانيَّة في نفوس مَنْ أسلم من الأنصار، وشعرت الأنصار بأنَّه قد آن الأوان لقيام الدَّولة الجديدة، وكما يقول جابرٌ رضي الله عنه، وهو يمثِّل هذه الصُّورة الرَّفيعة الرَّائعة: «حتَّى متى نترك رسولَ الله ﷺ يطوف، ويُطرَد في جبال مكَّة، ويُخاف؟!»(2).

9 - وصل مصعب رضي الله عنه إلى مكَّة قبيل موسم الحجِّ، من العام الثَّالث عشر للبعثة، ونقل الصُّورة الكاملة الَّتي انتهت إليها أوضاع المسلمين هناك، والقدرات، والإمكانات المتاحة، وكيف تغلغل الإســلام في جميع قطاعات الأوس، والخزرج، وأنَّ القوم جاهزون لبيعةٍ جديدة، قادرةٍ على حماية رسول الله ﷺ، ومنعته[697].

10 - كان اللِّقاء الَّذي غيَّر مجرى التَّاريخ، في موسـم الحجِّ في السَّـنة الثَّالثة عشـرة من البعثة؛ حيث حضر لأداء مناسك الحجِّ بضعٌ وسبعون نفساً من المسلمين، من أهل يثرب، فلـمَّا قدموا مكَّة؛ جرت بينهم وبين النَّبيِّ ﷺ اتصالاتٌ سرِّيَّة، أدَّت إلى اتِّفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيَّام التَّشريق في الشِّعْب الَّذي عند العقبة، حيث الجمرة الأولى من مِنًى، وأن يتمَّ هذا الاجتماع في سرِّيَّةٍ تامَّةٍ في ظلام اللَّيل[698].

برزت في هذه البيعة – كما مر – العديد من القيم الحضـارية والإنســانية، منها العدالة الاجتماعية، والتي تمثلت، بالابتعاد عن الســرقة، والزنا، وقتل الأولاد، فهذه الحقوق تؤكد احترام حقوق الآخرين، وحرمة الاعتداء عليها، كما تعكس التزاماً واضحاً بالعدالة في التعامل مع المجتمع.

كما برز فيها قيمة الحياة وحرمتها في الإسلام، وحرمة التعدي عليها بالإضرار أو بالقتل،

---

[696] التَّحالف السِّياسيُّ، ص 71.

[697] التحالف السياسي، المصدر السابق، ص 72.

[698] التَّحالف السِّياسيُّ، ص 37.

وذلك من خلال التحذير من قتل الأولاد الذي كان شائعاً في المجتمع الجاهلي.

كما حثّت على الالتزام بالصالح العام، والانضباط الأخلاقي والاجتماعي، وذلك من خلال التزام أمر النبي ﷺ، بالمعروف؛ ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

كذلك عززت قيمة الصدق في الأقوال والأفعال، وحذرت من الافتراء على الناس كذباً.

هذه القيم الحضارية والإنسانية التي تم التأكيد عليها في هذه البيعة، شكلت أساساً لبناء مجتمع إسلامي متماسك، والذي ساهم لاحقاً في انتشار الإسلام وتثبيت دعائمه.

2. بيعة العقبة الثّانية

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «... فقلنا: حتَّى متى نترك رسول الله ﷺ؛ يُطْرَد في جبال مكَّة، ويُخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتَّى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شِعْب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجلٍ، ورجلين؛ حتَّى توافينا فقلنا: يا رسول الله! علام نُبايعك؟

قال: «تبايعوني على السَّمع، والطَّاعة في النَّشاط، والكسل، والنَّفقة في العسر، واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمت عليكم ممَّا تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنَّة».

قال: فقمنا إليه، فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة – وهو من أصغرهم – فقال: رويداً يا أهل يثرب! فإنَّا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم: أنَّه رسول الله ﷺ، وأنَّ إخراجه اليوم مفارقةُ العرب كافَّةً، وقتلُ خياركم، وأن تعضَّكم السُّيوف، فإمَّا أنتم قومٌ تصبرون على ذلك، وأجركم على الله، وإمَّا أنتم تخافون من أنفسكم جُبَيْنَةً؛ فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله! قالوا: أمط عنَّا يا أسعد! فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً! ولا نَسْلِيها (أي: نتركها)! قال: فقمنا إليه، فبايعناه، فأخذ علينا، وشَرَطَ، ويعطينا على ذلك الجنَّة»[699].

---

[699] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (199/1).

وهكذا بايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطَّاعة، والنُّصرة، والحرب؛ لذلك سمَّاها عبادة بن الصَّامت بيعة الحرب[700]، أمَّا رواية الصَّحابي كعب بن مالك الأنصاريِّ - وهو أحد المبايعين في العقبة الثَّانية - ففيها تفصيلاتٌ مهمَّةٌ، قال: «خرجنا في حجَّاج قومنا من المشركين، وقد صلَّينا، وفقهنا، ثمَّ خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة، من أوسط أيام التَّشريق، وكنَّا نكتم مَنْ معنا من المشركين أمرنا، فَنِمْنَا تلك اللَّيلة مع قومنا في رحالنا، حتَّى إذا مضى ثلثُ اللَّيل؛ خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسَّلل تسلُّلَ القَطَا (الحمام) مستخفين، حتَّى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثةٌ وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسَيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرٍو، فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتَّى جاءنا، ومعه العبَّاس بن عبد المطلب، وهو يومئذٍ على دين قومه، إلا أنَّه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثَّق له، فلـمَّا جلس؛ كان أول متكلِّم العبَّاس بن عبد المطلب؛ فبيَّن أنَّ الرَّسول ﷺ في منعةٍ من قومه بني هاشم، ولكنَّه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإنَّ العباس يريد التأكُّد من حماية الأنصار له، وإلا؛ فَلْيَدَعُوه، فطلب الأنصار أن يتكلَّم رسولُ الله ﷺ، فيأخذ لنفسه، ولربِّه ما يحبُّ من الشُّروط.

قال: «أبايعكم على أن تمنعوني ممَّا تمنعون منه نساءكم، وأبناءكم» فأخذ البراء بن مَعْرور بيده، ثمَّ قال: نعم والَّذي بعثك بالحق! لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه أُزُرَنا[701]، فبايِعْنا يا رسولَ الله! فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحَلقة (السِّلاح)، ورثناها كابراً عن كابر. فقاطعه أبو الهيثم بن التَّيِّهان متسائلاً: يا رسول الله! إنَّ بيننا وبين القوم حبالاً، وإنَّا قاطعوها (يعني: اليهود)، فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثمَّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك، وتَدَعَنا؟ فتبسَّم رسولُ الله ﷺ، ثمَّ قال: «بل الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الهَدْمُ، أنا منكم، وأنتم منِّي، أحارب مَنْ حاربتم، وأسالم مَنْ سالمتم».

---

[700] مسند الإمام أحمد، (316/5) بإسنادٍ صحيحٍ لغيره.

[701] الأُزُر: الثِّياب، والمقصود النِّساء أو الأنفس، والمعنى: لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه نساءنا، وأنفسنا.

ثمَّ قال: «أخْرِجُوا إليَّ منكم اثني عشـــر نقيباً؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأخْرَجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعةً من الخزرج، وثلاثةً من الأوس.

وقد طلب الرَّسـول ﷺ منهم الانصـراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشَّـيطان يصـرخ منذراً قريشـاً، فقال العبَّاس بن عُبادة بن نَضْـلة: والله الَّذي بعثك بالحق! إن شـئتَ؛ لنميلنَّ على أهل مِنًى غداً بأسيافنا.

فقال رسـول الله ﷺ: «لم نُؤْمَر بذلك؛ ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعوا إلى رحالهم، وفي الصَّباح جاءهم جمعٌ من كبار قريش، يسألونهم عمَّا بلغهم من بيعتهم للنَّبيِّ ﷺ، ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشـركون من الخزرج، والأوس، بأنَّهم لم يفعلوا، والمسـلمون ينظرون إلى بعضـهم[(702)]، قال: ثمَّ قام القوم؛ وفيهم الحارث بن هشـام بن المغيرة المخزوميُّ، وعليه نعلانِ جديدانِ، قال: فقلت له كلمةً - كأنِّي أريد أن أشـرك بها القومَ فيما قالوا - يا أبا جابر! أما تستطيع أن تتَّخذ، وأنت سيِّدٌ من ساداتنا، مثل نَعْلَي هذا الفتى من قريشٍ؟ قال: فسمعهما الحارث، فخلعهما من رجليه، ثمَّ رمى بها إليَّ، وقال: والله لتَنْتَعِلَـنَّهما، قال: يقول أبو جابر: مَهْ! أَحْفَظْتَ (أي: أغضـبت) والله الفتى، فارددْ إليه نعليه. قال: قلت: لا والله! لا أردُّهما، فألٌ والله صالح! لئن صدق الفأل لأسْلُبَنَّه[(703)].

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد:

1 - «كانت هذه البيعة العظمى بملابسـاتها، وبواعثها، وآثارها، وواقعها التَّاريخي، (فتحَ الفتوح)؛ لأنَّها كانت الحلقة الأولى في سـلسـلة الفتوحات الإسـلاميَّة، الَّتي تتابعت حلقاتها في صـورٍ متدرِّجة، مشـدودةٍ بهذه البيعة؛ منذ اكتمل عقدها، بما أخذ فيها رسـول الله ﷺ من عهودٍ ومواثيق على أقوى طليعةٍ من طلائع أنصـــار الله؛ الَّذين كانوا أعرف النَّاس بقدر

---

(702) ابن هشام، (61/1)، بإسنادٍ حسن، والسِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمريِّ، (201/1)

(703) أخرجه أحمد (460/3 - 462) والحاكم (624/2 - 625) والطبري في تاريخه (360/2 - 362) والبيهقي في سننه الكبرى (9/9).

مواثيقهم، وعهودهم، وكانوا أسمح النَّاس بالوفاء بما عاهدوا الله، ورسوله ﷺ عليه؛ من التَّضحية، مهما بلغت متطلبَّاتها من الأرواح، والدِّماء، والأموال، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحقِّ، ونصرته، وهي في ملابساتها قوَّةٌ تناضل قوًى هائلةً تقف متألِّبةً عليها، ولم يَغِبْ عن أنصار الله قدرها، ووزنها، في ميادين الحروب، والقتال، وهي في آثارها تشميرٌ ناهضٌ بكلِّ ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتاليِّ في سبيل إعلاء كلمة الله، على كلِّ عالٍ مستكبرٍ في الأرض؛ حتَّى يكون الدِّين كلُّه لله، وهي في واقعها التَّاريخيِّ صدقٌ، وعدلٌ، ونصرٌ، واستشهاد، وتبليغٌ لرسالة الإسلام»[704].

2 – إنَّ حقيقة الإيمان، وأثره في تربية النفوس، تظهر آثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى لأن تبذل أرواحها، ودماءها في سبيل الله، ورسوله ﷺ، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض كسباً، ولا منصباً، ولا قيادةً، ولا زعامةً، وهم الَّذين أفنوا عشرات السِّنين من أعمارهم، يتصارعون على الزَّعامة، والقيادة، إنَّه أثر الإيمان بالله، وبحقيقة هذا الدِّين، عندما يتغلغل في النُّفوس[705].

3 – يظهر التَّخطيط العظيم في بيعة العقبة؛ حيث تمَّت في ظروفٍ غايةٍ في الصُّعوبة، وكانت تمثِّل تحدِّياً خطيراً، وجريئاً لقوى الشِّرك في ذلك الوقت، ولذلك كان التَّخطيط النَّبويُّ لنجاحها في غاية الإحكام والدِّقَّة على النَّحو التَّالي[706]:

أ – سِرِّيَّة الحركة، والانتقال لجماعة المبايعين؛ حتَّى لا ينكشفَ الأمر، فقد كان وفد المبايعة المسلم سبعين رجلاً وامرأتين من بين وفدٍ يثربيٍّ قوامه نحو خمسمئة ممَّا يجعل حركة هؤلاء السَّبعين صعبةً، وانتقالهم أمراً غير ميسورٍ، وقد تحدَّد موعد اللِّقاء في ثاني أيام التَّشريق، بعد ثلث اللَّيل، حيث النَّوم قد ضرب أعين القوم، وحيث قد هدأت الرِّجْل، كما تمَّ تحديد المكان

[704] محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصَّادق عرجون، (2/400).

[705] التَّربية القياديَّة، (2/103).

[706] الهجرة النَّبويَّة المباركة، د. عبد الرحمن البر، دار الكلمة، المنصورة، مصر، الطَّبعة الأولى، 1418 هـ،1997 م، ص 61.

في الشِّعْب الأيمن، بعيداً عن عين مَنْ قد يستيقظ من النَّوم لحاجةٍ[707].

ب - الخروج المنظَّم لجماعة المبايعين، إلى موعد، ومكان الاجتماع، فقد خرجوا يتسلَّلون مستخفين، رجلاً رجلاً، أو رجلين رجلين.

ج - ضرب السِّرِّيَّة التَّامة على موعد، ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العبَّاس بن عبد المطلب، الَّذي جاء مع النَّبيِّ ﷺ ليتوثَّق له[708]، وعليُّ بن أبي طالبٍ، الَّذي كان عيناً للمسلمين على فم الشِّعب، وأبو بكر الَّذي كان على فم الطَّريق - وهو الآخر - عيناً للمسلمين[709]، أمَّا مَنْ عداهم من المسلمين، وغيرهم فلم يكونوا يعلمون عن الأمر شيئاً، وقد أمر جماعة المبايعين ألا يرفعوا الصَّوت، وألا يطيلوا في الكلام؛ حذراً من وجود عينٍ تسمع صوتهم، أو تحسُّ حركتهم[710].

د - متابعة الإخفاء والسِّرِّيَّة حين كشف الشَّيطان أمر البيعة، فأمرهم النَّبيُّ ﷺ أن يرجعوا إلى رحالهم، ولا يحدثوا شيئاً؛ رافضاً الاستعجال في المواجهة المسلَّحة؛ التي لم تتهيَّأ لها الظُّروف بعد، وعندما جاءت قريش تستبرئ الخبر؛ موَّه المسلمون عليهم بالسُّكوت، أو المشاركة بالكلام الَّذي يشغل عن الموضوع[711].

هـ - اختيار اللَّيلة الأخيرة من ليالي الحجِّ، وهي الليلة الثالثة عَشْرة من ذي الحجَّة؛ حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التَّالي، وهو يوم الثالث عشر، ومن ثَمَّ تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم، أو تعويقهم؛ إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمرٌ متوقَّع، وهذا ما حدث[712].

---

(707) الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص 61.

(708) الهجرة النَّبويَّة المباركة، المصدر السابق، ص 62.

(709) التَّربية القياديَّة، (109/2).

(710) الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص 62.

(711) الهجرة النَّبويَّة المباركة، المصدر السابق، ص 65.

(712) الهجرة النَّبويَّة المباركة، المصدر السابق، ص 67.

4 – كانت البنود الخمســة للبيعة من الوضــوح، والقوّة بحيث لا تقبل التَّمييع والتَّراخي، إنَّه السَّمع، والطَّاعة في النَّشاط والكسل، والنَّفقة في اليسر، والعسر، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، ونصـرٌ لرسـول الله ﷺ وحمايته؛ إذا قدم المدينة[713].

5 – سـرعان ما استجاب قائد الأنصـار – دون تردُّدٍ – البراء بن مَعْرور، قائلاً: والذي بعثك بالحق! لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا، فبايعنا يا رسـول الله! فنحن والله أبناء الحرب! وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابرٍ، فهذا زعيم الوفد يعرض إمكانيات قومه على رســول الله ﷺ، فقومه أبناء الحرب، والسِّلاح[5]. وممَّا يجدر الإشارة إليه في أمر البراء: أنَّه عندما جاء مع قومه من يثرب قال لهم: إني قد رأيت رأياً، فوالله ما أدري: أتوافقونني عليه، أم لا؟

فقالوا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت ألاَّ أدع هذه البَنيَّة – يعني: الكعبة – منِّي بِظَهْر، وأن أصلِّي إليهـا، فقالوا لـه: والله ما بلغنـا أنَّ الـنَّبيَّ ﷺ يصلِّي إلاَّ إلى الشَّام – ببيت المقدس – وما نريد أن نخالفه، فكانوا إذا حضرت الصَّلاة صلُّوا إلى بيت المقدس، وصلَّى هو إلى الكعبة، واســتمرُّوا كذلك؛ حتى قدموا مكَّة، وتعرَّفوا إلى رســول الله ﷺ وهو جالسٌ مع عمِّه العباس رضـي الله عنه بالمسـجد الحرام، فسـأل النَّبيُّ ﷺ العباسَ رضـي الله عنه: «هل تعرف هذين الرَّجلين يا أبا الفضــل؟» قال: نعم، هذا البراء بن مَعْرور سـيِّد قومه، وهذا كعب بن مالكٍ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «الشَّـاعر؟» قال: نعم. فقصَّ عليه البراء ما صـنع في سـفره من صـلاته إلى الكعبة. قال: فماذا ترى يا رســول الله؟! قال: «قد كنت على قِبْلةٍ لو صــبرتَ عليها»[714] قال كعب: فرجع البراء إلى قِبْلةِ رسول الله ﷺ، وصلَّى معنا إلى الشَّام، فلـمَّا حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجِّهوه قبَلَ الكعبة، ومات في صـفر قبل قدومه ﷺ بشـهرٍ، وأوصـى بثلث ماله

---

[713] التَّحالف السِّياسي، ص 82.

[714] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (444/1).

إلى النَّبيِّ ﷺ، فقبله، وردَّه على ولده، وهو أوَّل من أوصى بثلث ماله[715].

ويستوقفنا في هذا الخبر:

أ - الانضباط، والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم ﷺ، وأوامره، وإنَّ أيَّ اقتراحٍ مهما كان مصدره، يتعارض مع ذلك يُعَدُّ مرفوضاً، وهذه الأمور من أولويات الفقه في دين الله، تأخذ حيِّزها في حياتهم، وهم - بعد - ما زالوا في بداية الطَّريق.

ب - إنَّ السِّيادة لم تعد لأحدٍ غير رسول الله ﷺ، وإنَّ توقير أيِّ إنسانٍ، واحترامه إنَّما هو انعكاسٌ لسلوكه، والتزامه بأوامر الرَّسول ﷺ، وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهليَّةٌ؛ لتحلَّ محلَّها قيمٌ إيمانيَّة، فهي المقاييس الحقَّة؛ الَّتي بها يمكن الحكم على النَّاس تصنيفاً وترتيباً[716].

6 - كان أبو الهيثم بن التَّيِّهان صريحاً عندما قال للرَّسول ﷺ: إنَّ بيننا وبين الرِّجال حبالاً، وإنَّا قاطعوها - يعني: اليهود - فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله؛ أن ترجع إلى قومك، وتدعنا؟ فتبسَّم رسولُ الله ﷺ وقال: «بل الدَّمُ الدَّمُ، والهدمُ الهدمُ، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».

وهذا الاعتراض يدلُّنا على الحرِّيَّة العالية؛ الَّتي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبَّر عمَّا في نفسه بكامل حرِّيَّته[717]، وكان جواب سيِّد الخلق ﷺ عظيماً، فقد جعل نفسه جزءاً من الأنصار، والأنصار جزءاً منه[718].

7 - يؤخذ من اختيار النُّقباء دروسٌ مهمَّةٌ؛ منها:

أ - أنَّ الرَّسول ﷺ لم يعيِّن النُّقباء؛ إنَّما ترك طريق اختيارهم إلى الَّذين بايعوا، فإنَّهم سيكونون عليهم مسؤولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله، ويقوم بأمره، وهذا

---

[715] السيرة النبوية، المصدر السابق، (445/1).

[716] مِنْ معين السِّيرة لصالح أحمد الشَّامي، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الثانية، 1413 هـ،1992م، ص 135.

[717] التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميديِّ، (97/3).

[718] التَّربية القياديَّة، (67/2).

أمرٌ شوريٌّ، وأراد الرسول ﷺ أن يمارسوا الشُّورى عمليّاً من خلال اختيار نقبائهم.

ب – التَّمثيل النِّسبي في الاختيار، فمن المعلوم أنَّ الذين حضروا البيعة من الخزرج، أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس، ثلاثة أضعاف من الأوس؛ بل يزيدون، ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس، وتسعة من الخزرج[719].

ج – جعل رسول الله ﷺ النقباء مشرفين على سير الدَّعوة في يثرب، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر مثقَّفوه، ومعتنقوه، فأراد الرَّسول ﷺ أن يشعرهم أنَّهم لم يعودوا غرباء؛ لكي يبعث إليهم أحداً من غيرهم، وأنَّهم غدوا أهل الإسلام، وحماته، وأنصاره[720].

8 – تأكَّد زعماء مكَّة من حقيقة الصَّفقة، الَّتي تمَّت بين رسول الله ﷺ والأنصار، فخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر[721]، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيباً، فأمَّا المنذر، فأعجز القومَ، وأمَّا سعدٌ، فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنِسْع[722] رَحْله، ثمَّ أقبلوا به حتَّى أدخلوه مكَّة، يضربونه، ويجذبونه بجُمَّته[723] – وكان ذا شعرٍ كثيرٍ –[724]، واستطاع أن يتخلَّص من قريش، بواسطة الحارث بن حرب بن أميَّة، وجبير بن مُطْعِم؛ لأنَّه كان يجير تجارتهم ببلده؛ فقد أنقذته أعراف الجاهليَّة، ولم تنقذه سيوف لمسلمين، ولم يجد في نفسه غضاضةً من ذلك، فهو يعرف: أنَّ المسلمين مطاردون في مكَّة، وعاجزون عن حماية أنفسهم[725]، وقد قيل في هذه الحادثة أوَّل شعرٍ في الهجرة، بيتان قالهما ضرار بن الخطَّاب بن مرداس؛ حيث قال:

---

[719] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 209.

[720] دراساتٌ في السِّيرة النَّبويَّة، د. عماد الدِّين خليل، دار النفائس، بيروت، الطَّبعة الحادية عشرة، 1409هـ، 1989م، ص 132.

[721] أذاخر: مكان قريب من مكَّة.

[722] النِّسْع: الشِّراك الَّذي يشدُّ به الرَّحل.

[723] الجمَّة: مجتمع شعر الرأس.

[724] التاريخ الإسلاميّ، للحميديّ، (107/3).

[725] التَّربية القياديَّة، (116/2).

تَـدارَكْـتُ سَـــعْـداً عَنْوةً فـأخَـذْتُـهُ وكـانَ شِـــفـاءً لَو تَـدارَكْـتُ مُنْذِرا

ولو نِلْتهُ طُلَّتْ[726] هُنَـاكَ جِراحُـهُ وكَـانَ حرِيَّاً أَنْ يُهَـانَ ويُهْـدَرا

وكان حسَّان بن ثابت بالمرصاد، وردَّ عليه بأبيات من الشِّعر، تناقلتها الرُّكبان:

وَلَسْـــتُ إِلَى سَــعْدٍ ولاَ المرْءُ مِنْذِرٌ إِذَا مَـا مَطَـايا القَوْمِ أَصْـبَحْنَ

فَلاَ تَـكُ كَـالوَسْـنَـانِ يَحْلُمُ أَنَّـهُ بِقَرْيَةِ كِسْــرَى أَوْ بِقَرْيَةِ قَيْصَــرَا

فإِنَّا وَمَنْ يَهْدِي القَصَــائِدَ نَحْوَنَا كَمُسْــتَبْضِــعٍ تَمْراً إِلَى أَرْضِ

9 - في قول العبَّاس بن عبادة بن نضـلة: «والله الذي بعثك بالحق! إن شـئت لَنمِيلنَّ على أهل مِنَى غداً بأســيافنا»، وقول رســول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم»[729] درسٌ تربويٌّ بليغٌ، وهو: أنَّ الدِّفاع عن الإســلام، والتَّعامل مع أعداء هذا الدِّين، ليس متروكاً لاجتهاد أتباعه؛ وإنَّما هو خضـوعٌ لأوامر الله تعالى، وتشـريعاته الحكيمة، فإذا شُرع الجهاد؛ فإنَّ أمر الإقدام، أو الإحجام متروكٌ لنظر المجتهدين، بعد التَّشاور، ودراسة الأمر من جميع جوانبه[730]، وكلَّما كانت عبقريَّة التَّخطيط السِّـياسـيِّ أقوى؛ أدَّت إلى نجاح المهمَّـات أكثر، وإخفـاء المخطَّـطات، وتنفيـذهـا عن العـدوِّ، هو الكفيـل - بإذن الله - بنجاحها: «ولكن ارجعوا إلى رحالكم»[731].

10 - كانت البيعة بالنِّسبة للرِّجال ببسط رسول الله ﷺ يده، وقولهم له: ابسط يدك، فبسط يده، فبايعوه، وأمَّا بيعة المرأتين اللَّتين شهدتا الوقعة، فكانت قولاً؛ ما صافح رسول الله ﷺ امرأةً أجنبيـةً قطُّ، فلم يتخلَّف أحدٌ عن بيعته ﷺ، حتَّى المرأتان بايعتا بيعـة الحرب،

---

[726] أي: أهدرت.

[727] ضُمَّرا: جمع ضامر، والضامر من الخيل والإبل: هو الخفيف اللَّحم من التَّدريب.

[728] سيرة ابن هشام، (65/2).

[729] سبق تخريجه.

[730] التاريخ الإسلاميُّ، للحميديِّ، (104/3).

[731] التَّحالف السَّياسيُّ في الإسلام، ص 96.

وصدقتا عهدهما، فأمَّا نُسَيبة بنت كعب (أمُّ عمارة)، فقد سقطت في أُحدٍ، وقد أصابها اثنا عشر جرحاً، وقد خرجت يوم أحدٍ مع زوجها زيد بن عاصم بن كعب، ومعها سقاءٌ تسقي به المسلمين، فلـمَّا انهزم المسلمون؛ انحازت إلى رسول الله ﷺ، فكانت تباشر القتال، وتذبُّ عنه بالسَّيف، وقد أصيبت بجراحٍ عميقةٍ، وشهدت بيعة الرِّضوان[732]، وقطَّع مسيلمة الكذَّاب ابنها إرباً إرباً، فما وهنت، وما استكانت[733]، وشهدت معركة اليمامة، في حروب الرِّدة مع خالد بن الوليد، فقاتلت حتَّى قطعت يدُها، وجُرحت اثني عَشَرَ جُرحاً[734]، وأمَّا أسماء بنت عمرو من بني سلمة، قيل: هي والدة معاذ بن جبل، وقيل: ابنة عمَّة معاذ بن جبل رضي الله عنهم جميعاً[735].

11 - عندما نراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية من الأنصار في كتب السِّير والتَّراجم، نجد: أنَّ هؤلاء الثلاثة والسَّبعين، قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النَّبيِّ ﷺ وبعده، ونلاحظ: أنَّه قد حضر المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ قرابة النِّصف، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرَّسول ﷺ في جميع غزواته، وأمَّا الَّذين حضروا غزوة بدر، فكانوا قرابة السَّبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله، ورسوله ﷺ ؛ فمنهم من قضى نحبه، ولقي ربَّه شهيداً، ومنهم من بقي حتَّى ساهم في قيادة الدَّولة المسلمة، وشارك في أحداثها الجِسَام، بعد وفاة رسول الله ﷺ، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النَّماذج الَّتي تعطي، ولا تأخذ، والَّتي تقدِّم كلَّ شيءٍ، ولا تطلب شيئاً إلا الجنَّة، ويتصاغر التَّاريخ في جميع عصوره، ودهوره، أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرِّجال والنِّساء[736].

---

(732) المرأة في العهد النَّبويِّ، دكتورة عصمة الدِّين، ص 108.

(733) التَّحالف السِّياسيُّ، ص 87.

(734) ابن هشام، (80/2)، وأسد الغابة، (395/5)، والبداية والنِّهاية، (158/3 . 166)، والإصابة، (8/8) رقم 48، 49، نقلاً عن المرأة في العهد النَّبويِّ، ص 108

(735) المرأة في العهد النَّبويِّ، ص 108.

(736) التَّربية القياديَّة (140/2).

كانت بيعة العقبة الثانية نقطة تحول في تاريخ الإسلام، حيث تضمنت جوانب حضارية وإنسانية مهمة، هذه البيعة تمثل قيما من شأنها أن تكون أساساً لبناء مجتمع مؤتلف متماسك؛ مثل قيمة الالتزام بالنصر والولاء، وقيمة التعاون والتكافل الاجتماعي، والالتزام بمبدأ العدل والمساواة، والاستعداد للتضحية في سبيل نصر الحق، والحماية والدفاع عن المظلومين.

ثانياً: البعد الإنساني للهجرة إلى المدينة المنورة (الأخلاق الإسلامية الوليدة بين المهاجرين والانصار):

كشفت أحداث الهجرة النبوية عن قيم فاضلة وأخلاق كريمة ومواقف إنسانية رائعة كان بعضها موجودا في البيئة العربية قبل الإسلام مثل الشجاعة والشهادة والتضحية والنجدة ونصرة الضعيف وإغاثة الملهوف واحترام المرأة وصون كرامتها وعفتها، وكذلك خلق الإيثار والكرم والسخاء، وغير ذلك من القيم الأصيلة التي عرفها المجتمع العربي قبل الإسلام، وجاء الإسلام فأبقى عليها وقواها وأضاف إليها.. كل هذا يؤكد أن المجتمع العربي الذى أنبت صاحب الرسالة الخاتمة سيدنا محمد – ﷺ. وقد أبرزت أحداث الهجرة المباركة.. بعض جوانب القيم النبيلة والأخلاق الحميدة والسلوكيات الإنسانية الرقيقة التي أفرزها المجتمع العربي وجاء الإسلام فرسخها وسما بها وأضاف إليها ليبني مجتمعا إنسانيا متماسكا ومتعاونا وقويا لم يشهد التاريخ له مثيلا على مر العصور والأزمان، وهنا نلقى الضوء على بعض جوانب هذه الصورة المشرقة من القيم النبيلة والأخلاق الرفيعة التي برزت خلال حادثة الهجرة.[737]

ليست أهمية هجرة الرسول ﷺ في الانتقال من بلد إلى بلد، وإنما تتجلى أهميتها وتبرز أدق معانيها السامية في اختيار الوقت الملائم بعد تركيز عقيدة الإيمان، وتثبيتها في نفوس نساء ورجال، يتكونون بها تكونا إنسانيا جديدا، فيولدون ولادة ثانية، يتحررون معها من

[737] دروس وعبر من الهجرة النبوية، ص 37.

قيود التفكير والشعور، وينقذون بها من إرث الاستسلام لطغيان الأوثان: أوثان النفس في داخل كيانها، وأوثانها في صلتها مع كون هو خارج عن وجودها الذاتي، أي مع محيطها. أولئك النساء وأولئك الرجال هم أناس يعرفون كيف يبيعون نفوسهم في سبيل الله، أي في سبيل العقيدة التي انعقدت عليها قلوبهم في صميم الأفئدة، وفي سبيل المبادئ والمثل العليا التي تستلزمها تلك العقيدة. وبذلك وحسب تستكمل الأمم نهضتها وتحقق أمجادها(738).

إن هجرة الرسول ملحمة من ملاحم البطولة القدسية لا يفتر عن إنشادها الدهر! استمدت إلهامها من وحي الله، وروحها من خلق الرسول، وعملها من صدق العرب، واستقرت في مسامع الأجيال والقرون مثلا مضروباً لقواد الإنسانية، يعلمهم الصبر على مكاره الرأي، والاستمساك في مزالق الفتنة، والاستبسال في مواقف المحنة، والاستشهاد في سبيل المبدأ(739).

1. صفات وأدب الضيوف (المهاجرون):

أثنى الله – سبحانه وتعالى – على المهاجرين في القرآن الكريم، ووصفهم بأوصافٍ حميدةٍ متميّزةٍ؛ وذلك لأنّهم أُخرِجوا من ديارهم وأموالهم، أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد والتنكُّر لهم من قرابتهم، وعشيرتهم في مكَّة، وما أُخرِجوا إلا أن يقولوا ربُّنا الله، فمن أهمِّ الصِّفات المميّزة للمهاجرين(740):

أ. الإخلاص:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: 8]؛ قوله تعالى: يدلُّ على أنّهم لم

(738) مجلة الرسالة، (852/ 2).

(739) مجلة الرسالة، (852/ 2).

(740) مجلة الرسالة، المصدر السابق، ص 85، وهذا المبحث أخذته من هذا الكتاب مع التصرُّف اليسير.

يخرجوا من ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾، وأموالهم إلا أن يكونوا مخلصين لله، مبتغين مرضاته، ورضوانه[741].

ب. الصَّبر:

ومن صفات المهاجرين، وأخلاقهم المتميِّزة؛ الَّتي أثنى الله عليهم بها الصَّبر. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ **[النحل: 41-42]**، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ **[النحل: 110]**

ج. الصِّدق:

ومن الصفات الحميدة الَّتي أثنى الله - سبحانه وتعالى - بها على المهاجرين الصِّدق. قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ **[الحشر: 8]** .

قال البغويُّ في تفسيره قوله: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: في إيمانهم. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الَّذين تركوا الدِّيار، والأموال، والعشائر، وخرجوا حبّاً لله، ولرسوله ﷺ، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدَّةٍ، حتَّى ذُكِر لنا: أنَّ الرَّجل كان يعصب الحجر على بطنه؛ ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرَّجل يتَّخذ الحصيرة في الشِّتاء، ما له من دثارٍ غيرها[742].

د. الجهاد والتَّضحية:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمنوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ **[التوبة: 20]** .

---

[741] مجلة الرسالة، المصدر السَّابق، ص 86.

[742] تفسير البغوي، (318/4).

تركَّزت دعوة الرُّســـل على التَّضـــحية، والفداء؛ إذ إنَّها تواجه عناداً، وتكذيباً وعداءً مستحكماً، وهذا لابدَّ من مواجهته بصـلابة عودٍ، وقوَّة إيمانٍ، ورسـوخ عقيدةٍ، وعظيم بذل، والحياة في ظلِّ العقيدة حياةُ جهادٍ وكفاحٍ، ومنذ مطلع الدَّعوة كان نزول جبريل بالوحي إيذاناً لرســـول الله ﷺ بإيذاء قومه؛ حيث قال له ورقة بن نوفل: «هذا النَّاموسُ الَّذي أُنزل على موســى. يا ليتني فيها جَذَعاً[743]! يا ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك! فقال رســول الله ﷺ: «أومخرجيَّ هم؟» فقـال ورقـة: «نعم، لم يأتِ رجـلٌ قطُّ بمـا جئـتَ بـه إلا عُودي، وإن يُدركْني يومُك؛ أنصرك نصراً مؤزَّراً»[744].

وقد اشـــتمل حدث الهجرة على أنواعٍ من التَّضـــحية، والفداء، وبذل النَّفس، والمال في سبيل الله[745].

ولعلَّ الملاحظة الجديرة بالتأمُّل في هذا المجال: أنَّ التَّضحية ملازمةٌ للجهاد في سبيل الله؛ إذ لا جهاد دون تضحيةٍ[746].

هـ. نصرُهم لله ورسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْـلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ **[الحشر: 8]** .

امتدح الله – سبحانه وتعالى – في هذه الآية الكريمة المهاجرين، بأنهم ينصرون الله ورسوله؛ ذلك لأنَّهم ما خرجوا من بين الكفار مراغمين لهم، مهاجرين إلى المدينة إلا لنصرة الله تعالى، ورسوله ﷺ ونَصْرُ الله شرطٌ لتحقيق النَّصر، والتثبيت. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ **[محمد: 7]**.

---

[743] جذعاً: شاباً قوياً. شرح صحيح مسلم، للنَّوويّ.

[744] أخرجه البخاري (3) ومسلم (160).

[745] الهجرة في القران الكريم، ص 104.

[746] الهجرة في القران الكريم، ص 106.

قال سيِّد قطب: وكيف يَنْصُرُ المؤمنون الله؛ حتَّى يقوموا بالشَّرط، وينالوا ما شرط لهم من النَّصر، والتثبيت؟

إنَّ للهِ في نفوسهم أن تتجرَّد له، وألا تشرك به شيئاً شركاً ظاهراً، أو خفيّاً، وألا تستبقي فيها معه أحداً، ولا شيئاً، وأن يكون الله أحبَّ إليها من ذاتها، ومن كلِّ ما تحبُّ وتهوى، وأن تحكِّمَه في رغباتها، ونزواتها، وحركاتها، وسكناتها، وسرِّها وعلانيتها، ونشاطها كلِّه، وخلجاتها، فهذا نصر الله في ذوات النُّفوس. وإنَّ للهِ شريعةً، ومنهاجاً للحياة، تقوم على قواعد، وموازين، وقيمٍ، وتصوُّر خاصٍّ للوجود كلِّه، وللحياة، ونصرُ الله يتحقَّق بنصرة شريعته، ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلِّها بدون استثناءٍ، فهنا نصر الله في واقع الحياة[747].

و. التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ **[النحل: 41-42]** يمتدح الله - سبحانه وتعالى - المهاجرين، بأنَّهم يتوكَّلون على الله لا على غيره، والتوكُّل على الله خاصِّيَّةُ الإيمان، وعلامته، وهو منطق الإيمان، ومقتضاه. قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ **[المائدة: 23]** .

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ **[يونس: 84]**.

وقال الله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ **[إبراهيم: 11]** وقد ضرب رسول الله ﷺ، وصحابتُه الكرام مثالاً يُقتدى به على مرِّ الدُّهور في ترجمة التَّوكُّل في واقع الحياة في حادثة الهجرة، ولحسن توكّلهم على الله - سبحانه وتعالى -

---

[747] في ظلال القران، (3288/6).

أثنى عليهم، وجزاهم أحسن الجزاء[748].

ز. الرَّجاء:

ومن صــــفات المهاجرين الحميدة؛ الَّتي مدحهم الله بها: الرَّجاء. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَـــبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ **[البقرة: 218]** .

وإنَّما قال: وقد مدحهم؛ لأنَّه ﴿يَرْجُونَ﴾ يعلم أحدٌ في هذه الدُّنيا: أنَّه صـــائر إلى الجنَّة، ولو بلغ في طاعة الله كلَّ مبلغٍ لأمرين: أحدهما: أنَّه لا يدري بما يُختم له، والثَّاني: لئلا يتَّكل على عمله، فهؤلاء قد غفر الله لهم، ومع ذلك يرجون رحمة الله، وذلك زيادة إيمانٍ منهم[749].

ح. اتِّباع الرَّسول ﷺ:

وممَّا يدلُّ على أنَّ الهجرة لها مكانةٌ عظيمةٌ في القرآن الكريم: أنَّ الله – سبحانه وتعالى – وصف المهاجرين، وأنصارهم بأنَّهم يتَّبعون الرَّسول ﷺ . قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصار الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ **[التوبة: 117]** فالمهـاجرون، والأنصـــار، هم الـذين يتَّبعون الرَّسـول ﷺ؛ في أقواله، وأعماله؛ بل في سـاعة العسـرة، ممَّا يدلُّ على أنَّهم يسـتحقُّون بذلك الدَّرجة العظمى، والتَّوبة من الله عزَّ وجلَّ.

وقد نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنَّهم خرجوا إليها في شـدَّةٍ من الأمر، في سَنَةٍ مُجْدبةٍ، وحرٍّ شديدٍ، وعُسْرٍ في الزَّاد، والماء.

قال قتادة: «خرجوا إلى الشَّـــام عام تبوك في لهبان الحرِّ، على ما يعلم الله من الجهد، أصـــابهم فيها جهدٌ شـــديدٌ، حتَّى لقد ذُكِرَ لنا: أنَّ الرجلين كانا يشـــقَّان التَّمرة بينهما، وكان

---

[748] الهجرة في القران الكريم، ص 114 إلى 117.

[749] الجامع لأحكام القران، (50/3)، وتفسير أبي السُّعود، (218/1).

النَّفر يتداولون التَّمرة بينهم؛ يمصُّها هذا، ثمَّ يشرب عليها، ثم يمصُّها هذا، ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم، وأقفلهم[750] من غزوتهم»[751].

إنَّ اتِّباع الرَّسول ﷺ يدلُّ على حقيقة الإيمان، وحقيقة الدِّين، ويفرِّق تفريقاً حاسماً بين الإيمان، والكفر في جلاءٍ، كما أنَّه دليلٌ على حبِّ الله، وحبُّ الله ليس دعوى باللِّسان، ولا هياماً بالوجدان، إلا أنْ يُصاحبه الاتِّباع لرسول الله ﷺ، والسَّير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة. إنَّ الإيمان ليس كلماتٍ تُقال، ولا مشاعر تَجيش، ولا شعائر تُقام، ولكنَّه طاعةُ الله، والرَّسول، وعملٌ بمنهج الله؛ الَّذي يحمله الرَّسول ﷺ . قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ **[آل عمران: 31-32]**.

قال ابن كثيرٍ في تفسيره للآية المذكورة: «هذه الآية الكريمة، حاكمةٌ على كلِّ مَنِ ادَّعى محبَّة الله؛ وليس هو على الطَّريقة المحمَّدية؛ فإنَّه كاذبٌ في نفس الأمر، حتَّى يتَّبع الشَّرع المحمَّديَّ، والدِّين النَّبويَّ، في جميع أقواله، وأعماله[752]، كما ثبت في الصَّحيح عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ»[753].

ط. حقُّ السَّبق في الإيمان والعمل:

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنصار وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الآنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ **[التوبة: 100]** .

قال الرَّازي: والسَّبق موجبٌ للفضيلة؛ فإقدامهم على هذه الأفعال يُوجِبُ اقتداء غيرهم بهم. قال ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً، فله أجرُها، وأجر من عمل بها، إلى يوم

---

(750) أقفلهم: بمعنى أرجعهم سالمين.

(751) تفسير ابن كثير، (397/2).

(752) تفسير ابن كثير، (466/3).

(753) أخرجه البخاري (2697) ومسلم (1718).

القيامة»[754] فدواعي النَّاس تَقوى بما يرون من أمثالهم، في أحوال الدِّين، والدُّنيا، وثبت بهذا: أنَّ المهاجرين هم رؤساء المسلمين وسادتهم[755].

وهكذا اختار الله – سبحانه وتعالى – السَّابقين من المهاجرين، من تلك العناصر الفريدة النَّادرة، الَّتي تحتمل الضغوط، والفتنة، والأذى، والجوع، والغربة، والعذاب، والموت في أبشع الصُّور في بعض الأحيان؛ ليكونوا هم القاعدة الصُّلبة لهذا الدِّين في مكَّة، ثمَّ ليكونوا هم القاعدة الصُّلبة لهذا الدِّين بعد ذلك في المدينة، مع السَّابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوا بها في أوَّل الأمر كما اصطلاها المهاجرون، إلا أنَّ بيعتهم لرسول الله ﷺ (بيعة العقبة)، قد دلَّت على أنَّ عنصرهم ذو طبيعةٍ أصيلةٍ مكافئةٍ لطبيعة هذا الدِّين.

وبالمهاجرين، والأنصار تكوَّنت للإسلام قاعدةٌ صلبةٌ من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربيِّ، فأما العناصر الَّتي لم تحتمل هذه الضُّغوط؛ فقد فُتنت عن دينها، وارتدَّت إلى الجاهليَّة مرَّةً أخرى، وكان هذا النَّوع قليلاً، فقد كان الأمر كلُّه معروفاً مكشوفاً من قبل، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهليَّة إلى الإسلام، وقطع الطريق الشَّائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التَّكوين[756]. وبذلك أيضاً تتَّضح لنا منزلة المهاجرين، وعلوُّ طبقتهم في الفضل؛ حيث أنفقوا، وقاتلوا؛ والعقيدة مطاردةٌ، والأنصار قلَّةٌ، وليس في الأفق ظلُّ منفعةٍ، ولا سلطانٍ، ولا رخاءٍ، مما يدلُّ على أنَّهم لا يستوون مع غيرهم من الَّذين أنفقوا وقاتلوا بعد تلك الظُّروف الصَّعبة[757]. قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ **[الحديد: 10]**.

---

[754] أحمد (4/357 – 358) ومسلم (1017) والترمذي (2675) والنسائي (5/75 – 77) وابن ماجه (203).

[755] تفسير الرَّازي، (15/208).

[756] في ظلال القران، (3/1703).

[757] الهجرة في القران الكريم، ص 124.

وقد تحدَّث ابن كثيرٍ عن آية سورة التَّوبة؛ الَّتي بيَّنت فضل السَّابقين من المهاجرين، والأنصار، فقال: فقد أخبر الله العظيم: أنَّه قد رضي عن السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين، والأنصار، والذين اتَّبعوهم بإحسانٍ، فيا ويل من أبغضهم، أو سبَّهم أو أبغض، أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيِّد الصَّحابة بعد الرَّسول ﷺ ؛ وخيرهم، وأفضلهم، أعني: الصِّديق الأكبر، والخليفة الأعظم، أبا بكرٍ بن أبي قحافة؛ فإنَّ الطَّائفة المخذولة من الرَّافضة يعادون أفضل الصَّحابة، ويبغضونهم، ويسبُّونهم، عياذاً بالله من ذلك! وهذا يدلُّ على أنَّ عقولهم معكوسةٌ، وقلوبهم منكوسةٌ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن؛ إذ يسبُّون من رضي الله عنهم؟! وأمَّا أهل السُّنَّة فإنَّهم يترضَّون عمَّن رضي الله عنهم، ويسبُّون من سبَّه الله ورسولُه، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متَّبعون، لا مبتدعون، ويقتدون، ولا يبتدعون؛ ولهذا هم حزب الله المفلحون، وعباده المؤمنون[758].

ي. الفوز:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمنوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ **[التوبة: 20]** .

قال أبو السُّعود في تفسيره: قوله تعالى: أي: المختصُّون بالفوز ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، أو بالفوز المطلق، كأنَّ فوز من عداهم ليس بفوزٍ بالنِّسبة إلى فوزهم[759].

فهذا ثناءٌ من الله العليِّ العظيم، على المهاجرين، بأنَّهم يستحقُّون الفوز العظيم، والفوز يكون عظيماً لأنَّه يأتي من مصدر العظمة، وأيُّ فوزٍ أعظم من هذا الفوز! يخبرهم ربُّهم بأنَّهم من الفائزين في الآخرة، وذلك بدخولهم الجنَّة، وبُعْدهم عن النَّار. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ

---

[758] تفسير ابن كثير، (332/2).

[759] تفسير أبي السُّعود، المسمَّى إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لقاضي القضاة أبي السُّعود محمَّد العماديِّ الحنفيِّ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، النَّاشر: مكتبة الرِّياض الحديثة، الرِّياض، مطبعة السَّعادة، القاهرة، (53/4).

ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: 185] .

ك. الإيمان الحقيقيُّ:

ومن هذه الصِّفات الحميدة؛ الَّتي أثنى الله على المهاجرين بها في كتابه الكريم صفة الإيمان الحقّ. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمنوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: 74] .

فهذه شهادةٌ من الله العليم الخبير للمهاجرين بأنَّهم المؤمنون حقّاً، فالمهاجرون رضي الله عنهم هم النَّموذج الحقيقيُّ؛ الَّذي يتمثَّل فيه الإيمان - بعد رسول الله ﷺ -كما أنَّهم قدوةٌ حسنةٌ لمن جاء بعدهم وصورةٌ حقيقيَّةٌ في ترجمة الصِّفات الحميدة في واقع الحياة، فلذلك استحقُّوا هذا الثناء الرَّبانيَّ بأنَّهم المؤمنون حقّاً. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 2-4]. وهذه الصِّفات الحميدة تتمثَّل في حياة المهاجرين، كما أنَّ المتَّصفين بهذه الصِّفات هم المؤمنون حقَّ الإيمان[760].

2. صفات وكرم المجتمع المضيف (الأنصار):

أ. استقبال الأنصار لرسول الله ﷺ:

«ولـمَّا سمع المسلمون بالمدينة مَخْرَجَ رسول الله ﷺ من مكَّةَ، فكانوا يغدون كلَّ غداةٍ إلى الحَرَّة فينتظرونه، حتَّى يردَّهم حرُّ الظَّهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلـمَّا أَوَوْا إلى بيوتهم؛ أوفى رجلٌ من يهود على أُطُمٍ[761] من آطامهم، لأمرٍ ينظر إليه، فبصُرَ برسول الله ﷺ

(760) الهجرة في القران الكريم، ص 129.

(761) أطم . بضم أوله وثانيه .: الحصن.

وأصحابه مُبَيَّضين[762]، يزولُ بهم السَّرابُ[763]، فلم يملكِ اليهوديُّ أن قال بأعلى صوته: يا معاشرَ العرب! هذا جَدُّكم[764] الَّذي تنتظرونَ، فثار المسلمون إلى السِّلاح، فتلقَّوا رسول الله ﷺ بظهر الحَرَّة، فعدل بهم ذات اليمين، حتَّى نَزَل بِهِم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين[765] من شهر ربيع الأوَّل[766]، فقام أبو بكر للنَّاس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار - ممَّن لم يَرَ رسول الله ﷺ - يُحَيِّي أبا بكرٍ، حتَّى أصابت الشَّمْسُ رسولَ الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتَّى ظلَّلَ عليه بردائه، فعرف النَّاس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسولُ الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعَ عَشْرَةَ ليلةً[767]، وأُسِّسَ المسجدُ الذي أُسِّسَ على التَّقوى، وصلَّى فيه رسول الله ﷺ، ثمَّ ركب راحلته»[768].

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ المدَّة الَّتي مكثها بقُباء، وأراد أن يدخل المدينة؛ «بعث إلى الأنصار» فجاؤوا إلى نبيِّ الله ﷺ وأبي بكر، فسلَّموا عليهما، وقالوا: اركبا آمِنَيْن مُطَاعَيْن، فركب نبيُّ الله ﷺ، وأبو بكرٍ، وحَفُّوا دونَهما بالسِّلاح».

وعند وصوله ﷺ إلى المدينة، قيل في المدينة: «جاء نبيُّ الله، جاء نبيُّ الله ﷺ، فأشرفوا ينظرون، ويقولون: جاء نبيُّ الله»[769].

فكان يوم فرحٍ وابتهاجٍ، لم ترَ المدينة يوماً مثله، ولبس النَّاس أحسن ملابسهم، كأنَّهم في يوم عيدٍ، ولقد كان حقّاً يوم عيدٍ؛ لأنَّه اليوم الَّذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيِّز الضَّيِّق

---

(762) مُبيَّضين: عليهم ثياب بيض.

(763) السَّراب: أي: يزول السَّراب عن النَّظر بسبب عروضهم له.

(764) جدُّكم: حظُّكم وصاحب دولتكم الَّذي تتوقَّعونه.

(765) قال الحافظ ابن حجر: هذا هو المعتمد، وشذَّ من قال: يوم الجمعة، (الفتح شرح حديث رقم 3906).

(766) الهجرة في القران الكريم، ص 351.

(767) الهجرة في القرآن الكريم، المصدر السابق، ص 352.

(768) أخرجه البخاري (3906).

(769) البخاري (3911).

في مكَّة، إلى رحابة الانطلاق والانتشــار، بهذه البقعة المباركة (المدينة)، ومنها إلى ســائر بقاع الأرض، لقد أحسَّ أهل المدينة بالفضــل الَّذي حباهم الله به، وبالشَّــرف الَّذي اختصَّــهم به أيضــاً، فقد صــارت بلدتهم موطناً لإيواء رســول الله ﷺ، وصــحابته المهاجرين، ثم لنصــرة الإســلام، كما أصــبحت موطناً للنِّظام الإســلاميِّ العامِّ، والتَّفصــيليِّ بكلِّ مقوِّماته، ولذلك خرج أهل المدينة يهلِّلون في فرحٍ وابتهاجٍ، ويقولون: يا رسول الله! يا محمد! يا رسول الله[770]!

روى الإمام مسلمٍ بسنده، قال: «عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة؛ صعد الرِّجال، والنِّساء فوق البيوت، وتفرَّق الغِلْمَان، والخدم في الطُّرق، ينادون: يا محمد! يا رســول الله! يا محمَّد! يا رسول الله!!»[771].

وبعد هذا الاستقبال الجماهيريِّ العظيم؛ الَّذي لم يرد مثله في تاريخ الإنسانيَّة سار رسول الله ﷺ حتَّى نزل في دار أبي أيوبٍ الأنصــاريِّ رضــي الله عنه، فعن أنسٍ رضــي الله عنه في حديث الهجرة الطَّويل: «فأقبل يسيرُ حتَّى نزل جانب دار أبي أيوب، فإنَّه ليُحَدِّثُ أهلَه[772]؛ إذ سمع به عبد الله بن سَــــلاَم، وهو في نخلٍ لأهله يَخْتَرِف[773] لهم، فعجَّل أن يضــــع الَّذي يَخْتَرِف لهم فيها، فجاء وهي معه، فســــمع من نبيِّ الله ﷺ، ثمَّ رجع إلى أهله، فقال نبيُّ الله ﷺ: أيُّ بيوتِ أهلنا[774] أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبيَّ الله! هذه داري، وهذا بابي، قال: فـانَطَلِقْ فهيئ لنـا مقيلاً[775]....»[776]، ثمَّ نزل رســــول الله ﷺ على أبي أيوبٍ حتَّى بنى مسجده، ومساكنه.

وبهذا قد تمَّت هجرته ﷺ، وهجرة أصــحابه رضــي الله عنهم؛ ولم تنته الهجرة بأهدافها،

---

[770] الهجرة في القران الكريم، ص 353.

[771] أخرجه مسلم (3014).

[772] الضَّمير هنا للنَّبيِّ ﷺفتح الباري، (251/7).

[773] يخترف: أي: يجتني من ثمارها، النِّهاية (24/2).

[774] الهجرة في القران الكريم، ص 354.

[775] مقيلاً: أي: مكاناً تقع فيه القيلولة.

[776] أخرجه البخاري (3911).

وغاياتها، بل بدأت بعد وصول رسول الله ﷺ سالماً إلى المدينة، وبدأت معها رحلة المتاعب، والمصاعب، والتَّحدِّيات، فتغلَّب عليها رسول الله ﷺ للوصول للمستقبل الباهر للأمَّة، والدَّولة الإسلاميَّة؛ الَّتي استطاعت أن تصنع حضارةً إنسانيَّةً رائعةً، على أسس من الإيمان، والتَّقوى، والإحسان، والعدل بعد أن تغلَّبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان العالم، وهما: دولة الفرس، ودولة الرُّوم[777].

ب. البيوتات الحاضنة، وأثرها في النُّفوس:

لقد كان من نتائج إيمان الأنصار، ومبايعتهم، وتعهُّدهم بالنُّصرة أن دعا رسولُ الله ﷺ المسلمين إلى الهجرة إلى المدينة، كما كان من نتائج ذلك أن ظهرت ظاهرةٌ عظيمةٌ من التَّكافل بين المسلمين، ففتحت بيوت الأنصار أبوابها، وقلوب أصحابها لوفود المهاجرين، واستعدَّت لاحتضانهم رجالاً، ونساءً؛ إذ أصبح المسكن الواحد يضمُّ المهاجر، والأنصاريَّ، والمهاجرة، والأنصاريَّة، يتقاسمون المال، والمكان، والطَّعام والمسؤوليَّة الإسلاميَّة؛ فمن هذه البيوتات الحاضنة:

- دار مبشِّر بن عبد المنذر بن زَنْبَر بقُباء: ونزل بها مجموعةٌ من المهاجرين، نساءً، ورجالاً، وقد ضمَّت هذه الدُّور، عمر بن الخطاب، ومن لحق به من أهله وقومه، وابنته حفصة، وزوجها، وعيَّاش بن أبي ربيعة.

- دار خُبَيب بن إساف أخي بَلْحارث بن الخزرج بالسُّنْح[778]: نزل بها طلحة بن عبيد الله بن عثمان، وأمُّه، وصهيب بن سنان.

- دار أسعد بن زُرارةَ من بني النَّجار، قيل: نزل بها حمزة بن عبد المطَّلب.

- دار سعد بن خيثمة أخي بني النَّجار، وكان يسمَّى: بيت العزاب، ونزل بها العُزَّاب

---

[777] الهجرة في القران الكريم، ص 355.

[778] المرأة في العهد النَّبويِّ، ص 116.

من المهاجرين.

– دار عبد الله بن سلمة أخي بَلْعجلان بقُباء، ونزل بها عُبيدة بن الحارث، وأمُّه سُخيلة، ومِسْطَح بن أُثاثة بن عبَّاد بن المطلب، والطُّفيل بن الحارث، وطُليب بـن عُمير، والحُصَيْن بـن الحارث؛ نزلوا جميعاً على عبد الله بن سلمة بقُباء.

– دار بني جَحْجَبَى، والْمُحتَضِن هو منذر بن محمَّد بن عُقبة، نزل عنده الزُّبير بن العوَّام، وزوجه أسماء بنت أبي بكر، وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم، وزوجته أمُّ كلثوم بنت سُهيل[779].

– دار بني عبد الأشهل، والمحْتَضِن هو سعد بن معاذ بن النُّعمان من بني عبد الأشهل، نزل بها مصعب بن عمير، وزوجته حَمْنة بنت جحش.

– دار بني النَّجار، والمحتضـــن هو أوس بن ثابت بن المنذر، نزل بها عثمان بن عفان، وزوجته رقيَّة بنت رسول الله ﷺ [780] .

فهذه المقاسمة، وهذا التَّكافل الاجتماعيُّ كان من أهمِّ العناصر الَّتي مهَّدت لإقامة رسول الله ﷺ وصـــحابته المهاجرين معه، وبعده، إقامةً طيِّبةً، تنبض بالإيثار على النَّفس، وبودِّ الأخوَّة الصَّادقة المؤمنة[781].

بهذه الروح العالية، والإيمان الوثيق، والصِّـــدق في المعاملة تمَّت المؤاخاة، وتمَّ الوفاق بين المهاجرين، والأنصـار، وقد يحدث تسـاؤلٌ، فيقال: لماذا لم نسـمع، ولم تسـجِّل المصـادر، ولم تكتب المراجع: أنَّ خلافاتٍ وقعت في هذه البيوت؟ وأين النِّســاءُ وما اشــتهرن به من مشاكسات؟

إنَّه الدِّين الحقُّ؛ الَّذي جعل تقوى الله أساساً لتصرُّف كلِّ نفسٍ، والأخلاق السَّامية الَّتي

---

[779] المرأة في العهد النبوي، المصدر السابق، ص 117.

[780] السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة، لأبي شهبة، (1/468، 469).

[781] المرأة في العهد النَّبويِّ، ص 118.

فرضت الأخوة بين المسلمين، ونصرة الدَّعوة، إنَّها المبايعة، وأثرها في النُّفوس، إنَّه الصِّدق، والعمل من أجل الجماعة، خوفاً من العقاب، ورهبةً من اليوم الآخر، ورغبةً في الثواب، وطمعاً في الجنة، إنَّه دفء حضانة الإيمان، واستقامة النَّفس والسُّلوك، وصدق الطَّويَّة، فكلُّ مَنْ أسلم، وكلُّ من بايع، وكلُّ من أسلمت، وبايعت، يعملون جميعهم ما يؤمرون به، ويخلصون فيما يقولون، يخافون الله في السِّر، والعلن، آمنت نفوسهم فاحتضنت المناصرةُ المهاجرةَ، فالكلُّ يعمل من أجل مصلحة الكلِّ، فهذا هو التَّكافل الاجتماعيُّ في أجلى صورةٍ، وأقدس واقعةٍ، رغب الكلُّ في الثَّواب؛ حتَّى إنَّ الواحد منهم يخاف ذهاب المناصر بالأجر كلِّه[782].

إنَّ جانب البذل، والعطاء ظاهرةٌ، نحن بحاجة إلى الإشارة إليها في كلِّ وقتٍ؛ إنَّنا في عالمنا المعاصر، وفي الصَّفِّ الإسلاميِّ، وفي رحلةٍ لبضعة أيام تتكشَّف النُّفوس والعيوب، والحزازات والظُّنون، وهذا مجتمعٌ يبنى؛ ولمَّا يصلْ رسول الله ﷺ بعد، ومع ذلك تفتح البيوت للوافدين الجُدُد، ليس على مستوى فردٍ فقط؛ بل على مستوى جماعيٍّ كذلك، ويقيم المهاجرون في بيوت الأنصار شهوراً عدَّةً، والمعايشة اليوميَّة مستمرةٌ، والأنصار يبذلون المال، والحبَّ، والخدمات لإخوانهم القادمين إليهم، نحن أمام مجتمعٍ إسلاميٍّ، بلغ الذِّروة في لُحْمَتِهِ، وانصهاره، ولم يكن المهاجرون إلا القدوة للأنصار بالبذل، والعطاء، فلم يكونوا أصلاً فقراء؛ بل كانوا يملكون المال، ويملكون الدَّار، وتركوا ذلك كلَّه ابتغاء مرضاة الله، وبذلوه كلَّه لطاعته جلَّ وعلا، فكانوا كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ **[الحشر: 8-9]**. كان هذا المجتمع المدنيُّ الجديد يتربَّى على معاني الإيمان، والتَّقوى، ولم يصل النَّبيُّ ﷺ بعد، ولكن تحت إشراف النُّقباء الاثنى عشر، الَّذين كانوا في كفالتهم لقومهم، ككفالة الحواريِّين لعيسى ابن مريم، و بإشراف قيادات المهاجرين الكبرى، الَّتي وصلت المدينة، والذين استقوا جميعاً

---

[782] المرأة في العهد النَّبويِّ، المصدر السَّابق، ص 132.

من النَّبع النَّبويِّ الثَّرِّ[783]، واقتبسوا من هديه[784].

ومن معالم هذا المجتمع الجديد ذوبان العصبية؛ فقد كان إمامُ المسلمين، سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه؛ لأنه كان أكثرهم قرآناً، فهذا المجتمع الَّذي يوجد فيه عِلْيَةُ أصحاب محمَّد ﷺ ؛ من المهاجرين، والأنصار، وسادة العرب من قريش، والأوس والخزرج، يقوده ويؤمُّه حامل القرآن، فالكرامة العليا فيه لقارئ كتاب الله وحامله، وحامل القرآن في المجتمع الإسلاميِّ هو نفسه حامل اللِّواء في الحرب، فليس بينهما ذلك الانفصام الَّذي نشهده اليوم، بين حملة القرآن من الحفَّاظ، وبين المجاهدين في سبيل الله، فقد كان حامل لواء المهاجرين في معركة اليمامة سالم مولى أبي حذيفة، وكان شعاره: (بئس حامل القرآن) - يعني: إن فررت - ، فقطعت يمينه، فأخذ اللواء بيساره، فقطعت، فاعتنقه إلى أن صُرع، واستُشهد في سبيل الله[785].

ومن معالم المجتمع الإسلاميِّ الجديد حرِّيَّة الدَّعوة إلى الله علانيةً، فقد أصبح واضحاً عند الجميع: أنَّ معظم قيادات يثرب دخلت في هذا الدِّين، ونشط الشَّباب، والنِّساء، والرِّجال في الدَّعوة إلى الله، والتبشير بقدوم رسول الله ﷺ على قدمٍ وساقٍ. ولابدَّ من المقارنة بين المجتمع الَّذي قام بالحبشة من المسلمين، وبين المجتمع الإسلاميِّ في يثرب؛ فلقد كانت الحبشة تحمل طابع اللُّجوء السِّياسيِّ، والجالية الأجنبيَّة أكثر ممَّا كانت تحمل طابع المجتمع الإسلاميِّ الكامل؛ صحيحٌ: أن المسلمين ملكوا حرِّيَّة العبادة هناك؛ لكنَّهم معزولون عن المجتمع النَّصرانيِّ، لم يستطيعوا أن يؤثِّروا فيه التَّأثير المنشود، وإن كانت هجرة الحبشة خطوةً متقدِّمةً على جو مكَّة؛ حيث لا تتوفر حرِّيَّة الدَّعوة، وحرِّيَّة العبادة، ولكنَّه دون المجتمع الإسلاميِّ في المدينة بكثير، ولذلك شرع مهاجرو الحبشة بمجرَّد سماع خبر هجرة المدينة، بالتوجُّه نحوها

---

(783) الثَّرّ: الغزير الكثير.

(784) التَّربية القياديَّة، (2/171، 172).

(785) التَّربية القياديَّة، (2/174، 175).

مباشرة، أو عن طريق مكَّة؛ إلا من طلبت منه القيادة العليا البقاء هناك، لقد أصبحت المدينة مسلمةً بعد أن عاشت قروناً وثنيَّةً مشركةً.

لقد أصبح المجتمع المدنيُّ مسلماً، وبدأ نموُّه، وتكوينه الفعليُّ بعد عودة الاثني عشر صحابيّاً من البيعة الأولى، والَّتي كان على رأسها، الصحابيُّ الجليل أسعد بن زُرارةَ والَّتي حملت المسؤوليَّة الدَّعويَّة فقط، دون الوجود السِّياسيِّ، وبلغ أوج توسُّعه، وبنائه بعد عودة السَّبعين، الَّذين ملكوا الشَّارع السِّياسيَّ والاجتماعيَّ، وقرَّروا أن تكون بلدهم عاصمة المسلمين الأولى في الأرض، وهم على استعدادٍ أن يواجهوا كلَّ عدوٍّ خارجيٍّ، يمكن أن ينال من هذه السِّيادة، حتَّى قبل قدوم رسول الله ﷺ إليهم في المدينة.

إنَّ القاعدة الصُّلبة، الَّتي بذل رسول الله ﷺ وقتاً وجهداً في تربيتها، بدأت تعطي ثمارها أكثر، بعد أن التحمت بالمجتمع المدنيِّ الجديد، وانصهر كلاهما في معاني العقيدة، وأخوَّة الدين.

لقد أعدَّ رسول الله ﷺ الأفراد، وصقلهم في بوتقة الجماعة، وكوَّن بهم القاعدة الصُّلبة، ولم يقم المجتمع الإسلاميُّ الَّذي تقوم عليه الدَّولة إلا بعد بيعة الحرب وبذلك نقول: إنَّ المجتمع الإسلاميَّ قام بعدما تهيَّأت القوَّة المناسبة لحمايته في الأرض[786].

وهكذا انتقلت الجماعة المسلمة المنظَّمة القويَّة إلى المدينة، والتحمت مع إخوانها الأنصار، وتشكَّل المجتمع المسلم؛ الَّذي أصبح ينتظر قائده الأعلى ﷺ ؛ ليعلن ولادة دولة الإسلام، الَّتي صنعت - فيما بعد - حضارةً؛ لم يعرفِ التَّاريخ مثلها حتَّى يومنا هذا.

ج. صفات بارزة عند الجماعة المضيفة:

ومن أبرز صفات الأنصار:

[786] التَّربية القياديَّة، (146/1، 147).

- الكرم والإيثار، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ **[الحشر: 9]**؛ أي والذين سكنوا المدينة دار الهجرة، وتمكّن الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ في قلوبهم، قبل هجرة المهاجرين، وهم الأنصار، يحبون المهاجرين، ويواسونهم بأموالهم، ولا يجدون في أنفسهم حسدا أو غيظا أو حزازة للمهاجرين مما أوتي المهاجرون دونهم من الفيء، بل طابت أنفسهم بذلك، مع أنهم كانوا في دور الأنصار، وقدّموا المهاجرين على أنفسهم في حظوظ الدنيا، ولو كان بهم حاجة وفقر. ويلاحظ أن كل ما يجد الإنسان في صدره مما يحتاج إلى إزالته، فهو حاجة. والإيثار: هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، والرغبة في الحظوظ الدينية[787].

- الكرم والجود؛ وقصة سعد ابن الربيع مع عبد الرحمن بن عوف، إذ عرض عليه اقتسام المال والزوجات، دليل ساطع على هذا الخلق الحميد، والبارز عند الأنصار رضي الله عنهم.

- الولاء للرسول ﷺ؛ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: "بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب، فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا، ولنا الجنة"[788].

- التعاون والتضامن؛ عن أنس قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلا في كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في

[787] التفسير المنير، الزحيلي، (28/ 84).

[788] أخرجه أحمد، (14653).

المهنأ، حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله "[789].

تعد الهجرة النبوية محطة رئيسية في السيرة النبوية تحمل أبعادًا إنسانية عميقة. فهي تمثل رمزًا للتضحية والصبر فيي سبيل العقيدة، وتجسد معنى الوحدة والتضامن بين المؤمنين، حيث احتضن أهل المدينة المهاجرين بكل حب وإيثار، مُظهرين أروع الأمثلة في الإخاء والإنسانية.

ثالثاً: البعد الحضاري والإنساني للمجتمع الإسلامي الأول:

بعد الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة المنورة، شـــهد المجتمع الإســـلامي الأول تطورًا حضاريًا وإنسانيًا لافتًا. في المدينة، أسس النبي ﷺ مجتمعًا قائمًا على مبادئ العدل والمساواة، والاحترام المتبادل بين مختلف المكونات الاجتماعية والدينية. كان هذا المجتمع نموذجًا حضاريًا يحتذى به، حيث اتسم بالترابط الاجتماعي القوي، والروح الجماعية، واحترام حقوق الأفراد. تمثل هذا البعد الحضاري والإنساني في العديد من الجوانب، ومن أبرزها:

1. المسجد الدعامة الأولى للمدينة الإسلامية والمجتمع الإسلامي:

كان أوّلَ ما قام به الرّسول ﷺ بالمدينة بناءُ المسجد؛ وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام، الَّتي طالما حُوربت، ولتقام فيه الصَّلوات؛ الَّتي تربط المرء بربِّ العالمين، وتنقِّي القلب من أدران الأرض، وأدناس الحياة الدُّنيا[790].

روى البخاريُّ بسنده: أنَّ رسول الله ﷺ دخل المدينة راكباً راحلتَهُ، فسار يمشي معه النَّاسُ؛ حتَّى بَرَكَتْ عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وهو يصلِّي فيه يومئذٍ رجالٌ من المسلمين، وكان مِرْبَدًا[791] للتَّمر، لسهلٍ، وسُهَيْلٍ غلامين يتيمين في حِجْر أسعد بن زُرَارَة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل»، ثمَّ دعا رسولُ الله ﷺ

---

(789) أخرجه أحمد، (13075).

(790) فقه السِّيرة، للغزالي، ص 191، وفقه السِّيرة، للبوطي، ص 151.

(791) مربد: الموضع الذي يُجفَّف فيه التَّمر، القاموس المحيط، (304/1).

الغلامين، فساومهما بالمِرْبَد ليتَّخذَه مسجداً، فقالا: لا، بل نَهَبُهُ لك يا رسولَ الله! فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هِبَةً؛ حتَّى ابتاعه منهما[792].

وفي رواية أنس بن مالكٍ: فكان فيه ما أقول: كان فيه نَخْلٌ، وقُبورُ المشـــركين، وخربٌ، فأمر رسـولُ الله ﷺ بالنَّخل، فقُطع، وبقبور المشـركين، فنُبِشَـتْ، وبالخربِ، فسُـوِّيَتْ. قال: فَصَـفُّوا النَّخلَ قبلةً، وجعلوا عِضَـادَتَيْهِ حجارةً. قال: فكانوا يرتجزون، ورسـولُ الله ﷺ معهم؛ وهم يقولون:

اللَّهُمَّ! لا خَيْرَ إلا خَيْرُ الآخرهْ فَانْصُرِ الأنصـار والمهَاجِــرَهْ[793]

شرع الرَّسول ﷺ في العمل مع أصحابه، وضرب أوَّل معولٍ في حفر الأساس؛ الَّذي كان عمقه ثلاثة أذرع، ثمَّ اندفع المسـلمون في بناء هذا الأسـاس بالحجارة، والجدران - الَّتي لم تزد عن قامة الرَّجل إلا قليلاً - باللَّبن؛ الَّذي يعجن بالتُّراب، ويسوَّى على شكل أحجارٍ صالحةٍ للبناء[794]. وفي النَّاحية الشَّـــمالية منه، أقيمت ظلَّةٌ من الجريد على قوائم من جذوع النَّخل، كانت تسمَّى «الصُّفة»، أما باقي أجزاء المسجد، فقد تُرِكت مكشوفةً بلا غطاءٍ[795].

أمَّا أبواب المســـجد؛ فكانت ثلاثةٌ: باب في مؤخرته من الجهة الجنوبيَّة، وباب في الجهة الشَّرقيَّة، كان يدخل منه رسول الله ﷺ بإزاء باب بيت عائشة، وباب من الجهة الغربية، يقال له: باب الرَّحمة، أو باب عاتكة[796].

---

[792] أخرجه البخاري (3906).

[793] البخاري (428) ومسلم (524).

[794] نور اليقين، للخضري، ص (87، 88)، تاريخ خليفة بن خيَّاط، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب، النَّجف، 1967 م، ص 56، نقلاً عن تاريخ دولة الإسلام الأولى، فايد حمَّاد عاشور، سليمان أبو عزب، دار قطريِّ بن الفجاءة، الدَّوحة، الطَّبعة الأولى، 1409 هـ، 1989 م، ص 108.

[795] وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، لأبي الحسن بن عبد الله السَّمهودي، دار المصطفى، طبعة القاهرة 1326 هـ، (321/1).

[796] السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة، (258/1).

أ. بيوتات النَّبيِّ ﷺ التَّابعة للمسجد:

وبُني لرسول الله ﷺ حُجَرٌ حول مسجده الشَّريف؛ لتكون مساكن له، ولأهله، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك، والأكاسرة، والقياصرة؛ بل كانت بُيوتَ مَنْ تَرَفَّعَ عن الدُّنيا، وزخارفها، وابتغى الدَّار الآخرة، فقد كانت كمسجده مبينةً من اللَّبن، والطين، وبعض الحجارة، وكانت سقوفها من جذوع النَّخل، والجريد، وكانت صغيرة الفناء، قصيرة البناء، ينالها الغلام الفارع بيده. قال الحسن البصريُّ - وكان غلاماً مع أمِّه خيرة مولاة أمِّ سلمة -: «قد كنت أنال أول سقفٍ في حُجَرِ النَّبيِّ ﷺ بيدي»[797]. وهكذا كانت بيوت النَّبيِّ ﷺ في غاية البساطة، بينما كانت المدينة تشتهر بالحصون العالية، الَّتي كان يتَّخذها عِلْيَةُ القوم؛ تباهياً بها في السِّلم، واتقاءً بها في الحرب، وكانوا من تفاخرهم بها يضعون لها أسماء، كما كان حصن عبد الله بن أُبيِّ ابن سلول اسمه: (مزاحم)، وكما كان حصن حسَّان بن ثابت رضي الله عنه اسمه: (فارع).

إنَّ النبي ﷺ بنى بيوته بذلك الشَّكل المتواضع، وكان باستطاعته أن يبني لنفسه قصوراً شاهقةً، ولو أنَّه أشار إلى رغبته بذلك مجرَّد إشارةٍ، لسارع الأنصار في بنائها له، كما كان بإمكانه أن يشيدها من أموال الدَّولة العامَّة؛ كالفيء، ونحوه، ولكنه ﷺ لم يفعل ذلك؛ ليضرب لأمتِّه مثلاً رفيعاً، وقدرةً عاليةً في التَّواضع والزُّهد في الدُّنيا، وجمع الهمَّة، والعزيمة للعمل لما بعد الموت[798].

ب. الأذان في المدينة[799]:

تشاور رسول الله ﷺ مع أصحابه لإيجاد عملٍ ينبِّه النَّائم، ويدرك السَّاهي، ويُعلِم النَّاس بدخول الوقت لأداء الصَّلاة، فقال بعضهم: نرفع راية إذا حان وقت الصَّلاة ليراها النَّاس،

---

(797) نظام الحكومة النَّبويَّة المسمَّى: التَّراتيب الإداريَّة، لمحمَّد عبد الحيِّ الكتَّاني، دار الأرقم، بيروت، لبنان، الطَّبعة الثَّانية، (474/1).

(798) الفتاوى، ابن تيمية، دار الكتب العلمية، 2006م، (38/11).

(799) فتح الباري، في شرح حديث رقم (3581).

فاعترضــوا على هذا الرأي؛ لأنَّها لا تفيد النَّائم، ولا الغافل، وقال آخرون: نُشــعل ناراً على مرتفع من الهضـاب، فلم يُقبل هذا الرّأي أيضـاً، وأشـار آخرون ببوقٍ – وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم – فكرهه الرَّسول ﷺ ؛ لأنه يحبُّ مخالفة أهل الكتاب في أعمالهم، وأشار بعضُ الصَّحابة باستعمال النَّاقوس – وهو ما يستعمله النَّصارى – فكرهه الرَّسول ﷺ أيضاً، وأشار فريقٌ بالنِّداءِ، فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها، فقُبل هذا الرَّأي، وكان أحد المنادين عبدَ الله بن زيدٍ الأنصاريّ، فبينما هو بين النَّائم واليقظان؛ إذ عرض له شخصٌ وقال: ألا أعلمك كلماتٍ تقولها عند النِّداء بالصَّــلاة؟ قال: بلى! فقال له: قل: الله أكبر مرَّتين، وتشـهَّد مرَّتين، ثمَّ قل: حيَّ على الصَّــلاة مرَّتين، ثمَّ قل: حيَّ على الفلاح مرَّتين، ثمَّ كبِّر ربَّك مرَّتين، ثمَّ قل: لا إله إلا الله. فلما اســتيقظ توجَّه إلى الرَّســول ﷺ، وأخبره خبر رؤياه، فقال: إنَّها لرؤيا حقٍّ، ثمَّ قال له: لَقِّنْ بلالاً؛ فإنَّه أندى صوتاً منك.

وبينما بلالٌ يؤذِّن للصَّلاة بهذا الأذان؛ جاء عمر بن الخطَّاب يجرُّ رداءه، فقال: والله لقد رأيت مثله يا رســول الله! وكان بلال بن رباح أحد مؤذِّنيه بالمدينة، والآخر عبد الله بنُ أمِّ مكتومٍ، وكان بلال يقول في أذان الصُّــبح بعد (حيَّ على الفلاح): الصَّــلاة خيرٌ من النَّوم مرَّتين، وأقرَّه الرَّسـول ﷺ على ذلك، وكان يُؤذِّن في البداءة من مكانٍ مرتفعٍ، ثمَّ اسـتُحدثت المنارة (الْمئذَنة)[800].

ج. أوَّل خطبةٍ خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة:

كانت أوَّل خطبةٍ خطبها رســولُ الله ﷺ بالمدينة: أنه قام فيهم، فحمِدَ الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثمَّ قال: «أمَّا بعد: أيُّها النَّاسُ! فقدموا لأنفسكم. تعلمُنَّ والله لَيُصْعَقَنَّ أحدُكم، ثمَّ لَيَدَعَنَّ غَنَمَهُ ليس لها راعٍ، ثمَّ ليقولنَّ له ربُّه؛ وليس له ترجمانٌ، ولا حاجبٌ يحجبه دونه: ألم يأتك رسـولي، فبلَّغك؟! وآتيتك مالاً، وأفضـلت عليك، فما قدَّمت لنفسـك؟ فَلَيَنْظُرَنَّ يميناً،

[800] أخرجه أحمد (43/4) وأبو داود (499) والترمذي (189) وابن ماجه (706) وابن حبان (1679).

وشمالاً، فلا يرى شيئاً، ثمَّ لينظرنَّ قُدَّامه، فلا يرى غير جهنَّم؛ فمن استطاع أن يقي وجهه من النَّار ولو بشقٍّ من تمرةٍ فليفعل، ومن لم يجد؛ فبكلمةٍ طيِّبةٍ؛ فإنَّ بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعفٍ. والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[801].

ثمَّ خطب رسـول الله ﷺ مرَّةً أخرى، فقال: «إنَّ الحمد لله، أحمده، وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيِّئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. إنَّ أحسنَ الحديث كتابُ الله تبارك وتعالى. قد أفلح من زَيَّنَهُ الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث النَّاس، إنَّه أحســن الحديث، وأبلغه، أَحِبُّوا من أحبَّ اللهُ، أَحِبُّوا الله من كلِّ قلوبكم، ولا تَمَلُّوا كلام الله وذكرَهُ، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم؛ فإنَّه من كلِّ ما يخلق الله يختار، ويصــطفي، قد سمَّاه الله خيرتَه من الأعمال، ومُصـطفاه من العباد، والصَّـالح من الحديث، ومن كلِّ ما أوتي النَّاس الحلالُ والحرامُ، فاعبدوا الله، ولا تشـركوا به شـيئاً، واتَّقوه حقَّ تقاته، واصْـدُقوا الله صـالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابُّوا بروح الله بينكم، إنَّ الله يغضب أن يُنْكَثَ عهده، والسَّلام عليكم».

د. الصُّفَّة التَّابعة للمسجد النَّبويِّ:

لــمَّا تمَّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرَّفة بأمر الله تعالى، وذلك بعد ستة عشـر شــهراً من هجرته ﷺ إلى المدينة[802]، بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المســجد النبوي، فأمر النبي ﷺ به، فظلِّل، أو سقف، وأطلق عليه اسم (الصُّفَّة) أو (الظُّلَّة)، ولم يكن له ما يسترُ جوانبه.

قال القاضي عياض: الصُّفَّة ظُلَّةٌ في مؤخرة مسجد رسول الله ﷺ، يأوي إليها المساكين، وإليها يُنسب أهل الصُّفَّة.

---

[801] أخرجه البيهقي في الدلائل (524/2) وابن هشام (146/2).

[802] أخرجه البخاري (40) ومسلم (545).

وقال ابن تيميَّة: الصُّـفَّة كانت في مؤخرة مسـجد النَّبيِّ ﷺ، في شمالي المسـجد بالمدينة المنوَّرة.

وقال ابن حَجَرٍ: الصُّـفَّة مكانٌ في مؤخَّر المسـجد النَّبويِّ مظلَّلٌ، أُعدَّ لنزول الغرباء فيه، ممَّن لا مأوىً له، ولا أهل[803].

- أهل الصُّفَّة:

قال أبو هريرة رضـي الله عنه: «وأهلُ الصُّـفَّة أضيافُ الإسـلام، لا يأوون إلى أهلٍ، ولا مالٍ، ولا على أحدٍ»[804].

إنَّ المهاجرين الأوائل، الَّذين هاجروا قبل النَّبيِّ ﷺ، أو معه، أو بعده؛ حتَّى نهايـة الفترة الأولى قبل غزوة بدرٍ، اسـتطاع الأنصـار أن يسـتضـيفوهم في بيوتهم، وأن يشـاركوهم النَّفقة، ولكن فيما بعد كبر حجم المهاجرين، فلم يعد هناك قدرةٌ للأنصـار على اسـتيعابهم[805]؛ فقد «صـار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شـيئاً بعد شـيءٍ؛ فإنَّ الإسـلام صـار ينتشـر، والنَّاس يدخلون فيه، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء، والأغنياء، والآهلين، والعُزَّاب، فكان مَنْ لم يتيسَّر له مكانٌ يأوي إليه، يأوي إلى تلك الصُّفَّة في المسجد»[806].

والَّذي يظهر للباحث: أنَّ المهاجر الَّذي يقدم إلى المدينة كان يلتقي بالرَّسـول ﷺ، ثمَّ يوجهه بعد ذلك إلى مَنْ يكفله، فإن لم يجد فإنَّه يسـتقرُّ في الصُّـفَّة مؤقتاً، ريثما يجدُ السَّبيل[807]؛ فقد جاء في المسند عن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: «كان رسول

---

[803] فتح الباري (738/6).

[804] أخرجه البخاري (6452).

[805] السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّة وبناء دولة، للشَّامي، ص 175.

[806] الفتاوى، (40/11، 41).

[807] السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ، وبناء دولةٍ، لصالح أحمد الشَّامي، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الأولى، 1412هـ، 1992م، ص 175.

الله ﷺ يُشغل، فإذا قدم رجلٌ مهاجرٌ على رسول الله ﷺ، دفعه إلى رجلٍ منّا يعلّمه القرآن، فدفع إليَّ رسولُ الله ﷺ رجلاً، وكان معي في البيت، أُعشّيه عشاء أهل البيت، فكنت أُقرئه القرآن»[808]. وقد كان أول مَنْ نزل الصُّفة المهاجرون[809]؛ لذلك نسبت إليهم، فقيل: (صُفَّة المهاجرين)[810]، وكذلك كان ينزل بها الغرباء من الوفود، الَّتي كانت تقدم على النَّبيِّ ﷺ معلنةً إسلامَها، وطاعتها[811]، وكان الرَّجل إذا قدم على النَّبيِّ ﷺ وكان له عريفٌ؛ نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف؛ نزل مع أصحاب الصُّفَّة[812]، وكان أبو هريرة رضي الله عنه عَرِيفَ مَنْ سَكَنَ الصُّفَّة من القاطنين، ومَنْ نزلها من الطَّارقين، فكان النَّبيُّ ﷺ إذا أراد دعوتهم، عهد إلى أبي هريرة، فدعاهم؛ لمعرفته بهم، وبمنازلهم، ومراتبهم في العبادة، والمجاهدة[813]. ونزل بعض الأنصار في الصُّفَّة؛ حبّاً لحياة الزُّهد، والمجاهدة، والفقر، برغم استغنائهم عن ذلك، ووجود دارٍ لهم في المدينة؛ ككعب بن مالك الأنصاريِّ، وحنظلة بن أبي عامرٍ الأنصاري (غسيل الملائكة)، وحارثة بن النُّعمان الأنصاريِّ، وغيرهم[814].

- نفقة أهل الصُّفَّة، ورعاية النَّبيِّ ﷺ والصَّحابة لهم:

كان النَّبيُّ ﷺ يتعهّد أهل الصُّفَّة بنفسه، فيزورهم، ويتفقّد أحوالَهم، ويعود مرضاهم، كما كان يكثر مجالستهم، ويرشدهم، ويواسيهم، ويذكِّرهم، ويعلِّمهم، ويوجِّههم إلى قراءة القرآن الكريم، ومدارسته، وذِكْرِ الله، والتَّطلُّع إلى الآخرة[815]، وكان ﷺ يُؤَمِّن نفقتهم بوسائل

---

(808) أخرجه أحمد (324/5).

(809) وفاء الوفا، للسَّمهودي، (323/1).

(810) سنن أبي داود، للإمام أبي داود سليمان السِّجستانيِّ، تحقيق وتعليق عزَّت الدَّعاس، سورية، 1391هـ، (361/2).

(811) السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة، (258/1).

(812) السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة، المصدر السابق، (259/1).

(813) السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (259/1).

(814) السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة، المصدر السابق، (259/1).

(815) السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (266/1).

متعدِّدةٍ، ومتنوعةٍ؛ منها:

- «إذا أتته ﷺ صدقةٌ؛ بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هديَّة، أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها»[816].

- كثيراً ما كان يدعوهم إلى تناول الطَّعام في إحدى حجرات أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهن، ولم يكن يغفل عنهم مطلقاً؛ بل كانت حالتُهم ماثلةً أمامه؛ فعن عبد الرَّحمن بن أبي بكرٍ رضي الله عنهما قال: إنَّ أصحاب الصُّفَّة كانوا أناساً فقراء، وإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال مرَّةً: «من كان عنده طعام اثنين؛ فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة؛ فليذهب بخامسٍ، أو سادسٍ - أو كما قال - وإنَّ أبا بكر جاء بثلاثةٍ، وانطلق النَّبيُّ ﷺ بعشرةٍ»[817]وعن يعيش بن طخفة بن قيس الغفاريِّ، قال: «كان أبي من أصحاب الصُّفَّة، فأمر رسولُ الله ﷺ بهم، فجعل الرَّجل ينقلب بالرَّجل، والرَّجل بالرَّجلين؛ حتَّى بقيت خامس خمسة، فقال رسول الله ﷺ: «انطلقوا»، فانطلقنا معه إلى بيت عائشة»[818].

- وكان ﷺ يطلب من النَّاس أن يوجِّهوا صدقاتهم إليهم؛ فقد جاء في المسند: أنَّ فاطمة لـمَّا ولدت الحسن؛ طلب منها ﷺ أن تحلق رأسه، وتتصدَّق بوزن شعره من فضَّة، على أهل الصُّفَّة[819].

- وقد كان ﷺ يقدِّم حاجتهم على غيرها ممَّا يطلب منه؛ فقد أُتي بسَبْيٍ مرَّةً، فأتته فاطمة رضي الله عنها تسأله خادماً، فكان جوابه - كما في المسند عند الإمام أحمد -: «والله! لا أعطيكما، وأدَعُ أهل الصُّفَّة تُطْوى بطونُهم من الجوع، لا أجد ما أنفق عليهم؛

---

[816] أخرجه البخاري (6452).

[817] أخرجه البخاري (3581) ومسلم (2057).

[818] أخرجه أحمد (4/429 - 430) والطيالسي (1339).

[819] أخرجه أحمد (6/390 - 391).

ولكن أبيعُهم، وأنفق عليهم أثمانَهم»[820].

– وقد أوصى النَّبيُّ ﷺ الصَّحابة بالتَّصدُّق على أهل الصُّفَّة[821]، فجعلوا يَصلُونهم بما استطاعوا مِنْ خيرٍ، فكان أغنياء الصَّحابة يبعثون بالطَّعام إليهم[822].

– انقطاعهم للعلم، والعبادة، والجهاد:

كان أهل الصُّفَّة يعتكفون في المسجد للعبادة، ويألفون الفقر، والزُّهد، فكانوا في خلواتهم يصلُّون ويقرؤون القرآن، ويتدارسون آياته، ويذكرون الله تعالى، ويتعلَّم بعضهم الكتابة، حتَّى أهدى أحدُهم قوسَه لعبادة بن الصَّامت رضي الله عنه؛ لأنَّه كان يعلمهم القرآن، والكتابة[823]. واشتهر بعضهم بالعلم، وحفظ الحديث عن النَّبيِّ ﷺ ؛ مثل أبي هريرة رضي الله عنه، الَّذي عُرِف بكثرة تحديثه، وحُذَيفة بن اليمان، الذي اهتم بأحاديث الفتن.

وكان أهل الصُّفة يشاركون في الجهاد؛ بل كان منهم الشُّهداء ببدرٍ؛ مثل صفوان ابن بيضاء، وخريم بن فاتك الأسديّ، وخبيب بن يساف، وسالم بن عُمير، وحارثة بن النُّعمان الأنصاريّ[824]، ومنهم من استشهد بأحدٍ؛ مثل حنظلة الغسيل، ومنهم من شهد الحديبية؛ مثل جرهد بن خويلد، وأبو سريحة الغفاري[825]، ومنهم من استشهد بخيبر؛ مثل ثقيف بن عمرو[826]، ومنهم من استشهد بتبوك؛ مثل عبد الله (ذو البِجادَين)، ومنهم من استشهد باليمامة؛ مثل سالم مولى أبي حذيفة، وزيد بن الخطاب، فكانوا رهباناً باللَّيل، فُرْساناً في النَّهار.

[820] أخرجه البخاري (3113).

[821] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (267/1).

[822] الحلية (378/1).

[823] سنن أبي داود، (237/2)، وابن ماجه، (730/2).

[824] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (264/1).

[825] الحلية (355/1).

[826] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (264/1).

وكان بعض الصَّحابة قد اختاروا المكوث في الصُّفَّة رغبةً منهم لا اضطراراً؛ كأبي هريرة رضي الله عنه، فقد أحبَّ أن يلازم رسول الله ﷺ، ويعوِّضَ ما فاته من العلم، والخير - فقد جاء إلى المدينة بعد فتح خيبر في العام السَّابع - وحرص على سماع أكبر قدرٍ ممكنٍ من حديثه ﷺ، ومعرفة أحواله، وتبرُّكاً بخدمته ﷺ، وهذا لا يتوافر له إلا إذا كان قريباً من بيت النَّبيِّ ﷺ، فكانت الصُّفة هي المكان الوحيد الَّذي يؤمِّن له ذلك، ولنستمع إليه يوضِّح لنا ذلك، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «إنَّكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يُكْثِرُ الحديث عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما بالُ المهاجرين، والأنصار لا يُحَدِّثُون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبي هريرة؟! وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان يَشغَلُهُم الصَّفْقُ بالأسواق، وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأشهدُ إذا غابوا، وأحفظ إذا نَسُوا، وكان يَشْغَلُ إخوتي من الأنصار عملُ أموالهم، وكنت امرأً مسكيناً من مساكين الصُّفَّة، أعي حين يَنْسَون»(827).

وهكذا يوضِّح رضي الله عنه: أنه فعل ذلك رغبةً منه في ملازمة النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ إنَّ أبا هريرة كان له سكنٌ في المدينة، وهو المكان الَّذي تسكنه أمُّه، والَّتي طلب من النَّبيِّ ﷺ أن يدعو لها بالهداية(828).

ثمَّ إنَّ أبا هريرة رضي الله عنه لم يكن فقيراً مُعْدماً، ففي أوَّل يومٍ قدم فيه على النَّبيِّ ﷺ في خيبر أسهم له ﷺ من الغنيمة، كما أنَّه لـمَّا قدم كان معه عبدٌ يخدمه - كما ورد في الصَّحيح - (829)؛ وإذاً فالَّذي أفقره هو إيثاره ملازمة النَّبيِّ ﷺ، واستماع أحاديثه، وكان يستطيع الاستغناء عن الصُّفَّة لو أراد.

كان أهل الصُّفَّة يكثرون، ويقلُّون بحسب تبدُّل الأحوال الَّتي تحيط بأهل الصُّفَّة؛ من

(827) أخرجه البخاري (2047) ومسلم (2492).

(828) أخرجه مسلم (2491) وأحمد (320/2).

(829) السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّة وبناء دولة، ص 184.

عودة الأهل، أو زواجٍ، أو يُسرٍ بعد عُسْر، أو شهادةٍ في سبيل الله.

ولم يكن فقرهم لقعودهم عن العمل، وكسب الرّزق، فقد ذكر الزَّمخشريُّ: أنهم كانوا يرضخون النَّوى بالنَّهار، ويظهر: أنَّهم كانوا يرضخون النَّوى - يكسرونه - لعلف الماشية، وهم ليسوا أهل ماشية، فهم إذاً يعملون لكسب الرِّزق[830].

هـ. فوائد ودروس وعبر:

- المسجد من أهمِّ الركائز في بناء المجتمع:

إنَّ إقامة المساجد من أهمِّ الرَّكائز في بناء المجتمع الإسلاميِّ؛ ذلك أنَّ المجتمع المسلم إنَّما يكتسب صفة الرُّسوخ، والتَّماسك بالتزام نظام الإسلام، وعقيدته، وآدابه، وإنَّما ينبع ذلك من رُوح المسجد، ووحيه[831].

قال تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: 108]، وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ **[النور: 36-38]**.

- المسجد رمزٌ لشموليَّة الإسلام:

- حيث «أُنشئ ليكون متعبَّداً لصلاة المؤمنين، وذكرهم لله تعالى، وتسبيحهم له، وتقديسهم إيَّاه بحمده، وشكره على نعمه عليهم، يدخله كلُّ مسلمٍ، ويقيم فيه صلاته، وعبادته، ولا يضارُّه أحدٌ ما دام حافظاً لقداسته، ومؤدِّياً حقَّ حرمته»[832].

---

[830] المدينة النَّبوية، فجر الإسلام، والعصر الرَّاشدي، لمحمد حسن شراب، دار القلم، دمشق، الدّار الشَّامية، بيروت، الطَّبعة الأولى، 1415 هـ، 1994 م، (222/1).

[831] فقه السيرة، للبوطي، ص 203.

[832] محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصادق عرجون، (33/3).

- كما «أنشئ المسجد ليكون ملتقى رسول الله ﷺ بأصحابه، والوافدين عليه؛ طلباً للهداية، ورغبةً في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته»[1].

- «وهو قد أنشئ ليكون جامعةً للعلوم، والمعارف الكونيَّة، والعقليَّة، والتَّنزليَّة، الَّتي حثَّ القرآن الكريم على النَّظر فيها، وليكون مدرسةً يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم، وثمرات عقولهم، ومعهداً يَؤُمُّهُ طلاب العلم من كلِّ صوبٍ؛ ليتفقهوا في الدِّين، ويرجعوا إلى قومهم مبشِّرين، ومنذرين، داعين إلى الله هادين، يتوارثونها جيلاً بعد جيلٍ»[1].

- وهو «قد أنشئ؛ ليجد فيه الغريب مأوىً، وابن السَّبيل مستقراً، لا تكدِّره منَّةُ أحدٍ عليه، فينهل من رِفْدِه، ويعبُّ من هدايته ما أطاق استعداده النَّفسيُّ، والعقليُّ، لا يصدُّه أحدٌ عن علمٍ، أو معرفةٍ، أو لونٍ من ألوان الهداية، فكم من قائد تخرَّج فيه، وبرزت بطولتُه بين جدرانه! وكم من عالمٍ استبحر علمُه في رحابه، ثمَّ خرج به على النَّاس يروي ظمأهم للمعرفة! وكم من داعٍ إلى الله تلقَّى في ساحاته دروس الدَّعوة إلى الله، فكان أسوة الدُّعاة، وقدوة الهداة، وريحانةً جَذَبَ القلوبَ شَذَاها، فانجفلت إليها تأخذ عنها الهداية؛ لتستضيء بأنوارها!

وكم من أعرابيٍّ جلفٍ لا يفرِّق بين الأحمر، والأصفر وفد عليه، فدخله، ورأى أصحابَ رسول الله ﷺ حوله هالةً تحفُّ به، يسمعون منه؛ وكأنَّ على رؤوسهم الطَّير، فسمع معهم، وكانت عنده نعمة العقل مخبَّأةً تحت ستار الجهالة، فانكشف له غطاء عقله، فعقل، وفَقِهَ، واهتدى، واستضاء، ثمَّ عاد إلى قومه إماماً يدعوهم إلى الله، ويربِّيهم بعلمه الَّذي علم، وسلوكه الَّذي سلك، فآمنوا بدعوته، واهتدوا بهديه، فكانوا سطراً منيراً في كتاب التَّاريخ الإسلاميِّ!»[833].

5- وهو «قد أُنشئ ليكون قلعةً لاجتماع المجاهدين إذا استُنفروا، تعقد فيه ألوية

[833] محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصَّادق عرجون، (3/34، 35).

الجهاد، والدَّعوة إلى الله، وتخفق فيـه فوق رؤوس القادة الرَّآيات، للتوجُّـه إلى مواقع الأحداث، وفي ظلِّها يقف جند الله في نشوة ترقُّب النَّصر، أو الشَّهادة»[1].

– وهو «قد أُنشـــئ؛ ليجد فيه المجتمع المســـلم الجديد ركناً في زواياه، ليكون مشـــفىً يســـتشـــفي فيه جرحى كتائب الجهاد؛ ليتمكن نبيُّ الله ﷺ من عيادتهم، والنَّظر في أحوالهم، والاستطباب لهم، ومداواتهم في غير مشقَّةٍ، ولا نَصَبٍ؛ تقديراً لفضلهم»[1].

– «وهو قد أُنشئ ليكون مركزاً لبريد الإسلام؛ منه تصدر الأخبار، ويُبْرَدُ البريد، وتصدر الرَّســـائل، وفيه تُتلقَّى الأنباء السِّياسيَّـــة سلماً، أو حربـــاً، وفيه تُتلقى وتُقرأ رسائل البشائر بالنَّصر، ورسائل طلب المدد، وفيه يُنعى المستشهدون في معارك الجهاد؛ ليتأسَّى بهم المتأسُّون، وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون»[1].

– «وهو قد أُنشئ ليكون مرقباً للمجتمع المسلم؛ يتعرَّف منه على حركات العدو المريبة، ويراقبها، ولا سيَّما الأعداء الَّذين معه يساكنونه، ويخالطونه في بلده؛ من شراذم اليهود، وزُمَر المنافقين، ونفايات الوثنيَّة، الذين انغمسوا في الشِّرك، فلم يتركوه، ليتجنَّب المجتمع المسلم عاقبة كيدهم، وسوء مكرهم، وتدبيرهم، ويأمن مغَبَّةَ[834]غدرهم، وخياناتهم»[835].

فالمسجد النَّبويُّ «بدأ بتأسيسه وبنائه رسول الله ﷺ أوَّل ما بدأ من عملٍ في مستقرِّه، ودار هجرته في مطلع مقدمه؛ ليكون نموذجاً يُحتذَى به في بســـاطة المظهر، وعمق المخبر؛ ليحقِّق به أعظم الأهداف، وأعمَّها بأقلِّ النفقات، وأيسر المشقَّات».

– التَّربية بالقدوة العمليَّة:

من الحقائق الثَّابتة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ شـــارك أصـــحابه العمل، والبناء، فكان يحمل الحجارة،

[834] المغَبَّةُ من كلِّ شيءٍ: عاقبتُه، واخرُه.

[835] محمَّدٌ رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصَّادق عرجون، (36/3).

وينقل اللَّبن على صـــدره، وكتفيه، ويحفر الأرض بيديه كأيِّ واحدٍ منهم، فكان مثال الحاكم العادل، الَّذي لا يفرِّق بين رئيسٍ ومرؤوسٍ، أو بين قائدٍ ومقودٍ، أو بين سيِّد ومسودٍ، أو بين غنيٍّ، وفقيرٍ؛ فالكلُّ ســواســيةٌ أمام الله، لا فرق بين مســلمٍ وآخر إلا بالتَّقوى، ذلك هو الإســلام: عدالةٌ، ومسـاواةٌ في كلِّ شـيءٍ، والفضـل فيه يكون لصـاحب العطاء في العمل الجماعيِّ للمصلحة العامَّة، وبهـذا الفضل ثوابٌ من الله، والرَّسول ﷺ كغيره من المسلمين، لا يطلب إلا ثــواب الله[836]؛ فقد كانت مشاركة النَّبيِّ ﷺ في عملية البناء ككلِّ العمال الَّذين شاركوا فيه، وليس بِقَطْعِ الشَّريط الحريريِّ فقط، وليس بالضَّربة الأولى بالفأس فقط؛ بل غاص بعملية البناء كاملةً، وقد دُهِشَ المســلمون من النَّبيِّ ﷺ ؛ وقد عَلَتْهُ غَبَرةٌ، فتقدَّم أُسَـيد بن حُضَـير رضـي الله عنه؛ ليحمل عن رسـول الله ﷺ، فقال: يا رسـول الله! أعطنيه! فقال: «اذهب فاحتمل غيره؛ فإنَّك لســت بأفقرَ إلى الله منِّي»[837]، وقد سمع المســلمون ما يقول النَّبيُّ ﷺ لصاحبه، فازدادوا نشاطاً، واندفاعاً في العمل[838].

إنَّه مشـــهدٌ فريدٌ من نوعه، ولا مثيل له في دنيا النَّاس، وإذا كان الزُّعماء، والحكَّام قد يقدمون على المشـاركة أحياناً بالعمل؛ لتكون شـاشـات التِّلفزيون جاهزةً لنقل أعمالهم، وتملأ الدُّنيا في الصُّـحف، ووسـائل الإعلام كلِّها، بالحديث عن أخلاقهم، وتواضـعهم؛ فالنَّبيُّ ﷺ ينازع الحجرَ أحدَ أفراد المسلمين، ويبيِّن له: أنَّه أفقر إلى الله تعالى، وأحرص على ثوابه منه.

وقد تفاعل الصَّحابة الكرام تفاعلاً عظيماً في البناء، وأنشدوا هذا البيت:

لَـئِـنْ قَـعَـدْنَا والـنَّـبِيُّ يَـعْـمَـلُ فَذَاكَ مِنَّا العَمَلُ المضَـــلَّلُ[839]

---

[836] التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ لدولة المدينة في عهد الرَّسول(ﷺ)، استراتيجيَّة الرسول السِّياسيَّة والعسكريَّة، د. علي معطي، مؤسَّسة المعارف، بيروت، الطَّبعة الأولى، 1419 هـ 1998 م، ص 158.

[837] صورٌ من حياة الرَّسول(ﷺ)، لأمين دويدار، دار المعارف، القاهرة، الطَّبعة الرَّابعة، بدون تاريخ، ص 261.

[838] التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ، د. علي معطي، ص 158.

[839] السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام، (496/1)، وفتح الباري، وشرح حديث رقم (3906).

إنَّ هذه التَّربية العمليَّة لا تَتِمُّ من خلال الموعظة، ولا من خلال الكلام المنمَّق، إنَّما تتمُّ من خلال العمل الحيِّ الدَّؤُوب، والقدوةِ المصطفاة من ربِّ العالمين، والَّتي ما كان يمكن أن تتمَّ في أجواء مكَّة، والملاحقة، والاضطهاد، والمطاردة فيها، إنَّما تَتِمُّ في هذا المجتمع الجديد، والدَّولة الَّتي تُبنى، وكأنَّما غدا هذا الجمع من الصَّحابة الكرام كلُّه صوتاً واحداً، وقلباً واحداً، فمضى يهتف:

اللَّهُمَّ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخرهْ فانْصُرِ الأنصار وَالمهَاجِرَهْ

ويهتف بلحنٍ واحدٍ:

لَئِنْ قَعَدْنَا والنَّبِيُّ يَعْمَلُ فَذَاكَ مِنَّا العَمَلُ المضَلَّلُ

وكان الهُتاف الثَّالث:

هَذِي الحِمَالُ لاَ حِمَالُ خَيْبَرْ هَذَا أَبرُّ لِرَبِّنَا وأطْهَرْ

[840].

فحَمْلُ التَّمر، والزَّبيب من خيبر إلى المدينة كان له مكانةً عظيمةً في المجتمع المدنيِّ؛ لكنَّه أصبح لا يُذْكَرُ أمام حمل الطُّوب لبناء المسجد النَّبويِّ العظيم، فقد أيقنوا بقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ **[النحل: 96]**.

وأمَّا الهُتاف الرَّابع:

لاَ يَسْتَوي مَنْ يَعْمُرُ المسَاجِدَا يَدْأَبُ فِيْهَا قَائِماً وقَاعِدا
وَمَنْ يُرَى عَن الغُبَارِ حَائِدَا

[841].

- الاهتمام بالخبرة والاختصاص:

أخرج الإمام أحمد عن طَلْق بن عليٍّ اليماميِّ الحنفيِّ، قال: بنيت المسجد مع رسول

---

[840] التَّربية القياديَّة، (249/2)، والبخاريُّ، حديث رقم (3906) وشرحه في فتح الباري.

[841] محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصادق عرجون، (15/3).

اللهﷺ، فكان يقول: «قرِّبوا اليماميَّ من الطِّين؛ فإنَّه أحسنكم له مسيساً»، وأخرج الإمام أحمد عن طلقٍ أيضاً قال: جئت إلى النَّبي ﷺ ؛ وأصحابه يبنون المسجد، وكأنَّه لم يعجبه عملهم، فأخذت المسحاة، فخلطت الطِّين، فكأنَّه أعجبه، فقال: «دعوا الحنفيَّ والطِّين؛ فإنَّه أضبطكم للطِّين»، وأخرج ابن حبَّان عن طلقٍ، قال: فقلت: يا رسولَ الله! أأنقل كما ينقلون؟ قال: «لا، ولكن اخلطْ لهمُ الطِّين؛ فأنت أعلم به»[842].

فقد اهتمَّ النَّبيُّ ﷺ بهذا الوافد الجديد على المدينة، والَّذي لم يكن من المسلمين الأوائل، ووظَّف خبرته في خلط الطِّين، وفي قوَّة العمل، وهو درسٌ للمسلمين في الثَّناء على الكفاءات، والاستفادة منها، وإرشادٌ نبويٌّ كريمٌ في كيفيَّة التعامل معها، وما أحوجَنَا إلى هذا الفهم العميق![843].

- شعار الدَّولة المسلمة:

إنَّ أذان الصَّلاة شعارٌ لأوَّل دولةٍ إسلاميَّة عالميَّةٍ: «الله أكبر، الله أكبر»: إنَّها تعني: أنَّ الله أكبر من أولئك الطُّغاة، وأكبر من صانعي العقبات، وهو الغالب على أمره.

«أشهد أن لا إله إلا الله» أي: لا حاكمية، ولا سيادة، ولا سلطة، إلا لله ربِّ العالمين، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾، فمعنى لا إله إلا الله: لا حاكم، ولا آمر، ولا مُشَرِّع، إلا الله.

«أشهد أنَّ محمداً رسول الله»: أسْلَمَهُ الله تعالى القيادة، فليس لأحدٍ أن ينزعها منه، فهو ماضٍ بها إلى أن يُكمل الله دينه بما ينزله على رسوله من قرآن، وبما يلهمه إيَّاه من سُنَّة[844]، ويعني الاعتراف لرسول الله بالرِّسالة، والزَّعامة الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، والسَّمع والطَّاعة له[845].

---

[842] محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصادق عرجون، (15/3).

[843] التَّربية القياديَّة، (252/2).

[844] قراءةٌ سياسيَّةٌ للسيرة النَّبويَّة، لمحمد قلعجي، ص 114.

[845] دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، لكامل سلامة الدَّقس، ص 438.

«حَيَّ على الصَّلاة.. حيَّ على الفلاح»: أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء هذه الدَّولة الَّتي أخلصت لله، وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين المسلم وخالقه، وتمتين العلاقة بين المؤمنين على أساسٍ من القيم السَّامية. «قد قامت الصَّلاة»: وقد اختيرت الصَّلاة من بين سائر العبادات؛ لأنَّها عماد الدِّين كلِّه، ولأنَّها بما فيها من الشَّعائر كالرُّكوع، والسُّجود، والقيام أعظم مظهرٍ لمظاهر «العبادة» بمعناها الواسع؛ الَّتي تعني: الخضوع، والتذلُّل، والاستكانة، فهي خضوعٌ ليس بعده خضوعٌ، فكلُّ طاعةٍ لله على وجه الخضوع، والتذلُّل عبادةٌ، فهي طاعة العبد لسيِّده، فيقف بين يديه قد أسلم نفسه طاعةً وتذلُّلاً.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 66].

وهذا الارتباط بين شعار الدَّولة الرَّسميِّ بحاكمية الله، وسيادة الشَّرع، وسقوط الطَّواغيت، وقوانينهم، وأنظمتهم، وشرائعهم، بـ «حيَّ على الفلاح... قد قامت الصَّلاة» يشير إلى أنَّه: لا قيام للصَّلاة، ولا إقامة لها كما ينبغي إلا في ظلِّ دولةٍ تقوم عليها، وتقوم بها، ولها، فقد كان المسلمون يصلُّون خِفْيَةً في شِعاب مكَّة قبل قيام دولتهم، أما وقد قامت تحت حماية سيوف الأنصار، فليجهروا بالأذان، والإقامة، وليركعوا ويسجدوا لله ربِّ العالمين.

إنَّ الواقع التَّاريخيَّ خيرُ شاهدٍ على أنَّ الله لا يُعْبَدُ في الأرض حقَّ عبادته، إلا في ظلِّ دولةٍ قويَّةٍ، تحمي رعاياها من أعداء الدِّين.

ثمَّ تتكرَّر كلمات الأذان: «الله أكبر... الله أكبر» للتأكيد على المعاني السَّابقة[846].

إنَّنا بحاجةٍ ماسَّةٍ لفهم الأذان، وإدراك معانيه، والعمل على ترجمته ترجمةً عمليَّةً؛ لنجاهد في الله حقَّ جهاده، حتَّى ندمِّر شعارات الكفر، ونرفع شعارات الإيمان، ونقيم دولة التَّوحيد،

---

(846) دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، المصدر السابق، ص 439.

الَّتي تحكم بشرع الله، ومنهجه القويم.

- حكم تشييد المساجد، ونقشها، وزخرفتها:

والتَّشييد: أن تقام عمارة المسجد بالحجارة، ممَّا يزيد في قوَّة بنائه، ومتانة سقفه وأركانه. والنَّقش، والزَّخرفة: ما جاوز أصل البناء من شتَّى أنواع الزِّينة.

فأمَّا التشييد: فقد أجازه، واستحسنه العلماء عامَّةً؛ بدليل ما فعله عمر، وعثمان رضي الله عنهما من إعادة بناء مسجده ﷺ؛ لأنَّ في ذلك عنايةً، واهتماماً بشعائر الله تعالى، واستدلَّ العلماء على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ **[التوبة: 108]**.

وأمَّا النَّقش، والزَّخرفة؛ فقد أجمع العلماء على كراهتهما، ثمَّ هم في ذلك بين محرِّمٍ، ومكرِّهٍ كراهةَ تنزيه؛ غير أنَّ الذين قالوا بالحرمة، والَّذين قالوا بالكراهة اتَّفقوا على أنَّه يحرم صرف المال الموقوف لعمارة المساجد على شيءٍ من الزَّخرفة، والنَّقش[847]. وكان أوَّلَ مَنْ زخرف المساجد الوليدُ بن عبد الملك بن مَرْوان، ومن يومها والنَّاس شرعوا يغالون في بناء المساجد، وزخرفتها، حتى أصبح بعضها من قبيل المتاحف، وكلُّ ذلك خارج عن هَدي النُّبوَّة[848]، فعندما زُخرفتِ المساجد، وخرجت عن نمط البساطة؛ الَّذي أرشد إليه النَّبيُّ ﷺ بخعَ الأسفُ نفوسَ المستضعفين، وتنافس في شهوات التَّزخرف الفارغون من عواصم الإيمان[849].

إنَّ الذين يهتمُّون بتعمير المساجد، وتشييدها، وينصرفون بكلِّ جهودهم إلى التَّفنُّن في تزيينها، ونقشها، وإضفاء مختلف مظاهر الأبَّهة عليها قد وقعوا في خطأ عظيمٍ؛ حتَّى إنَّ الداخل إليها لا يكاد يستشعر أيَّ معنىً من ذلِّ العبودية لله - عزَّ وجلَّ - وإنَّما يستشعر ما

[847] فقه السِّيرة النبوية، للبوطي، ص 145.

[848] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (33/2).

[849] محمَّدٌ رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصَّادق عرجون، (39/3).

ينطق به لسان حالها من الافتخار بما ارتقى إليه فنُّ الهندسة المعماريَّة، وفنون الزَّخرفة العربيَّة.

إنَّ الفقراء لم يعودوا يستطيعون أن يتهرَّبوا من مظاهر الإغراء الدُّنيويِّ إلى أيِّ جهةٍ، لقد كان في المساجد ما يعزِّي الفقير بفقره، ويخرجه من جوِّ الدُّنيا، وزخرفها إلى الآخرة، وفضلها، فأصبحوا يجدون حتَّى في مظهر هذه المساجد ما يذكِّرهم بزخارف الدُّنيا الَّتي حُرموها، ويشعرهم بنكد الفقر، وأوضاره، فما أسوأ ما وقع فيه المسلمون من هجران لحقائق إسلامهم، وانشغالٍ بمظاهر كاذبةٍ، ظاهرها الدِّين، وباطنها الدُّنيا بكلِّ ما فيها من شهواتٍ، وأهواءٍ![850].

- فضائل المسجد النَّبويِّ:

تحدَّث النَّبيُّ ﷺ عن فضائل المسجد النَّبويِّ؛ ولذلك تعلَّق الصَّحابة به. ويمكننا تلخيص هذه الفضائل في الاتي:

- تأسيس المسجد النَّبويِّ على التَّقوى:

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه، قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله! أيُّ المسجدينِ الَّذي أُسِّسَ على التَّقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حَصْبَاء، فضرب به الأرض، ثمَّ قال: «هو مسجدكم هذا»[851] لمسجد المدينة.

وقد تكلَّم بعض العلماء، في الأحاديث الَّتي أشارت إلى أنَّ المسجد النَّبويَّ هو الَّذي أُسِّس على التَّقوى؛ بحجَّة أنَّها معارضةٌ لقوله تعالى: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ **[التوبة: 108]** .

وقد اختلف العلماء في المراد بالمسجد الَّذي أسس على التَّقوى في الآية السَّابقة، فقال

---

[850] فقه السِّيرة النَّبويَّة، للبوطي، ص 146.

[851] أخرجه مسلم (1398) والترمذي (3099) والنسائي (36/2) وأحمد (8/3).

بعضهم: هو مسجد النَّبيِّ ﷺ، وقال آخرون: هو مسجد قُباء، وقد ذكر أقوالهم محمَّدُ بن جريرٍ الطَّبريُّ في تفسيره، ثمَّ قال: «وأولى القولين في ذلك عندي بالصَّواب، قول مَنْ قال: هو مسجد الرَّسول ﷺ؛ لصحَّة الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ »[852].

ولا معارضة بين الحديث والآية السَّابقة على القول بأنَّ المراد بالمسجد الَّذي أُسِّس على التَّقوى فيها هو مسجد قُباء؛ لأنَّ كلاً من المسجدين أُسِّس على التَّقوى[853]. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة: أنَّ الآية السَّابقة نزلت بسبب مسجد قُباء، ثمَّ قال: «لكن الحكم يتناوله، ويتناول ما هو أحقُّ منه بذلك، وهو مسجد المدينة، وهذا يوجِّه ما ثبت في الصَّحيح عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه سئل عن المسجد الذي أُسِّس على التَّقوى، فقال: «هو مسجدي هذا»[854].

وقال في موضع آخر: «... فتبيَّن أنَّ كلا المسجدين أُسِّس على التَّقوى، لكن مسجد المدينة أكمل في هذا النَّعت، فهو أحقُّ بهذا الاسم، ومسجد قُباء كان سبب نزول الآية»[855].

وذكر الحافظ ابن حجرٍ: أنَّ السِّرَّ في جوابه ﷺ بأنَّ المسجد الَّذي أُسِّس على التَّقوى مسجده رفعُ توهم أنَّ ذلك خاصٌّ بمسجد قُباء[856].

- فضل الصَّلاة في المسجد النَّبويِّ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا، خيرٌ

---

[852] تفسير الطَّبري، (14/476. 479).

[853] الأحاديث الواردة في فضائل المدينة لصالح الرِّفاعي، دار الخضيري، المدينة، الطَّبعة الثالثة، 1418 هـ، ص 372.

[854] منهاج السُّنَّة النَّبويَّة، (7/74).

[855] مجموع الفتاوى، (27/406).

[856] فتح الباري، (7/245).

من ألفِ صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجد الحرامَ»[857].

- أحد المساجد الثَّلاثة الَّتي لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إليها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيّ ﷺ: أنَّه قال: «لا تُشَدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: «المسجد الحرام، ومسجد الرَّسول ﷺ، ومسجد الأقصى»[858].

- الرَّوضة في المسجد النَّبويّ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيّ ﷺ قال: «ما بين بيتي ومِنْبري روضةٌ من رياض الجنَّة، ومنبري على حوضي»[859].

- فضل التَّعلُّم والتَّعليم في المسجد النَّبويّ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ دخل مسجدنا هذا؛ يتعلَّم خيراً، أو يعَلِّمه؛ كان كالمجاهد في سبيل الله، ومَنْ دخله لغير ذلك؛ كان كالنَّاظر إلى ما ليس له»[860].

- آيةٌ نزلت في أهل الصُّفَّة وفقراء المهاجرين:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ **[البقرة: 273]**.

ذكر ابن سعدٍ بسنده إلى ابن كعبٍ القرظيِّ، قال: هُمْ أصحاب الصُّفَّة[861]. وذكر

[857] أخرجه البخاري (1190) ومسلم (1394/506 و507).

[858] أخرجه البخاري (1189) ومسلم (1397/511).

[859] أخرجه البخاري (1196) ومسلم (1391).

[860] أخرجه أحمد (2/350) وابن ماجه (227) والحاكم (1/91).

[861] الطَّبقات الكبرى، لابن سعدٍ، (1/255).

الطَّبريُّ بأسانيده عن مجاهدٍ والسُّدِّيِّ: أنَّها في فقراء المهاجرين[862].

إنَّ الأحداث الَّتي تتعلَّق بالدِّعامة الأولى في المجتمع كثيرةٌ، وكذلك ما يتعلَّق بها من أحكام؛ كضمان حقوق الأيتام، وجواز نبش القبور الدَّارسة، واتِّخاذ موضعها مسجداً إذا نظفت، وطابت أرضُها، إلاَّ أنني أكتفي بهذه الدُّروس، والعبر، والفوائد فيما يتعلَّق بالمسجد؛ خوفاً من الإطالة.

2. المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار (الأخوة كقيمة إنسانية عليا في الإسلام):

كان مِنْ أولى الدَّعائم الَّتي اعتمدها الرَّسول ﷺ في برنامجه الإصلاحيِّ والتَّنظيميِّ للأمَّة، وللدَّولة، والحكم، الاستمرار في الدَّعوة إلى التَّوحيد، والمنهج القرآنيّ، وبناء المسجد، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهي خطوةٌ لا تقلُّ أهمِّيَّةً عن الخطوة الأولى في بناء المسجد؛ لكي يتلاحم المجتمع المسلم، ويتآلف، وتتَّضح معالم تكوينه الجديد[863].

كان مبدأ التَّآخي العام بين المسلمين قائماً، منذ بداية الدَّعوة في عهدها المكِّيِّ، ونهى الرَّسول ﷺ عن كلِّ ما يؤدِّي إلى التَّباغض بين المسلمين، فقال ﷺ: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تَدَابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيَّامٍ»[864]، وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلِمُهُ، ولا يُسْلِمُهُ[865]، ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلمٍ كربة[866]، فرَّج الله - عزَّ وجلَّ - عنه كربةً

---

[862] تفسير الطَّبري، (591/5)، والسِّيرة النَّبوية الصَّحيحة، للعمري، (269/1).

[863] الإدارة الإسلاميَّة في عصر عمر بن الخطَّاب، د. فاروق مجدلاوي، دار مجدلاوي، عمَّان، الطَّبعة الثَّانية، 1418 هـ 1998 م، ص 52، 53

[864] أخرجه البخاري (6065 و6076) ومسلم (2559).

[865] أي: لا يتركه مع مَنْ يؤذيه، ولا فيما يؤذيه؛ بل ينصره، ويدفع عنه.

[866] كربة: أي: غمة.

من كُرُبات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة»[867].

وقد أكَّد القرآن الكريم الأُخوَّة العامَّة بين أبناء الأمَّة، في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ **[آل عمران: 103]**، وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ **[الأنفال: 63]**.

أمَّا موضوع هذا البحث، فهو المؤاخاة الخاصَّة؛ الَّتي شُرِعت، وترتبت عليها حقوقٌ، وواجباتٌ أخصُّ من الحقوق، والواجبات العامَّة بين المؤمنين كافَّةً[868].

وقد تحدَّث بعض العلماء عن وجود مؤاخاةٍ كانت في مكَّة بين المهاجرين، فقد أشار البلاذري إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ آخى بين المسلمين في مكَّة قبل الهجرة على الحقِّ، والمواساة، فآخى بين حمزة، وزيد بن حارثة، وبين أبي بكرٍ، وعمر، وبين عثمان بن عفَّان وعبد الرَّحمن بن عوف، وبين الزُّبير بن العوَّام، وعبد الله بن مسعودٍ، وبين عبيدة بن الحارث، وبلالٍ الحبشيِّ، وبين مصعب بن عميرٍ، وسعد ابن أبي وقَّاصٍ، وبين أبي عبيدة بن الجرَّاح، وسالمٍ مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وطلحة بن عبيد الله، وبينه وبين عليِّ بن أبي طالب[869] وَيُعَدُّ البلاذريُّ (ت 276 هـ) أقدم مَنْ أشار إلى المؤاخاة المكِّيَّة، وقد تابعه في ذلك ابن عبد البرِّ (ت 463هـ) دون أن يصرِّح بالنَّقل عنه، كما تابعهما ابن سيِّد النَّاس دون التَّصريح بالنَّقل عن أحدهما[870].

وقد أخرج الحاكم في المستدرك، من طريق جميع بن عمير، عن ابن عمر رضي الله عنهما:

---

[867] أخرجه البخاري (2442) ومسلم (2580).

[868] السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة، للعمري، (240/1).

[869] أنساب الأشراف، للبلاذري، (270/1)، وابن هشام في السيرة النبوية، (150/2 ـ 152).

[870] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (240/1).

«آخى رسـولُ الله ﷺ بين أبي بكرٍ، وعمر، وبين طلحة، والزبير، وبين عبد الرحمن بن عوف، وعثمان»[871]، وعن ابن عباسٍ: «آخى النَّبيُّ ﷺ بين الزُّبير، وابن مسعودٍ»[872] وذهب كلٌّ مِنْ: ابن القيِّم، وابن كثير إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكَّة، فقال ابن القيِّم: «وقد قيل: إنَّه – أي النَّبيَّ ﷺ – آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض، مؤاخاةً ثانيةً، واتَّخذ فيها عليّاً أخاً لنفسه، والثَّابت الأوَّل[873]؛ فالمهاجرون كانوا مستغنين بأخوَّة الإسلام، وأخوَّة الـدَّار، وقرابـة النَّسب عن عقـدِ مؤاخـاةٍ، بخلاف المهاجرين مع الأنصار»[874]، أمَّا ابن كثيرٍ؛ فقد ذكر: أنَّ من العلماء من ينكر هذه المؤاخاة للعلَّة نفسها، الَّتي ذكرها ابن القيِّم.

لم تُشِرْ كتب السِّيرة الأولى المختصَّة، إلى وقوع المؤاخاة بمكَّة، والبلاذريُّ ساق الخبر بلفظ «قالوا» دون إسنادٍ؛ ممَّا يضعِّف الرِّواية، كما أنَّ البلاذريَّ نفسه ضعَّفه النُّقاد، وعلى فرض صحَّة هذه المؤاخاة بمكَّة، فإنها تقتصر على المؤازرة، والنَّصيحة بين المتآخين؛ دون أن تترتب عليها حقوق التَّوارث[875].

أ. المؤاخاة في المدينة:

أسهم نظام المؤاخاة في ربط الأمَّة بعضها ببعض، فقد أقام الرَّسول ﷺ هذه الصِّلة على أساس الإخاء الكامل بينهم، هذا الإخاء الَّذي تذوب فيه عصبيَّات الجاهليَّة، فلا حَمِيَّة إلا للإسلام، وتسقط به فوارق النَّسب، واللَّون، والوطن، فلا يتأخَّر أحدٌ، أو يتقدَّم، إلا بمروءته، وتقواه.

وقد جعل الرَّسولُ ﷺ هذه الأخوَّة عقداً نافذاً، لا لفظاً فارغاً، وعملاً يرتبط بالدِّماء،

---

[871] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، المصدر السابق، (240/1).

[872] فتح الباري، (471/7). أخرجه الحاكم (314/3).

[873] يعني: المؤاخاة في المدينة.

[874] زاد المعاد، (79/2).

[875] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (241/1).

والأموال، لا تحية تثرثر بها الألسنة، ولا يقوم لها أثرٌ.

وكانت عواطف الإيثار، والمواساة، والمؤانسة تمتزج في هذه الأُخوَّة، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال(876).

والسَّبب الَّذي أدَّى إلى تقوية هذه الأُخوَّة بين المهاجرين والأنصار هو أنَّ أهل هذا المجتمع، ممَّن التقوا على دين الله وحده، نشَّأهم دينهم الَّذي اعتنقوه، على أن يقولوا، ويفعلوا، وعلَّمهم الإيمانَ، والعملَ جميعاً، فهم أبعد ما يكونون عن الشِّعارات الَّتي لا تتجاوز أطراف الألسنة، وكانوا على النَّحو الَّذي حكاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[النور: 51] .

وبذلك الَّذي درج عليه المسلمون كفل البقاء، والاستمرار لهذه الأخوَّة؛ الَّتي شدَّ الله بها أَزْرَ دينه، ورسوله ﷺ، حتَّى آتت ثمارَها في كلِّ أطوار الدَّعوة، طوال حياته ﷺ، وامتدَّ أثرها، فجمع كلمة المهاجرين والأنصار عند استخلاف الصِّدِّيق رضي الله عنه دون أن تطوِّع لهم أنفسهم (أي: للأنصار) أن يحدثوا صدعاً في شمل الأمَّة، مستجيبين في ذلك لشهوات السُّلطة، وغريزة السَّيطرة، لذلك فإنَّ سياسة المؤاخاة بين المهاجرين، والأنصار نوع من السَّبق السِّياسيِّ: الَّذي اتَّبعه رسول الله ﷺ، في تأصيل المودة، وتمكينها في مشاعر المهاجرين، والأنصار، الَّذين سهروا جميعاً على رعاية هذه المودَّة، وذلك الإخاء؛ بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده(877)،ولا سيما الأنصار، الَّذين لا يجد الكُتَّاب، والباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان، خيراً من حديث الله عنهم(878).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي

(876) فقه السِّيرة، للغزاليِّ، ص 193، 194.

(877) فصولٌ في السِّيرة النَّبوية، د. عبد المنعم السَّيِّد، ص 200.

(878) هجرة الرَّسول ﷺ وصحابته في القران والسُّنَّة، للجمل، ص 245.

صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] .

ونلحظ في الآية السَّابقة: أنَّ الله تعالى شهد لهم بخمس شهادات:

1 - تبوَّؤوا الدَّار، والإيمان من قبلهم.

2 - يحبُّون من هاجر إليهم.

3 - لا يجدون في صدورهم حاجةً ممَّا أُوتوا.

4 - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

5 - ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون[879].

وفي الآية السَّابقة فوائدُ عظيمةٌ، وحكمٌ جليلةٌ؛ منها:

- التَّعبير عن المدينة بلفظ «الدَّار» إشعارٌ بأنَّها دارٌ خاصَّةٌ لكلِّ متوطِّنٍ بها، متبوِّئ لها، فهي بالنِّسبة لأهلها كدارٍ خاصَّةٍ للفرد، يهنأ بالأمن، والاستقرار، وهو في داخلها، وفي هذا الإشعار نوعٌ من الأنس السَّريِّ في النَّفس، يزيدها رُوْحاً، وطُمأْنينَةً، فالأنصار في دارهم، وإيمانهم متمكِّنون من الأمن، والاستقرار المادِّيِّ، تتنزَّل عليهم السَّكينة، فتحفُّهم بنورها، كأنَّها سياجٌ من الرَّحمة مضروبٌ عليهم، لا يلحقهم فزعٌ، ولا يدخل عليهم قلقُ.

- أمَّا قوله تعالى: فالضَّمير فيه ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ومعناه: أنَّ الأنصار هم الذين تبوَّؤوا المدينة المنوَّرة داراً لهم، وتبوَّؤوا معها الإيمان من قبل هجرة المهاجرين إليهم؛ لأنَّ المهاجرين وإن تبوَّؤوا الإيمان قبل الأنصار؛ لأنَّهم سبقوهم إليه، وتمكَّنوا منه أعظم تمكُّنٍ، وتمكَّن هو منهم أبلغ تمكُّنٍ؛ لكنَّهم لم يتبوَّؤوا مع الإيمان داراً يتمكَّنون فيها من الاستقرار الحسِّيِّ المادِّيِّ،

---

[879] التَّربية القياديَّة، (2/284).

والأمن على أنفسـهم، وإيمانهم من فزعات الأعداء، وسـطواتهم، فكان للمهاجرين في تَبَوُّؤ الإيمان دون تَبَوؤ الدَّار، وكان للأنصار تَبَوُّؤهما معاً في قرنٍ واحدٍ.

– ومن لطائف القرآن الحكيم: أنَّه ساق مدْحَةَ المهاجرين قبل مِدْحَة الأنصار، مفتتحاً لها بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: 8] .

فجعل فَقْد بعض ما كان مدحةً للأنصار من تَبَوُّؤ الدَّار، والإيمان مدحةً للمهاجرين؛ لأنَّهم فقدوه ابتغاء فضل الله ورضوانه، ونصرهم الله بنصر دينه، ونصر رسوله ﷺ بنصر رسالته، ودعوته، ووصفهم بأنَّهم هم الصَّادقون، وأنَّ الناس تَبَعٌ لهم في ذلك، فقال يشرِّفهم بهذا الاختصاص: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ وقال لعامَّة المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ **[التوبة: 119]** فالقَبْلِيَّةُ – أي: قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ – بهذا المعنى مدحةٌ للأنصار؛ جاءت لتشعرهم بواجباتهم نحو إخوانهم الَّذين هاجروا إليهم، تاركين ديارهم، وأموالهم ابتغاء فضل الله، ورضوانه، والتَّفرُّغ لنصرة دينه، ونصرة رسوله، فالدَّار الَّتي فقدها المهاجرون بما فيها من أموالٍ، وفلذات أكبادٍ إنَّما فقدوها تقرُّباً بفقدها إلى الله، فأووا إلى الأنصار يتبوَّؤون معهم دارهم، دار الأمن، والاستقرار، مع سبق تَبَوُّئهم الإيمان قبل الأنصار، فكمل لهم بهذه الهجرة تبوُّءُ الدَّار والإيمان، وانفردوا بسبق تَبَوُّئِهم الإيمان. فضيلةٌ لا يشاركهم فيها غيرهم من سائر المؤمنين، وفي طليعتهم الأنصار، الَّذين جعلوا من الإيواء والنُّصرة دعامتين للمؤاخاة القائمة على الحبِّ الصَّادق، فقيل في وصفهم: وهذا حبٌّ ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، والله جعله فضيلةً لهم، ميَّزهم بها في مقابلة وصف المهاجرين بأنَّهم أُخرجوا من ديارهم، وأموالهم؛ ابتغاء مرضاة الله، وتعرُّضاً لفضله المنهمر عليهم غيثُه ديمة لا ينقطع، ولا يفتر، وهم يحملون بين جوانحهم قلوباً عامرةً بالحبِّ لإخوانهم الأنصار، الَّذين وُصفوا بالإخلاص الصَّفيِّ، الَّذي كان ثمرة الحبّ في الله، ولله، فقيل عنهم: أي: أنَّهم ﴿وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ تستشرف نفوسهم إلى فضلٍ ناله إخوانهم المهاجرون من سبقهم بالإيمان، وتضحيتهم بمفارقة ديارهم، وأموالهم، وانتهاضهم لنصرة دين الله، ورسالاته، ولا يتطلَّعون إلى شيءٍ منه تطلباً له،

أو مشاركةً فيه[880].

– وفي قوله: والحبُّ الَّذي يسـجِّله ربُّ العزَّة ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ تبارك وتعالى في محكم كتابه آيات بيِّنات تُتلى، ويُـتعبَّد بها في روعة إعجازها، وبراعة أسلوبها، وسموِّ منهجها في الهداية، لا يمكن أن يبقى معه في حنايا النَّفس المؤمنة آثار حزازةٍ تحسـد المهاجرين على ما اتاهم الله من مكارم الإيمان، والتَّضـحية في سـبيله بالدِّيار، والأموال، بله متعةً مادِّيَّةً زائلةً تافهةً.

وصـفات المدحة السَّـلبيَّة لا تذكر في مقامها إلا إذا كانت ممكنة الوقوع، فيكون نفيُها عنصراً من عناصر المدح المقتضية إحلال ما يقابلها من صفاتٍ إيجابيَّةٍ في بناء المدحة المشرِّفة.

فإذا قيل في وصـف الأنصـار بعد وصـفهم بحبِّهم المهاجرين: ﴿وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾، معنى ذلك: أنَّ هؤلاء الأنصـار سَمَوا في حبِّهم لإخوانهم المهاجرين إلى ذِروة الصَّفاء، والإخلاص، ووحدة الشُّعور، وامتلأت صدورهم بهذا الحبِّ القدسيِّ، فلم تعد تتَّسع لشـيءٍ معه، إلا أن يكون ذلك الشَّـيء أثراً من آثار الحبِّ، وليس ذلك إلا ذِروة الفضـائل، وهو إيثارهم على أنفسهم بكلِّ مكرمة، ولو كانوا هم في أشدِّ الحاجة إليها.

– ومجيء قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِـهِمْ﴾ عقب قوله عزَّ شـأنُه: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ بيـانٌ لثمرة هذا الحب، وهي ثمرةٌ سما بها الأنصـار إلى افاقٍ لم تصـل إليها البشـريَّة في تاريخها البعيد السَّـحيق، ولا في تاريخها الدَّاني القريب، تلك هي ثمرة الإيثار على النَّفس، الَّتي أثمرها الحبُّ الإيمانيُّ[881].

– ثمَّ وُصِفُوا بالفلاح على جهة الاختصاص به في مقابلة اختصاص المهاجرين بالصِّدق في عزائمهم، والإخلاص في إيمانهم، فقيل فيهم بعد تقرير: أنَّهم بهذا الإيثار صـفَتْ نفوسُـهم

---

[880] محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصَّادق عرجون، (94/3).

[881] محمَّد رسول الله ﷺ، المصدر السَّابق، (96/3).

من كُدورات التَّطلُّعات، والحزازات، وأخلصــوا الحبَّ لإخوانهم المهاجرين، وطُهِّروا من رشــح الشُّح، فتوقَّوه بفضيلة الكرم والسَّخاء المؤثر: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

كان هذا الحبُّ الأخويُّ بين المهاجرين والأنصار، هو الأساس الَّذي قامت على دعائمه المؤاخاة الاجتماعيَّة؛ الَّتي عقدها النَّبيُّ ﷺ بين أصــحابه بعد مَقْدِمِه المدينة، فقدكانت هذه المؤاخاة، من أسبق الأعمال؛ الَّتي قام بها رسـول الله ﷺ أوَّل ما اسـتقرَّ في مقامه، وأخذ في بناء مسجده الأعظم[882].

والظاهر: أنَّ ابتداءها كان في المسـجد؛ وهو يُـــبْنى، والنَّبيُّ ﷺ مشـغولٌ في بنائه مع أصحابه من المهاجرين، والأنصار، وكان ذلك المكان الطَّاهر، والعمل الشَّريف الخالص لوجه الله – تبارك وتعالى – أنسـب الأمكنة لبدء المؤاخاة، لما فيهما من اقتضـاء التَّرافق، والتَّعاون، والتَّعاضد، والتَّواسي، والتَّناصر، والتوادُد، وتقوية اصرة الأخوَّة الإيمانيَّة، فآخى رسول الله ﷺ بين العاملين معه في بناء المسجد أوَّلاً، ثمَّ آخى بين قومٍ آخرين في دار أنسٍ، وتكرَّر ذلك منه ﷺ، حتَّى استوعبت المؤاخاة عدد طلائع المهاجرين، والأنصار، وكانوا نحو المئة، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار[883].

ب. الدُّروس، والعبر، والفوائد:

– آصرة العقيدة هي أساس الارتباط:

إنَّ المجتمع المدنيَّ الَّذي أقامه الإســلام كان مجتمعاً عقديّاً يرتبط بالإســلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله، ولرســوله، وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط، وأرقاه؛ إذ يتَّصــل بوحدة العقيدة، والفكر، والرُّوح[884].

[882] محمَّدٌ رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصَّادق عرجون، (98/3).

[883] محمَّد رسول الله ﷺ، المصدر السابق، (100/3).

[884] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (252/1).

إنَّ الولاء لله، ولرسوله ﷺ، وللمؤمنين من أهمِّ الآثار، والنَّتائج المترتِّبة على الهجرة، وكان القرآن الكريم يربِّي المسلمين على هذه المعاني الرَّفيعة، فقد بيَّن الحقُّ – سبحانه وتعالى –: أنَّ ابن نوحٍ وإن كان من أهله باعتبار القرابة؛ لكنَّه لم يَعُدْ من أهله لـمَّا فارق الحقَّ، وكفر بالله، ولم يتَّبع نبيَّ الله. قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ **[هود: 45-46]**.

وقد حصر الإسلامُ الأُخوَّة والموالاة بين المؤمنين فقط. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ **[الحجرات: 10]** وقطع الولاية بين المؤمنين، والكافرين من المشركين، واليهود، والنَّصارى، حتَّى لو كانوا اباءهم، أو إخوانهم، أو أبناءهم، ووصف مَنْ يفعل ذلك من المؤمنين بالظُّلم، ممَّا يدلُّ على أنَّ موالاة المؤمنين للكافرين، من أعظم الذُّنوب.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ **[التوبة: 23]**.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ **[الممتحنة: 1-3]**.

فإذا كان الله سبحانه يحذِّر المؤمنين في الآيات السَّابقة من موالاة الكفَّار عامَّةً، فهناك آيات كثيرةٌ وردت في تحذير المؤمنين، ونهيهم عن طاعة أهل الكتاب خاصَّةً، أو اتخاذهم

أولياء، أو الرّكون إليهم[885].

قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ **[البقرة: 120]** وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ **[آل عمران: 100]**، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ **[المائدة: 51]**.

قال صاحب الظِّلال: «هذا النِّداء موجَّهٌ إلى الجماعة المسلمة في المدينة، ولكنَّه في الوقت ذاته موجَّهٌ لكلِّ جماعةٍ مسلمةٍ، تقوم في أيِّ ركنٍ من أركان الأرض إلى يوم القيامة، ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء لِلَّذين آمنوا: أنَّ المفاصلة لم تكن كاملةً، ولا حاسمةً بين بعض المسلمين في المدينة، وبعض أهل الكتاب، وبخاصَّةٍ اليهود، فقد كانت هناك علاقات ولاءٍ، وحلفٍ، وعلاقات اقتصادٍ، وتعاملٍ، وعلاقات جيرةٍ، وصحبةٍ، وكان هذا كلُّه طبيعياً مع الوضع التَّاريخي، والاقتصاديّ، والاجتماعيّ في المدينة قبل الإسلام بين أهل المدينة من العرب، وبين اليهود بصفةٍ خاصَّةٍ، وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدِّين وأهله بكل صنوف الكيد؛ التي عدَّدتْها، وكشفتها النُّصوص القرآنيَّة الكثيرة.

ونزل القرآن؛ ليبثَّ الوعي اللاَّزم للمسلم في المعركة الَّتي يخوضها بعقيدته، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة؛ ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة، بينه وبين كلِّ من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة، ولا يقف تحت رايتها الخاصَّة. المفاصلة الَّتي لا تُنهي السَّماحة الخلقيَّة، فهذه صفة المسلم دائماً، ولكنَّها تنهي الولاء الَّذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله، ورسوله، والذين آمنوا. الوعي، والمفاصلة اللَّذان لابُدَّ منهما في كلِّ أرضٍ، وفي كلِّ جيلٍ...

---

[885] الهجرة في القران الكريم، لأحزمي جزولي، ص 417.

﴿بَعْضُـــهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: 51]، إنَّها حقيقةٌ لا علاقة لها بالزَّمن؛ لأنَّها حقيقةٌ نابعةٌ من طبيعة الأشـياء، إنَّهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسـلمة في أيِّ أرضٍ، ولا في أيِّ تاريخٍ، وقد مضـت القرون تلو القرون، ترسـم مصـداق هذه المقولة الصَّـادقة، ولم تختلَّ هذه القاعدة مرَّةً واحدةً، ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرَّره القرآن الكريم في صيغة الوصف الدَّائم، لا الحادث المفرد، واختيار الجملة الاسميَّة على هذا النَّحو، ﴿بَعْضُـــهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: 51] ليسـت مجرد تعبير! إنَّما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدَّائم الأصيل»[886].

وقد نهى الله – سبحانه – المؤمنين عن اتخاذ المنافقين أولياء؛ وذلك لأنَّ من أبرز صفاتهم موالاة الكفار، وكراهية دين الله. قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ **[النساء: 138-139]**.

وقد جاءت آيات توضِّح صور هذه المفاصلة في القرآن المدنيِّ، ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ **[التوبة: 73]**.

ونهى المولى – عزَّ وجل – عن الصَّلاة عليهم، أو القيام على قبورهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ **[التوبة: 84]**.

وحدَّد المولى – عزَّ وجل – لِلَّذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة، الَّتي تتَّفق مع صفة الإيمان، وبيَّن لهم من يتولَّون. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ **[المائدة: 55-56]**.

فقد فهم الصحابة: أنَّ ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله، فحقَّقوا ذلك كلَّه في أنفسهم، وطبَّقوه على حياتهم، فمحَّضوا ولاءهم، وجعلوه لله، ورسوله، والمؤمنين، وأصبح تاريخهم حافلاً بالمواقف الرَّائعة، الَّتي

---

[886] في ظلال القران، (911/2).

تدلُّ على فهمهم العميق لمعنى الولاء، الذي منحوه لخالقهم، ولدينهم، وعقيدتهم، وإخوانهم.

إنَّ التَّـــآخي الَّذي تمَّ بين المهاجرين، والأنصــار كان مسـبوقاً بعقيدةٍ تمَّ اللِّقاء عليها، والإيمان بها؛ فالتآخي بين شخصين يُؤْمِن كلٌّ منهما بفكرةٍ، أو عقيدةٍ مخالفةٍ للأخرى خرافةٌ، ووَهْمٌ، خصوصاً إذا كانت تلك الفكرة، أو العقيدة، ممَّا تَحْمِلُ صاحبها على سلوكٍ معيَّنٍ في الحياة العمليَّة، ولذلك كانت العقيدة الإسلاميَّة الَّتي جاء بها رسولُ الله ﷺ من عند الله تعالى هي العمود الفقريَّ للمؤاخاة التي حدثت؛ لأنَّ تلك العقيدة تضـع الناس كلَّهم في مصـافِّ العبودية الخالصة لله، دون الاعتبار لأيِّ فارقٍ، إلا فارق التَّقوى، والعمل الصَّالح؛ إذ ليس من المتوقَّع أن يســود الإخاء، والتَّعاون، والإيثار بين أناسٍ شَـتَّتَتْهُمُ العقائد، والأفكار المختلفة، فأصبح كلٌّ منهم ملكاً لأنانيته، وأثرته، وأهوائه[887].

- الحبُّ في الله أساسُ بنية المجتمع المدنيِّ:

إنَّ المؤاخاة على الحبِّ في الله من أقوى الدَّعائم في بناء الأمَّة المسلمة، فإذا وَهَتْ؛ تاكل كلُّ بنيانها[888]؛ ولذلك حرصَ النَّبيُّ ﷺ على تعميق معاني الحبِّ في الله، في المجتمع المســلم الجديد، فقد قال ﷺ: «إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أُظلُّهم في ظلِّي؛ يوم لا ظلَّ إلا ظِلِّي»[889].

وقال: «قال الله تبارك وتعالى: حقَّت محبَّتي للمتحابِّين فيَّ، وحقَّت محبَّتي للمتواصلين فيَّ، وحقَّت محبَّتي للمتباذلين فيَّ. المتحابُّون فيَّ على منابرَ من نورٍ، يغبطهم النَّبيُّون، والصِّــدِّيقون، والشُّهداء»[890].

---

[887] فقه السِّيرة، للبوطي، ص 156.

[888] محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصَّادق عرجون، (129/3).

[889] أخرجه مسلم (2566) وأحمد (237/2 و535) ومالك في الموطأ (952/2).

[890] أخرجه أحمد (229/5 و239) وابن حبان (577) وروى الترمذي (2390) طرفه الأخير.

كانت توجيهات النَّبيِّ ﷺ، تحثُّ الصَّحابة على معاني الحبِّ والتَّكافل، واحترام المسلمين بعضهم بعضاً، فلا يستعلي غنيٌّ على فقيرٍ، ولا حاكمٌ على محكومٍ، ولا قويٌّ على ضعيفٍ، وكان للحبِّ في الله أثرُه في المجتمع المدنيِّ الجديد، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاريٍّ بالمدينة نخلاً، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيْرُحَاء، وكانت مُستقبلةَ المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها، ويشرب من ماءٍ فيها طيِّبٍ، فلمَّا نزلت: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 92]؛ قام أبو طلحة، فقال: يا رسول الله! إنَّ الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ (بَيْرُحاء)، وإنَّها صدقةٌ لله، أرجو بِرَّها، وذُخْرها عند الله، فضعها يا رسول الله! حيث أراك الله. قال رسول الله ﷺ: «ذلك مالٌ رابحٌ! ذلك مالٌ رابحٌ! وقد سمعتُ ما قلتَ، وإنِّي أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله! فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه[891].

وهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يحدِّثنا عن هذه المعاني الرَّفيعة، حيث قال: لـمَّا قدمنا المدينة؛ آخى رسولُ الله ﷺ بيني، وبين سعدٍ بن الرَّبيع، فقال سعد بن الرَّبيع: إنِّي أكثر الأنصار مالاً، فأَقسمُ لك نصف مالي، وانظر أيَّ زوجتيَّ هويتَ؛ نَزَلْتُ لك عنها، فإذا حَلَّتْ[892]؛ تزوَّجتَها. قال: فقال له عبد الرَّحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوقٍ فيه تجارةٌ؟ قال: سوق قينقاع[893].

قال: فغدا إليه عبد الرَّحمن فأتى بأقطٍ، وسمنٍ، قال: ثمَّ تابع الغُدُوَّ[894]، فما لبث أن جاء عبدُ الرَّحمن عليه أثَرُ صُفرةٍ، فقال رسول الله ﷺ: «تَزَوَّجتَ؟» قال: نعم. قال: «ومَنْ؟»

---

[891] أخرجه البخاري (1461) ومسلم (998).

[892] نزلتُ لك عنها: أي: طلَّقتها لأجلك، فإذا حلَّت: أي: انقضت عدَّتها.

[893] قينقاع: قبيلة من اليهود نسب السُّوق إليهم.

[894] تابع الغُدُوَّ: أي: داوم الذَّهاب إلى السُّوق للتجارة.

قال: امرأةً من الأنصار. قال: «كم سُقْتَ؟» قال: زِنَةَ نواةٍ من ذهبٍ – أو: نواةً من ذهب – فقال له النَّبيُّ ﷺ: «أوْلِمْ ولو بشاةٍ»[895].

ونلاحظ: أنَّ كرم سعد بن الرَّبيع قابله عفةُ وكرمُ نفسٍ من عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنهما، ولم يكن مسلك عبد الرَّحمن بن عوفٍ خاصّاً به؛ بل إنَّ الكثير من المهاجرين كان مكوثهم يسيراً في بيوت إخوانهم من الأنصار، ثمَّ باشروا العمل، والكسب، واشتروا بيوتاً لأنفسهم، وتكفَّلوا بنفقة أنفسهم؛ ومن هؤلاء: أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان، وغيرُهم رضي الله عنهم.

– النَّصيحة بين المتآخين في الله:

كان للمؤاخاة أثرٌ في المناصحة بين المسلمين، فقد آخى النَّبيُّ ﷺ بين سلمان، وأبي الدَّرداء، فزار سلمانُ أبا الدَّرداء، فرأى أمَّ الدرداء، مُتَبَذِّلَةً، فقال لها: ما شأنُكِ؟ قالت: أخوك أبو الدَّرداء، ليس له حاجةٌ في الدُّنيا. فجاء أبو الدَّرداء فصنع له طعاماً، فقال له: كلْ، فإنِّي صائم، قال: ما أنا بآكلٍ حتَّى تأكل. قال: فأكل، فلمَّا كان اللَّيل؛ ذهب أبو الدَّرداء يقوم، قال: نَمْ، فنام، ثمَّ ذهب يقوم، فقال: نَمْ. فلمَّا كان آخر اللَّيل، قال سلمان: قم الآن، فصَلَّيا. فقال له سلمان: إنَّ لربِّك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «صَدَقَ سلمان»[896].

– لا ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم:

كان الأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم، وزادوا على ذلك بأن اثروهم على أنفسهم بخير الدُّنيا، وهذا شاهدٌ على صدق محبَّتهم، وقوَّة إيمانهم، فقد رويت نماذج عالية من

---

[895] أخرجه البخاري (2048 و3780) ومسلم (1426).

[896] أخرجه البخاري (1968 و6139) والترمذي (2413).

مواقف الأنصار، الَّتي كان لها أثرٌ عميق في نفوس المهاجرين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قالت الأنصار للنَّبيِّ: اقْسِمْ بيننا وبين إخواننا النَّخيلَ. قال: لا. فقالوا: تكفوننا المؤونة، ونشرككم في الثَّمرة. قالوا: سمعنا، وأطعنا»[897].

فهذا الحديث يفيد: أنَّ الأنصار عرضوا على النَّبيِّ ﷺ، أن يتولَّى قسمة أموالهم بينهم، وبين إخوانهم المهاجرين، وقد كانت أموالهم هي النَّخيل، فأبى عليهم النَّبيُّ ﷺ، وأراد أمراً تكون فيه المواساة من غير إجحافٍ بالأنصار بزوال ملكية أموالهم عنهم، فقال الأنصار للمهاجرين: تكفوننا المؤونة - أي: العمل في النَّخيل من سقيها، وإصلاحها - ونشرككم في الثَّمرة، فلمَّا قالوا ذلك؛ رأى رسولُ الله ﷺ: أنَّ هذا الرأي ضمن سدِّ حاجة المهاجرين، مع الإرفاق بالأنصار، فأقرَّهم على ذلك؛ فقالوا جميعاً: سمعنا، وأطعنا[898].

وقد قام الأنصار بالمؤونة، وأشركوا المهاجرين في الثَّمرة، ولعلَّ المهاجرين كانوا يساعدونهم في العمل، ولكنَّ أكثر العمل عند الأنصار. وقد شكر المهاجرون للأنصار فعلهم، ومواقفهم الرَّفيعة في الإيثار، والكرم، وقالوا: يا رسول الله! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليلٍ، ولا أحسن بذلاً في كثيرٍ، ولقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ[899]، حتَّى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كلِّه، قال: «لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله - عزَّ وجل - لهم»[900].

وفي إشارة المهاجرين إلى الأجر الأخرويِّ بيانٌ لعمق تصوُّرهم للحياة الآخرة، وهيمنة هذا التَّصور على تفكيرهم[901].

---

[897] أخرجه البخاري (2325).

[898] التَّاريخ الإسلاميُّ، (30/4).

[899] يعني: كفونا العمل، وأشركونا في الثَّمرة.

[900] أخرجه أحمد (200/3 - 201) والترمذي (2487) وابن أبي شيبة (68/9).

[901] التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميدي، (406/4).

وقد أراد النَّبيُّ ﷺ أن يكافئ الأنصــار على تلك المكارم العظيمة، الَّتي قدَّموها لإخوانهم المهاجرين، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «دعا النَّبيُّ ﷺ الأنصار إلى أن يُقْطِعَ لهمُ البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تُقْطِع لإخواننا من المهاجرين مثلَها. قال: إمَّا لا؛ فاصــبروا حتَّى تلْقَوني؛ فإنَّه سيصيبكم بعدي أَثَرَةٌ»[902].

لقد حقَّقتْ هذه المؤاخاةُ أهدافها، فمنها إذهاب وحشــة الغربة للمهاجرين، ومؤانســتهم عن مفارقة الأهل والعشيرة، وشدِّ أزر بعضهم بعضاً، ومنها نهوض الدَّولة الجديدة؛ لأنَّ أيَّ دولةٍ لا يمكن أن تنهض، وتقومَ إلا على أساس من وحدة الأمَّة، وتساندها، ولا يمكن لكلٍّ من الوحدة والتَّساند أن يتمَّ بغير عاملِ التَّآخي والمحبَّــة المتبادلة، فكلُّ جماعةٍ لا تؤلف بينها اصرة المودة، والتَّــآخي الحقيقية لا يمكن أن تتَّحد حول مبدأ ما، وما لم يكن الاتِّحاد حقيقةً قائمةً في الأمَّة، أو الجماعة، فلا يمكن أن تتألَّف منها دولةٌ[903].

- تذويب الفوارق الإقليمية والقبلية:

إنَّ القضــاء على الفوارق الإقليميَّة، والقبليَّة، ليس بالأمر الهيِّن في المجتمعات الجاهليَّة؛ حيث العصــبية هي الدِّين عندهم، وعملية المؤاخاة تهدف إلى إذابة هذه الفوارق بصــورةٍ واقعيَّةٍ، منطلقةٍ من قلب البيئة الجاهليَّة.

إنَّ من الأمراض في الصَّفِّ الإسلاميِّ المعاصر، سيطرةَ الرُّوح الإقليميَّة، والعصبيَّة في نفوس بعض الدُّعاة، وهذه الأمراض تحول بينهم وبين التَّمكين، وتُضــعف الصُّــفوف؛ بل تُشتِّتها، وينشغل الصَّفُّ بنفسه عن أهدافه الكبار. وقد أصيبت بعض الحركات الإسلاميَّة بداء العصبية الإقليميَّة، والعصبيَّة الشَّخصيَّة، والعصبية القُطريَّة، والعصبية حتَّى على مستوى

---

[902] أخرجه البخاري (3794).

[903] في ظلال القران، (3526/6).

المدينة، والقرية الصَّــغيرة[904]، وقد تولَّد هذا عن أمراضٍ في نفوس بعض الأفراد، بســبب بُعْدِهم عن القرآن الكريم، وسنَّة سيِّد المرسلين ﷺ، فلم يتربَّوا عليها؛ ولذلك كثر التَّناحر، والتَّباغض.

إنَّ المســلمين اليوم في أشــدِّ الحاجة إلى مثل هذه المؤاخاة؛ الَّتي حدثت بين المهاجرين، والأنصــار؛ لأنَّه يســتحيل أن تُسْــتَأْنف حياةٌ إســلاميَّةٌ عزيزةٌ قويَّةٌ؛ إذا لم تتخلَّق المجتمعات الإســلاميَّة بهذه الأخلاق الكريمة، وترتقي إلى هذا المســتوى الإيمانيِّ الرَّفيع، وإلى هذه التَّضحيات الكبيرة، وأمَّا المظاهر الزَّائفة من الأخوة (باللِّسان)؛ فلا تجدي فتيلاً.

إنَّ الفرد المسلم حين يشعر: أنَّ له إخوةً يحبُّهم، ويحبُّونه، وينصرهم، وينصرونه، خاصَّةً إذا تفاقمت الأزمات، وضــاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ، فإنَّ هذا ممَّا يرفع من رُوحه المعنويَّة؛ بل ويرفع قدراته الذَّاتية، ويجعله أقوى مضــاءً، وعزيمةً، وإنَّ فقدان مثل هذه المؤاخاة، ممَّا يضـعف الصــفَّ الإســلاميَّ، ويجعل الفرد المســلم يشـعر أحياناً: أنَّه وحيدٌ أمام أعداء يكنُّون له كلَّ حقدٍ، ويحيطون به من كلِّ جانبٍ، فكيف يســتطيع حمل كلِّ هذه الضُّــغوط النَّفســيَّة والمادِّيَّة؟![905].

وقد حفظ لنا التَّاريخ جهاد المجتمع المســلم مع أعدائه، بعد تحقيق وحدته الاجتماعيَّة، وهو لا يزال في دَوْرِ نشــأته، وتكوينه، وكثيراً من المحاولات الإفســاديَّة، الَّتي كان الأعداء يدبِّرون مكايدها؛ ليشعلوا بها نيران الفتن بين صفوف المجتمع المسلم، ليفرِّقوا جمعه، ويفكِّكوا وحدته، ولكنَّ هذه المحاولات الإفســادية كانت تبوء بالخســران؛ لأنَّها كانت تصــطدم بقوَّة تماسك المجتمع المسلم، في تركيبه الإيمانيِّ والاجتماعيِّ، فيذيبها في تلك القوَّة، الَّتي جعلت من تركيبه الاجتماعيِّ وحدةً مدمَّجة العناصــر دمجاً لا يقبل التَّفريق، ولا تنفصــم عراه، ولا تُحَلُّ

---

[904] التربية القياديَّة، (286/2).

[905] الطَّريق إلى المدينة لمحمد العبده، دار الجوهرة، عمَّان، الطَّبعة الثانية، طبعة 1999م، ص 10، 101.

روابطه[906].

- المؤاخاة بين المسلمين من أسباب التَّمكين المعنويَّة:

إنَّ من أسباب التَّمكين المعنويَّة العملَ على تربية الأفراد تربيةً ربانيَّةً، وإعداد القيادة الرَّبَّانيَّة، ومحاربة أسباب الفُرْقة، والأخذ بأصول الوحدة، والاتِّحاد[907].

وأهمُّ أصول الوحدة، والاتِّحاد وحدةُ العقيدة، وصدق الانتماء إلى الإسلام، وطلب الحقِّ، والتَّحري في ذلك، وتحقيق الأخوَّة بين أفراد المسلمين.

إنَّ من الأصول العظيمة؛ التي تحقِّق وحدة الصَّف، وقوَّة التَّلاحم، ومتانة التَّماسك بين أفراد المسلمين تحقيق الأخوَّة في أوساطهم.

إنَّ الأُخوَّة منحةٌ من الله - عزَّ وجلَّ - يعطيها الله للمخلصين من عباده، والأصفياء، والأتقياء من أوليائه، وجنده. قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ **[الأنفال: 62-63]**.

وهي قوَّةٌ إيمانيَّةٌ، تورث شعوراً عميقاً بعاطفةٍ صادقةٍ، ومحبَّةٍ وودٍّ، واحترامٍ، وثقةٍ متبادلةٍ مع كلِّ مَنْ تربطنا بهم عقيدة التَّوحيد، ومنهج الإسلام الخالد، يتبعها، ويستلزمها تعاونٌ، وإيثارٌ، ورحمةٌ، وعفوٌ، وتسامحٌ، وتكافلٌ، وتآزرٌ، وهي ملازمةٌ للإيمان. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ **[الحجرات: 10]**.

ولا يذوق حلاوة الإيمان، إلا من أشرب هذه الأُخوَّة. قال ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللهُ، ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقْذَفَ في النَّار»[908].

---

[906] محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمَّد الصَّادق عرجون، (152/3).

[907] فقه التَّمكين في القران الكريم، للصَّلابي، ص 253.

[908] أخرجه البخاري (16) ومسلم (43).

إنَّ القرآن الكريم يرسم لنا صورةً جميلةً لأصحاب رسول الله ﷺ . قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ **[الفتح: 29]**.

إنَّ القرآن الكريم حين وضع بين دفتيه هذه الصُّورة إنَّما يخبرنا بتكريم الله – عزَّ وجلَّ –؛ فَهُمْ: أشـدَّاء على الكفَّار؛ ولو كان فيهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، والقرابة، والأبناء، رحماءُ بينهم، وهذه الأخوَّة في الحقِّ أخوَّةٌ في الدِّين. إن الأخوَّة في الله من أهم الأسباب التي تعمل على الصُّمود في وجه أعتى المحن الَّتي تنزل بالمسلمين، كما أنَّ الفهم المتبادل، والكامل للأخوَّة في الله من أسباب تماسك صفوف المسلمين، وقوَّتهم، ومن أسباب شموخهم، والتَّمكين لهم[909].

– من فضائل الأنصار:

تسميتهم بالأنصار: سمَّاهم الله، ورسولُه ﷺ بهذا الاسم حين بايعوا على الإسلام، وقاموا بإيواء المؤمنين، ونصرة دين الله، ورسول الله ﷺ، ولم يكونوا معروفين بذلك مِنْ قبل[910]، فعن غَيْلان بن جرير – رحمه الله! – قال: قلتُ لأنسٍ رضي الله عنه: أرأيتَ اسم (الأنصار) كنتم تُسَمَّوْنَ به، أم سمَّاكم الله؟ قال: بل سمَّانا الله[911]. أمَّا مناقبهم، وفضائلهم، فكثيرةٌ، لا تحصى، منها مناقب عامَّةٌ لجميع الأنصار، ومناقب خاصَّة بأفراد من الأنصار. أمَّا المناقب العامَّة الواردة في القرآن الكريم ما يلي:

---

(909) شرح رسالة التَّعاليم، د. محمَّد عبد الله الخطيب، ص (296).

(910) الهجرة النَّبويَّة المباركة، د. عبد الرحمن البر، دار الكلمة، المنصورة، مصر، الطَّبعة الأولى، 1418 هـ، 1997 م، (ص 131 . 135).

(911) أخرجه البخاري (3776).

فقد وصـــــفهم المولى – عزَّ وجلَّ – بأنَّهم من المؤمنين حقّاً، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمنوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 74].

وبشَّرهم ربُّهم برضاه عنهم، وامتدح رضاهم عنه، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنصار وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الآنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100].

ووصـــــفهم المولى – عزَّ وجلَّ – بالفلاح. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

وأمَّا الأحاديث الَّتي تحدَّثت عن مآثر الأنصار؛ فمنها:

حبُّ النَّبيِّ ﷺ للأنصار: عن أنسٍ رضي الله عنه قال: رأى النَّبيُّ ﷺ النِّساءَ، والصِّبيان مقبلين – قال: حَسِبْتُ: أنَّه قال: مِنْ عُرس – فقام النَّبيُّ ﷺ مُمْتَناً[912]، فقال: «اللَّهمَّ أنتم مِنْ أحبِّ النَّاس إليَّ» قالها ثلاث مِرارٍ[913].

حبُّ الأنصار علامة الإيمان، وبغضهم علامة النِّفاق: عن البَرَاء بن عازبٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الأنصار لا يحبُّهم إلا مؤمنٌ، ولا يُبْغِضُهم إلا منافقٌ، فَمَنْ أحبَّهم أحبَّه الله، ومَنْ أبغضهم أبغضه الله»[914].

مَنْ أحبَّهم فاز بحبِّ الله إيَّاه، ومن أبغضهم شقي ببغض الله إيَّاه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من أحَبَّ الأنصار أحبَّه اللهُ، ومن أبغض الأنصار أبغضه

[912] مُمْتَناً: يعني متفضِّلاً عليهم بذلك.

[913] أخرجه البخاري (3785) ومسلم (2508).

[914] أخرجه البخاري (3783) ومسلم (75).

الله»[915].

الشَّهادة لهم بالعفاف، والصَّبر: العفة والصَّبر شيمتان كريمتان، تدلاَّن على أصالة معدن المتخلِّق بهما، وتمام مروءته، وكمال رجولته، وفتوته، وقد شهد النَّبيُّ ﷺ للأنصار بهما، وما أعظمها من شهادةٍ! وما أعظمه من شاهدٍ![916]، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما يضرُّ امرأةً نزلت بين بيتين من الأنصار، أو نزلت بين أبويها»[917].

رغبة النَّبيِّ ﷺ في الانتساب إليهم لولا الهجرة: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لو أنَّ الأنصار سلكوا وادياً، أو شعباً، لسلكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار»[918].

دعاء النَّبيِّ ﷺ بالمغفرة لهم، ولأبنائهم، ولأزواجهم، ولذراريهم: لاشكَّ أنَّ دعاء الرَّسول ﷺ مستجابٌ، وقد فاز الأنصار بهذا الفضل، فقد روى البخاريُّ عن عبد الله بن الفضل: أنَّه سمع أنس بن مالكٍ يقول: «حَزِنْتُ على من أُصيبَ بالحَرَّةِ، فكتب إليَّ زيدُ بنُ أرقم - وبَلَغَهُ شِدَّةُ حُزني - يذكر: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول : «اللّهُمَّ اغفر للأنصار! ولأبناء الأنصار». وشكَّ ابنُ الفضل في أبناء أبناء الأنصار[919]، فسأل أنساً بعضُ مَنْ كان عنده، فقال: هو الذي يقولُ رسولُ الله ﷺ، هذا الَّذي أوفى الله له بأذنِهِ[920]».

وصية النَّبيِّ ﷺ بالإحسان إليهم، وعدم إفزاعهم: كان جهاد الأنصار في سبيل الدِّين

---

[915] أخرجه أحمد (501/2 و527) وأبو يعلى (7367) والبزار (2792 و2793) ومجمع الزوائد (39/10).

[916] الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص 142.

[917] أخرجه أحمد (257/6) وابن حبان (7267) والحاكم (83/4) والبزار (2806) ومجمع الزوائد (40/10).

[918] أخرجه البخاري (3779 و7344) وأحمد (410/2) والنسائي في السنن الكبرى (8261).

[919] هذه الزيادة ثابتةٌ عند مسلمٍ، في كتاب فضائل الصَّحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل الأنصار رضي الله عنهم، رقم (2506، 2507).

[920] أوفى الله له بأذنه: أي: بسمعه، وهو بضمِّ الهمزة والذَّال، ويجوز فتحهما، أي: أظهر صدقه فيما أعلم به. أخرجه البخاري (4906) ومسلم (2506).

عظيماً، وكان فضلهم في نشره، والدِّفاع عنه بليغاً؛ إذ لم يمنعهم من الخفَّة إلى الخروج في سبيل الله عسرٌ، ولا يسرٌ، وحفظ الله لهم ذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصار الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 117] وَمِنْ ثَمَّ كانت وصيَّة رسول الله ﷺ بالأنصار، والإحسان إلى محسنهم، والتَّجاوز عن مسيئهم، وكان ترهيبه ﷺ من ترويعهم، وتفزيعهم وكانت توصيته بالأنصار خيراً[921]، فعن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الأنصار كَرِشي، وعَيْبَتي[922]، والنَّاسُ سيكثرون، ويَقِلُّون[923]، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»[924] وعنه أيضاً، قال: خرج نبيُّ الله ﷺ، فتلقَّته الأنصار بينهم، فقال: «والذي نفسُ محمَّدٍ بيده! إنِّي لأحِبُّكم، وإنَّ الأنصار قد قضوا ما عليهم، وبقي الَّذي لهم[925]، فأحْسِنوا إلى مُحسنهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم»[926]. وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللهِ ﷺ يقول على المنبر للأنصار «....فمن ولي الأنصار؛ فليحسن إلى محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم، ومَنْ أفزعهم؛ فقد أفزع هذا الَّذي بين هاتين، وأشار إلى نَفْسِه ﷺ»[927].

---

[921] الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص 150.

[922] كرشي، وعيبتي: أي: بطانتي، وخاصَّتي، يريد أنَّهم موضع سرِّه، وأمانته.

[923] قال ابن حجر: أي: أنَّ الأنصار يقلُّون، وفيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم في الإسلام، وهم أضعاف أضعاف قبيلة الأنصار، فمهما فُرض في الأنصار من الكثرة كالتناسل؛ فُرض في كلِّ طائفة من أولئك، فهم أبداً بالنِّسبة إلى غيرهم قليل. ويحتمل أن يكون ﷺاطَّلع على أنَّهم يقلُّون مطلقاً، فأخبر بذلك، فكان كما أخبر؛ لأنَّ الموجودين الان من ذرِّية عليِّ بن أبي طالبٍ ممَّن يتحقَّق نسبه إليه أضعاف من يوجد من قبيلتي الأوس والخزرج ممَّن يتحقق نسبه، وقس على ذلك، ولا التفات إلى كثرة مَنْ يدَّعي: أنَّه منهم بغير برهانٍ فتح الباري، شرح حديث رقم (3801).

[924] أخرجه البخاري (3801) ومسلم (2510).

[925] قضوا الَّذي عليهم: يشير إلى ما وقع لهم ليلة العقبة من المبايعة، فإنهم بايعوا على أن يؤووا النَّبيَّ ﷺ، وينصروه على أنَّ لهم الجنَّة، فوفوا بذلك. فتح الباري، شرح حديث رقم (3799)، وهذا الحديث موجودٌ بنحوه في البخاريِّ، رقم (3799).

[926] أخرجه أحمد (187/3) والنسائي في السنن الكبرى (8270) وابن حبان (7266 و7271) وأبو يعلى (3770).

[927] الهجرة النَّبويَّة المباركة، ص 151 ومن أراد المزيد؛ فليرجع إلى صحيح البخاريِّ، كتاب مناقب الأنصار حديث رقم (3776، 3948) ومسلم، كتاب فضائل الصَّحابة رضي الله عنهم، حديث رقم (2505، 2513).

من خلال الرّوابط الوثيقة الّتي ألّفَتْ بين المهاجرين، والأنصار أُرْسِيَتْ قيمٌ إنسانيّةٌ، واجتماعيّةٌ، ومبادئ مثاليّةٌ لا عهد للمجتمع القبليّ بها؛ وإنّما هي من شأن المجتمعات المتحضِّرة الفاضلة، وفي مقدمة تلك القيم قيمة العمل الشّريف كوسيلةٍ لكسب الرِّزق، فلقد قَبِلَ المهاجرون في أوّل الأمر ما أظهره إخوانهم الأنصار من كرم الضيافة، ولكنّهم أبوا بعد ذلك إلا أن يبحثوا عن موارد رزقٍ لهم، ولا يُعوِّلُوا على رابطة المؤاخاة الّتي سعد بها الأنصار، فكان منهم من اشتغل بالتِّجارة، ومنهم من عمل بالزِّراعة، مستعذبين متاعب العمل على أن يكونوا عالةً على إخوانهم؛ ذلك لأنَّ عزّة الإيمان لا ترضى لصاحبها أن يكون عالةً على أحدٍ، بل تطلب منه أن يعطي أكثر ممّا يأخذ، فاليد العليا خيرٌ، وأحبُّ إلى الله من اليد السُّفلى، وقد فهم الصّحابة الكرام من تعاليم الإسلام: أنَّ العمل عبادةٌ، وهي قيمة إنسانية لم تصل إليها النُّظم المعاصرة، الّتي قصرت فائدتها على سدِّ حاجات الإنسان المادِّيَّة والمعنويّة، وفي ضوء هذا المفهوم الإسلاميّ نستطيع أن نقول: إنَّ الإخاء، والعمل كانا حَجَرَ الزّاوية في بناء مجتمع دار المهجر، وبالتّالي في تأسيس الحضارة الإسلاميّة؛ الّتي بُنيت أصولها في المدينة بعد إقامة أوّل دولةٍ في الإسلام، برئاسة النّبيّ ﷺ، ثمّ ترعرعت حتّى أصبحت شجرةً يتفيّأ ظلالَها العالمُ كلُّه[928].

رابعاً: وثيقة أو صّحيفة المدينة (الإعلان الإسلامي الأول لحقوق الإنسان والحريات الأساسية والسياسية):

تُعد وثيقة المدينة، التي وضعها النبي ﷺ عقب وصوله إلى المدينة المنورة، أول دستور مكتوب في تاريخ الإسلام وأحد أهم الشواهد على البعد الحضاري والإنساني للمجتمع الإسلامي الأول. جاءت هذه الوثيقة في سياق بناء مجتمع جديد متنوع، يضم المسلمين من المهاجرين والأنصار، إلى جانب اليهود والقبائل الأخرى.

[928] الهجرة في القران الكريم، ص 411.

هدفت وثيقة المدينة إلى تأسيس نظام حكم وإدارة عادلين، يضمنان التعايش السلمي بين مختلف المكونات الدينية والاجتماعية في المدينة. من خلال هذه الوثيقة، أرسى النبي ﷺ أسسًا قانونية واجتماعية تضمن حقوق الأفراد والجماعات، وتنظم العلاقات بينهم على أساس من العدل والمساواة.

كان الرسول ﷺ يأمل حين هجرته إلى المدنية أن يستميل اليهود الذين بالمدينة إلى دينه، لأنهم أهل كتاب قد بُشروا بنبوته، وهم إن لم يستجيبوا لدينه، ويدخلوا فيه فلا أقل من أن يسالموه، ولا يكونوا مثل كفار مكة الذين اعترضوا دعوته، وحالوا دون نشرها بين الناس.

وكان اليهود من جهتهم يطمعون أن يستطيعوا بحيلهم ومكرهم من استمالة الرسول ﷺ إليهم، واحتواء دينه فب دينهم، فأظهروا له المسالمة في أوائل هجرته، وهم يضمرون في أنفسهم له ولدينه العداوة والبغضاء.

فلبسوا للمسلمين ثياب النفاق وخالطوهم وتبسطوا معهم، وبدوا لهم كأنهم قد قاربوا من دينهم، ورضوا عن شعائره بينهم.

وأعلن الكثير منهم الإسلام نفاقا، ودخلوا المسجد وأدوا الشعائر مع المسلمين، وهم يظنون أنهم يخادعون الله ورسوله وهو خادعهم.

ونتج عن هذه المعايشة السلمية التي كانت بين المسلمين واليهود والطوائف المشركة الأخرى التي كانت في المدينة غير المسلمين واليهود أن قام رسول ﷺ بكتابة صحفية تكون بمثابة دستور بين هذه الطوائف يحكمها ويحفظ حق كل طائفة منها، في أداء شعائرها بحرية تامة، على أن تؤدى كل طائفة واجبات التعايش السلمي مع جيرانها في البلد الواحد، فلا تساعد الأعداء عليها ولا تحالفهم ولا تجيرهم.

واعترفت هذه الصحيفة بأن المدينة المنورة قد أصبحت دولة صغرى لها كيانها وقوانينها.

وأن النبي ﷺ رئيس تلك الدولة وهو يجمع في يديه السلطتين الروحية والسياسية[929].

إذن نظَّم النَّبيُّ ﷺ العلاقات بين سكان المدينة، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التَّاريخية، واستهدف هذا الكتاب، أو الصَّحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق، والواجبات، وقد سُمِّيت في المصادر القديمة بالكتاب، والصَّحيفة، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة (الدُّستور).

ولقد تعرَّض الدُّكتور أكرم ضياء العمري في كتابه «السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة» لدراسة طرق ورود الوثيقة، وقال: «ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصَّحيحة»[930]، وبيَّن: أنَّ أسلوب الوثيقة ينمُّ عن أصالتها؛ «فنصوصها مكوَّنةٌ من كلماتٍ، وتعابير كانت مألوفةً في عصر الرَّسول ﷺ، ثم قَلَّ استعمالها فيما بعد، حتَّى أصبحت مغلقةً على غير المتعمّقين في دراسة تلك الفترة. وليس في هذه الوثيقة نصوصٌ تمدح، أو تقدح فرداً، أو جماعةً، أو تخصُّ أحداً بالإطراء، أو الذَّمِّ؛ لذلك يمكن القول بأنَّها وثيقةٌ أصليةٌ، وغير مزوَّرةٍ»[931]، ثمَّ إنَّ التَّشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة، وأساليب كُتُبِ النَّبيِّ ﷺ يعطيها توثيقاً آخر.

1. كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود:

نصُّ الوثيقة[932]:

- هذا كتابٌ من محمَّد النَّبيِّ «رسول الله» بين المؤمنين، والمسلمين من قريشٍ، «وأهل يثرب»، وَمَنْ تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم.

- إنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاس.

---

[929] موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، علي بن نايف الشحود، ص391.

[930] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري، (275/1).

[931] تنظيمات الرَّسول الإدارية في المدينة، لصالح أحمد العلي، مجلَّة المجمَّع العلمي العراقي، المجلَّد السَّابع عشر، بغداد، 1969م، ص 4 . 5.

[932] مجموعة الوثائق السِّياسية لمحمد حميد الله، دار النَّفائس، الطَّبعة الخامسة، 1405 هـ، 1985م، ص 41 . 47، وابن هشام (147/2 . 150).

– المهـاجرون من قريشٍ على رِبْعتهم[933]، يتعـاقلون بينهم، وهم يَفْـدُون عـانِيَهم[934] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

– وبنو عَوْف على رِبْعتهم، يتعـاقلون معـاقلهم[935]الأولى، وكـلُّ طـائفـةٍ تَفْـدي عـانِيَهـا بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

– وبنو الحارث «بنو الخزرج» على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

– وبنو ســـاعدة على رِبْعتهم، يتعاقلون معـاقلهم الأولى، وكلُّ طـائفةٍ تَفْـدي عـانيهـا بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

– وبنو جُشَم على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

– وبنو النَّجـار على رِبْعتهم، يتعـاقلون معـاقلهم الأولى، وكـلُّ طـائفـةٍ تَفْـدي عـانيهـا بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

– وبنو عمرو بن عوف على رِبْعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

– وبنو النَّبيـت على رِبْعتهم، يتعـاقلون معـاقلهم الأولى، وكـلُّ طـائفـة تَفْـدي عـانيهـا بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

– وبنو الأوس على رِبْعتهم، يتعـاقلون معـاقلهم الأولى، وكـلُّ طـائفـة تَفْـدي عـانيهـا بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

– وإنَّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحـاً[936] بينهم أن يُعْطوه بالمعروف؛ من فِداءٍ، أو عَقْل،

---

[933] الربعة: الحال الَّتي جاء الإسلام، وهم عليها.

[934] العاني: الأسير.

[935] معاقلهم: المعاقل أي: الدِّيات، الواحدة: معقلة.

[936] مُفْرَحاً: أي: المثقل بالدَّين، والكثير العيال.

وألا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونَه.

– وإنَّ المؤمنين المتَّقين «أيديهم» على «كلِّ» مَنْ بغى منهم، أو ابتغى دَسِيعةَ[937] ظُلْمٍ، أو إثماً، أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وإنَّ أيديهم عليه جميعاً، ولو كان وَلَدَ أحدهِم.

– ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمناً في كافرٍ، ولا يَنْصُر كافراً على مؤمنٍ.

– وإنَّ ذمة الله واحدةٌ، يُجير عليهم أدناهم، وإنَّ المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون النَّاس.

– وإنَّه مَنْ تبعنا من يهود، فإنَّ له النَّصرَ، والأُسوة غير مظلومين، ولا متناصرٍ عليهم.

– وإنَّ سِلْمَ المؤمنين واحدةٌ، لا يسالم مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتالٍ في سبيل الله إلا على سواءٍ، وعدلٍ بينهم.

– وإنَّ كلَّ غازيةٍ غزت معنا يُعْقب بعضها بعضاً.

– وإنَّ المؤمنين يُبِيءُ[938] بعضهم على بعضٍ بما نال دماءهم في سبيل الله.

– وإنَّ المؤمنين المتَّقين على أحسن هدىً، وأقومه، وإنَّه لا يجير مشركٌ مالاً لقريشٍ، ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمنٍ.

– وإنَّه من اعتبط[939] مؤمناً قتلاً عن بيِّنةٍ؛ فإنَّه قَوَدٌ[940] به، إلا أن يرضى وليُّ المقتول بـ (العَقْل)، وإنَّ المؤمنين عليه كافَّةً، ولا يحلُّ لهم إلا قيامٌ عليه.

– وإنَّه لا يحلُّ لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصَّحيفة، وامن بالله واليوم الآخر، أن ينصر مُحْدِثاً، أو يُؤْوِيه، وإنَّ مَنْ نصره، أو اواه، فإنَّ عليه لعنةَ الله، وغضبه يوم القيامة، ولا يُؤْخذ منه صرفٌ، ولا عدلٌ.

– وإنَّه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ، فإنَّ مردَّه إلى الله، وإلى محمَّدٍ ﷺ .

---

[937] دسيعة: عظيمة.

[938] يُبِئ: من البَوَاء وهو المساواة.

[939] أي: قتله دون جنايةٍ، أو سببٍ يوجب قتله.

[940] القود: القصاص.

- وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

- وإن يهود بني عوف أمَّـةٌ مع المؤمنين؛ لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا ظلم نفسه، وأَثِمَ، فإنَّه لا يُوتِغُ[941] إلا نفسَه، وأهلَ بيته.

- وإنَّ ليهود بني النَّجار مثل ما ليهود بني عوفٍ.

- وإنَّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوفٍ.

- وإنَّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوفٍ.

- وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوفٍ.

- وإنَّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوفٍ.

- وإنَّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوفٍ، إلا من ظَلَمَ، وأَثِمَ، فإنَّه لا يُوتِغُ إلا نفسَه، وأهلَ بيته.

- وإنَّ جَفْنَةَ بطنٍ مِن ثعلبة كأنفسهم.

- وإنَّ لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوفٍ، وإنَّ البر دون الإثم.

- وإنَّ موالي ثعلبة كأنفسهم.

- وإنَّ بطانة يهود كأنفسهم. (بطانة الرَّجل: أي: خاصَّته، وأهل بيته).

- وإنَّه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمَّد ﷺ .

- وإنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنَّ بينهم النَّصرَ على من حارب أهل هذه الصَّحيفة، وإنَّ بينهم النُّصح، والنَّصيحة، والبرُّ دون الإثم.

- وإنَّه لا يأثم امرؤٌ بحليفه، وإنَّ النَّصر للمظلوم.

- وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

- وإنَّ يثرب حرامٌ جَوْفُها لأهل هذه الصَّحيفة.

---

[941] يوتغ: يهلك، والوتغ ـ بالتَّحريك ـ: الهلاك. والمعنى: فسد، وهلك، وأثم.

- وإنَّ الجار كالنَّفس غير مُضارٍّ، ولا اثم.

- وإنَّه لا تُجار حُرمةٌ إلا بإذن أهلها.

- وإنَّه ما كان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدثٍ، أو اشتجار يُخاف فسادُه، فإنَّ مَرَدَّهُ إلى الله - عزَّ و جلَّ - وإلى محمَّدٍ رسول الله ﷺ، وإنَّ الله على أتقى ما في هذه الصَّحيفة وأبرِّه (أي: إنَّ الله، وحزبه المؤمنين على الرِّضا به).

- وإنَّه لا تُجارُ قريشٌ، ولا مَنْ نصرها، وإنَّ بينهم النَّصرَ على من دَهَمَ يثربَ.

- وإذا دُعوا إلى صلحٍ يصالحونه، ويَلْبَسونه؛ فإنَّهم يصالحونه، ويلبسونه، وإنَّهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك؛ فإنَّه لهم على المؤمنين، إلا مَنْ حارب في الدِّين. وعلى كلِّ أناسٍ حِصَّتُهم من جانبهم الَّذي قِبَلَهم.

- وإنَّ يهود الأوس - مواليهم، وأنفسهم - على مثل ما لأهل هذه الصَّحيفة، مع البرِّ المحض من أهل هذه الصَّحيفة، وإنَّ البرَّ دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه، وإنَّ الله على أصدق ما في هذه الصَّحيفة وأبرِّه.

- وإنَّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالمٍ، أو اثمٍ، وإنَّه مَنْ خرج امنٌ، ومن قعد امنٌ بالمدينة، إلا من ظَلم، وَأَثِمَ، وإنَّ الله جارٌ لمن برَّ، واتقى، ومحمَّدٌ رسولُ الله ﷺ[942] .

2. دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد من الوثيقة:

أ - تحديد مفهوم الأمَّة:

تضمَّنت الصَّحيفة مبادئ عامَّةً، درجت دساتير الدُّول الحديثة على وضعها فيها، وفي طليعة هذه المبادئ، تحديد مفهوم الأمَّة؛ فالأمَّة في الصَّحيفة تضمُّ المسلمين جميعهم، مهاجريهم، وأنصارهم، وَمَنْ تبعهم ممَّن لحق بهم، وجاهد معهم، أمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاس[943]، وهذا شيءٌ جديدٌ كلَّ الجدَّة في تاريخ الحياة السِّياسيَّة في جزيرة العرب؛ إذ نقل الرَّسول ﷺ قومه من شعار القبليَّة، والتَّبعيَّة لها، إلى شعار الأمَّة، الَّتي تضمُّ كلَّ من اعتنق

[942] مجموعة الوثائق السِّياسيَّة، ص 41 . 47.

[943] التَّاريخ السِّياسي والعسكري، د. علي معطي، ص 169.

الدِّين الجديد، فلقد قالت الصَّحيفة عنهم: «إنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ» (الفقرة: 1، 2). وقد جاء به القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92]، وبيَّن سبحانه وتعالى وسطية هذه الأمَّة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]، ووضَّح - سبحانه وتعالى -: أنَّها أمَّةٌ إيجابيَّة؛ فهي لا تقف موقف المتفرّج من قضايا عصرها؛ بل تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى الفضائل، وتحذِّر من الرَّذائل[944]. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: 110] .

وبهذا الاسم الَّذي أُطلق على جماعةٍ من المسلمين، والمؤمنين، ومَنْ تبعهم من أهل يثرب اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة؛ الَّتي ترتبط فيما بينها برابطة الإسلام؛ فهم يتكافلون فيما بينهم، وهم ينصرون المظلوم على الظَّالم، وهم يرعون حقوق القرابة، والمحبَّة، والجوار[945]. لقد انصهرت طائفتا الأوس، والخزرج في جماعة الأنصار، ثمَّ انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين، وأصبحوا أمَّةً واحدةً[946]، تربط أفرادها رابطةُ العقيدة، وليس الدَّم، فيتَّحد شعورهم، وتتَّحد أفكارهم، وتتَّحد قبلتهم، ووجهتهم، وولاؤهم لله وليس للقبيلة، واحتكامهم للشَّرع وليس للعُرْف، وهم يتمايزون بذلك كلِّه على بقيَّة النَّاس «من دون النَّاس»، فهذه الرَّوابط تقتصر على المسلمين، ولا تشمل غيرهم من اليهود، والحلفاء، ولا شكَّ: أنَّ تمييز الجماعة الدِّينية كان أمراً مقصوداً، يستهدف زيادة تماسكها، واعتزازها بذاتها[947]، ويتَّضح ذلك في تمييزها بالقبلة، واتجاهها إلى الكعبة، بعد أن اتَّجهت ستة عشر، أو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس[948].

---

(944) دستورٌ للأمَّة من القرآن والسُّنَّة، د. عبد النَّاصر العطَّار، مؤسَّسة علوم القرآن، الشَّارقة، عجمان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطَّبعة الأولى، 1414هـ، 1993م، ص 9.

(945) التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ، د. السَّيِّد عبد العزيز سالم، ص 100.

(946) قيادة الرسول السِّياسيَّة، والعسكريَّة لأحمد راتب عرموش، دار النَّفائس، الطَّبعة الأولى، 1419 هـ، 1989 م، ص 93.

(947) السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة، (293/1).

(948) تاريخ خليفة بن خياط، ص 23 ـ 24، وسيرة ابن هشام، (550/1).

وقد مضى النَّبيُّ ﷺ يميِّز أتباعه عمَّن سواهم في أمورٍ كثيرةٍ، ويوضِّح لهم: أنَّه يقصد بذلك مخالفة اليهود، ومن ذلك: أنَّ اليهود لا يُصلُّون بالخِفاف، فأذن النَّبيُّ ﷺ لأصحابه أن يصلُّوا بالخُفِّ، واليهود لا تصبغ الشَّيب، فصبغ المسلمون شيب رؤوسهم بالحنَّاء، والكَتَم[949]، واليهود تصوم عاشوراء، والنبيُّ ﷺ يصومه أيضاً، ثمَّ اعتزم في أواخر حياته أن يصوم تاسوعاء معه؛ مخالفةً لهم[950]. ثمَّ إنَّ النَّبيَّ ﷺ وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم، والتميُّز عليهم، فقال: «مَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[951]، وقال أيضاً: «لا تشبَّهوا باليهود»[952]. والأحاديث في ذلك كثيرةٌ، وهي تفيد معنى تميُّز المسلمين، واستعلائهم على غيرهم، ولا شك: أنَّ التشبُّه، والمحاكاة للآخرين يتنافى مع الاعتزاز بالذَّات، والاستعلاء على الكفار، ولكن هذا التَّميُّز، والاستعلاء، لا يشكِّل حاجزاً بين المسلمين، وغيرهم، فكيان الجماعة الإسلاميَّة مفتوح، وقابلٌ للتوسُّع، ويستطيع الانضمامَ إليه مَنْ يؤمن بعقيدته[953].

واعتبرت الصَّحيفة اليهود جزءاً من مواطني الدَّولة الإسلاميَّة، وعنصراً من عناصرها؛ ولذلك قيل في الصَّحيفة: «وإنَّه من تبعنا من يهود، فإنَّ له النَّصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصرٌ عليهم» (الفقرة 16)، ثمَّ زاد هذا الحكم إيضاحاً، في الفقرة (25) وما يليها؛ حيث نصَّ فيها صراحةً بقوله: «وإنَّ يهود بني عوف أمَّةٌ مع المؤمنين...».

وبهذا ترى: أنَّ الإسلام قد اعتبر أهل الكتاب؛ الَّذين يعيشون في أرجائه مواطنين، وأنَّهم أمَّةٌ مع المؤمنين، ما داموا قائمين بالواجبات المترتِّبة عليهم؛ فاختلاف الدِّين ليس - بمقتضى أحكام الصَّحيفة - سبباً للحرمان من مبدأ المواطنة[954].

---

[949] الكَتَم: جَنْبَةٌ من الفصيلة المرسينية، قريبة من الاس، تنبت في المناطق الجبلية، وكانت تُستعمل قديماً في الخِضابِ، وَصُنْعِ المِداد.

[950] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (293/1).

[951] أخرجه أحمد (50/2 و92) وأبو داود (4031) وعبد بن حميد (848).

[952] أخرجه أحمد (165/1) والنسائي (137/8) وأبو يعلى (681).

[953] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (293/1).

[954] نظام الحكم في الشَّريعة والتَّاريخ الإسلامي، لظافر القاسمي، دار النفائس، الطَّبعة السادسة، 1411 هـ، 1990 م، (37/1).

ب – المرجعيَّة العليا لله ورسوله ﷺ:

جعلت الصَّحيفة الفصل في كل الأمور بالمدينة يعود إلى الله، ورسوله ﷺ، فقد نصَّت على مرجع فضِّ الخلاف في الفقرة (23)، وقد جاء فيها: «وإنَّه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ، فإنَّ مردَّه إلى الله، وإلى محمَّد ﷺ » والمغزى من ذلك واضحٌ، وهو تأكيدُ سلطةٍ عليا دينيَّةٍ، تُهيمن على المدينة، وتفصل في الخلافات؛ منعاً لقيام اضطراباتٍ في الدَّاخل من جرَّاء تعدُّد السُّلطات، وفي الوقت نفسه تأكيدٌ ضمنيٌّ برئاسة الرَّسول ﷺ على الدَّولة[955]، فقد حدَّدت الصَّحيفة مصدر السُّلطات الثلاثة: التَّشريعية، والقضائية، والتَّنفيذية، فكان رسول الله ﷺ، حريصاً على تنفيذ أوامر الله، من خلال دولته الجديدة؛ لأنَّ تحقيق الحاكمية لله على الأمَّة هو محض العبوديَّة لله تعالى؛ لأنَّه بذلك يتحقَّق التَّوحيد، ويقوم الدِّين. قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ **[يوسف: 40]** .

يعني: «ما الحكم الحقُّ في الرُّبوبية، والعقائد، والعبادات، والمعاملات إلا لله وحده، يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمكن لبشرٍ أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله، ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله، لا تختلف باختلاف الأزمنة، والأمكنة»[956].

لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبوديَّة، والحاكميَّة لله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ **[الزمر: 2-3]**.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ **[النساء: 105]** فكما أنَّ تحقيق العبودية غايةٌ من إنزال الكتاب؛ فكذلك تطبيق الحاكميَّة غايةٌ من إنزاله، وكما أنَّ العبادة لا تكون إلا عن وحي مُنَزَّل؛ فكذلك لا

[955] التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ، للسيد عبد العزيز، ص 102.

[956] تفسير المنار، (309/12).

ينبغي أن يُحكم إلا بشرع منزَّلٍ، أو بما له أصلٌ في شرعٍ مُنزَّلٍ[957].

إنَّ تحقيق الحاكميَّة تمكينٌ للعبوديَّة، وقيامٌ بالغاية الَّتي من أجلها خُلق الإنسـان، والجان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56] .

وقد اعترف اليهود في هذه الصَّحيفة بوجود سلطة قضائيَّة عليا، يرجع إليها سكَّان المدينة – بما فيهم اليهود – بموجب بند رقم (43)، لكنَّ اليهود لم يُلزَموا بالرُّجوع إلى القضاء الإسلاميِّ دائماً؛ بل فقط عندما يكون الحدث، أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين، أمَّا في قضاياهم الخاصَّة، وأحوالهم الشَّخصيَّة، فهم يحتكمون إلى التَّوراة، ويقضي بينهم أحبارها، ولكن إذا شاؤوا؛ فبوسعهم الاحتكام إلى النَّبيِّ ﷺ، وقد خيَّر القرآن الكريم النَّبيَّ ﷺ بين قبول الحكم فيهم، أو ردِّهم إلى أحبارهم، قال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: 42] .

ومن القضايا التي أراد اليهود تحكيم الرَّسول ﷺ فيها اختلافُ بني النَّضير، وبني قريظة في دِيَة القتلى بينهما، فقد كانت بنو النَّضير أعزَّ من بني قريظة، فكانت تفرض عليهم دِيَةً مضاعفةً لقتلاها، فلمَّا ظهر الإسلام في المدينة؛ امتنعت بنو قريظة عن دفع الضِّعف، وطالبت بالمساواة في الدِّيَة[958]، فنزلت الآية: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: 45] .

وبهذه الصَّحيفة – الَّتي أقرَّت المادة (43): على «أنَّه ما كان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدثٍ، أو اشتجارٍ يُخاف فساده. فإنَّ مردَّه إلى الله، وإلى محمَّدٍ رسوله ﷺ » – أصبح للرَّسول ﷺ سلطةٌ قضائيَّةٌ مركزيَّةٌ عليا، يرجع إليها الجميع، وجعلها ترجع إلى الله وإلى الرَّسول ﷺ، ولها قوَّةٌ تنفيذيَّةٌ؛ لأنَّ أوامر الله واجبة الطَّاعة، وملزمة التَّنفيذ، كما أنَّ أوامر الرَّسول

---

[957] الحكم والتَّحاكم في خطاب الوحي، لعبد العزيز مصطفى كامل، دار طيبة، الطَّبعة الأولى، 1415هـ، 1995م، (433/1).

[958] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (291/1).

ﷺ هي من الله، وطاعتها واجبة[959].

وبذلك أصبح رسول الله ﷺ رئيسَ الدَّولة، وفي الوقت نفسه رئيس السُّلطة القضائيَّة، والتَّنفيذيَّة، والتَّشريعية؛ فقد تولَّى رسول الله ﷺ السُّلطات الثلاث، بصفته رسول الله ﷺ، المكلَّف بتبليغ شرع الله، والمفسِّر لكلام الله، والسُّلطة التَّنفيذيَّة بصفته الرَّسول الحاكم، ورئيس الدَّولة، فقد تولَّى رئاسة الدَّولة وَفْقَ نصوص الصَّحيفة، وباتفاق الطَّوائف المختلفة الموجودة في المدينة، ممَّن شملتهم نصوص الصَّحيفة في المادة (36)، الَّتي تقرِّر: أنَّه: «لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمَّدٍ ﷺ » ولهذا تأثيرٌ كبيرٌ في عدم السَّماح لهم بمحالفة قريش، أو غيرها من القبائل المعادية. وهناك المادَّة (44) الَّتي ذهبت إلى ما هو أبعد، وأصرح من ذلك؛ إذ قرَّرت: أنَّه: «لا تُجارُ قريشٌ، ولا مَنْ نَصَرَها»، ولم يَرِدْ في الصَّحيفة اسمٌ لأيِّ شخصٍ ما عدا رسولِ الله ﷺ [960].

ج – إقليم الدَّولة:

وجاء في الصَّحيفة: «إنَّ يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصَّحيفة» مادة (40)، وأصل التَّحريم ألا يقطع شجرها، ولا يقتل طيرها، فإذا كان هذا هو الحكم في الشَّجر والطَّير، فما بالك في الأموال، والأنفس؟![961] فهذه الصَّحيفة حدَّدت معالم الدَّولة: أمَّةٌ واحدةٌ، وإقليمٌ هو المدينة، وسلطةٌ حاكمةٌ يُرْجَع إليها، وتَحْكُم بما أنزل الله.

إنَّ المدينة كانت بداية إقليم الدَّولة الإسلاميَّة، ونقطة الانطلاق، ومركز الدَّائرة؛ الَّتي كان الإقليم يتَّسع منها، حتَّى يضع حدّاً للقلاقل والاضطرابات، ويسوده السلم، والأمن العام.

وقد أرسل النَّبيُّ ﷺ أصحابه ليثبِّتوا أعلاماً على حدود حرم المدينة من جميع الجهات، وحدود المدينة بين لابَتَيْها شرقاً وغرباً، وبين جبل ثَوْر في الشمال، وجبل عَيْر في

---

[959] دولة الرَّسول ﷺ من التَّكوين إلى التَّمكين، ص 418.

[960] [960] دولة الرَّسول ﷺ من التَّكوين إلى التَّمكين، المصدر السابق، ص 420.

[961] نظام الحكم في الشَّريعة والتَّاريخ الإسلامي، لظافر القاسمي، دار النفائس، الطَّبعة السادسة، 1411 هـ، 1990 م، (38/1).

الجنوب[962].

ثمَّ اتسع «الإقليم» باتِّساع الفتح، ودخول شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام، حتَّى عمَّ مساحةً واسعةً في الأرض، والبحر، وما يعلوهما من فضاء، فمن المحيط الأطلسي غرباً، ومناطق واسعةٍ من غرب أوربة، وجنوبها، ومناطق فسيحةٍ من غرب اسية وجنوبها، إلى أكثر أهل الصِّين وروسية شرقاً، وكلِّ شمال إفريقية وأواسطها[963]. إنَّ إقليم الدَّولة مفتوحٌ وغير محدودٍ بحدود جغرافيَّةٍ، أو سياسيَّةٍ؛ فهو يبدأ من عاصمة الدَّولة «المدينة»، ويتَّسع حتَّى يشمل الكرة الأرضيَّة بأسرها.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ **[الأعراف: 128]** كما أنَّ مفهوم الأمَّة مفتوحٌ وغير منغلقٍ على فئةٍ دون فئةٍ؛ بل هي ممتدَّةٌ لتشمل الإنسانيَّة كلَّها، إذا ما استجابت لدين الله تعالى؛ الذي ارتضاه لخلقه، ولبني ادم أينما كانوا، فالدَّولة الإسلاميَّة دولةُ الرِّسالة العالمية، لكلِّ فردٍ من أبناء المعمورة نصيبٌ فيها، وهي تتوسَّع بوسيلة الجهاد[964].

د - الحرِّيَّات وحقوق الإنسان:

إنَّ الصَّحيفة تدلُّ بوضوحٍ، وجلاءٍ على عبقرية الرَّسول ﷺ في صياغة موادِّها، وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعضٍ؛ فقد كانت موادُّها مترابطةً، وشاملةً، وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة آنذاك، وفيها من القواعد والمبادئ ما يحقِّق العدالة المطلقة، والمساواة التَّامَّة بين البشر، وأن يتمتَّع بنو الإنسان على اختلاف ألوانهم، ولغاتهم، وأديانهم، بالحقوق والحرِّيَّات بأنواعها[965]. يقول الأستاذ محمد سليم العوَّا: «ولا تزال المبادئ التي تضمَّنها الدستور - في جملتها - معمولاً بها، والأغلب أنَّها ستظل كذلك في مختلف نُظُم الحكم المعروفة إلى اليوم... وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها، في أوَّل وثيقة سياسيَّة دوَّنها

---

[962] قال ﷺ: المدينة حَرَمٌ ما بين عَيْرٍ إلى ثَوْر، فمن أحدث فيها حدثاً، أو اوى مُحْدِثاً، فعليه لعنة الله... البخاري (6755)، ومسلمٌ، كتاب الحجِّ، باب فضل المدينة... وبيان حدود حرمها، رقم (1370).

(963) دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، ص 411.

[964] دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، ص 421.

[965] دولة الرَّسول ﷺ من التكوين إلى التمكين، المصدر السابق، ص 420.

الرَّسول ﷺ ».

فقد أعلنت الصَّـــحيفة: أنَّ الحرِّيات مصـــونةٌ؛ كحرية العقيدة، والعبادة، وحقِ الأمن... إلخ، فحرية الدِّين مكفولةٌ: «للمســـلمين دينهم، ولليهود دينهم». قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْـدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْـتَمْسَـكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَـامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256] وقد أنذرت الصَّـــحيفة بإنزال الوعيد، وإهلاك من يخالف هذا المبدأ، أو يكسر هذه القاعدة، وقد نصَّت الوثيقة على تحقيق العدالة بين النَّاس، وعلى تحقيق مبدأ المساواة.

إنَّ الدَّولة الإسلاميَّة واجبٌ عليها أن تقيم العدل بين الناس، وتفسح المجال وتيسِّر السُّبل أمام كلِّ إنسانٍ – يطلب حقَّه – أن يصل إلى حقِّه بأيسر السُّبل، وأسرعها، دون أن يكلِّفه ذلك جهداً، أو مالاً[966]، وعليها أن تمنع أيَّ وسـيلةٍ من الوسـائل، التي من شـأنها أن تعوق صاحب الحقِّ من الوصول إلى حقِّه.

لقد أوجب الإسلام على الحكَّام أن يقيموا العدلَ بين النَّاس دون النَّظر إلى لغاتهم، أو أوطانهم، أو أحوالهم الاجتماعيَّة، فهو يعدل بين المتخاصمين، ويحكم بالحقِّ، ولا يهمُّه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء، أو أعداء، أغنياء، أو فقراء، عمالاً أو أصحاب عمل. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8] والمعنى: لا يحملنَّكم بُغض قومٍ على ظلمهم، ومقتضى هذا أنَّه لا يحملنَّكم حبُّ قوم على محاباتهم، والميل إليهم[967].

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي – رحمه الله – معقِّباً على قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: 15] ما نصُّه: «يعني أنَّني مأمور بالإنصاف دون عداوةٍ، فليس من شأني أن أتعصَّب لأحدٍ، أو ضدَّ أحدٍ، وعلاقتي بالنَّاس كلِّهم سواءٌ، وهي علاقة العدل، والإنصاف،

---

[966] النِّظام السِّياسيُّ في الإسلام، لأبي فارس، ص 58.

[967] النِّظام السِّياسيُّ في الإسلام، المصدر السابق، ص 52.

فأنا نصيرُ مَنْ كان الحقُّ في جانبه، وخصيم من كان الحق ضدَّه، وليس في ديني أيُّ امتيازات لأيِّ فردٍ كائناً مَنْ كان، وليس لأقاربي حقوقٌ، وللغرباء حقوقٌ أخرى، ولا للأكابر عندي مميِّزاتٌ لا يحصل عليها الأصاغر، والشُّرفاء والوضعاء عندي سواءٌ، فالحقُّ حقٌّ للجميع، والذَّنب والجُرْم ذنبٌ للجميع، والحرام حرامٌ على الكلِّ، والحلال حلالٌ للكُلِّ، والفرض فرض على الكلِّ، حتَّى أنا نفسي لست مستثنىً من سلطة القانون الإلهيِّ[968].

إنَّ تربية المجتمع المسلم وإعداده لقيادة الإنسانيَّة بخصائصه؛ التي احتواها منهجه التربويُّ حفيَّةٌ أشدَّ الحفاوة بِشِرْعَةِ العدل، وإقامته بين الأفراد، والجماعات، والأمم، والشُّعوب؛ لأنَّ العدل في شمول مواطنه هو دعامةُ القيادة الموفَّقة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ **[النساء: 135]**.

وهذا نصٌّ قرآنيٌّ صريحٌ في تكليف المجتمع القياديِّ المسلم بتحقيق العدل على أتمِّ صوره، وأكمل أحواله، فالعدل على النفس، وعلى أقرب ذوي القربى كالعدل مع غير النفس، وأبعد البُعَدَاء، وفي قوله تعالى: ﴿كُونُوا﴾، أمرٌ للمجتمع المسلم، في جميع أفراده، وجماعاته، أينما حلُّوا من أرض الله، وحيثما كانوا في أوطانهم المتقاربة، أو المتباعدة، وهو أمر كينونة يُشْعر بمادَّته بالإلزام، والالتزام، والتَّهيُّؤ والانبعاث للقيام بإقامة منهج العدل في الحياة، وفي قوله تعالى: بصيغة ﴿قَوَّامِينَ﴾، إيماءٌ إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم من النهوض بإقامة معالم العدل بكلِّ ما أوتي من قوة مادِّية، ورُوحية، مشمِّراً على ساق العزم في بذل الجهد، والتحفُّز للعمل في سبيل توطيد دعائم العدل الاجتماعيِّ.

إنَّ القرآن الكريم – وهو دستور المجتمع المسلم – لا يقف في أسلوبه الَّذي يحضُّ به على الاستمساك بالعدل عند سفح الحياة، ولكنَّه يَلِجُ إلى مداخل الضَّمير الإنسانيِّ، ويأبى عليه أن يخضع في إقامة العدل لعاطفة تتملَّق الغنيَّ لغناه، وسعة ثروته من المال، أو يتملَّق عاطفة

[968] الحكومة الإسلاميَّة، ص 202.

الرَّحمة، فيرحم الفقير لفقره، فيلوي عنه عنق العدل حتى لا يرى ما يقع منه من ظلمٍ، وحَيْفٍ على الحق.

والقرآن بذلك لا يرضى للمجتمع المسلم، أن يحمله تعزُّز الغني بثرائه، وغناه على ألا يقام معه العدل، ويظلم له الفقير، ولا يرضى لهذا المجتمع المسلم أن تحمله الرَّحمة للفقير، فيُحابي بظلم الغنيّ لأجله.

ولا يرضى القرآن الحكيم لمجتمعه المسلم، أن يميل مع الهوى، ويخضع للعواطف، فيحيد عن العدل ليّاً بالحق، وإعراضاً عنه.

وقد جاءت أخت هذه الآية، في نسق أسلوبها، وألفاظها؛ لتكمِّل صورة إقامة العدل على أتمِّ وجوهه، ولتقرِّر: أنَّ موازين العدل يجب أن يتساوى فيها المحبُّ والمبْغض، والقريب والبعيد، والصَّديق والعدوُّ، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ **[المائدة: 8]**.

فصورة الخطاب الكينوني هنا ﴿كُونُوا﴾ الَّذي يجعل من العدل طبيعة خلائق المجتمع المسلم؛ الَّذي نيطَ به قيادة الإنسانيَّة – هي صورته هناك؛ لأنَّ العدل أمانة هذا المجتمع المسلم العظمى الَّتي حملوها؛ ليؤدُّوها إلى النَّاس في حياتهم[969]؛ بيد أنَّ الأمر قد اختلف في الآيتين اختلافاً جَمَعَ مُتَفَرِّقَ مواطنِ العدل باعتباره أصلاً من أصول الرِّسالة الخالدة الخاتمة؛ الَّذي يعمُّ الحياة من جميع جوانبها؛ ففي الآية الأولى وجَّه الأمر للمجتمع المسلم بأشرف أوصافه – قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ – إلى أن يكون قوَّاماً بالعدل، ولو كان في ذلك مراغمةُ منازع الحبِّ، والودِّ، والقربى، وفي هذه الآية الثانية وجَّه الأمر للمجتمع بعنوانه المشرِّف، إلى أن يكون قوَّاماً بالعدل، ولو كان في ذلك مراغمةُ جميع عواطف البغض، والعداوة[970].

وملتقى الآيتين الكريمتين في توجيه المجتمع المسلم توجيهاً صارماً لا هوادة فيه إلى أن يكون نهَّاضاً بالعدل، قائماً به بين النَّاس، له قيادته للإنسانيَّة، وليخلص له التوجُّه إلى الله

---

[969] محمد رسول الله ﷺ، (3/142، 143، 144).

[970] محمد رسول الله ﷺ، المصدر نفسه، (3/144، 145).

تعالى في إخلاص العبوديَّة له وحده، لا تحمله محبَّةٌ مهما عظمت، أو بغضٌ مهما اشتدَّ على الإعراض عن إقامة العدل؛ إحقاقاً للحقِّ، وإنصافاً للمظلوم، ونصراً للضَّعيف[971].

أمَّا مبدأ المساواة؛ فقد جاءت نصوصٌ صريحةٌ في الصَّحيفة حولها، منها: «أن ذمَّة الله واحدة»، وأن المسلمين «يجير عليهم أدناهم»، وأنَّ «المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون النَّاس»، ومعنى الفقرة الأخيرة: أنَّهم يتناصرون في السَّراء والضَّرَّاء (الفقرة 15). وتضمَّنت الفقرة (19): أنَّ «المؤمنين يُبيء بعضهم على بعضٍ، بما نال دماءهم في سبيل الله»، قال السُّهيلي – شارح السيرة – في كتابه (الرَّوض الآنف): «ومعنى قوله يبيء: هو من البَوَاء، أي: المساواة»[972].

ويعدُّ مبدأ المساواة أحد المبادئ العامَّة الَّتي أقرَّها الإسلام، وهو من المبادئ الَّتي تساهم في بناء المجتمع المسلم، ولقد أقرَّ هذا المبدأ، وسبق به تشريعات، وقوانين العصر الحديث، وممَّا ورد في القرآن الكريم تأكيداً لمبدأ المساواة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ **[الحجرات: 13]**.

وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها النَّاس! ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ، وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمرَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أحمرَ، إلا بالتَّقوى. أَبَلَّغْتُ؟».

إنَّ هذا المبدأ كان من أهم المبادئ الَّتي جذبت الكثير من الشُّعوب قديماً نحو الإسلام، فكان هذا المبدأ مصدراً من مصادر القوَّة للمسلمين الأوَّلين[973].

وليس المقصود بالمساواة هنا، (المساواة العامَّة) بين النَّاس جميعاً في أمور الحياة كافَّةً، كما ينادي بعض المخدوعين، ويرون ذلك عدلاً[974]؛ فالاختلاف في المواهب، والقدرات،

---

[971] محمَّد رسول الله ﷺ، (145/3).

[972] الرَّوض الأُنف (17/2)، نقلاً عن نظام الحكم، للقاسمي (38/1).

[973] مبادئ نظام الحكم في الإسلام، لعبد الحميد متولِّي، ص 385.

[974] الأخلاق الإسلاميَّة وأسُسها، لعبد الرَّحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، (624/1).

والتَّفاوت في الدَّرجات غايةٌ من غايات الخلق[975]؛ ولكنَّ المقصود المساواةُ؛ الَّتي دعت إليها الشَّــريعة الإســلاميَّة، مســاواةٌ مقيَّدةٌ بأحوالٍ فيها التَّســاوي، وليســت مطلقةً في جميع الأحوال[976]، فالمسـاواة تأتي في معاملة النَّاس أمام الشَّـرع، والقضـاء، والأحكام الإسـلاميَّة كافَّةً، والحقوق العامَّة دون تفريق بسبب الأصل أو الجنس، أو اللَّون، أو الثروة، أو الجاه، أو غير ذلك[977].

إنَّ النَّاس جميعاً في نظر الإسـلام سـواسـيةٌ، الحاكم، والمحكوم، الرِّجال والنسـاء، العرب والعجم، الأبيض والأسـود، لقد ألغى الإسـلام الفوارق بين النَّاس بسـبب الجنس، واللون، أو النَّسـب، أو الطَّبقة، والحكَّام والمحكومون كلُّهم في نظر الشَّــرع سـواء؛ ولذلك كانت الدَّولة الإسلاميَّة الأولى، تعمل على تطبيق هذا المبدأ بين النَّاس وكانت تراعي الاتي:

. إنَّ مبدأ المساواة أمرٌ تعبُّديٌّ، تؤجر عليه من خالق الخلق سبحانه وتعالى.

ــــــ إســقاط الاعتبارات الطَّبقية، والعُرْفية، والقبليَّة، والعنصــريَّة، والقوميَّة، والوطنية، والإقليمية، وغير ذلك من الشِّـعارات الماحقة لمبدأ المسـاواة الإنسـانيَّة، وإحلال المعيار الإلهيِّ بدلاً عنها للتَّفاضل، ألا وهو التَّقوى.

ــــ ضـرورة مراعاة مبدأ تكافؤ الفرص للجميع، ولا يُراعى أحدٌ لجاهه، أو سـلطانه، أو حسـبه ونسـبه؛ وإنَّما الفرص للجميع، وكلٌّ على حسـب قدراته، وكفاءاته، ومواهبه، وطاقته، وإنتاجه.

. إنَّ تطبيق مبدأ المساواة بين رعايا الدَّولة الإسلاميَّة، يقوِّي صفَّها، ويوحِّد كلمتها، وينتج عنه مجتمعٌ متماسكٌ متراحمٌ يعيش لعقيدةٍ، ومنهجٍ، ومبدأ[978].

كانت الوثيقة قد اشــتملت على أتمِّ ما قد تحتاجه الدَّولة، من مقوِّماتها الدُّســتوريَّة،

---

[975] فلسفة التَّربية الإسلاميَّة، لماجد عرسان الكيلاني، مكتبة هادي، مكَّة المكرَّمة، طبعة عام 1409 هـ، ص 179.

[976] مبادئ علم الإدارة لمحمَّد نور الدِّين عبد الرزَّاق، مكتبة الخدمات الحديثة، جدَّة – السُّعودية، الطَّبعة الأولى بدون تاريخ، ص 116.

[977] فقه التمكين، د. علي الصَّلابي، ص 463.

[978] فقه التَّمكين، ص 466.

والإداريَّة، وعلاقة الأفراد بالدَّولة، وظَلَّ القرآن يتنزَّل في المدينة عشر سنين، يرسم للمسلمين خلالها مناهج الحياة، ويرسي مبادئ الحكم، وأصول السِّياسة، وشؤون المجتمع، وأحكام الحرام والحلال، وأسس التَّقاضي، وقواعد العدل، وقوانين الدَّولة المسلمة في الدَّاخل، والخارج، والسُّنَّة الشريفة تدعم هذا، وتشيده، وتفصِّله في تنوير وتبصرةٍ، فالوثيقة خطَّت خطوطاً عريضة في التَّرتيبات الدُّستورية، وتُعَدُّ في قمَّة المعاهدات الَّتي تحدِّد صلة المسلمين بالأجانب الكفَّار المقيمين معهم، في شيءٍ كثيرٍ من التَّسامح، والعدل، والمساواة، وعلى التَّخصيص إذا لُوحِظَ أنَّها أوَّل وثيقةٍ إسلاميَّة، تُسَجَّل، وتنفَّذ في أقوامٍ كانوا – منذ قريب – وقبل الإسلام – أسرى العصبية القَبَلِيَّة، ولا يشعرون بوجودهم إلا من وراء الغلبة، والتسلُّط، وبالتَّخوض في حقوق الآخرين، وأشيائهم[979].

كانت هذه الوثيقة، فيها من المعاني الحضاريَّة الشيء الكثير، وما توافق النَّاس على تسميته اليوم بحقوق الإنسان، وأنَّه لا بدَّ على الجانبين المتعاقدين أن يلتزموا ببنودها، فهل حدث هذا الالتزام[980].

إنَّ هذه الوثيقة وضَّحت مدى العدالة الَّتي تميَّزت بها معاملة النَّبيِّ ﷺ لليهود، وأعطت لمواطني الدَّولة مفهوم الحرية الدِّينيَّة، وضربت عُرْضَ[981] الحائط بمبدأ التَّعصُّب، ومصادرة الأفكار والمعتقدات، ولم تكن المسألةُ مسألةَ تكتيكٍ مرحليٍّ، ريثما يتسنَّى للرَّسول ﷺ تصفية أعدائه في الخارج، لكي يبدأ تصفيةً أخرى إزاء أولئك الَّذين عاهدهم.. وحاشاه؛ وإنَّما صدر هذا الموقف وَفْقَ سياسةٍ إسلاميَّةٍ منبثقةٍ من شريعةٍ ربَّانيَّة[982]. لقد عقد الرَّسول ﷺ مع اليهود المعاهدات الَّتي تؤمِّن لهم الحياة الكريمة في ظلِّ الدَّولة الإسلاميَّة، بحكم أنَّهم أهل كتاب (أهل الذِّمَّة).

إنَّ التَّربية النَّبويَّة الرَّشيدة، غرست معاني الإيمان في القلوب، وحقَّقت العبوديَّة الخالصة

---

(979) صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، تأليف: د. محمَّد فوزي فيض الله، دار القلم، دمشق، الدَّار الشَّاميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى، 1416هـ، 1996م، ص (29، 30).

(980) هجرة الرَّسول ﷺ وصحابته، للجمل، ص 261.

(981) عُرْض الشَّيء: جانبه، وناحيته. ويقال: ضربَ بالأمر عُرْض الحائط: أهمله، ولم يُبالِ به.

(982) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر العمري، دار العاصمة، الطَّبعة الأولى 1413هـ، ص 121.

لله، وحاربت الشِّـرك بجميع أشكاله، وعلَّمت الصَّـحابة الأخذ بأسـباب النُّهوض، والتَّمكين المعنويَّة، والمادِّيَّة، فقد ربَّى النَّبيُّ ﷺ أصـــحابه على العزَّة، والنَّخوة، والرُّجولة، والشَّـــجاعة، ورفض الذلِّ، ومقاومة الظُّلم، والقضاء عليه، فثابروا، وصابروا، حتَّى انتصروا [983].

خامساً: البعد الإنساني والحضاري في الحياة الاجتماعية والسياسية في السيرة النبوية:

1. الشورى وحرية الرأي والتعبير (مواقف من سيرة النبي ﷺ في المشاورة وأخذ رأي الأفراد والجماعة):

تُعدّ الشورى مبدأ مهما من مبادئ نظام الحكم في الإسلام، وتهدف الشورى إلى تحري المصلحة العامة، ومشاركة الأمة للقائد في اتخاذ القرارات المتعلقة بشؤون الحكم، حيث تظهر أفضل الحلول للمسائل محل الشورى من خلال مقابلة الآراء بعضها ببعض ونقدها وتمحيصها، وتبين أسباب الخلاف، وإيجابيات كل رأي وسلبياته، وتبرز ضرورة الشورى في أنها تساعد على ترابط واتحاد المجتمع المسلم، لإحساس أفراده بقيمتهم في اتخاذ القرار، وتساعد كذلك على التزام المسلمين بطاعة أولي الأمر منهم، الذين أتاحوا لهم فرصة تداول الرأي في الأمور العامة، وكانت الشورى إحدى دعائم الحكم في العهد النبوي، حيث أمر الله سبحانه وتعالى رسوله بمشاورة المسلمين[984] بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ **[آل عمران: 159]**.

وكذلك أمر الله رسوله بالشورى، لأمور:

- لتأليف قلوب أصحابه.
- وليقتدي به من بعده.
- وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحرب والأمور الجزئية وغير ذلك.

[983] الصِّراع مع اليهود لمحمد أبو فارس، دار الفرقان، الطَّبعة الأولى، 1411هـ، 1990م، (80/1).
[984] الإسلام والدستور، (1/ 134).

وغالباً ما يفعل ذلك في الحروب تطييباً لقلوبهم وأخذاً بما يتضح أنه الأولى من آرائهم وتجاربهم. وتنشيطاً لهم فيما يفعلونه.

لذلك قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ وممتناً عليه وعلى المؤمنين[985]: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ **[آل عمران: 159].**

أ. غزوة بدر:

تعتبر غزوة بدر من أبرز الأحداث في السيرة النبوية، وهي ليست مجرد معركة حاسمة بين المسلمين وقريش، بل هي أيضًا نموذج للقيادة الحكيمة والتشاور الجماعي. في هذا الحدث الفارق في تاريخ الإسلام، يظهر لنا النبي ﷺ كيف أن القرار السليم ينبع من الشورى والتفكير المشترك، حتى في أصعب المواقف.

وقعت غزوة بدر بسبب محاولة المسلمين اعتراض قافلة تجارية لقريش كانت عائدة من الشام بقيادة أبي سفيان، كرد فعل على ما فقدوه من أموال وممتلكات عند هجرتهم من مكة. تحولت هذه المحاولة إلى مواجهة عسكرية بعدما علمت قريش بالخطة وأرسلت جيشًا لحماية القافلة. لمَّا بلغ النَّبيَّ ﷺ نجاةُ القافلة، وإصرارُ زعماء مكَّة على قتال النَّبيِّ ﷺ استشار رسولُ الله ﷺ أصحابه في الأمر[986]، وأبدى بعضُ الصَّحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربيَّة مع قريشٍ؛ حيث إنَّهم لم يتوقَّعوا المواجهة، ولم يستعدُّوا لها، وحاولوا إقناع الرَّسول ﷺ بوجهة نظرهم، وقد صوَّر القرآن الكريم موقفَهم، وأحوال الفئة المؤمنة عموماً، في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8)﴾ **[الأنفال: 5-8].**

---

[985] مرويات غزوة الخندق، (ص133).

[986] البخاريُّ، كتاب المغازي، باب {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ}، رقم (3952)، وشرح هذا الحديث في فتح الباري.

وقد أجمع قادة المهاجرين، على تأييد فكرة التَّقُّدم لملاقاة العدوِّ(987)، وكان للمقداد بن الأسود موقفٌ متميِّزٌ، فقد قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: شهدت من الْمِقْدَاد بن الأسود مشهداً، لأن أكونَ صاحِبَهُ أحبُّ إليَّ ممَّا عُدِلَ به(988): أتى النَّبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ﴾، ولكنَّا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخَلْفك، فرأيت النَّبيَّ ﷺ أشرق وَجْهُهُ وسَرَّه؛ يعني: قوله(989).

وفي روايةٍ: قال المقداد: يا رسولَ الله! إنَّا لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ولكن: امضِ ونحن ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، فكأنه سُرِّي عن رسول الله ﷺ(990).

وبعد ذلك عاد رسول الله ﷺ فقال: «أشيروا عليَّ أيها النَّاس!» وكان إنَّما يقصد الأنصار؛ لأنَّهم غالبيةُ جنده، ولأنَّ بيعة العقبة الثَّانية، لم تكن في ظاهرها ملزمةً لهم بحماية الرَّسول ﷺ خارج المدينة، وقد أدرك الصَّحابيُّ سعدُ بن معاذ، - وهو حامل لواء الأنصار - مقصد النَّبيِّ ﷺ من ذلك؛ فنهض قائلاً: (والله! لكأنَّك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: «أجل»، فقال: لقد آمنا بك، وصدَّقناك، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحقُّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا، ومواثيقنا على السَّمع، والطَّاعة، فامضِ يا رسول الله! لما أردت، فنحن معك، فوالَّذي بعثك بالحقِّ! لو استعرضت بنا هذا البحر، فخُضْتَه لخُضْنَاه معك، ما تخلَّف منا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً، إنَّا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللِّقاء، ولعلَّ اللهَ يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فَسِرْ على بركة الله(991).

وسُرَّ النَّبيُّ ﷺ من مقالة سعد بن معاذٍ، ونشَّطه ذلك، فقال ﷺ: «سِيرُوا وأبشروا؛ فإنَّ

---

(987) موسوعة نضرة النَّعيم، (288/1).

(988) المقصود: المبالغة في عظمة ذلك المشهد، وأنَّه كان لو خُيِّر بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك، لكان حصوله أحبَّ إليه.

(989) أخرجه البخاري (3952).

(990) أخرجه البخاري (4609).

(991) ابن هشام (267/2) وبنحوه مسلم (1179).

الله تعالى قد وعدني إحدى الطَّائفتين، والله! لكأنِّي الآن أنظر إلى مصارع القوم»[992].

كانت كلمات سعدٍ مشجِّعةً لرسول الله ﷺ وملهبةً لمشاعر الصَّحابة؛ فقد رفعت معنويات الصَّحابة، وشجَّعتهم على القتال. إنَّ حرص النَّبيِّ ﷺ على استشارة أصحابه في الغزوات، يدلُّ على تأكيد أهمِّية الشُّورى في الحروب بالذَّات؛ ذلك لأنَّ الحروب تقرِّر مصير الأمم، فإمَّا إلى العلياء، وإمَّا تحت الغبراء[993].

يظهر نهج الشورى الذي قام به النبي ﷺ مع أصحابه في هذا الظرف الحساس احترام القيادة لرأي الأفراد، ويعكس تطورًا حضاريًا في تنظيم المجتمع الإسلامي، حيث تُبنى القرارات على توافق جماعي وثقة متبادلة، مما يسهم في تعزيز الوحدة والقوة الجماعية.

ب. غزوة أحد:

غزوة أحد وقعت كرد فعل قريش على هزيمتهم في غزوة بدر، حيث سعت لاستعادة مكانتها بين العرب والانتقام من المسلمين. قاد أبو سفيان جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل لمهاجمة المدينة، ما دفع النبي ﷺ وأصحابه لمواجهتهم عند جبل أحد.

بعد أن جمع ﷺ المعلومات الكاملة عن جيش كفَّار قريشٍ، جمع أصحابه رضي الله عنهم، وشاورهم في البقاء في المدينة والتَّحصُّن فيها، أو الخروج لملاقاة المشركين، وكان رأي النَّبيِّ ﷺ البقاء في المدينة، وقال: «إنَّا في جُنَّة حصينةٍ، فإن رأيتم أن تقيموا، وتَدَعُوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا؛ أقاموا بشرِّ مُقامٍ، وإن دخلوا علينا؛ قاتلناهم فيها»[994] وكان رأيُ عبد الله بن أُبيِّ بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ [995]، إلا أنَّ رجالاً من المسلمين ممَّن فاتتهم بدرٌ قالوا: يا رسول الله! اخرج بنا إلى أعدائنا.

---

[992] البيهقي في دلائل النبوة (34/3) وابن هشام (267/2).

[993] غزوة بدر الكبرى، لأبي فارس، ص 37.

[994] تاريخ الطَّبري، (60/2).

[995] غزوة أحد دراسةٌ دعويَّةٌ، لمحمَّد عيظة بن سعيد من مذحج، دار إشبيليا، الطَّبعة الأولى، 1420هـ، 1999م، ص 82.

قال ابن كثير: «وأبى كثيرٌ من النَّاس إلا الخروج إلى العدوِ، ولم يتناهوا إلى قول رســـول اللهﷺ، ورأيه، ولو رضُـــوا بالَّذي أمرهم كان ذلك، ولكن غلب القضـــاء والقدر، وعامَّة مَنْ أشار عليه بالخروج رجالٌ لم يشهدوا بدراً، قد علموا الَّذي سبق لأهل بدرٍ من الفضيلة»[996].

وقال ابن إسحاق: فلم يزلِ النَّاسُ برسول اللهﷺ الَّذين كان من أمرهم حُبُّ لقاء القوم، حتَّى دخل رسولُ اللهﷺ بيته، فلبس لأمَتَهُ[997]، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبيُّ اللهﷺ بأمرٍ، وعرضـــتم بغيره، فاذهب يا حمزة! فقل لنبيِّ اللهﷺ: «أمرنا لأمرك تَبَعٌ»، فأتى حمزةُ، فقال له: يا نبيَّ الله! إنَّ القوم تلاوموا، فقالوا: أمرُنا لأمرك تبع، فقال رسـول اللهﷺ: «إنَّه ليس لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها؛ حتَّى يقاتل»[998].

كان رأيُ مَنْ يرى الخروج إلى خارج المدينة مبنيَّاً على أمورٍ؛ منها:

1 – أنَّ الأنصار قد تعاهدوا في بيعة العقبة الثَّانية، على نصرة الرَّسولﷺ، فكان أغلبُهم يرى: أنَّ المكوث داخل المدينة، تقاعسٌ عن الوفاء بهذا العهد.

2 – أنَّ الأقليَّة من المهاجرين، كانت ترى: أنَّها أحقُّ من الأنصـــار بالدِّفاع عن المدينة، ومهاجمة قريش، وصدِّها عن زروع الأنصار.

3 – أنَّ الَّذين فاتتهم غزوة بدر كانوا يتحرَّقون شـوقاً من أجل ملاقاة الأعداء؛ طمعاً في الحصول على الشَّهادة في سبيل الله.

4 – أنَّ الأكثرين كانوا يَرَوْنَ: أنَّ في محاصرة قريشٍ للمدينة، ظفراً يجب ألا تَحْلُم به، كما

---

[996] البداية والنِّهاية، (14/4).

[997] لأمة الحرب: عدَّتها.

[998] السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام، (71/3). أحمد (351/3) ، وعبد الرزاق في المصنف (364/5، 365) ، وابن سعد (38/2) ، والبيهقي في الدلائل (208/3)، ومجمع الزوائد (107/6).

توقَّعوا: أنَّ وقت الحصار سيطول أمده، فيصبح المسلمون مهدَّدين بقطع المؤن عنهم[999].

أمَّا رأي مَنْ يرى البقاء في المدينة فهو مبنيٌّ على التَّخطيط الحربيِّ الآتي:

1 – إنَّ جيش مكَّةَ لم يكن موحَّدَ العناصر؛ وبذلك يستحيل على هذا الجيش البقاء زمناً طويلاً؛ إذ لابدَّ من ظهور الخلاف بينهم. إن عاجلاً، أو اجلاً.

2 – إنَّ مهاجمة المدن المصمِّمة على الدِّفاع عن حياضها، وقلاعها، وبيضتها أمرٌ بعيد المنال؛ وخصوصاً إذا تشابه السِّلاح عند كِلا الجيشين، وقد كان يوم أحدٍ متشابهاً.

3 – إنَّ المدافعين إذا كانوا بين أهليهم؛ فإنَّهم يستبسلون في الدِّفاع عن أبنائهم، وحماية نسائهم، وبناتهم، وأعراضهم.

4 – مشاركة النِّساء، والأبناء في القتال، وبذلك يتضاعف عدد المقاتلين.

5 – استخدام المدافعين أسلحةً لها أثر في صفوف الأعداء؛ مثل الأحجار وغيرها، وتكون إصابة المهاجمين في متناولهم[1000].

من الواضح: أنَّ الرَّسول ﷺ ، عوَّد أصحابه على التَّصريح بآرائهم عند مشاورته لهم؛ حتَّى ولو خالفت رأيه، فهو إنَّما يشاورهم فيما لا نصَّ فيه؛ تعويداً لهم على التَّفكير في الأمور العامَّة، ومعالجة مشكلات الأمَّة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرَّأي، ولم يحدث أن لام الرَّسولُ ﷺ أحداً؛ لأنه أخطأ في اجتهاده، ولم يوفَّق في رأيه، وكذلك فإنَّ الأخذ بالشُّورى مُلْزِمٌ للإمام، فلابدَّ أن يُطبِّق الرَّسول ﷺ التَّوجيه القرآني: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ **[آل عمران: 159]** لتعتاد الأمَّة

[999] غزوة أحد، لأحمد عز الدِّين، ص 51 . 52.

[1000] القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول(ﷺ)، الرشيد، دار القلم، الطَّبعة الأولى، 1410 هـ، 1990 م، ص 374.

على ممارسة الشُّورى ، وهنا يظهر الوعي السِّياسيُّ عند الصَّحابة رضي الله عنهم ، فرغم أنَّ لهم إبداءَ الرَّأي، إلا أنَّه ليس لهم فرضـه على القائد، فحسـبهم أن يبينوا رأيهم، ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجَّح لديه من الآراء، فلـــمَّا رأوا أنَّهم ألحوا في الخروج، وأنَّ الرسول ﷺ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم، عادوا فاعتذروا إليه، لكن الرَّسول الكريم ﷺ علَّمهم درساً آخر هو من صـفات القيادة النَّاجحة، وهو عدم التردُّد بعد العزيمة والشُّـروع في التنفيذ، فإنَّ ذلك يزعزع الثِّقة بها، ويغرس الفوضـــى بين الأتباع[1001]. لقد ترســـخت القيمة الإنســـانية من المشـــاورة في غزوة أحد من خلال تعزيز أهمية الاســـتماع إلى جميع الآراء والاعتراف بمشـــاركة الأفراد في اتخاذ القرارات. فقد أظهرت المشـــاورة كيف يمكن للقيادة الحكيمة أن توازن بين المصالح والمفاسد، مما يعزز التعاون الجماعي ويحافظ على وحدة الصف في الأوقات الحرجة.

ج. غزوة الخندق:

أمّا غزوة (الخندق) فسببها: أنّ رسول الله ﷺ لما أجلى بني النّضير، ولحق رئيسهم حييّ بن أخطب ب (خيبر)، ذهب بعد ذلك إلى (مكّة) في رجال من قومه، ودعوا قريشـــا إلى حرب رسول الله ﷺ، بعد أن سألوهم: أيّنا أهدى سبيلا نحن أم محمّد؟

فقالوا: بل أنتم أهدى سبيلا منه. وفيهم أنزل الله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ **[النساء: 51-52]**. فلمّا أجابتهم قريش إلى ذلك تقدّموا إلى قبائل قيس عيلان من أهل (الطّائف) وغطفان وهوازن وغيرهم، فدعوهم إلى مثل ذلك، فأجابوهم[1002]. وبمجرَّد حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدوِّ شرع الرَّسولﷺ في اتخاذ الإجراءات الدِّفاعية اللاَّزمة، ودعا إلى اجتماعٍ عاجلٍ، حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين، والأنصار، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير النَّاجم عن

[1001] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (2/380).

[1002] حدائق الأنوار ومطالع الأسرار، لعبد الرَّحمن بن عليّ بن محمَّد الشَّيبانيّ بن الرَّبيع، تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاريّ، (ص308).

مساعي اليهود الخبيثة[1003]، فأدلى سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه برأيه الَّذي يتضمَّن حفر خندقٍ كبيرٍ لصدِّ عدوان الأحزاب، فأُعْجِبَ النَّبيُّ ﷺ بذلك، قال الواقديُّ رحمه الله: فقال سلمان: يا رسول الله! إنَّا إذا كنا بأرض فارس، وتخوَّفنا الخيل، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين[1004]. وعندما استقرَّ الرَّأي - بعد المشاورة - على حفر الخندق، ذهب النَّبيُّ ﷺ هو وبعض أصحابه لتحديد مكانه، واختار للمسلمين مكاناً تتوافر فيه الحماية للجيش، فقد ذكر الواقديُّ: أنَّ رسول الله ﷺ ركب فرساً له، ومعه نفرٌ من أصحابه من المهاجرين، والأنصار، فارتاد موضعاً ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سَلْعاً خلف ظهره، ويخندق من المذاد إلى ذباب[1005] إلى راتج[1006]، وقد استفاد ﷺ من مناعة جبل سَلْع[1007] في حماية ظهور الصَّحابة.

كان اختيار تلك المواقع موفَّقاً؛ لأنَّ شمال المدينة هو الجانب المكشـــوف أمام العدوِّ، والَّذي يستطيع منه دخول المدينة، وتهديدها، أمَّا الجوانب الأخرى فهي حصينةٌ منيعةٌ، تقف عقبةً أمام أيِّ هجوم يقوم به الأعداء، فكانت الدُّور من ناحية الجنوب متلاصـــقةً عاليةً كالسُّور المنيع، وكانت حرَّة واقم[1008] من جهة الشَّرق، وحرة الوبرة من جهة الغرب، تقومان كحصـــنٍ طبيعيٍّ، وكانت اطام بني قريظة في الجنوب الشَّـرقي كفيلةً بتأمين ظهر المســـلمين، وكان بين الرَّسول ﷺ وبني قريظة عهدٌ ألاَّ يمالئوا عليه أحداً، ولا يناصروا عدوّاً ضدَّه[1009].

[1003] غزوة الأحزاب لمحمَّد أحمد باشميل، دار الفكر، الطَّبعة الخامسة، 1397هـ، 1977م، ص 144، 145.

[1004] المغازي للواقديِّ، المتوفى 207 هـ، تحقيق د. مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، الطَّبعة الثالثة، 1404 هـ، 1984 م، (444/2)، والطَّبقات الكبرى (6/2)، ومحمَّد ﷺ: لمحمَّد رضا (حفر الخندق).

[1005] ذباب: أكمةٌ صغيرة في المدينة، يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع.

[1006] راتج: حصنٌ من حصون المدينة لأناسٍ من اليهود.

[1007] جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة. معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر، ودار بيروت، 1404 هـ، 1984 م، (236/3).

[1008] هي حرَّة المدينة الشَّرقية. معجم معالم الحجاز، عاتق البلادي، دار ابن كثير، 1982م، (283/2، 285).

[1009] العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول ﷺ، ص 442.

ويستفاد من بحث الرَّسولﷺ عن مكانٍ ملائمٍ لنزول الجند أهمِّيةُ الموقع الذي ينزل فيه الجند، وأنَّه ينبغي أن يتوافر فيه شرطٌ أساسيٌّ، وهو الحماية التامَّة للجند؛ لأنَّ ذلك له أثرٌ واضحٌ على سير المعركة، ونتائجها[1010].

لقد كانت خطَّة الرَّسولﷺ في الخندق متطورةً، ومتقدِّمةً، حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة في القتال، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم؛ بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريباً عنهم، وبهذا يكون الرَّسولﷺ هو أوَّل من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأةً مُذهلةً لأعداء الإسلام، وأبطل خطَّتهم الَّتي رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقانٍ رفيعٍ لسرِّية الخطَّة، وسرعة إنجازها، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثرٌ في إضعاف معنويات الأحزاب، وتشتيت قواتهم.

وقد غرس رسول الله ﷺ هذا المبدأ "الشورى" في نفوس أصحابه حتى كان يشاورهم في أمور الدين والدنيا قال أبو هريرة رضى الله عنه: "ما رأيت أحداً قط أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ " وقد اقتفى أثره ﷺ الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم وغيرهم ممن ولى أمر المسلمين بعده من صحابته الكرام وولاة المسلمين الأخيار، فكانوا لا يعدلون بالاستشارة في أمور المسلمين النازلة بهم، كما قال الإمام البخاري: "وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة، ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبي ﷺ [1011].

[1010] القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ، ص 426.

[1011] رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، عماد السيد الشربيني، مطابع دار الصحيفة، 2009م ص581.

2. الأخلاق النبوية في الحرب (البعد الإنساني والحضاري لأخلاق القتال والحرب في الإسلام:

أ. وصايا الرسول ﷺ في الحرب:

يُعتبر نبينا محمد ﷺ نموذجًا للرحمة والعدل في الغزوات التي جرت والفتوحات، وقد أشاد بذلك مؤرخون من أصدقاء وأعداء على حد سواء.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، ويدخل في النهي عن الاعتداء النهي عن المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي ولا قتال فيهم والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة.

وفي صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول: "اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا".

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: "اخرجوا بسم الله فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع".

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: "وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان"[1012].

وكلما تصور الإنسان سماحة الإسلام وثبت إلى ذهنه صورة الرسول الكريم ﷺ وهو داخل منتصر عزيز الجانب إلى مكة، وأهلها خائفون مذعورون من انتقام المنتصر، ولكنه ﷺ ضرب مثلًا أعلى للعفو والصفح عند المقدرة وعلى هذه السنة سار الخلفاء من بعد رسول الله ﷺ قال أبو بكر رضي الله عنه موصيًا أحد قواده[1013]: "لا تقتلن امرأة ولا صبيًّا ولا كبيرًا هرمًا

[1012] أخرجه مسلم، (3 ، 1357).

[1013] أضواء على الثقافة الإسلامية، عبد الحكيم قاسم، شبكة الألوكة، 2014م، (ص327).

ولا تقطعن شجرًا مثمرًا، ولا تخربن عامرًا، ولا تعقرن شاة، ولا بعيرًا إلا لمأكل ولا تحرقن نخلًا، ولا تفرقنه ولا تغلل ولا تجبن"[1014]. وقد تمثل هذا المبدأ في سيرة النبي ﷺ بأبهى صوره كما سيأتي.

ب. معاملة الرسول ﷺ لأسرى المشركين:

قال ابن عباس رضي الله عنه: فلـــمَّا أسروا الأُسارى (أسارى المشركين في غزوة بدر)، قال رسـول اللهﷺ لأبي بكرٍ، وعمر رضـي الله عنهما: «ما ترون في هؤلاء الأُسـارى؟» فقال أبو بكر رضـي الله عنه: يا نبيَّ الله! هم بنو العمِّ، والعشـيرة، أرى أن تأخذ منهم فديةً، فتكون لنا قوَّةً على الكفَّار، فعسـى الله أن يهديهم إلى الإسـلام، فقال رسـول اللهﷺ: «ما ترى يابن الخطاب؟» قال: لا والله يا رسول الله! ما أرى الَّذي يراه أبو بكر، ولكنِّي أرى أن تُمكِّنَّا منهم، فنضـرب أعناقهم، فتمكِّن عليّاً من عَقِيلٍ، فيضـرب عنقه، وتمكنِّي من فلانٍ (نسـيباً لعمر) فأضرب عنقه؛ فإنَّ هؤلاء أئمَّة الكفر، وصناديدها، فهوي رسولُ اللهﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ، فلـــمَّا كان من الغد جئت؛ فإذا رسـولُ الله ﷺ ، وأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أيِّ شيءٍ تبكي أنت وصاحبُك، فإن وجدت بكاءً؛ بكيت، وإن لم أجد بكـاء؛ تباكيت لبكائكما؟ فقال رســـول الله ﷺ: «أبكي لِلَّذي عَرَضَ عليَّ أصحابُك من أخذهم الفداء، لقد عُرِضَ عليَّ عذابُهم أدنى من هذه الشَّجرةِ» – شجرةٍ قريبةٍ من نبيِّ اللهﷺ –.

وأنزل الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا﴾ فأحلَّ الله الغنيمة لهم[1015].

وفي رواية عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: لمَّا كان يوم بدرٍ؛ قال رسول اللهﷺ:

[1014] موطأ مالك، (277).

[1015] (أخرجه مسلم (1763)، وأبو داود (2690)، والترمذي (3081).

«ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! قومُك، وأهلُك، استَبْقِهم، واستَأْنِ بهم، لعلَّ الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله! أخرجوك، وكذَّبوك؛ فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله! انظر وادياً كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثمَّ أضرم عليهم ناراً، فقال العبَّاس: قطعت رحمك! فدخل رسول اللهﷺ ولم يردَّ عليهم شيئاً، فقال ناسٌ: يأخذ بقول أبي بكرٍ، وقال ناسٌ: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج عليهم رسول اللهﷺ فقال: «إنَّ الله ليُلِيّن قلوب رجالٍ فيه؛ حتَّى تكون ألين من اللَّبن، وإنَّ الله لَيَشُدُّ قلوب رجالٍ فيه؛ حتَّى تكون أشدَّ من الحجارة، وإنَّ مثلك يا أبا بكر! كمثل إبراهيم عليه السلام، إذ قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ **[إبراهيم: 36]**، ومثلك يا أبا بكر! كمثل عيسى عليه السلام؛ إذ قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ **[الأنفال: 118]**، وإنَّ مثلك يا عمر كمثل نوحٍ؛ إذ قال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ **[نوح: 26]**.

وإنَّ مثلك يا عمر! كمثل موسى عليه السلام؛ إذ قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ **[يونس: 88]**.

ثمَّ قالﷺ: «أنتم عالة، فلا يَنْفَلِتَنَّ منهم أحد إلا بفداءٍ، أو ضربة عنقٍ».

قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: فقلت: يا رسول الله! إلا سُهيل بن بيضاء؛ فإنِّي قد سمعته يذكر الإسلام، قال: فسكت، قال: فما رأيتُني في يومٍ أخوف أن تقع عليَّ حجارةٌ من السَّماء في ذلك اليوم؛ حتَّى قال: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ...﴾ إلى آخر الآية.

وهذه الآية تضع قاعدةً هامَّةً في بناء الدَّولة حينما تكون في مرحلة التَّكوين، والإعداد، وكيف ينبغي ألا تظهرَ بمظهر اللِّين؛ حتَّى تُرْهَب من قِبَلِ أعدائها، وفي سبيل هذه الكلِّيَّة

يُطرح الاهتمام بالجزئيَّات - حتَّى ولو كانت الحاجة ملحةً إليها -[1016].

وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه لــمَّا شرع الصَّحابة في أسر المشركين كره ذلك، ورأى رسولُ اللهﷺ الكراهية في وجه سعدٍ لما يصنع النَّاس؛ فقال له رسول اللهﷺ: «والله! لكأنَّك يا سعدُ! تكره ما يصنعُ القوم!» قال: أجل والله! يا رسول الله! كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشِّرك، فكان الإثخان بالقتل أحبَّ إليَّ من استبقاء الرَّجل[1017].

كانت معاملة النَّبيِّﷺ للأسرى تحفُّها الرَّحمة، والعدل، والحزم، والأهداف الدَّعوية؛ ولذلك تعدَّدت أساليبه، وتنوَّعت طرق تعاملهﷺ، فهناك من قتله، وبعضهم قبل فيهم الفداء، والبعض الآخر منَّ عليهم، وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المنِّ عليهم.

- حفظ رسول اللهﷺ لجوار المُطْعِم بن عديٍّ:

قال رسول اللهﷺ في أُسارى بدر: «لو كان مُطْعِمُ بن عديٍّ حيّاً، ثمَّ كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى؛ لأطلقتُهم له»[1018].

وهذا الحديث تعبيرٌ عن الوفاء، والاعتراف بالجميل، فقد كان للمُطعم مواقفُ تُذكَر بخيرٍ، فهو الَّذي دخل الرَّسولﷺ في جواره حينما عاد من الطَّائف، كما كان من أشدِّ القائمين على نقض الصَّحيفة يوم حُصِر المسلمون، وبنو هاشم[1019].

وهذا يدلُّ على قمَّة الوفاء لمواقف الرِّجال - ولو كانوا مشركين -[1020].

[1016] من معين السِّيرة، ص 209.

[1017] التَّربية الجهاديَّة، للغضبان، (141/1).

[1018] أخرجه البخاري (4024)، وأبو داود (2689).

[1019] من معين السِّيرة، ص 208.

[1020] التَّربية القياديَّة، (54/3).

- مقتل عُقبة بن أبي مُعَيْطٍ والنَّضر بن الحارث:

وإذا كان هذا الوفاء لرجلٍ مثل المطعم بن عديٍّ، فلابدَّ من الحزم مع مجرمي الحرب، ورؤوس الفتنة؛ من أمثال: عُقبة بن أبي مُعَيْط، والنَّضر بن الحارث، فقد كانا من أكبر دُعاة الحرب ضدَّ الإسلام، والمتربِّصين بالمسلمين الدَّوائر، فبقاؤهما يُعَدُّ مصدرَ خطرٍ كبيرٍ على الإسلام، ولاسيَّما في تلك الظُّروف الحاسمة، الَّتي تمرُّ بها الدَّعوة الإسلاميَّة، فلو أُطلِق سراحُهُمَا؛ لما تورَّعا عن سلوك أيِّ طريقٍ فيه كيدٌ للإسلام، وأهله، فَقَتْلُهُمَا في هذا الظَّرف ضرورةٌ تقتضيها المصلحة العامَّة لدعوة الإسلام الفتيَّة[1021]؛ ولذلك أمر رسول اللهﷺ بِقَتْلِهما عندما وصل إلى الصَّفراء[1022] أثناء رجوعه للمدينة، فلمَّا سمع عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ بأمر قَتْلِهِ، قال: يا ويلي! علام أُقْتل يا معشر قريش من بين ما هاهنا؟! فقال رسول اللهﷺ: «لعداوتك للهِ ولرسوله» قال: يا محمد! مَنُّك أفضل، فاجعلني كرجلٍ من قومي، إنْ قتلتَهُم؛ قَتَلْتَني، وإن مَنَنْتَ عليهم؛ مَنَنْتَ عَلَيَّ، وإن أخذتَ منهم الفداء كنتُ كأحدِهم، يا محمد! من للصبيَة؟ قال رسول اللهﷺ: «النَّارُ، قدِّمْه يا عاصم! فاضربْ عُنُقَه»[1023]؛ فقدَّمه عاصمٌ، فضرَبَ عُنُقَهُ[1024].

وأمَّا النَّضر بن الحارث، فقد كان من شياطين قريشٍ، وممَّن يؤذي رسول اللهﷺ، وينصِبُ له العداوة، وكان قد قدِم الحيرة، وتعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول اللهﷺ مجلساً، فذكَّر فيه بالله، وحذَّر قومه ما أصاب قبلهم من الأمم مِنْ نِقْمَةِ الله؛ خلفه في مجلسه إذا قام، ثمَّ قال: أنا والله يا معشر قريش! أحسنُ حديثاً منه، فهلُمُّوا إليَّ، فأنا أحدِّثكم أحسن مِنْ حديثه، ثمَّ يحدِّثُهم عن ملوك فارس،

[1021] غزوة بدر الكبرى، لمحمَّد أحمد باشميل، ص 162.

[1022] الصَّفراء: وادٍ كثير النَّخل، والزَّرع، والخير.

[1023] الحاكم (124/2). ومجمع الزوائد (89/6).

[1024] التَّربية القياديَّة، (60/3).

ورستم واسفنديار، ثمَّ يقول: بماذا محمَّد أحسنُ حديثاً منِّي؟![1025].

إنَّ هذا الرَّجل المتعالي على الله، والمتألِّي عليه، والَّذي يزعم: أنَّه سينزل أحسن ممَّا أنزل الله، والَّذي يزعم: أنَّه أحسنُ حديثاً من محمَّد، لابدَّ لمثل مَنْ يمثِّل هذا التَّيار - وقد أصبح بين يدي رسول رب العالمين - لابدَّ أن يُثأرَ لله، ولرسولهﷺ منه، ومن أجل هذا لم يُدْخِلْهُ رسول اللهﷺ ضمن نطاق الاستشارة[1026]، وأمر رسول اللهﷺ بقتله، فقتله عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه[1027].

وبمقتل هَذَيْنِ المجرِمَيْنِ تعلَّم المسلمون: أنَّ بعض الطُّغاة العُتاة المعادين لا مجال للتَّساهل معهم، فهم زعماءُ الشَّرِّ، وقادة الضَّلال، فلا هوادة[1028] معهم؛ لأنَّهم تجاوزوا حدَّ العفو، والصَّفح[1029] بأعمالهم الشَّنيعة، فقد كان هذان الرَّجلان مِنْ شرِّ عباد الله، وأكثرهم كفراً، وعناداً، وبغياً، وحسداً، وهجاءً للإسلام وأهله[1030].

- الوصيَّةُ بإكرام الأسرى جانبٌ من المنهج النَّبويِّ الكريم:

ولـمَّا رجعﷺ إلى المدينة فرَّق الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيراً»[1031]؛ وبهذه التَّوصية النَّبويَّة الكريمة، ظهر تحقيق قوله الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ **[الإنسان: 8]**.

فهذا أبو عزيز بن عُمَيْر أخو مُصعب بن عمير، يحدِّثنا عمَّا رأى، قال: كنتُ في الأسرى

[1025] السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام، (1/439، 440).

[1026] التَّربية القياديَّة، (3/57).

[1027] السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام، (2/255).

[1028] الهَوَادة: اللِّينُ والرِّفق.

[1029] التَّربية القياديَّة، (3/60).

[1030] البداية والنِّهاية، (3/306).

[1031] البداية والنِّهاية، المصدر السابق، (3/307).

يوم بدرٍ، فقال رسول اللهﷺ: «استوصوا بالأُسارى خيراً»، وكنتُ في نفرٍ من الأنصار، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم، وعشـــاءهم، أكلوا التَّمر، وأطعموني البُرَّ[1032]؛ لوصـــيَّة رســـول اللهﷺ[1033].

وهذا أبو العاص بن الرَّبيع يحدِّثنا، قال: كنت في رَهْطٍ من الأنصـــار جزاهم الله خيراً، كنَّا إذا تعشَّـينا، أو تغدَّينا، اثروني بالخُبْزِ، وأكلوا التَّمْرَ، والخبزُ معهم قليلٌ، والتَّمْرُ زادُهم، حتَّى إنَّ الرَّجل لتقع في يده كِسْـــرَةٌ فيدفعها إليَّ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثلَ ذلك، ويزيد: «وكانوا يحملوننا، ويمشون»[1034].

كان هذا الخُلُق الرَّحيم الَّذي وضع أساسه القرآن الكريم في ثنائه على المؤمنين، وذكَّر به النَّبيُّﷺ أصـــحابَه؛ فاتَّخذوه خُلقاً، وكان لهم طبيعةً، قد أثر في إســـراع مجموعة مِنْ أشـــراف الأسـرى، وأفاضـلهم إلى الإسـلام، فأسـلم أبو عزيز عُقَيْبَ بدرٍ، بُعَيْد وصـول الأسـرى إلى المدينة، وتنفيذ وصيَّة رسول اللهﷺ ، وأسلم معه السَّائب بن عبيدٍ[1035] بعد أن فدى نفسه، فقد سـرت دعوة الإسـلام إلى قلوبهم، وطهَّرت نفوسَـهم، وعاد الأسـرى إلى بلادِهم وأهليهم، يتحدَّثون عن محمَّدٍﷺ، ومكارم أخلاقه، وعن محبَّته، وسماحته، وعن دعوته، وما فيها من البِرِّ والتَّقوى، والإصلاح والخير[1036].

إنَّ هذه المعاملة الكريمة للأسـرى، شـاهدٌ على سموِّ الإسـلام في المجال الأخلاقيِّ، حيث نال أعداءُ الإسـلام من معاملة الصَّـحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق؛ الَّتي تتمثَّل في خُلُق

[1032] البُرُّ: حَبُّ القمح.

[1033] الطبراني في الصغير (401)، وفي الكبير (393/22)، والطبري في تاريخه (460/2)، ومجمع الزوائد (86/6).

[1034] المغازي، للواقديِّ، (119/1).

[1035] محمَّد رسولُ الله، لعرجون، (474/3).

[1036] محمَّد رسولُ الله، لعرجون، (474/3).

الإيثار[1037].

– فداء العباس عمّ النّبيّﷺ:

بعثت قريش إلى رسول اللهﷺ في فداء أسراهم، ففدى كلُّ قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العبَّاس: يا رسول الله! قد كنتُ مسلماً، فقال رسول اللهﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول؛ فإن الله يجزيك، وأمَّا ظاهرك، فقد كان علينا، فافتدِ نفسَك، وابني أخويك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعَقِيل بن أبي طالب بن عبد المطَّلب، وحليفَك عتبةَ بن عمرٍو أخي ابن الحارث بن فهرٍ» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: «فأين المال الَّذي دفنته أنت وأمُّ الفَضْل، فقلتَ لها: إن أُصِبْتُ في سفري هذا؛ فهذا المال الَّذي دفنتُه لبني الفَضْل، وعبد الله، وقُثَم؟!» قال: والله يا رسول الله! إنّي لأعلم أنَّك رسولُ الله، إنَّ هذا الشَّيءَ ما علمه أحدٌ غيري، وغير أمِّ الفضل، فاحسب لي يا رسول الله! ما أصبتم منِّي عشرين أوقيَّة من مالٍ كان معي. فقال رسول اللهﷺ: «ذاك شيءٌ أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه، وابني أخويه، وحليفه؛ فأنزل الله – عزَّ وجلَّ – فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ **[الأنفال: 70-71]**.

قال العبَّاس: فأعطاني الله مكان العشرين أوقيَّةً في الإسلام عشرين عبداً، كلُّهم في يده مالٌ يَضْرِبُ به، مع ما أرجو من مغفرة الله – عزَّ وجلَّ – [1038].

هذا، والعبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، فهذه الآية الكريمة؛ وإن كانت نزلت في العباس إلا أنَّها عامَّةٌ في جميع الأسرى.

استأذن بعضُ الأنصار رسولَ اللهﷺ، فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا العبَّاس فداءه.

[1037] التَّاريخ الإسلاميّ، (175/4 . 176).

[1038] البيهقي في الدلائل (142/3 – 143)، وبنحوه أحمد (353/1). انظر شرح الحديث (4018) في فتح الباري.

فقال: «والله! لا تذرون منه درهماً»[1039]، أي: لا تتركوا للعبَّاس من الفداء شيئاً.

ويظهر أدب صار مع رسول اللهﷺ في قولهم لرسول الله: ابن أختنا[1040]، لتكون المنَّة عليهم في إطلاقه، بخلاف لو قالوا: عمَّك؛ لكانت المنَّة عليهﷺ ، وهذا من قوَّة الذَّكاء وحسن الأدب في الخطاب، وإنَّما امتنع النَّبيُّﷺ عن إجابتهم؛ لئلا يكون في الدِّين نوعُ محاباة[1041]. وهنا يتعلَّم الأسرى، والمسلمون أيضاً درساً بليغاً في عدم محاباة ذوي القُربى، بل كان الأمر على خلاف ذلك؛ فقد أغلى رسولُ الله الفداء على عمِّه العباس[1042].

ورجع العبَّاس لمكَّة، وقد دفع فداءه، وفداء ابنيْ أخويه، وأخفى إسلامه، وأصبح يقود جهاز استخبارات الدَّولة الإسلاميَّة بمكَّة بمهارةٍ فائقةٍ، وقدرةٍ نادرةٍ، حتَّى انتهى دوره عند فتح مكَّة، فأعلن إسلامه قبلها بساعاتٍ[1043].

- أبو العاص بنُ الرَّبيع زوجُ زينب رضي الله عنها بنتِ رسول اللهﷺ:

قالت عائشة رضي الله عنها: لـمَّا بعث أهل مكَّة في فداء أسراهم؛ بعثت زينب بنتُ رسول اللهﷺ في فداء أبي العاص بن الرَّبيع بمالٍ، وبعثت فيه بِقِلادةٍ[1044] لها، كانت لخديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها[1045]، قالت: فلـمَّا رآها رسول اللهﷺ ؛ رقَّ لها رقَّةً شديدةً، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها الَّذي لها، فافعلوا» فقالوا:

[1039] شرح العسقلاني لصحيح البخاري، (321/7) نقلاً عن المستفاد من قصص القران، (135/2). البخاري (2537/1 و3048 و4018)، والبيهقي في دلائل النبوة (142/3).

[1040] لأنَّ جدَّة العباس أمَّ عبد المطلب من بني النَّجار من يثرب.

[1041] سُبُلَ الهدى والرَّشاد، للصالحي، (135/4).

[1042] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (176/2).

[1043] التَّربية القياديَّة، (68/3).

[1044] القلادَةُ: ما يُجْعَل في العُنُق من حليٍّ ونحوه.

[1045] بَنَى بزوجته وعليها: دخل بها.

نعم، فأطلقوه، وردُّوا عليها الَّذي لها[1046].

وكان رسول اللهﷺ أخذ عليه، أو وعده أن يُخَلِّيَ سبيل زينب إليه، وبعث رسولُ اللهﷺ زيد بن حارثة، ورجلاً من الأنصار، فقال: «كونا ببطن يأْجَج[1047]، حتَّى تمرَّ بكما زينبُ، فتصحباها، حتَّى تأتيا بها».

إنَّ أبا العاص بن الرَّبيع زوجَ زينب رضي الله عنها بنتِ الرَّسولﷺ لم يُعرف عنه قطُّ موقفٌ في مقاومة الدَّعوة بأيِّ لونٍ من ألوانها، وقد كفَّ يده، ولسانه عن أصحاب رسول اللهﷺ ، وشغَله مالهُ وتجارتهُ، وحياؤه من رسول اللهﷺ عن مواقفِ الشَّراسة القرشيَّة في مقاومة الدَّعوة إلى الله، وفي بدرٍ كان أبو العاص صِهْرُ رسول اللهﷺ من بين الأسرى؛ الَّذين لم يُسمع لهم في المعركة صوتٌ، ولم يُعرف لهم رأيٌ، ولا شُوهدتْ لهم في قتالٍ جولةٌ، وبعد أن بدأت قريش تفدي أسراها؛ أرسلت السَّيدة زينب بنت رسول اللهﷺ ، وزوجة أبي العاص بمالٍ تفديه به، ومع المال قلادةٌ كانت أمُّها السَّيدة خديجة رضي الله عنها، أهدتها إليها، فأدخلتها بها على زوجها لتتحَلَّى بها، فلمَّا رأى رسول اللهﷺ قِلادَةَ ابنته؛ رقَّ لها رقَّةً شديدةً، إذ كانت هذه القلادةُ الكريمة مبعثَ ذكرياتٍ أبَويَّةٍ عندهﷺ ، وذكرياتٍ زوجيَّةٍ، وذكرياتٍ أُسريَّةٍ، وذكريات عاطفيَّةٍ؛ فالنَّبيُّﷺ أبٌ، له من عواطف الأبوَّة أرفع منازلها في سجلِّ المكارم الإنسانيَّة، وأشرفُها في فضائل الحياة، فتواثبت إلى خبايا نفسه الكريمة المكرَّمة أسمى مشاعر الرَّحمة، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطفُ الحنان، والحنين، فتوجَّه إلى أصحابه رضي الله عنهم متلطِّفاً، يطلب إليهم في رجاء الأعزِّ الأكرم، رجاءً يدفعهم إلى العطاء، ولا يسلبهم حقَّهم في الفداء؛ لو أنَّهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحقِّ؛ وهو في أيديهم، يملكون التَّصرُّف فيه،

[1046] أخرجه أبو داود (2692)، وأحمد (276/6)، والبيهقي في الدلائل (154/3)، والطبراني في الكبير (428/22)، ومجمع الزوائد (214/9). صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 261.

[1047] اسم مكان على ثمانية أميال من مكَّة.

فقال لهم: «إنْ رأيتُم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها الَّذي هو لها».

وهذا أسلوبٌ من أبلغ، وألطف ما يسري في حنايا النُّفوس الكريمة، فيطوّعها إلى الاستجابة الرَّاغبة الرَّاضية، رضاءً يَنمُّ عن الغِبْطَة، والبَهْجَة[1048].

إنَّ هذا الموقف، وما يظهر منه من مظاهر الرَّحمة، والعطف منهﷺ على ابنته، يحمل في طيَّاته مقصداً آخر، وهو أنَّه كان يتألَّف صِهْرَه للإسلام بذلك؛ لِمَا عَرَفَ عنه من العقل السَّديد، والرَّأي الرَّشيد، فقد كانﷺ يُثني عليه، وهو على شِرْكِهِ بحسن المعاملة[1049].

- أبو عزَّة عمرُو بن عبد الله الجُمَحِيُّ بين الرَّحمة، والحزم النَّبويّ:

كان محتاجاً ذا بناتٍ، قال: يا رسول الله! لقد عرفت ما لي مِنْ مالٍ، وإنِّي لذو حاجةٍ، وذو عيالٍ، فامنُنْ عليَّ! فمنَّ عليه رسولُ اللهﷺ ، وأخذ عليه ألا يُظاهرَ عليه أحداً، فقال أبو عزَّةَ يمدح رسول اللهﷺ على ذلك:

مَنْ مُبْلِغٌ عَنّي الرَّسُوْلَ مُحَمَّداً ... بأنَّكَ حَقٌّ والمِلِيْكُ حَمِيْدُ
وأَنْتَ امْرُؤٌ بُوِّئْتَ فِيْنَا ... لَهَا دَرَجَاتٌ سَهْلَةٌ وَصُعودُ
فإنَّكَ مَنْ حَارَبْتَهُ لَمُحَارَبٌ ... شَقِيٌّ ومَنْ سالمْتَهُ لَسَعِيدُ
ولَكِنْ إِذَا ذُكِّرْتُ بَدْراً وأَهْلَهُ ... تأوَّبَ مَا بِي حَسْرَةٌ وَقُعُوْدُ

قال ابن كثير: ثمَّ إنَّ أبا عزَّةَ هذا نقض ما كان عاهد الرَّسولﷺ عليه، ولعب المشركون بعقله، فرجع إليهم، فلمَّا كان يومَ أحدٍ؛ أُسر أيضاً، فسأل النَّبيَّﷺ أن يَمُنَّ عليه أيضاً، فقال النَّبيُّﷺ: «لا أدعك تمسح عارِضَيْكَ بمكَّةَ، وتقولُ: خدعتُ محمَّداً مرَّتين» ثُمَّ أَمَرَ به، فَضُرِبَتْ عنقهُ[1051].

[1048] محمَّد رسول الله، لعرجون، (3/480 . 487).

[1049] التَّاريخ الإسلاميّ، للحميديّ، (4/183).

[1050] مباءةٌ: مكانةٌ رفيعةٌ.

[1051] البداية والنِّهاية، (3/313). البيهقي في الدلائل (3/280 - 281)، وابن هشام (3/110).

فكان النَّبيﷺ به رحيماً، وعفا عنه، وأطلق سراحه بدون فداءٍ لـــمَّا ذكر أبو عزَّة فقره، وما لديه مِنْ بناتٍ يعولهنَّ؛ ولكنَّه لم يفِ لرسول اللهﷺ بما عاهده عليه مِنْ لزوم السِّلم، وعدم إثارة الحرب ضدَّه، فوقع أسيراً في معركة أُحدٍ، فكان موقفُ النَّبيّﷺ منه الحزم، فأمر بضرْب عنُقِه.

– سهيلُ بن عمرٍو، ووقوعُه في الأسر، وماذا قالت سودةُ رضي الله عنها:

قال عبد الرَّحمن بن أسعد بن زرارة رضي الله عنه: قُدِم بالأُسارى حين قُدِم بهم المدينة؛ وسودةُ بنت زمعة زوج النَّبيّﷺ عند آل عفراء في مناحتهم على عَوْفٍ، ومعوِّذ ابني عفراء – وذلك قبل أن يُضْرَب الحجاب –، قالت سودة: فوالله إنِّي لَعِنْدهم؛ إذ أتينا فقيل: هؤلاء الأُسارى قد أُتِيَ بهم، فرجعتُ إلى بيتي؛ ورسول اللهﷺ فيه؛ فإذا أبو يزيد سهيلُ بنُ عمرٍو في ناحية الحُجْرَة، ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبلٍ، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيدٍ كذلك أن قُلتُ: أبا يزيد! أعطيتُم بأيديكم؟ ألا مُتُّم كراماً؟! فما انتبهت إلا بقول رسول اللهﷺ من البيت: «يا سودةُ! أعَلَى الله ورسوله تُحَرِّضين؟!» فقلت: يا رسول الله! والَّذي بعثك بالحقِّ، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعةً يداه إلى عنقه بالحبل أن قلتُ ما قلتُ[1052].

وقدم مِكْرَزُ بن حفص بن الأخْيَف في فداء سهيل بن عمرو، فلـمَّا فاوض المسلمين، وانتهى إلى رضائهم، قالوا: هاتِ الَّذي لنا، قال لهم مِكْرَز بن حفص: اجعلوا رجلي مكان رجله، وخلُّوا سبيله حتَّى يَبعث إليكم بفدائه، فخلُّوا سبيل سُهيل، وحبسوا مِكْرزاً عندهم، وجاء في حديثٍ مُرْسَلٍ: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لرسول اللهﷺ: دعني أنزع ثَنِيَّة سهيل بن عمرٍو، يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطنٍ آخر ! فقال رسول اللهﷺ: «لا أمثِّل به، فيمثِّل الله بي؛ وإن كنتُ نبيّاً»[1053]. ثمَّ قال رسول اللهﷺ لعمر: «إنَّه

[1052] السِّيرة النَّبوية، لمحمَّد الصوياني، مكتبة العبيكان، 2015م، (200/2). البيهقي في الكبرى (89/9)، والحاكم (22/3)، وابن أبي شيبة في المصنف (369/14 – 370)، والطبري في تاريخه (460/2).

[1053] البداية والنِّهاية، (311/3). وقال ابن كثيرٍ: مرسلٌ؛ بل معضل.

عسى أن يقوم مقاماً لا تذمُّه»[1054].

قال ابن كثير: وهذا هو المقام الَّذي قامه سهيل بمكَّة حين مات رسول الله ﷺ وارتدَّ العرب، ونجم النِّفاق بالمدينة وغيرها، فقام بمكَّة، فخطب في النَّاس، وثبَّتهم على الدِّين الحنيف[1055]، فقد قال في ذلك: «يا معشر قريش! لا تكونوا آخر النَّاس إسلاماً، وأوَّلهم ردَّةً، مَنْ رَابنَا ضربنا عنُقَه»[1056].

فقد أبى رسول الله ﷺ أن ينزع ثنيَّة سُهيلٍ، ورأى: أنَّ ذلك من باب التَّمثيل وتشويه خلقة الإنسان، وقال لعمر: «لا أمثِّل به، فيمثِّل الله بي! وإن كنت نبيّاً» وهذا نموذجٌ من منهج رسالته ﷺ ، وضعه؛ ليكون نبراساً لأمَّته في انتصاراتها على أعدائها[1057].

- التَّعليم مقابل الفداء:

قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه: كان ناسٌ من الأُسارى يوم بدرٍ ليس لهم فداءٌ، فجعل رسولُ الله ﷺ فداءهم أن يُعَلِّموا أولاد الأنصار الكتابة[1058]، وبذلك شرع الأسرى يعلِّمون غلمان المدينة القراءة، والكتابة، وكلُّ مَنْ يُعَلِّم عشَرةً من الغلمان يفدي نفسه[1059]، وقَبول النَّبيِّ ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الَّذي كانوا فيه في أشدِّ الحاجة إلى المال، يُرينا سموَّ الإسلام في نظرته إلى العلم، والمعرفة، وإزالة الأميَّة، وليس هذا بعجيبٍ مِنْ دينٍ كان أوَّل ما نزل من كتابه الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤﴾ **[العلق: 1-4]**. واستفاضت فيه نصوصُ القرآن، والسُّنَّة في التَّرغيب في العلم، وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يُعتبر النَّبيُّ ﷺ أوَّل من وضع

[1054] البداية والنِّهاية، (311/3).

[1055] البداية والنِّهاية، المصدر السابق.

[1056] التَّاريخ الإسلاميُّ، للحميديِّ، (181/4).

[1057] محمَّد رسول الله، لعرجون، (474/3).

[1058] صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 261.

[1059] التَّربية القياديَّة، (74/3).

حجر الأساس في إزالة الأمِيَّة، وإشاعة القراءة، والكتابة، وأنَّ السَّبق في هذا للإسلام[1060].

ج. نماذج من الصفح والعفو في سيرة النبي ﷺ (المعاملة الإنسانية للمغلوبين):

- فتح مكة:

فتحت مكة في السنة الثامنة من الهجرة عندما دخل النبي ﷺ والمسلمون مكة دون كبير مقاومة، منهياً بذلك سنوات من العداء بين قريش والمسلمين. أظهر ﷺ فيها عفوًا غير مسبوق، حيث عفا عن أهل مكة رغم ماضيهم العدائي. وكان هذا الفتح تحولاً تاريخيًا، حيث أصبحت مكة مركزًا إسلاميًا وعاصمة دينية للمسلمين.

لقد نال أهل مكَّة عفواً عامّاً برغم أنواع الأذى الَّتي ألحقوها بالرَّسول ﷺ ودعوته على مدى سنوات طويلة خلت، ورغم قدرة الجيش الإسلاميِّ على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم؛ وهم مجتمعون قرب الكعبة، ينتظرون حكم الرَّسول ﷺ فيهم، فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟!» فقالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم، فقال: «لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم!»[1061].

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل، أو السَّبي، وإبقاء الأموال المنقولة، والأراضي بيد أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها، فلم تُعامل مكَّة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عَنْوَةً لقدسيَّتها، وحرمتها؛ فإنَّها دار النُّسك، ومتعبَّد الخلق، وحرم الرَّبِّ تعالى، لذلك ذهب جمهور الأئمَّة من السَّلف، والخلف إلى أنَّه لا يجوز بيع أراضي مكَّة، ولا إجارة بيوتها، فهي مناخٌ لمن سبق، يسكن أهلها فيما يحتاجون إلى سكناه من دورها، وما فضل عن حاجتهم فهو لإقامة الحجَّاج، والمعتمرين، والعبَّاد القاصدين[1062].

[1060] السّيرة النّبويّة، لأبي شهبة، (164/2 . 165).

[1061] المجتمع المدنيُّ في عهد النُّبوَّة، د. أكرم العمري، الطَّبعة الأولى، 1404 هـ، 1984 م، ص 179. البيهقي في الكبرى (118/9)، وفي الدلائل (58/5)، وابن سعد (141/2 - 142).

[1062] المجتمع المدني، للعمري، ص 180.

كان من أثر عفو النَّبيّﷺ الشَّـــامل عن أهل مكَّة، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل أهلُ مكَّة رجالاً، ونســــاءً، وأحراراً، وموالي في دين الله طواعيةً، واختياراً، وبدخول مكَّة تحت راية الإسلام دخل النَّاس في دين الله أفواجاً، وتمَّت النِّعمة ووجب الشُّكر[1063]، وبايع رسول اللهﷺ النَّاس جميعاً، الرِّجالَ، والنِّسَاءَ، والكبارَ، والصِّغار، وبدأ بمبايعة الرِّجال، فقد جلس لهم على الصَّفا، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام، والسَّمع، والطَّاعة لله، ولرسوله فيما استطاعوا، وجاء مُجَاشِعُ بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح، فقال لرسول اللهﷺ: جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، فقالﷺ: «ذهب أهل الهجرة بما فيها» فقال: على أيِّ شيءٍ تبايعه؟ قال: «أبايعه على الإسلام، والإيمان، والجهاد»[1064].

- حصار الطائف:

غزوة الطائف وقعت في الســـنة الثامنة من الهجرة بعد غزوة حنين، وكانت من الغزوات التي أظهرت حكمة النبي ﷺ في التعامل مع النفوس والظروف الصعبة.

عندما حاصر النبي ﷺ الطائف لمدة أربعين يومًا، واجه مقاومة شديدة من أهلها. ومع ذلك، لم يلجأ إلى أساليب قاسية أو إلى تدمير المدينة أو قتل أهلها، على الرغم من أن بعض الصحابة اقترحوا عليه ذلك. بدلاً من ذلك، أظهر النبي ﷺ رحمة وحلمًا. وقد استشار رسول اللهﷺ مَنْ حوله في عمليَّة الحصـــار[1065]، وقد طال وتمنع أهل الطائف، فقال نوفل بن معاوية الدِّيليُّ: ثعلب في حجرٍ؛ إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضـــرَّك! فأمر رســـول اللهﷺ ابن الخطَّاب فأذَّن في النَّاس بالرَّحيل، فضـــج النَّاس من ذلك، وقالوا: نرحل، ولم يُفتح علينا الطَّائف؟! فقال رســـول اللهﷺ: «فاغدوا على القتال»، فغدوا فأُصـــيب المســـلمون

(1063) المجمع المدني، المصدر السابق، (2/456).

(1064) أخرجه أحمد (3/469)، والبخاري (4305 و4306)، ومسلم (1863).

(1065) دراساتٌ في عهد النُّبوَّة، د. عبد الرَّحمن الشُّجاع، دار الفكر المعاصر، صنعاء، الطَّبعة الأولى، 1419هـ، 1999م، ص 206.

بجراحاتٍ، فقال رسول اللهﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله»، فسُرُّوا بذلك، وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسولُ اللهﷺ يضحك[1066].

بعد أن أدرك النبي ﷺ أن الحصار لم يحقق النتيجة المرجوة وأن الوقت ليس مناسبًا لفتح الطائف، قرر رفع الحصار والعودة إلى المدينة، تاركًا الطائف دون إلحاق ضرر كبير. هذا القرار أظهر حكمته في التعامل مع النفوس، حيث كان يدرك أن القوة وحدها ليست دائمًا الحل الأفضل، وأن النفس الإنسانية تحتاج إلى وقت ومراعاة.

كما أنه عندما أسلم أهل الطائف بعد ذلك بسنوات قليلة، كانت معاملتهم للنبي ﷺ ومن معه ودية، مما يعكس أن سياسته اللينة والصبورة أتت ثمارها في نهاية المطاف.

3. سلمان منا آل البيت (رابطة الدين والإيمان فوق كل شيء):

علمنا القرآن الكريم وكذلك السنة النبوية أن الرابطة التي يجب أن يعتقد أنها هي التي تربط بين أفراد المجتمع، وأن ينادى بالارتباط بها دون غيرها؛ إنما هي دين الإسلام؛ لأنه هو الذي يربط بين أفراد المجتمع حتى يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع الإسلامي كأنه جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

فربط الإسلام للمسلم بأخيه كربط اليد بالمعصم، والرجل بالساق. كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». ولذلك يكثر في القرآن العظيم إطلاق النفس وإرادة الأخ تنبيها على أن رابطة الإسلام تجعل أخا المسلم كنفسه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ **[البقرة: 84]**، أي لا تخرجون إخوانكم، وقوله:﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ **[النور: 12]** ؛ أي بإخوانهم على أصح التفسيرين، وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ **[الحجرات: 11]**، أي إخوانكم على أصح التفسيرين، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾ **[البقرة: 188]**، أي لا يأكل أحدكم مال أخيه، إلى غير ذلك من

[1066] أخرجه البخاري (4325)، ومسلم (1778).

الآيات؛ ولذلك ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1067]. وقد أجمع العلماء: على أن الرجل إن مات وليس له من القرباء إلا ابن كافر، أن إرثه يكون للمسلمين بأخوة الإسلام، ولا يكون لولده لصلبه الذي هو كافر، والميراث دليل القرابة، فدل ذلك على أن الأخوة الدينية أقرب من البنوة النسبية.

وبالجملة، فلا خلاف بين المسلمين أن الرابطة التي تربط أفراد أهل الأرض بعضهم ببعض، وتربط بين أهل الأرض والسماء، هي رابطة «لا إله إلا الله»، فلا يجوز البتة النداء برابطة غيرها[1068]. وهكذا نرى أن هذا المبدأ تجلى في مواقف عملية كثيرة لرسول الله ﷺ، منها أنَّ النبي ﷺ أثبت لسلمان – وهو من فارس – الأخوة ونسبته للمهاجرين، مؤكداً أن رابطة الدين والإيمان تفوق كل رابطة أخرى وتنتصر عليها، قال رسول الله ﷺ: «سلمان منَّا أهل البيت»[1069]، وهذا الوسام النَّبويُّ الخالد لسلمان يشعر بأنَّ سلمان من المهاجرين؛ لأنَّ أهل البيت من المهاجرين[1070]. لقد تجسد قول النبي محمد ﷺ لسلمان الفارسي "سلمان منا آل البيت" البعد الإنساني العميق في الإسلام، فإنه تجاوز الحواجز القبلية والجغرافية ليؤكد على وحدة المسلمين وأخوتهم بغضّ النظر عن أصولهم. لا شك أنّ هذه العبارة تعكس شمولية الرسالة النبوية وحرصها على تعزيز المساواة والتآخي بين البشر.

4.الزوج والأب المثالي (تعامل النبي ﷺ مع زوجاته وبناته):

أخلاق النبي ﷺ مع زوجاته وبناته كانت تجسيدًا عمليًا لقيم الإسلام وتعاليمه، حيث أظهر أعلى درجات الحب والرحمة والرأفة في التعامل مع أهله. كان النبي ﷺ نموذجًا يحتذى

[1067] الجموع البهية للعقيدة السلفية، الميناوي، دار ابن عباس، 2008م، (1/ 334).

[1068] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، دار عالم الفوائد، (3/ 47 ط الفكر).

[1069] الحاكم (598/3)، والطبراني في المعجم الكبير (261/6)، وابن هشام (235/3) ومجمع الزوائد (130/6).

[1070] التَّاريخ الإسلامي، للحميدي، (108/6).

به في حياته الأســرية، فلم يكن فقط قائدًا نبويًا ومصــلحًا، بل كان أيضًــا زوجًا وأبًا محبًا وعطوفًا.

مع زوجاته، كان النبي ﷺ يتصف باللين والرفق، ويعامل كل واحدة منهن بحب واحترام، ويحرص على توفير العدل بينهن في المبيت والنفقة، ويشاركهن في الحوار والنقاش، ويستمع إلى مشــاكلهن وهمومهن. كان يقدر دورهن في حياته وحياة الأمة، ويعبر عن مشــاعره تجاههن بشكل صريح، مما جعل علاقته بهن مثالية في كل جوانبها.

أما مع بناته، فقد كان النبي ﷺ يظهر لهن حنانًا ورعاية خاصــة. كان يحرص على تعليمهن وتوجيههن، ويعامل كل واحدة منهن بلطف وحنان. كان يعبر عن حبه لهن بطرق مؤثرة، كما كان يفعل مع ابنته فاطمة رضــي الله عنها، حيث كان يقوم لها إذا دخلت عليه، ويقبلها ويجلسها في مكانه.

ومن أخلاق النبي ﷺ مع أزواجه وبناته ومن النصوص الواردة في هذا المعنى[1071]:

- حديث عائشــة رضــي الله عنها قالت: قال رســول الله ﷺ: يا عائش هذا جبريل يقرئك السلام، قلت: وعليه السلام ورحمة الله قالت: وهو يرى ما لا نرى.

- ومن ذلك جلســوه ﷺ مع عائشــة وسماعه حديث أم زرع الطويل وقوله لها في آخر الحديث: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع.

- وعن عائشة قالت: اجتمع نساء النبي ﷺ . فلم يغادر منهن امرأة: فجاءت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ . فقال: مرحبا بابنتي فأجلسها عن يمينه. أو عن شماله. ثم إنه أسـر إليها حديثا فبكت فاطمة. ثم إنه سـارها فضـحكت أيضـا. فقلت لها: ما يبكيك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ . فقلت: ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن. فقلت لها حين بكت: أخصــك رســول الله ﷺ بحديثه دوننا ثم تبكين؟ وســألتها عما قال

[1071] مجلة البحوث الإسلامية، (84/ 357).

فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ حتى إذا قبض سألتها فقالت: إنه كان حدثني أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة. وإنه عارضه به في العام مرتين. ولا أراني إلا قد حضر أجلي. وإنك أول أهلي لحوقا بي. ونعم السلف أنا لك. فبكيت لذلك ثم إنه سارني. فقال: ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين. أو سيدة نساء هذه الأمة؟ فضحكت لذلك.

- وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين يتودد إليها بذلك. قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني، فقال: "هذه بتلك"[(1072)].

- وجعل النبي ﷺ معيار خيرية الرجال في حسن عشرة الزوجات، فقال: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله)[(1073)].

- وعن عائشة رضي الله عنها: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند رسول الله ﷺ . فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: دعهما. فلما غفل غمزتهما فخرجتا. 2907 - قالت: وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب فإما سألت رسول الله ﷺ وإما قال: تشتهين تنظرين. فقالت: نعم فأقامني وراءه خدي على خده ويقول: دونكم بني أرفدة. حتى إذا مللت قال: حسبك. قلت: نعم قال: فاذهبي[(1074)].

(1072) تفسير ابن كثير، ت السلامة، (2/ 242).

(1073) التفسير الموضوعي ٢،جامعة المدينة، (ص168).

(1074) أخرجه البخاري، (2906).

– عن عائشة؛ قالت: كنت أشرب وأنا حائض. ثم أناوله النبي ﷺ . فيضع فاه على موضع فِيّ (فمي) فيشرب[1075].

– وعن أنس قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصفحة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: (غارت أمكم)[1076].

هذه بعض النصوص التي يظهر فيها نموذجٌ فريدٌ في الحب والرحمة والعدل. كانت سيرته ﷺ مع زوجاته مثالاً يُحتذى به في المعاملة الطيبة والتقدير والاحترام، مما جعل بيته مدرسة في القيم الإنسانية الرفيعة.

[1075] أخرجه مسلم، (300).

[1076] البخاري، (4927).

الفصل السادس: أخلاق النبي ﷺ: تجسيد القدوة الإنسانية والقائد المُلهم

يتناول هذا الفصــل تحليل الأخلاق الرفيعة للنبي محمد ﷺ كقدوة إنســانية وقائد ملهم. من خلال استعراض خصائصه الأخلاقية، ومبادئه القيادية، إذ يبرز كيف أن هذه السمات قد تجسدت في سلوكياته اليومية، وتعاملاته مع الآخرين. ويُظهر البحث كيفية تأثير القيم النبوية في تشكيل نماذج قيادية إنسانية مؤثرةً بشكل عميق على المجتمع الإسلامي الأول والأجيال اللاحقة. ويتناول هذا الفصــل في نهايته، وقفات مع خطبة الوداع التي تجلت فيها كل المعاني والقيم الإنسانية والحضارية النبوية.

أولاً: حِكمة النبي المصطفى ﷺ:

عن عائشــة (رضــي الله عنها) زوج النبي ﷺ، حدثته: «أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأســي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد فقال: ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا[1077]. تظهر حكمة عظيمة للنبي ﷺ من خلال الصـــبر والعفو عن أهل الطائف، رغم قدرتهم على الانتقام. اختار الرحمة متفائلًا بأن الله سيخرج من ذريتهم من يعبد الله وحده، مما يعكس رحمة النبي وأمله في هداية الناس حتى في أحلك الظروف.

[1077] أخرجه البخاري، (3231).

- في صلح الحديبية دعا النبي ﷺ الكاتب، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم، ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله...[1078] تتجلى هنا مرونة النبي ﷺ وتنازله عن بعض الأمور في سبيل تحقيق مصلحة أكبر، وهي إبرام صلح الحديبية. رغم اعتراض الصحابة، قبل النبي ﷺ تعديل نص الاتفاقية، مؤكداً على أهمية الحكمة والتنازل عندما يكون الهدف تحقيق نتائج أكبر وأعظم لصالح للدعوة.

ثانياً: شجاعة النبي ﷺ:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ **[آل عمران: 153]**؛ عن البراء بن عازب قال: جعل النبي ﷺ على الرجالة يوم أحد عبد الله ابن جبير وأقبلوا منهزمين فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم. ولم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلا. قال ابن عباس وغيره: كان دعاء النبي ﷺ: (أي عباد الله ارجعوا). وكان دعاءه تغييرا للمنكر، ومحال أن يرى عليه السلام المنكر وهو الانهزام ثم لا ينهى عنه[1079].

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس. ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قبل الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا، وهو على فرس لأبي طلحة عري ما عليه سرج، في عنقه سيف، فقال: لقد وجدته بحرا - أو إنه لبحر[1080].

[1078] أخرجه البخاري، (2732).

[1079] تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن، (4/ 240).

[1080] أخرجه البخاري، (5686).

في هذا الحديث ما يجب أن يكون عليه القائد، من شـجاعة وإقدام، وتضـحية بالنفس من أجل من خلفه، وأن يكون هو صـمام الأمن لهم، الذي يهدئهم ويربط على قلوبهم، وألا يؤثر نفسه على نفوسهم في المخاطر، قال ﷺ لأصحابه: «لم تراعوا لم تراعوا ثم قال: وجدناه بحرا»، أي: لا تخافوا ولا تفزعوا[1081].

– وعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: كنا إذا حمي البأس ولقي القوم القومَ اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه[1082].

– وقال عليّ رضـي الله تعالى عنه أيضـاً: لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنّبيّ ﷺ، وهو أقرب إلى العدوّ. وكان من أشدّ النّاس يومئذ بأسا[1083].

– وسـأل رجل البراء رضـي الله تعالى عنه: أفررتم يوم حنين عن رسـول الله ﷺ ؟! قال: نعم، لكنّ رسول الله ﷺ لم يفرّ، كان هوازن رماة، وإنّا لما حملنا عليهم انكشفوا؛ فأكببنا على الغنائم، فاستقبلتنا بالسّهام[1084].

كانت شـجاعة النبي ﷺ تجسيدًا حقيقيًا لأعلى معاني البطولة والتفاني في سـبيل الحق. كما أنها لم تكن مقتصـرة على المواقف القتالية فقط، بل امتدت لتشـمل الثبات على الحق، وتحمل الصعوبات. تُعَدُّ شجاعته درسًا لنا في كيفية مواجهة التحديات بقوة وثقة، مستلهمين من سيرته العطرة القوة والإصرار في السعي لتحقيق العدالة وإعلاء كلمة الحق والدين.

(1081) شمائل الرسول ﷺ، محمد ناصر الدين الألباني، دار العرب الإسلامي، 2008م، (1/ 404).

(1082) أخرجه أحمد، (1347).

(1083) وسائل الوصول إلى شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار المنهاج، 2012م، (ص249).

(1084) وسائل الوصول إلى شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، (ص250).

ثالثاً: رحمة النبي ﷺ:

بلغت رحمة النبي ﷺ مبلغا عجيبا في الكمال والســـعة، حيث شملت تلك الرحمة كل الناس؛ الضـعيف منهم والقوي، الســيد منهم والعبد، القريب منهم والبعيد، الصـاحب منهم والعدو، بل امتدت تلك الرحمة لتشمل الجن والبهائم.

- شفقته بالولد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبّل رسـول الله ﷺ الحسـن بن عليّ وعنده الأقرع بن حابس التّميميّ جالسا، فقال الأقرع: إنّ لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدا. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثمّ قال: «من لا يرحم لا يرحم».

- شفقته على الخدم: عن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذرّ وعليه حلّة، وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك قال: فذكر أنّه سابّ رجلا على عهد رسول الله ﷺ فعيّره بأمّه قال: فأتى الرّجل النّبيّ ﷺ فذكر ذلك له. فقال النّبيّ ﷺ: «إنّك امرؤ فيك جاهليّة؛ إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يديه، فليطعمه ممّا يأكل، وليلبسه ممّا يلبس، ولا تكلّفوهم ما يغلبهم، فإن كلّفتموهم فأعينوهم عليه»[1085].

- رحمته بالمؤمنين عموماً: قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ **[التوبة: 128]**؛ أي شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: سماه الله تعالى باسمين من أسمائه[1086]. وقدَّم بالمؤمنين على رؤوف رحيم، ولم يقل: رؤوف يرحم المؤمنين: للتوكيد، والحصر. الرّأفة: أشدُّ الرّحمةِ، وأرقُّها: لم يحمِّلهم ما لا يطيقون. والرّحمة: هي جلب الخير، أو ما ينفع، ودفع الضّرّ[1087].

- رحمته بالناس عامة، كان للنبي ﷺ، مع قومه وغيرهم ممن لم يؤمن حال عجيبة، يعجب منها من تأمل بها، وهو أنه من شدة رحمته وحرصه على إسلامهم، وإنجائهم من النار، كاد أن يهلك نفسه، حتى أثبت الله تعالى ذلك في الذكر الحكيم في آيتين، قال الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ

[1085] شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، (1/ 380).

[1086] التفسير المنير، الزحيلي، (11/ 90).

[1087] تفسير القرآن الثري الجامع، (11/ 42).

بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ **[الكهف: 6]**. وقال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ **[الشعراء: 3]**.

قال قتادة معناه: قاتل نفسك غضبا وحزنا عليهم[1088].

– رحمته بالحيوان: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظّها من الأرض، وإذا سافرتم في السّنة فأسرعوا عليها السّير، وإذا عرّستم باللّيل، فاجتنبوا الطّريق، فإنّها مأوى الهوامّ باللّيل»[1089]. وقال: «إن الله كتب الإحسان على كلّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذّبح، وليحدّ أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته»[1090].

لقد تجسدت رحمة النبي ﷺ في كافة جوانب حياته، سواء كان ذلك في تعامله مع المسلمين أو غير المسلمين، مع الأصدقاء والأعداء، وحتى مع الحيوانات والبيئة من حوله. كان ﷺ مثالًا حيًا على العدل والرحمة، فكان يعفو عن المسيئين، ويرأف بالضعفاء، ويحنو على المساكين ﷺ .

رابعاً: كرم النبي ﷺ:

من جميل صفات النبي ﷺ كرمُه الفياض، وجُوده السيّال، كرمُه كرمُ رجل عافت نفسه الدنيا، حتى ما عاد يفرح بإقبالها، ولا يغتم ولا يهتم بإدبارها، إنه أكرمُ الناس وأجودُهم[1091]، عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما أنّه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قطّ فقال: (لا). وكان ﷺ لا يسأل شيئا إلّا أعطاه، ثمّ يعود على قوت عامه فيؤثر منه، حتّى لربّما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء. وكان ﷺ لا يكاد يسأل شيئا إلّا فعله. وكان ﷺ

[1088] تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن، (ص470).

[1089] شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، (1/ 397).

[1090] شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، المصدر السابق، (397/1).

[1091] دلائل النُّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشَّريعة، للحافظ أبي بكر أحمد البيهقيِّ، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، الطَّبعة الأولى، 1405هـ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، (ص129).

لا يكاد يقول لشـــيء: (لا) ، فإذا هو ســـئل فأراد أن يفعل.. قال: (نعم) . وإن لّم يرد أن يفعل.. سكت.

وعن ابن عبّاس رضـــي الله تعالى عنهما قال: كان رســـول الله ﷺ أجود النّاس بالخير، وكان أجود ما يكون في شـــهر رمضـــان حتّى ينســـلخ فيأتيه جبريل فيعرض عليه القران، فإذا لقيه جبريل.. كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الرّيح المرسلة[1092].

والمعنى أنّ غاية جوده كانت تستمرّ في جميع رمضان إلى أن يفرغ، ثمّ يرجع إلى أصل جوده الذي جبل عليه الزائد عن جود الناس جميعا.

وإنّما كان ﷺ أجود ما يكون في رمضـان، لأنّه موسم الخيرات، وتزايد البركات، فإنّ الله تعالى يتفضّـــل على عباده في هذا الشـــهر ما لا يتفضّـــل عليهم في غيره. وكان ﷺ متخلّقا بأخلاق ربّه؛ (فيأتيه جبريل) عند ملاقاته ومدارســـته القرآن، كما يدلّ عليه قوله الآتي: «فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الرّيح المرسلة»[1093].

لقد كان ﷺ يُعطي بلا حساب، ولم يكن يردّ يد سائل، بل كان يفضل الآخرين على نفســه حتى في أحلك الظروف، مما جعل الناس يتقربون إليه بحب وثقة. إن كرم النبي ﷺ لم يكن ماديًا فقط، بل شمل أيضًا كرمه بالوقت، والنصح، والإرشاد، والعطف على الناس. هذا الكرم العظيم لم يكن مجرد سـلوك شـخصـي، بل كان منهجًا تربويًا وتعليمًا لأمته، ليغرس في نفوسهم أهمية البذل والعطاء دون انتظار المقابل.

(1092) وسائل الوصول إلى شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، (ص246).

(1093) منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول، يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار المنهاج، 2012م، (2/ 660).

خامساً: القيم الحضارية والإنسانية في خطبة الوداع:

خطبة الوداع هي الخطبة التي ألقاها النبي ﷺ في حجة الوداع، وكانت تلك الحجة في السنة العاشرة من الهجرة. وتعد هذه الخطبة من أهم الوثائق الإسلامية لما تحمله من معاني عظيمة ومبادئ سامية توجه حياة المسلمين.

1. نص خطبة الوداع في عرفة ومنى وغدير خُم:

قال الرسول ﷺ في يوم عرفة بعد أن زاغت الشَّمسُ؛ وقد أمَرَ بالقصواء، فرُحِلَتْ له، فأتى بطن الوادي[1094]، فخطب النَّاس، وقال: «إنَّ دماءكم، وأموالكم حرامٌ عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدميَّ موضوعٌ، ودماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ، وإنَّ أوَّل دَمٍ أضع من دمائنا دمُ ابنِ ربيعةَ بن الحارثِ، كان مُسْتَرْضَعاً في بني سعدٍ، فقتلتْه هذيلٌ، وربا الجاهليَّة موضوعٌ، وأوَّل رباً أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطَّلب، فإنَّه موضوع كلُّه.

فاتَّقوا الله في النِّساء، فإنَّكم أخذتموهنَّ بأمان الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، ولكن عليهنَّ ألاَّ يوطئن فرشَكم أحداً تكرهونه[1095]، فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضرباً غير مُبَرِّحٍ[1096]، ولهنَّ عليكم رزقُهن، وكسوتُهنَّ بالمعروف؛ وقد تركت فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تُسْأَلُونَ عنِّي، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنَّك بلغت، وأدَّيت، ونصحت، فقال بإصبعه السَّبَّابة، يرفعها إلى السَّماء، وينكتها[1097] إلى النَّاس: «اللَّهمَّ اشهد! اللَّهُمَّ اشهد!» ثلاث مرَّات[1098].

[1094] بطن الوادي: وادي عُرَنَة، وليست عرنة من أرض عرفات عند العلماء، إلا مالكاً قال: من عرفات.

[1095] أي: لا يجوز للمرأة أن تُدخل أحداً إلى بيت زوجها من قريبٍ، أو بعيدٍ، أو امرأة إلا مَنْ يرضى عنه زوجها.

[1096] الضَّرب المبرح: الشَّديد الشاق.

[1097] ينكتها: يقلبها، ويرددها إلى النَّاس مشيراً إليهم.

[1098] صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 661.

وقد خطب الناس في منى، ومما جاء فيها: «أتدرون أيُّ يومٍ هذا؟» قلنا: اللهُ ورسـولُه أعلم، فَسكَتَ؛ حتَّى ظننَّا أن سيسمِّيه بغير اسمه، فقال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى! قال: «أي بلدٍ هذا؟» قلنا: الله ورسولُه أعلم، فَسَكَتَ؛ حتَّى ظننَّا: أنَّه سيسمِّيه بغير اسمه، قال: «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى! قال: «فإنَّ دماءكم، وأموالكم - وفي رواية: وأعراضكم - عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللَّهُمَّ اشهد! فليبلغ الشَّاهد الغائب، فَرُبَّ مبلَّغٍ أوعى من سامعٍ، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعضٍ»[1099].

هذا، وقد تأخَّر رسول اللهﷺ حتَّى أكمل رمي أيام التَّشريق الثَّلاثة، ثمَّ نهض إلى مكَّة، فطاف للوداع ليلاً سحراً، وأمر النَّاس بالرَّحيل، وتوجَّه إلى المدينة[1100]. وفي طريق العودة من حجَّة الوداع خطب الرَّسولﷺ النَّاس في غدير خُمٍّ قريباً من الجحفة في اليوم الثَّامن عشر من ذي الحجَّة، وقد جاء في هذه الخطبة: «أمَّا بعد: ألا أيُّها النَّاس! فإنَّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسولُ ربِّي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَيْنِ، أوَّلهما كتابُ الله فيه الهدى والنُّور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به»، فحثَّ على كتاب الله، ورغَّب فيه، ثمَّ قال: «وأهلُ بيتي، أذكِّركم اللهَ في أهل بيتي، أذكِّركُم الله في أهل بيتي، أذكِّركم الله في أهل بيتي»[1101].

وفي روايةٍ: ... أخذ بيد عليٍّ رضي الله عنه وقال: «من كنتُ وليُّه، فهذا وليُّه، اللَّهُمَّ والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه»[1102]، وفي روايةٍ: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه»[1103].

[1099] السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة، (550/2)، والسِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (578/2).

[1100] السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدوي، ص 390.

[1101] أحمد (14/3 و17)، ومسلم (36/2408 و37).

[1102] صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص 688.

[1103] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (550/2). أخرجه أحمد (368/4)، والترمذي (3713).

وكان عليٌّ قد أقبل من اليمن، وشهد حجَّة الوداع[1104]، وقد اشتكى بعض الجند عليّاً، وأنَّه اشتدَّ في معاملتهم، وكان قد استرجع منهم حللاً وزَّعها عليهم نائبه، فأوضح لهم النَّبيُّ ﷺ في غدير خُمٍّ مكانةَ عليٍّ، ونبَّه على فضـــله لينتهوا عن الشَّــكوى[1105]، فقد كان الحقُّ مع عليٍّ في إرجاع ما أعطاهم نائبه في غيبته؛ لأنَّها أموال صدقاتٍ، وخمس[1106].

ولما أتى رسولُ الله ﷺ ذا الحليفة، بات بها، فلمَّا رأى المدينة؛ كبَّر ثلاث مرَّاتٍ، وقال:

«لا إله إلا الله وحدَه، لا شــريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شـــيء قديرٌ، ايبون، تائبون، عابدون، ســـاجدون، لربِّنا حامدون، صـــدق الله وعده، ونصـــر عبده، وهزم الأحزاب وحدَه»، ثمَّ دخلها نهاراً[1107].

2. القيم الحضارية والإنسانية في خطب الوداع:

أ. مرحلة النُّضج الَّتي وصلت إليها الأمَّة:

وصلت الأمَّة الإسلاميَّة في السَّنة العاشرة مرحلةً من النُّضج متقدِّمةً، وكان ذلك يقتضي لمساتٍ أخيرةً، فوسَّع ﷺ في العام التَّاسع، والعاشر من الهجرة دائرة التَّلقِّي المباشر، من خلال استقباله الوفود، ومن خلال رحلة الحجِّ، فأوجد قاعدةً عريضـةً تحمل دعوته، وقد تلقَّت عنه مباشرة، وكان لذلك أكبر الأثر في أن تبقى رَحَى الإسلام دائرةً، وإلى الأبد[1108]، ففي حجَّة الوداع كانت اللَّمسات الأخيرة في تربية الأفراد والمجتمع على كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ .

ب. تربية الأفراد على قطع الصِّلة بالجاهليَّة، والابتعاد عن الذُّنوب:

- فقد أشــار ﷺ إلى أهمِّيَّة قطع المســلم علاقته بالجاهليَّة: أوثانها، وثاراتها، وربِاها، وغير

[1104] البداية والنِّهاية، (209/5).

[1105] السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، (551/2).

[1106] السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة، (581/2).

[1107] البخاري (1797)، ومسلم (1344). السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدويِّ، ص 391 نقلاً عن زاد المعاد، (249/1).

[1108] الأساس في السُّنة، (1054/2).

ذلك، ولم يكن حديثهﷺ مجرَّد توصـــيةٍ، بل كان قراراً؛ أعلن عنه للملأ كلِّه؛ لأولئك الَّذين كانوا مِنْ حوله، والأمم الَّتي ستأتي مِنْ بعده، وهذه هي صيغة القرار: «ألا إنَّ كلَّ شيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدمي موضـوعٌ، دماءُ الجاهليَّة موضـوعةٌ... وربا الجاهليَّة موضـوعٌ[1109]» لأنَّ الحياة الجديدة الَّتي يحياها المســـلم بعد إســـلامه حياةٌ لا صـــلة لها بِرِجْسِ الماضـــي، وأدرانه[1110].

- وقد حذَّرﷺ من الذُّنوب، والخطايا، والاثام، ما ظهر منها، وما بطن؛ لأنَّ الذُّنوب، والخطايا تفعل بالفرد ما لا يفعله العدوُّ بعدوِّهِ، فهي سبب مصائبه في الدُّنيا: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ **[الشورى: 30]** فتُرْدِيه في نار جهنَّم في الآخرة، وتفعل في المجتمعات ما لا يفعله السَّيف.

وأعلن رسولُ الله ﷺ: أنَّه لا يقصد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام؛ لأن العقول الَّتي تفتَّحت على التَّوحيد ترفض أن تعود إلى الشِّرك الظاهر، ولكنَّ الشَّيطان لا ييئس من أن يجد طريقه إليها من ثغرات الخطايا، والذُّنوب، حتَّى تُرْدِي صاحبها في المهاوي[1111].

ج. تربية المجتمع على مبادئ أساسيَّة:

- الأخوَّة في الله هي العُروة الوُثقى الَّتي تربط بين جميع المسلمين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ **[الحجرات: 10]**، فقد قال ﷺ: «أيُّها النَّاس! اسمعوا قولي، واعقلوه، تَعَلَّمُنَّ: أنَّ كلَّ مســـلمٍ أخٌ للمسلم، وأنَّ المسلمين إخوةٌ؛ فلا يحلُّ لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسٍ منه، فلا تَظْلِمُنَّ أنفســـكم». وقال: «إنَّ دماءكم، وأموالكم، وأعراضـــكم عليكم حرامٌ، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، حتَّى تلقَوا ربَّكم فيســـألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُـــلاَّلاً

[1109] فقه السّيرة، للبوطي، ص331.

[1110] قراءة سياسية للسّيرة النّبوية، لمحمد قلعجي، دار النفائس، بيروت، لبنان، الطَّبعة الأولى، 1416 هـ، 1996 م، ص 303.

[1111] قراءة سياسية للسّيرة النّبويّة، ص 303.

يضرب بعضُكم رقاب بعض».

– الوقوف بجانب الضَّعيف، حتَّى لا يكون هذا الضَّعف ثغرةً في البناء الاجتماعيِّ، فأوصى ﷺ في خطبته بالمرأة والرَّقيق على أنَّهما نموذجان من الضُّعفاء[1112]، فقد شدَّد ﷺ في وصيته بالإحسان إلى الضُّعفاء[1113]، وأوصى خيراً بالنِّساء، وأكَّد في كلمةٍ مختصرةٍ جامعةٍ القضاءَ على الظُّلم البائد للمرأة في الجاهليَّة، وتثبيت ضمانات حقوقها، وكرامتها الإنسانيَّة، الَّتي تضمَّنتها أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة[1114].

– التَّعاون مع الدَّولة الإسلاميَّة على تطبيق أحكام الإسلام، والالتزام بشرع الله، ولو كان الحاكم عبداً حبشيّاً؛ فإنَّ في ذلك الصَّلاحَ، والفلاحَ، والنَّجاةَ في الدُّنيا، والآخرة[1115]، فقد بيَّن ﷺ العلاقة بين الحاكم والمحكوم بأنَّها تعتمد على السَّمع، والطَّاعة ما دام الرَّئيس يحكم بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ، فإذا مال عنهما؛ فلا سمع، ولا طاعة، فالحاكم أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله تعالى[1116].

– المساواة بين البشر: فقد قال ﷺ: «لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتَّقوى. النَّاس من ادم، وادم من تراب»[1117]؛ حيث حدَّد: أن أساس التَّفاضل لا عبرة فيه لجنسٍ، ولا لون، ولا وطن، ولا قوميَّة، ... إلخ، وإنَّما أساس التَّفاضل قيمةٌ خلقيَّةٌ راقيةٌ ترفع مكانة الإنسان إلى مقاماتٍ رفيعةٍ

(1112) قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة، ص 304.

(1113) دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين، ص 575.

(1114) فقه السِّيرة للبوطي، ص 332.

(1115) دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين، ص 576.

(1116) فقه السِّيرة، للبوطي، ص 333.

(1117) رواه أحمد (411/5) عن رجل من أصحاب النبيِّ (ﷺ)، والبزار، (2044) عن أبي سعيد، والطبراني في الكبير (12/18 – 13)، وانظره في مجمع الزوائد (272/3)

جدّاً[1118].

ـــــ تحديد مصدر التَّلقِّي: وقد حدَّد ﷺ مصدر التَّلقِّي والطَّريقة المثلى لحلِّ مشاكل المسلمين، الَّتي قد تعترض طريقهم، في الرُّجوع إلى مصدرين لا ثالث لهما، ضمن لهم بعدَ الاعتصام بهما الأمان من كلِّ شقاءٍ، وضلالٍ، وهما: كتاب الله، وسنَّة رسوله ﷺ، وإنَّك لتجده يتقدَّم بهذا التعهُّد، والضَّمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده؛ ليبيِّن للنَّاس أنَّ صلاحية التَّمسُّك بهذين الدَّليلين ليس وقفاً على عصرٍ دون اخر، وأنَّه لا ينبغي أن يكون لأيِّ تطوُّرٍ حضاريٍّ، أو عُرْف زمنيٍّ أيُّ سلطانٍ، أو تغَلُّبٍ عليهما[1119].

لقد وصف ﷺ الدَّاء، والدَّواء، ووضع العلاج لكلِّ المشكلات بالالتزام التَّامِّ بما جاء من أحكامٍ في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسَّكتُم به؛ لن تضلُّوا بعدي أبداً كتابَ الله، وسنَّتي»[1120].

هذا هو العلاج الدَّائم، وقد كرَّر ﷺ نداءه للبشريَّة عامَّةً عبر الأزمنة، والأمكنة بوجوب الاهتداء بالكتاب، والسُّنَّة في حلِّ جميع المشكلات الَّتي تواجه البشريَّة؛ فإنَّ الاعتصام بهما يجنِّب النَّاس الضَّلال، ويهديهم إلى الَّتي هي أقوم في الحاضر، والمستقبل، لقد اجتازت تعاليم رسول الله ﷺ، وهديه حدود الجزيرة، واخترقت حواجز الزَّمن، وأسوار القرون، وظلَّ يتردَّد صداها حتَّى يوم النَّاس هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلم يكن يخاطب سامعيه، فيقول لهم: (أيُّها المؤمنون! أيُّها المسلمون! أيُّها الحجَّاج)؛ بل كان يقول لهم: (أيُّها النَّاس!)، وقد كرَّر نداءه إلى النَّاس كافَّةً مرَّاتٍ متعدِّدةً دون أن يخصِّصه بجنسٍ، أو بزمانٍ، أو مكانٍ، أو

[1118] الموسوعة في سماحة الإسلام لمحمَّد صادق عرجون، ط الثَّانية 1404 هـ، 1984 م، الدَّار السُّعودية للنَّشر، والتَّوزيع – جدَّة، (876/2).

[1119] فقه السِّيرة، للبوطي، ص 333.

[1120] مالك في الموطأ، (899/2)، ومشكاة المصابيح، (186)، والسلسلة الصحيحة، (1761).

لونٍ، فقد بعثه الله للنَّاس كافَّةً، وأرسله رحمةً للعالمين[1121].

3. الأساليب التعليمية من خطب حجَّة الوداع:

أ – التَّعليم بمباشرة ما يراد تعليمه:

علَّم رسولُ الله ﷺ صحابته الكرام مناسك الحجِّ بصورةٍ عمليَّةٍ، بأن قام بها، وباشرها فعلاً، ولم يكتفِ بأن يعلِّمها لهم قولاً، ولذلك قال لهم: «خذوا عنِّي مناسككم»[1122]، وعلى هذا فيُستحسن من الدُّعاة؛ وهم يعلِّمون الناس معاني الإسلام أن يعلِّموهم هذه المعاني، والمطلوبات الشَّرعية، أو بعضَها في الأقلِّ بصورةٍ عمليَّةٍ كالوضوء، والصَّلاة، وتعليم قراءة القرآن بصورةٍ سليمةٍ[1123].

ب – تكرار الخُطَب:

لاحظنا: أنَّ النَّبي ﷺ كرر خطبه، فقد خطب في عرفة، وفي منىً مرَّتين، كما كرَّر معاني بعض هذه الخطب، فعلى الدُّعاة أن يقتدوا برسول الله ﷺ، فيكرِّروا خطبهم، ويكرِّروا بعض معانيها الَّتي يرون حاجةً لتكرارها؛ حتَّى يستوعبها السَّامعون، ويحفظوها؛ لأنَّ القصد من خُطب الخطيب إفادة السَّامعين بما يقول، فإذا كانت الفائدة لا تحصل، أو لا تتمُّ إلا بتكرار الخُطب من حيث عددها، أو بتكرارها من حيث تكرار معانيها، فليكرِّرها الدَّاعية، ولا يكون حرصه على أن يأتي بجديدٍ في خطبه، ما دام يرى الحاجة في ترسيخ معانٍ معيَّنةٍ في أذهان السَّامعين. إنَّ الدَّاعية همُّه أن يفيد السَّامعين، وليس همُّه أن يُظهر براعته في الخُطَب، وفي تنوُّع معانيها دون نظرٍ، ولا اعتبارٍ إلى ما يحتاج إليه السَّامعون، ودون اعتبارٍ لفهمهم هذه المعاني،

(1121) الجانب السِّياسي في حياة الرَّسول (ص)، لأحمد محمد باشميل، ص 131.

(1122) رواه مسلم (1297)، وأبو داود (1970)، والنسائي (270/5). السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة، (549/2).

(1123) المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة لعبد الكريم زيدان، مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة الأولى، 1418 هـ، 1997 م، (518/2).

واستيعابهم لها[1124].

ج – فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهدُ الغائبَ:

وفي هذا توجيهٌ نبويٌّ كريمٌ لكي تعمَّ الفائدة أكبر عددٍ ممكنٍ من النَّاس، فهذا من باب التعاون على الخير؛ ولأنَّ الغائب قد يكون أوعى للعلم، وأكثر فهماً له من الحاضر الَّذي سمع، وعلى الدُّعاة، والعلماء عندما يُلْقُون درساً أو محاضرةً لإخوانهم أو لعامَّة النَّاس أن يقولوا للحاضرين: «فليبلِّغ الحاضرُ منكم الغائبَ بما سمعه»[1125].

د – جلب انتباه الحاضر لما يقوله الخطيب:

ويستفاد من سؤال النَّبيِّ ﷺ الحاضرين عن اسم اليوم الَّذي هم فيه، وكذا عن الشَّهر، والبلد – وهم يعرفونها – ما يجلب انتباههم إلى ما قد عسى أن يريده بطرح هذه الأسئلة، فيصغون إليه إصغاءً تامَّاً، قال القرطبيُّ: سؤال النَّبيِّ ﷺ عن الثلاثة: أي: عن اليوم، والشَّهر، والبلد، وسكوته بعد كلِّ سؤالٍ منها؛ كان لاستحضار فهومهم، وليُقبلوا عليه بكلِّيَّتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه... فعلى العلماء، والدُّعاة أن يقدِّموا بين يدي ما يقولونه ما يدعو إلى جلب انتباه السَّامعين، ويشدُّهم إلى كلامهم[1126].

لقد أرسى النبي ﷺ من خلال خطب حجّة الوداع أسس العدالة، والمساواة، واحترام الإنسان، مؤكدًا على حرمة الدماء والأموال والأعراض، وداعيًا إلى الأخوة والتآزر بين الناس. كانت هذه المبادئ نهجًا حضاريًا شاملاً يعزز من قيم التعايش، ويضع قواعد للبناء الاجتماعي على أسس من الرحمة والعدالة والكرامة الإنسانية.

[1124] المستفاد من قَصص القرآن، (2/517، 518).

[1125] أخرجه البخاري (67).

[1126] المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدعاة، (2/518).

خلاصة

في الختام يمكن القول: لقد استعرضنا الأبعاد الحضارية والإنسانية في سيرة النبي محمد ﷺ، والتي تجسدت في قيم ومبادئ أساسية مثل العدل، والرفق، والرحمة، والتآخي، والصدق، والشورى، والوفاء، والعفو، والإحسان، والخيرية، والعالمية في القول والسلوك والمعاملة. وقد أسهمت هذه القيم في بناء لبنات قوية في صرح أمة وحضارة كان لها دور محوري ومؤثر في مسار التاريخ البشري، ولا تزال معالمها حاضرة، وتأثيراتها واضحة حتى وقتنا الراهن.

ونلاحظ، بأن أكبر تهديد راهن للإنسانية يكمن في حدوث خلل في بنيانها القيمي والأخلاقي والعقائدي والسلوكي، مما أدى إلى تآكل القيم الأساسية، وتفشي الاغتراب عن الهدف الأسمى للحياة، والفطرة السليمة للإنسان. ولذلك، كانت تنطوي مهمة النبي ﷺ على إنقاذ البشرية من الفوضى والتيه والغرق في الملذات والشهوات والمنكرات، وهذه طبيعة عمل الأنبياء والمرسلين؛ يمنحون الأجيال البشرية (علم النجاة)، ويعلمونه كيفية توجيه سفينة الحياة إلى بر الأمان والاستقرار. وقد تجسدت هذه المهمة بكل معانيها في رسالة النبي محمد ﷺ، التي قدمت للبشرية هَديًا ربانيًا شاملًا ومتكاملاً، يوجهها نحو القِيم العليا التي تُحقق النجاح في الدنيا والفوز في الآخرة. كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

وفي ختام كتابنا، يمكننا أن نخلص إلى النتائج الآتية:

1. يتضح لنا أن سيرة وتعاليم النبي محمد ﷺ قد أحدثت تحولاً حضارياً وإنسانياً عميقاً، فقد قاد الإسلام منذ فجره نحو نهضة أخلاقية واجتماعية شاملة، إذ لم تقتصر رسالته العظيمة على بناء الفرد المسلم فحسب، بل امتدت لتشمل جميع جوانب الحياة، مؤسِّسةً نظاماً حضارياً متكاملاً يرتكز على الرحمة والعدل والمساواة.

2. يُعدُّ إعلان الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾؛ تأكيداً فريداً على الدور الكبير للنبي ﷺ، حيث يحمل هذا الإعلان أبعاداً تتجاوز حدود الزمان والمكان، ويعكس سعة رسالة الإسلام التي تشمل كل الأجيال والمراحل التاريخية، ويُتلى في كل بقاع الأرض.
3. لم يكن النبي ﷺ مجرد مصلح اجتماعي أو قائد عسكري، بل كان تجسيداً للرحمة الإلهية التي تجلت في تعاليمه وأخلاقه، وستظل تعاليمه منارة تهتدي بها الأمم وتلهم كل حركة إصلاحية تسعى لتحقيق العدالة والرحمة.
4. تشكل القيم الإنسانية في الإسلام جزءاً أساسياً من رسالته الشاملة، التي تسعى لتحقيق التوازن والعدالة في حياة الأفراد والمجتمعات.
5. تميز الإسلام بشموليته التي تستوعب كل جوانب الحياة، من زمن ومكان وكيان الإنسان، مما يجعله ديناً متكاملاً يتجاوز كل ما عرفته البشرية من أديان وفلسفات ومذاهب.
6. نبرز أن الإسلام، الذي شرعه الله تعالى، لم يترك جانباً من جوانب الحياة دون معالجة، بل شمل كافة مناحيها بكل توازن وإتقان، سواء كانت مادية أو روحية، فردية أو اجتماعية.
7. تتميز رسالة الإسلام بشموليتها لكل الأزمنة والأجيال، فهي ليست مقتصرة على عصر أو زمن معين، بل تمتد لتشمل البشرية جمعاء إلى قيام الساعة. بينما كانت رسالات الأنبياء السابقين تقتصر على مراحل زمنية محددة، فإن رسالة النبي محمد ﷺ، كخاتم الأنبياء، هي رسالة خالدة.
8. جاء الإسلام ليخاطب جميع البشر، مقدماً دعوة شاملة تحمل خصائص الإعلان والبلاغ والبيان والإنذار، لتنجز هدفها الأسمى في إنقاذ من سبقت له رحمة الله.
9. القيم التي تجسدها حياة النبي ﷺ وتعاملاته تمثل نموذجاً فريداً ملهمًا، لا تزال تنير المجتمعات المعاصرة في سعيها نحو بناء مجتمع قائم على الرحمة والتسامح والعدل والمساواة.
10. سبق الإسلام جميع التشريعات الدينية السماوية والوضعية في ترسيخ مجموعة من القيم الأخلاقية النبيلة، فقد جاءت السنة النبوية داعيةً إلى هذه القيم السامية والأخلاق الفاضلة، التي تعزز كرامة الإنسان وتولي اهتمامًا كبيرًا بالإنسانية، مما يجعلها مرجعًا للأخلاق العالية.

11. رسالة الإسلام هي رسالة الإنسان من حيث هو إنسان متكامل. فهي لا تركز على عقل الإنسان دون روحه، ولا على روحه دون جسمه، ولا على أفكاره دون عواطفه، بل تعنى بجميع جوانب الإنسان: روحه وعقله وجسمه وضميره، وإرادته ووجدانه، مما يعكس تكاملاً فريداً في رسالته.

12. تتجلى شمولية التعاليم الإسلامية في تفسيرها لقضايا التوحيد الكبرى مثل الألوهية والكون والإنسان والنبوة والمصير، وشمول العبادة التي تستوعب الكيان البشري كاملاً. المسلم يعبد الله بلسانه وببدنه وبقلبه وبعقله وبحواسه جميعها. كما تشمل الأخلاق، وهي إحدى الغايات الأساسية لبعثة النبي ﷺ.

13. الأخلاق في الإسلام لم تترك جانباً من جوانب الحياة الإنسانية إلا وقدمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع. فقد ضمن قانون الأخلاق الإسلامي ما فرقته الناس في مجالات الدين والفلسفة والعرف والمجتمع، في تناسق وتكامل يتجاوز ما عرف سابقاً.

14. الشريعة الإسلامية هي شريعة ربانية، مصدرها الأساسي وحي الله. وهي أيضاً شريعة إنسانية لأن الإنسان هو من يفهمها وينفذها. كما أنها شريعة أخلاقية، واقعية، منطقية، وخالدة، تعكس فهمًا عميقًا لمتطلبات الإنسان واحتياجاته.

15. شرع الإسلام مبادئ وقيمًا تكفل الحقوق الكاملة التي تفرضها الحياة الإنسانية والكرامة البشرية. لم تحظَ هذه الحقوق في أيّ شريعة سماوية أو نظم أرضية بمثل ما حظيت به في الشريعة الإسلامية، التي ارتقت بها إلى مستوى الواجبات الدينية المتحتمة التي يحرم الإخلال بها.

16. جاء الإسلام ليؤكد كرامة الإنسان ويضمن حقوقه واحترامه عبر قوانين وتشريعات تناولت حماية حياته وماله وعرضه وحريته الفكرية ومشاركته في الحياة العامة. وقد تعامل الإسلام مع مسألة الكرامة والحقوق العامة من دون تمييز بين الرجل والمرأة إلا في حدود الوظائف والمسؤوليات التي تتطلبها الطبائع الجسدية والنفسية.

17. أكد القرآن الكريم أن الإنسان مخلوق كريم على الله، فقد خلق آدم بيديه ونفخ فيه من روحه وجعله في الأرض خليفة، تكريماً للإنسان. جاء ذلك في حوار بديع في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ **[البقرة: 30]**.

18. الإنسان هو الغاية والهدف من ابتعاث الرسل واختيار الأنبياء وإنزال الكتب والصُّحف. وقد اقتضت حكمة الله ومشيئته ورحمته أن يخلق الإنسان لأغراض نبيلة، وألا يتركه عبثاً أو سدى.
19. الإسلام يدعو جميع الناس إلى البرّ والرحمة والإخاء والمودة والتعاون والصدق والإحسان ووفاء الوعد وأداء الأمانة، وتطهير القلب من الشوائب. كما يدعو إلى العدل والمسامحة والعفو والمغفرة والصبر والثبات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة، وغيرها من مكارم الأخلاق والفضائل.
20. جميع الأحكام الشرعية في الإسلام تُراعي الناحية الإنسانية؛ لأن الشريعة الإسلامية ما شرعت إلا لمصلحة الإنسان، وقد راعت إنسانية الإنسان بأحكام حكيمة وعادلة تناسبه في كل جوانب حياته.
21. الإنسان المؤمن مكرّم حياً وميتاً، فالتكريم الإلهي يحفّ الإنسان من جميع جوانبه منذ أن خلقه الله سبحانه وأودع فيه فطرة التوحيد والإسلام، وأسجد له ملائكته وكلّفه بالعبادة والخلافة، وكرّمه في الحياة بالإيمان والهداية وفي الآخرة بالجنان إن اختار طريق الإيمان.
22. العقل أهم خصائص الإنسان التي بموجبها فضل الله الجنس الإنساني على سائر المخلوقات، لذلك اعتبر الإسلام العقل مناط التكليف في سائر المسؤوليات الدينية والدنيوية.
23. كرّم الله بني آدم جميعاً، حيث وهبهم العقل على سواء، فلا تفاوت من حيث المنحة الإلهية، وإنما التفاوت في مدى استعداد الإنسان لها.
24. ترتبط الفطرة السليمة بالقيم الإنسانية ارتباطاً وثيقاً، فالفطرة السليمة هي ما يُولد عليه الإنسان من استعداد طبيعي للتمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، والصواب والخطأ، وبالتالي فهي تُشكّل أساساً للقيم الإنسانية الكبرى.

25. إن المجتمع المسـلم –كما يقيم علاقته بعضـه مع بعض على العدل والمسـاواة – يقيم علاقة بينه وبين الرعية من الأقليات الدينية على التسامح والبر والرحمة والعدالة والمساواة، وغيرها من المبادئ الأخلاقية التي تصـون التواصـل البشـري على رغم اختلاف الملل والنحل.

26. بسبب وجود الاختلاف بين البشر ما دامت السماوات والأرض؛ أرسى الإسلام مبادئ التعايش السلمي، مع غير المسلمين، وجعل العلاقة بين المسلمين وغيرهم – ولا سيما أهل الكتاب – قائمة على الإحسان، والبر، وحسن المعاشرة، طالما لا يحاربون الله ورسوله.

27. شواهد التاريخ بعد أدلة العقل والنقل متضافرة على أن أهم غايات الجهاد الإسلامي كسر شوكة الطواغيت، وإبطال سحرهم وبطشهم، وترك الناس بعد ذلك وما يدينون... ولا غرو بعد ذلك أن كانت أرض الإسلام أرض الحرية الدينية؛ التي فاء إلى ظلها أبناء كل الطوائف المضطهدة من طرف أهل دينها، فما استقر لها مقام، ولا ازدهر لها كيان، إلا في ظل حماية الإسلام.

28. من مقاصد الإسلام: إبطالُ عبودية البشر للبشر، وتعميم الحرية لكل الناس. ومن قواعد الفقه قول الفقهاء: الشارعُ متشوِّفٌ للحرية، فذلك استقراؤهم من تصرفات الشريعة؛ التي دلت على أنّ من أهم مقاصدها إبطال العبودية وتعميم الحرية.

29. انقرض الرق أمام أبواب الحرية التي فتحها الإسلام، ولم يكن الإسلام أول من أباح الرق، بل كان أول من حرر الأرقاء بأسلوب منطقي، بأسلوب الترغيب تارة وبأسلوب الترهيب تارة أخرى عن طريق الكفارات.

30. أسس الإسلام حرية الاعتقاد لإبطال المعتقدات الضالّة التي أكْرَهَ دعاةُ الضلالة أتباعهم ومريديهم على اعتقادها من دون فهم ولا هدًى، ولا كتاب منير، وبالدعاء إلى إقامة البراهين على العقيدة الحقة، ثم بالأمر بحسن مجادلة المخالفين وردّهم إلى الحق بالكلمة

والموعظة، وأحسن الجدل، ثم بنفي الإكراه في الدين.

31. الدين الإسلامي الحنيف ليس دينَ قمعٍ وإكراهٍ، بل دينُ يسرٍ، يقوم على مبدأ وسائل الإقناع، والتزام جادّة العقل من خلال منهج الحوار البنَّاء، والتعبير الحر، والجدال الموضوعي المنطقي في النقاش، البعيد عن المهاترات وإثارة الفتن.

32. نبه القرآن الكريم إلى العوائق الواقعية التي تعطّل التفكير، وطلب إزالتها حتى لا تقفَ بوجه العقل الإنساني، والتفكير الصحيح، فرفض التبعية الفكرية، والإيحاء الفكري المتوارث عائلياً واجتماعياً، فأكد بذلك شخصية كل فرد، واستقلاليته الفكرية.

33. العدلُ من أهم ما يجب على هذه الأمة، بل هو من أعظم ما يميّزها عن الأمم، ولم يكتف الحقُّ تبارك وتعالى بإيجابِ العدل على هذه الأمة، بل أراد منها أن تجعلَه خُلقاً من أخلاقها، وصفةً من صفاتها، وصبغةً تصطبغ بها من دون الناس، فأمرها أن تكونَ قائمةً بالعدل، بل قوامةً به بين الناس، لله عز وجل، لا لأي شيءٍ آخر، فلا تحابي فيه قريباً لقرابته، ولا تضارّ عدواً لعداوته.

34. إنَّ إيمان هذه الأمة بالله عز وجل يدل على عدلها؛ لأن الشرك بالله ظلم عظيم، ووجه كونه عظيماً أنه لا أفظع وأبشع ممن سوّى المخلوقات من تراب بمالك الرقاب، وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمالك الأمر كله، وسوّى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه.

35. من ملامح العدل وأبرز سماته اليسر ورفع الحرج، وقد تقرر أن الدين هو دين الوسط فلا غلو ولا جفاء ولا إفراط ولا تفريط، واليسر ورفع الحرج مرتبة عالية بين الإفراط والتفريط وبين التشدد والتنطع، وبين الإهمال والتضييع.

36. وطيب المعدن، والنَّسب الرَّفيع يرفع صاحبه عن سفاسف الأمور، ويجعله يهتمُّ بعاليها، وفضائلها. والرُّسل، والدُّعاة يحرصون على تزكية أنسابهم، وطهر أصلابهم، ويعرفون عند

النَّاس بذلك، فيحمدونهم، ويثقون بهم.

37. تجسدت القيم الإنسانية والحضارية في حياة نبيّنا محمد ﷺ قبل البعثة بوضوح وجلاء، مما جعل سيرته مثالاً يحتذى به في الأخلاق والفضائل. كانت هذه الفترة من حياته مليئة بالمواقف التي أظهرت نبل أخلاقه وسمو قيمه. فقد عُرف بالأمانة والصـــدق حتى لقب بـ "الصادق الأمين"، وكان يعامل الناس بالعدل والإنصاف، ويشاركهم في حل مشكلاتهم ويسعى لنشر السلم والوئام بينهم.

38. تبرز تجليات هذه القيم في تلك الحقبة، في مشاركته في حلف الفضول، حيث اتفق مع عدد من شرفاء مكة على نصرة المظلوم وإعادة الحقوق إلى أهلها، بغض النظر عن دينهم أو عرقهم، مما يعكس فهمه العميق لقيمة العدل. كما كان له دور بارز في حل النزاعات، مثل نزاع إعادة بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود، حيث توصل إلى حل يُرضي جميع الأطراف بحكمته التي أكرمه الله تعالى بها.

39. كانت حياة نبينا محمد ﷺ، نموذجًا للقيم الإنسانية والحضارية حتى قبل بعثته، مما جعل دعوته لاحقًا تلقى قبولًا واسعًا بين الناس، الذين عرفوه بالأخلاق الحميدة والسلوك الحسن.

40. تعد الأخلاق أحد الأسس الرئيسة التي تقوم عليها المجتمعات الإنسانية والحضارات؛ إنها تتعلق بالمبادئ والقيم التي تحدد ما هو الصحيح وما هو الخطأ، وتوجه سلوك الناس نحو تحقيق الخير والصلاح على النحو الذي يرتضيه رب العزة سبحانه.

41. للأخلاق في المنهج الرباني أهميةٌ كبرى، فصاغها على وفق اتجاهه في الاعتقاد، وبناها على أساس الحقيقة الكبرى للكون والحياة، وغاية الجنس البشري وماله، ومهمة وجوده من حيث هو خليفة في الأرض، يقيم فيها شريعة الله، ومنهاجه.

42. الأخلاق في الإسلام ثابتة، وليست نسبية، فلا تتغير من فرد إلى فرد، أو من مجتمع إلى

مجتمع آخر، أو من زمن إلى زمن آخر، بل هي قيم ثابتة تزداد ثباتاً وضرورة كلما مرّت الإنسانية بتجارب في حياتها الأرضية، وهي شرط لاكتمال إنسانية الفرد وصلاح مجتمعه.

43. كان النَّبيُّ ﷺ محطَّ أنظار مجتمعه، وصار مضرب المثل فيهم، حتَّى إنَّهم لقبوه بالأمين، وقد هفت إليه قلوب الرِّجال والنِّساء على السَّواء؛ بسبب الخُلق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيَّه ﷺ، وما زال يزكو، وينمو؛ حتَّى تعلقت به قلوب قومه، وهذا يعطينا صورةً حيَّةً عن قيمة الأخلاق في المجتمع، وعن احترام صاحب الخُلق ولو في المجتمع المنحرف.

44. يعد العمل في الإسلام قيمة إنسانية ذات مكانة عالية، بل هو في الإسلام شكل من أشكال العبادة التي يؤجر عليها الإنسان إذا نوى من خلاله إعفاف نفسه، ونيل رضى الله وخدمة المجتمع.

45. إنَّ رعي الغنم كان يتيح للنَّبيِّ ﷺ الهدوء الذي تتطلَّبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصَّحراء، ويتيح له التَّطلُّع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل، وظلال القمر، ونسمات الأسحار، يتيح له لوناً من التَّربية النَّفسيَّة: من الصَّبر، والحلم، والأناة، والرَّأفة، والرَّحمة.

46. إنَّ صاحب أيِّ دعوةٍ لن تقوم لدعوته أيُّ قيمةٍ في النَّاس، إذا ما كان كسبه، ورزقه من وراء دعوته، أو على أساسٍ مِنْ عطايا النَّاس، وصدقاتهم، ولذا كان صاحب الدَّعوة الإسلاميَّة أحرى النَّاس كلِّهم بأن يعتمد في معيشته على جهده الشَّخصيِّ، أو موردٍ شريفٍ لا استجداء فيه؛ حتَّى لا تكون عليه لأحدٍ من النَّاس مِنَّةٌ، أو فضلٌ في دنياه، فيعوقه ذلك من أن يصدع بكلمة الحقِّ في وجهه، غير مبالٍ بالموقع الَّذي قد تقع من نفسه.

47. إنَّ إقبال النَّبيِّ ﷺ على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرِّزق يشير إلى دلائل مهمَّةٍ في شخصيَّته المباركة؛ منها: الذوق الرَّفيع، والإحساس الدَّقيق اللَّذان جمَّل الله تعالى بهما

نبيَّه ﷺ .

48. الأمانة، والصِّدق أهمُّ مواصفات التَّاجر النَّاجح، وصفة الأمانة، والصِّدق في التِّجارة في شخصية النَّبيّ ﷺ، هي الَّتي رغَّبت السَّيدة خديجة في أن تعطيه مالها ليتاجر به، ويسافر به إلى الشَّام، فبارك الله لها في تجارتها، وفتح الله لها من أبواب الخير ما يليق بكرم الكريم.

49. كان زواج الحبيب المصطفى ﷺ للسَّيدة خديجة بتقدير الله تعالى، ولقد اختار الله – سبحانه وتعالى – لنبيِّه زوجةً تناسبه، وتؤازره، وتُخفِّف عنه ما يصيبه، وتعينه على حمل تكاليف الرِّسالة، وتعيش همومه.

50. يتَّضح للمسلم من خلال قصَّة زواج النَّبيِّ ﷺ من السَّيدة خديجة، عدم اهتمام النَّبيِّ ﷺ بأسباب المتعة الجسديَّة، ومكمِّلاتها، فلو كان مهتماً بذلك – كبقيَّة الشَّباب – لطمع فيمن هي أقلُّ منه سناً، أو فيمن لا تفوقه في العمر، وإنَّما رغب النَّبيُّ ﷺ لشرفها، ومكانتها في قومها؛ فقد كانت تلقَّب في الجاهلية بالعفيفة الطَّاهرة.

51. إن النظر إلى مزاولة النبي ﷺ الأعمال بنفسه قبل البعثة، يبرز جوانب إنسانية مهمة، منها: التواضع والقدوة الحسنة، فقد عمل النبي ﷺ برعي الأغنام، وهو عمل متواضع يقوم به عامة الناس، وهذا يقدم قدوة حسنة للناس في التواضع والعمل الشريف. كما يبرز الاستقلال والاعتماد على النفس، فإنه قد عمل في سن مبكرة كما تقدم، وهذا يبين قدر المسؤولية التي كان يتمتع بها ﷺ من صغره. كما أنَّ عمله بيده قبل البعثة يظهر أنَّ النبي ﷺ كان يقدّر قيمة العمل وأهميته في بناء الشخصية وتحقيق الكرامة الإنسانية.

52. عاش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مطلع حياته مع قومه يشاركهم وجدانهم، إذ كان يتجه إلى الخير، ويتجنب الشر ولا ينغمس، فهو يفعل ما يتفق مع الفطرة المستقيمة الي فطره الله تعالى عليها، والمنهاج القويم الذي هداه الله تعالى إليه وأدبه بأدبه.

53. إنَّ العدل قيمةٌ مطلقةٌ، وليست نسبيَّة، وإنَّ الرَّسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز

مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين، فالقيم الإيجابيَّة تستحقُّ الإشادة بها حتَّى لو صدرت من أهل الجاهليَّة.

54. كان حلف الفضول واحةً في ظلام الجاهليَّة، وفيه دلالةٌ بيّنةٌ على أنَّ شيوع الفساد في نظامٍ، أو مجتمعٍ لا يعني خلوَّه من كلِّ فضيلةٍ، فمكَّة مجتمعٌ جاهليٌّ هيمنت عليه عبادة الأوثان، والمظالم، والأخلاق الذَّميمة، كالظُّلم، والزِّنى، والرِّبا، ومع هذا كان فيه رجال أصحاب نخوةٍ، ومروءة، يكرهون الظُّلم، ولا يقرُّونه، وفي هذا درسٌ عظيمٌ للدُّعاة في مجتمعاتهم؛ التي لا تُحَكِّمُ الإسلامَ، أو يُحارَبُ فيها الإسلام.

55. إنَّ الظُّلم مرفوضٌ بأيِّ صورةٍ، ولا يشترط الوقوف ضدَّ الظالمين فقط عندما ينالون من الدُّعاة إلى الله، بل مواجهة الظَّالمين قائمةٌ؛ ولو وقع الظُّلم على أقلِّ النَّاس. إنَّ الإسلام يحارب الظُّلم، ويقف بجانب المظلوم، دون النَّظر إلى لونه، ودينه، ووطنه، وجنسه.

56. يُعد حلف الفضول مثالاً تاريخياً بارزاً يُجسّد قيمة العدل ويرفض العصبية في المجتمع الجاهلي بمكة الذي عم فيه الفساد واستشرى فيه الظلم والجور. وقد تأسس هذا الحلف كرد فعل على حالة الفوضى وعدم الثقة التي كانت تسود مكة وما حولها.

57. إنَّ حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النَّبيِّ ﷺ الأدبيَّة في الوسط القرشيِّ، وحصل لرسول الله ﷺ في هذه الحادثة شرفان: شرف فصل الخصومة، ووقف القتال المتوقَّع بين قبائل قريش، وشرف تنافس القوم عليه وادَّخره الله لنبيِّه ﷺ، ألا وهو وضعُ الحجر الأسود بيديه الشَّريفتين، وأخذه من البساط بعد رفعه، ووضعُه في مكانه من البيت.

58. إن المشاركة الفعَّالة في معالجة مشكلات المجتمع تُعد ركنا أساسياً في تحقيق القيم الكبرى كالعدل والحرية، ومن يسعى لتطبيق هذه القيم العظيمة، يساهم بشكل كبير في بناء مجتمع متحضّر قوي ومتماسك يسوده العدل والإنصاف والمساواة والحرية.. يقول الله

تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2].

59. تُجسّد حياة نبينا محمد ﷺ، مع أمنا خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، نموذجاً يحتذى به للعلاقة الزوجية الناجحة المبنية على الحب والاحترام المتبادل، والتشارك والتشاور، والإعانة على المعروف والخير.

60. إن علاقة النبي ﷺ بخديجة رضي الله عنها لم تكن مجرد علاقة عائلية وحسب، بل كانت شراكة متكاملة أثرت بعمق في مسيرة الدعوة الإسلامية.

61. كان زواج الحبيب المصطفى ﷺ للسَّيدة خديجة بتقدير الله تعالى، ولقد اختار الله – سبحانه وتعالى – لنبيِّه زوجةً تناسبه، وتؤازره، وتُخفِّف عنه ما يصيبه، وتعينه على حمل تكاليف الرِّسالة، وتعيش همومه.

62. ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعيَّة أنَّ الله تعالى جمَّل أحداً من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة، ثمَّ أذاقه الخزي في حياته، ومحمَّدٌ ﷺ بلغ من المكارم ذروتها، فطرةٌ فطره الله عليها لا تُطاوَل، ولا تُسامَى.

63. إنَّ المرأة الصَّالحة لها أثرٌ في نجاح الدَّعوة، وقد اتَّضح ذلك في موقف خديجة رضي الله عنها، وما قامت به من الوقوف بجانب النَّبيِّ ﷺ وهو يواجه الوحي لأوَّل مرَّةٍ، ولا شكَّ: أنَّ الزَّوجة الصَّالحة المؤهَّلة لحمل مثل هذه الرِّسالة، لها دورٌ عظيمٌ في نجاح زوجها في مهمَّته في هذه الحياة، وبخاصةٍ الأمور التي يعامل بها النَّاس.

64. لقد كانت علاقة النبي ﷺ بخديجة رضي الله عنها نموذجاً يُحتذى به في الحفاظ على القيم الإنسانية الرفيعة، ويستمر في إلهام الأجيال بعمق معاني الوفاء والإخلاص.

65. أكد نبينا ﷺ على العدل والمساواة بين الناس بغض النظر عن العرق أو اللون أو الوضع الاجتماعي، وقال: "إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد."

66. ربّى النبي ﷺ أصحابه على قيم إنسانية جعلت منهم جيلًا متميزًا قادرًا على بناء مجتمع قوي ومتماسك، ونشر رسالة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

67. إنَّ خريجي مدرسة الأرقم من عظماء الرِّجال في العالم، وهُمُ الَّذين قامت عليهم الدَّعوة، والجهاد، والدَّولة، والحضارة فيما بعد؛ فلم يَجُدِ الزَّمان بواحدٍ مثل أبي بكرٍ الصِّدِّيق، وعمرَ بن الخطَّاب، وعثمان بن عفَّان، وعليِّ بن أبي طالبٍ، وسعدِ بن أبي وقَّاصٍ... إلخ.

68. كانت دار الأرقم مدرسةً من أعظم مدارس الدُّنيا، وجامعات العالم، التقى فيها الرَّسول المربِّي ﷺ بالصَّفوة المختارة من الرَّعيل الأوَّل (السَّابقين الأوَّلين)، فكان ذلك اللِّقاء الدَّائم تدريباً عمليّاً لجنود المدرسة على مفهوم الجنديَّة، والسَّمع، والطَّاعة، والقيادة، وآدابها، وأصولها، ويشحذ فيه القائد الأعلى جنده وأتباعه بالثِّقة بالله، والعزيمة، والإصرار، ويأخذهم بالتَّزكية والتَّهذيب، والتَّربية، والتَّعليم. كان هذا اللِّقاء المنظَّم يشحذ العزائم، ويقوِّي الهمم، ويدفع إلى البذل، والتَّضحية، والإيثار.

69. كانت شخصية رسول الله ﷺ المحرِّك الأوَّل للإسلام؛ فشخصيته ﷺ تملك قوى الجذب، والتأثير على الآخرين، فقد صنعه الله على عينه، وجعله أكمل صورةٍ لبشرٍ في تاريخ الأرض.

70. كان القرآن الكريم المادَّة الدراسية الوحيدة الَّتي تلقَّاها تلاميذ مدرسة الأرقم على يد المربِّي الأعظم محمَّد ﷺ، فهو المصدر الوحيد للتلقِّي، وعليه تربَّى الجيل الفريد من هذه الأمَّة العظيمة.

71. لقد تلقَّى الرَّعيل الأوَّل القرآن الكريم بجدِّيَّةٍ، ووعيٍ، وحرصٍ شديدٍ على فهم توجيهاته، والعمل بها بدقَّةٍ تامَّةٍ، فكانوا يلتمسون من آياته ما يوجههم في كلِّ شأنٍ من شؤون حياتهم الواقعيَّة، والمستقبليَّة.

72. كانت الفترة الأولى من عمر الدَّعوة تعتمد على السِّرِّيَّة، والفرديَّة، وكان التَّخطيط النَّبويُّ دقيقاً، ومنظَّماً، وسياسية محكماً، فما كان اختيار رسول الله ﷺ لدار الأرقم لمجرَّد اجتماع

المسلمين فيها لسماع نصائح، ومواعظ، وإرشادات؛ وإنَّما كانت مركزاً للقيادة، ومدرسةً للتَّعليم، والتَّربية، والإعداد، والتَّأهيل للدَّعوة، والقيادة، بالتَّربيَة الفرديَّة العميقة الهادئة.

73. يُعد تعليم النبي ﷺ لأصحابه وتربيتهم نموذجًا فريدًا في تاريخ الإنسان، إذ تميز بدمج البعد الروحي والأخلاقي مع القيم الحضارية والإنسانية. فقد أسس مجتمعًا قويًا متماسكًا على مبادئ العدالة والمساواة والرحمة، والأمانة، والصدق والتعاون، مما ساهم في بناء حضارة إسلامية عظيمة أثرت في العالم بأسره.

74. لم تقتصر التربية النبوية على الجوانب الدينية (الشعائرية) فقط، بل شملت أيضًا تعليم الأخلاق الفاضلة وتعزيز العلاقات الإنسانية، مما جعلها تجربة تربوية متكاملة تتسم بالشمولية والعمق.

75. إنَّ رسول الله ﷺ عَلَّمَ أصحابه كيف يلجؤون إلى الله سبحانه وقت الضِّيق؛ ليجدوا المأمن، والسَّكينة، فلا يفزعوا، ولا يقلقوا، وهم موقنون بأنَّ الله معهم، وأنَّه ناصرهم، ومتولِّي أمرهم، ومؤيِّدهم، وأنَّه يجيب دعاء المضطرين.

76. كانت تربية النَّبيِّ ﷺ لأصحابه شاملةً؛ لأنَّها مستمدةٌ من القرآن الكريم، الَّذي خاطب الإنسان ككلٍّ يتكون من الرُّوح، والجسد، والعقل، فقد اهتمَّت التَّربية النَّبويَّة بتربية الصَّحابي على تنمية قدرته في النَّظر، والتأمُّل، والتفكُّر، والتدبُّر؛ لأنَّ ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدَّعوة إلى الله، وهذا مطلبٌ قرآنيٌّ.

77. إنّ الإنسان عندما يلبِّي حاجاته البدنيَّة، بإمكانه بعد ذلك أن يؤدِّيَ وظائفه الَّتي كلَّفه الله بها في الدُّنيا؛ من عبادة الله، واستخلافٍ في الأرض، وإعمارها، وتعارفٍ، وتعاونٍ على البرِّ والتَّقوى مع إخوانه في الدِّين.

78. إنَّ الأخلاق الرَّفيعة جزءٌ مهمٌّ من العقيدة؛ فالعقيدة الصَّحيحة لا تكون بغير خلقٍ، وقد ربَّى رسولُ الله ﷺ صحابته على مكارم الأخلاق، بأساليب متنوعةٍ، وكان ﷺ يتلو عليهم ما ينزل من قرآن، فإذا سمعوه، وتدبَّروه؛ عملوا بتوجيهاته.

79. الأخلاق ليست شيئاً ثانوياً في هذا الدِّين، وليست محصورةً في نطاقٍ معيَّنٍ من نُطُقِ السُّلوك البشريِّ؛ إنَّما هي ركيزةٌ من ركائزه، كما أنَّها شاملةٌ للسُّلوك البشريِّ كلِّه، كما أنَّ المظاهر السُّلوكيَّة كلَّها ذات الصِّبغة الخلقيَّة الواضحة، هي التَّرجمة العمليَّة للاعتقاد، والإيمان الصَّحيح؛ لأنَّ الإيمان ليس مشاعر مكنونةً في داخل الضَّمير فحسبٍ؛ إنَّما هو عملٌ سلوكيٌّ ظاهرٌ كذلك.

80. لقد تربَّى الصَّحابة رضي الله عنهم على أنَّ العبادة نوعٌ من الأخلاق؛ لأنَّها من باب الوفاء لله، والشُّكر للنِّعمة، والاعتراف بالجميل، والتَّوقير لمن هو أهل التَّوقير، والتَّعظيم، وكلُّها من مكارم الأخلاق.

81. إنَّ الأخلاق في التَّربية النَّبويَّة شيءٌ شاملٌ، يعمُّ كلَّ تصرُّفات الإنسان، وكلَّ أحاسيسه، ومشاعره، وتفكيره؛ فالصَّلاة لها أخلاقٌ هي الخشوع، والكلام له أخلاقٌ هي الإعراض عن اللَّغو، والجنس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله، وحرماته، والتَّعامل مع الآخرين له أخلاقٌ هي التوسُّط بين التقتير والإسراف، والحياة الجماعيَّة لها أخلاقٌ، هي أن يكون الأمر شورى بين النَّاس، والغضب له أخلاقٌ هي العفو والصَّفح، ووقوع العدوان من الأعداء تستتبعه أخلاقٌ هي الانتصار - أي: ردُّ العدوان - وهكذا لا يوجد شيءٌ واحدٌ في حياة المسلم ليست له أخلاق تُكيِّفه.

82. إنَّ القصص القرآنيَّ غنيٌّ بالمواعظ، والحكم، والأصول العقديَّة، والتَّوجيهات الأخلاقيَّة، والأساليب التَّربويَّة، والاعتبار بالأمم والشُّعوب، والقصص القرآنيُّ ليس أموراً تاريخيَّةً لا تفيد إلا المؤرِّخين، وإنَّما هو أعلى، وأشرف، وأفضل من ذلك، فالقصص القرآنيُّ مليءٌ بالتَّوحيد، والعلم، ومكارم الأخلاق، والحجج العقليَّة، والتَّبصرة، والتَّذكرة، والمحاورات العجيبة.

83. استخدم المنهاج النَّبويُّ أساليب التَّأثير والاستجابة، والالتزام في تربيته للصَّحابة؛ لكي يحوِّل الخلق من دائرة النَّظريات، إلى صميم الواقع التَّنفيذيِّ، والعمل التَّطبيقيِّ، سواءٌ كانت

اعتقاديَّةً، كمراقبة الله تعالى، ورجاء الآخرة، أو عباديَّةً كالشَّعائر الَّتي تعمل على تربية الضَّمائر، وصقل الإرادات، وتزكية النَّفس.

84. لقد أتيح للرَّعيل الأوَّل أكبر قدرٍ من التَّربية العقديَّة، والرُّوحيَّة، والعقليَّة، والأخلاقيَّة على يد مربِّي البشريَّة الأعظم محمّدٍ ﷺ، فكانوا هم حداة الرَّكب، وهداةُ الأمَّة، فقد كان رسولُ الله ﷺ يزكّيهم، ويربّيهم وينقّيهم من أوضار الجاهليَّة.

85. إنَّ ثبات المؤمنين على عقيدتهم، بعد أن يُنْزِلَ بهم الأشرار، والضَّالون أنواع العذاب، والاضطهاد دليلٌ على صِدْق إيمانهم، وإخلاصهم في معتقداتهم، وسموِّ نفوسهم، وأرواحهم، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضَّمير، واطمئنان النَّفس والعقل. وما يأملونه من رضا الله – جلَّ شأنُه –، أعظمُ بكثير ممَّا ينالُ أجسادَهم، من تعذيبٍ، وحرمانٍ، واضطهادٍ.

86. كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددةً، ولذلك حرص النَّبيُّ ﷺ على اختيار نوعياتٍ معيَّنةٍ لتحقيق هذه الأهداف، كشرح قضيَّة الإسلام، وموقف قريشٍ منه، وإقناع الرَّأي العامِّ بعدالة قضيَّة المسلمين على نحو ما تفعله الدُّول الحديثة من تحرُّكٍ سياسيٍّ، يشرح قضاياها، وكسب الرَّأي العامِّ إلى جوارها، وفتح أرضٍ جديدةٍ للدَّعوة، فلذلك هاجر سادات الصَّحابة في بداية الأمر، ثمَّ لحق بهم أكثر الصَّحْب، وأوكل الأمر إلى جعفر رضي الله عنه.

87. إنَّ اختيار الرَّسول ﷺ الهجرة إلى الحبشة يشير إلى نقطةٍ استراتيجيَّةٍ مهمَّةٍ، تمثَّلت في معرفة الرَّسول ﷺ بما حوله من الدُّول، والممالك، فقد كان يعلم طيّبها مِنْ خبيثها، وعادلها مِنْ ظالمها، الأمر الَّذي ساعد على اختيار دارٍ امنةٍ لهجرة أصحابه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدَّعوة؛ الَّذي لا بدَّ أن يكون ملمّاً بما يجري حوله، مطَّلعاً على أحوال، وأوضاع الأمم، والحكومات.

88. إنّ الهجرة إلى الحبشة تعتبر نموذجًا حضاريًا يحتذى به في كيفية تعامل الحضارات

المختلفة مع بعضـــها البعض بروح من الاحترام والعدالة والتفاهم. إنها تعكس القيم الإنسانية المشتركة وتبرز أهمية التعايش السلمي والتعاون الدولي في بناء علاقات حضارية مستدامة.

89. جاءت الدعوة النبوية لترسـيخ قيم العدل والرحمة بين الناس، فكان ﷺ، يدعو إلى العدل بين الناس على مختلف أجناسهم، كما أنّه نهى عن الظلم بكل أشكاله.

90. سعت الرسالة المحمدية، إلى إصلاح المجتمع من خلال القضاء على الفساد، الأخلاقي والاجتماعي، مثل الربا، والظلم، واستعباد الناس.

91. ركّزت الدعوة المحمدية على الأخلاق الرفيعة في المعاملات، فقد حث النبي ﷺ على الصدق، والأمانة، والتواضع، والإحسان للضعفاء والمساكين والفقراء.

92. إن رسالة النبي ﷺ لم تكن مجرد تهدف إلى إصلاح العقيدة – وهي أهمها ولا شك – بل كانت حركة إصلاحية شاملة عمت جميع جوانب الحياة الإنسانية؛ إنها دعوة أعادت للإنسان كرامته من خلال توحيد الله، وإظهار قيم العدالة والمساواة، وتعزيز الروابط الاجتماعية والأخلاقية.

93. بيعتا العقبة الأولى والثانية تُعتبران من أهم المحطات في تاريخ الدعوة الإسلامية، حيث شهدتا بداية التأسيس لمجتمع إسلامي جديد قائم على مبادئ وقيم إنسانية وحضارية سامية. هذه البيعات لم تكن مجرد اتفاقيات سياسية أو عسكرية، بل حملت في طياتها أبعادًا أخلاقية وإنسانية عميقة، شكلت الأساس لبناء مجتمع تسوده العدالة، التعاون، والحرية.

94. تعد بيعة العقبة الأولى إحدى الأحداث المهمة في السيرة النبوية، والتي وقعت في موسم الحج، سنة 12 من البعثة النبوية؛ حيث قدم إلى مكة مجموعة من الأنصار (الأوس والخزرج)، وبايعوا النبي ﷺ على الإسلام.

95. كشفت أحداث الهجرة النبوية عن قيم فاضلة وأخلاق كريمة ومواقف إنسانية رائعة كان بعضها موجودا في البيئة العربية قبل الإسلام مثل الشجاعة والشهادة والتضحية والنجدة

ونصرة الضعيف وإغاثة الملهوف واحترام المرأة وصون كرامتها وعفتها، وكذلك خلق الإيثار والكرم والسخاء، وغير ذلك من القيم الأصيلة التي عرفها المجتمع العربي قبل الإسلام، وجاء الإسلام فأبقى عليها وقواها وأضاف إليها.

96. إن هجرة الرسول ملحمة من ملاحم البطولة القدسية لا يفتر عن إنشادها الدهر! استمدت إلهامها من وحي الله، وروحها من خلق الرسول، وعملها من صدق العرب، واستقرت في مسامع الأجيال والقرون مثلا مضروباً لقواد الإنسانية، يعلمهم الصبر على مكاره الرأي، والاستمساك في مزالق الفتنة، والاستبسال في مواقف المحنة، والاستشهاد في سبيل المبدأ.

97. إنَّ اتِّباع الرَّسول ﷺ يدلُّ على حقيقة الإيمان، وحقيقة الدِّين، ويفرِّق تفريقاً حاسماً بين الإيمان، والكفر في جلاءٍ، كما أنَّه دليلٌ على حبِّ الله، وحبُّ الله ليس دعوى باللِّسان، ولا هياماً بالوجدان.

98. لقد أعدَّ رسول الله ﷺ الأفراد، وصقلهم في بوتقة الجماعة، وكوَّن بهم القاعدة الصُّلبة، ولم يقم المجتمع الإسلاميُّ الَّذي تقوم عليه الدَّولة إلا بعد بيعة الحرب وبذلك نقول: إنَّ المجتمع الإسلاميَّ قام بعدما تهيَّأت القوَّة المناسبة لحمايته في الأرض.

99. تعد الهجرة النبوية محطة رئيسية في السيرة النبوية تحمل أبعادًا إنسانية عميقة. فهي تمثل رمزًا للتضحية والصبر فيي سبيل العقيدة، وتجسد معنى الوحدة والتضامن بين المؤمنين، حيث احتضن أهل المدينة المهاجرين بكل حب وإيثار، مُظهرين أروع الأمثلة في الإخاء والإنسانية.

100. بعد الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة المنورة، شهد المجتمع الإسلامي الأول تطورًا حضاريًا وإنسانيًا لافتًا. في المدينة، أسس النبي ﷺ مجتمعًا قائمًا على مبادئ العدل والمساواة والاحترام المتبادل بين مختلف المكونات الاجتماعية والدينية. كان هذا المجتمع نموذجًا حضاريًا يحتذى به، حيث اتسم بالترابط الاجتماعي القوي، والروح الجماعية، واحترام حقوق الأفراد.

101. تُعتبر إقامة المساجد من أهم الركائز في بناء المجتمع الإسلامي، حيث يكتسب المجتمع المسلم صفة الرسوخ والتماسك من خلال التزامه بنظام الإسلام وعقيدته وآدابه. ينبع ذلك من روح المسجد ووحيه الذي يرسخ القيم والأخلاق.

102. كان من أولى الدعائم التي اعتمدها الرسول ﷺ في برنامجه الإصلاحي والتنظيمي للأمة والدولة والحكم، الاستمرار في الدعوة إلى التوحيد والمنهج القرآني، وبناء المسجد، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. هذه الخطوة كانت حاسمة في تلاحم المجتمع المسلم وتآلفه، وتوضيح معالم تكوينه الجديد.

103. أسهم نظام المؤاخاة في ربط الأمة بعضها ببعض، حيث أقام الرسول ﷺ هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بين المهاجرين والأنصار. هذا الإخاء ذاب فيه عصبيات الجاهلية، حيث سقطت فوارق النسب واللون والوطن، وبرزت قيمة المروءة والتقوى كمعايير للتقدم والتأخر.

104. كان الحب الأخوي بين المهاجرين والأنصار هو الأساس الذي قامت عليه المؤاخاة الاجتماعية التي عقدها النبي ﷺ بين أصحابه بعد وصوله إلى المدينة. هذه المؤاخاة كانت من أولى الأعمال التي قام بها الرسول ﷺ عند استقراره في مقامه، بجانب بناء مسجده الأعظم.

105. المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعًا عقديًا يرتبط بالإسلام ويعرف الموالاة فقط لله ورسوله والمؤمنين. هذا الارتباط يُعد من أعلى أنواع الارتباط وأرقاها، إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح.

106. المؤاخاة على الحب في الله تُعد من أقوى الدعائم في بناء الأمة المسلمة، فإذا ضعف هذا الحب، تآكل بنيان الأمة. ولذلك حرص النبي ﷺ على تعميق معاني الحب في الله في المجتمع المسلم الجديد.

107. يعاني الصف الإسلامي المعاصر من سيطرة الروح الإقليمية والعصبية في نفوس بعض الدعاة، مما يحول بينهم وبين التمكين، ويضعف الصفوف بل ويشتتها. وقد أصيبت بعض الحركات الإسلامية بداء العصبية الإقليمية والشخصية والقطرية وحتى على مستوى المدينة والقرية.

108. المسلمون اليوم في أشد الحاجة إلى مثل المؤاخاة التي حدثت بين المهاجرين والأنصار، لأن استئناف حياة إسلامية عزيزة وقوية يستلزم تجسيد الأخلاق الكريمة، والارتقاء إلى المستوى الإيماني الرفيع، وتقديم التضحيات الكبيرة. أما المظاهر الزائفة من الأخوة اللفظية فلا تجدي نفعًا.

109. إن من أسباب التمكين المعنوية العمل على تربية الأفراد تربية ربانية، وإعداد القيادة الربانية، ومحاربة أسباب الفرقة، والالتزام بأصول الوحدة والاتحاد.

110. من خلال الروابط الوثيقة التي أقامت بين المهاجرين والأنصار، أُرْسِيَتْ قيم إنسانية واجتماعية ومبادئ مثالية غير معروفة في المجتمع القبلي، بل هي من خصائص المجتمعات المتحضرة الفاضلة. من أبرز تلك القيم قيمة العمل الشريف كوسيلة لكسب الرزق، حيث قبل المهاجرون في البداية كرم ضيافة الأنصار، ولكنهم بعد ذلك سعى كل منهم لطلب رزق له.

111. تُعد وثيقة المدينة التي وضعها النبي ﷺ عقب وصوله إلى المدينة المنورة أول دستور مكتوب في تاريخ الإسلام، وأحد أهم الشواهد على البعد الحضاري والإنساني للمجتمع الإسلامي الأول. جاءت هذه الوثيقة لتأسيس نظام حكم وإدارة عادلين، يضمنان التعايش السلمي بين مختلف المكونات الدينية والاجتماعية في المدينة.

112. هدفت وثيقة المدينة إلى تأسيس نظام حكم وإدارة عادلين، يضمنان التعايش السلمي بين مختلف المكونات الدينية والاجتماعية في المدينة. من خلال هذه الوثيقة، أرسى النبي ﷺ أسسًا قانونية واجتماعية تضمن حقوق الأفراد والجماعات، وتنظم العلاقات بينهم على أساس من العدل والمساواة.

113. تقع على الدولة الإسلامية مسؤولية إقامة العدل بين الناس وتيسير السبل أمام كل إنسان يطلب حقه، بحيث يصل إلى حقه بأيسر السبل وأسرعها دون مشقة. كما يجب على الدولة منع أي وسيلة قد تعوق صاحب الحق عن الوصول إلى حقه.

114. تربية المجتمع المسلم وإعداده لقيادة الإنسانية تستوجب اهتمامًا شديدًا بشرعة العدل، وإقامته بين الأفراد والجماعات والأمم. لأن العدل في شمول مواطنه هو دعامة القيادة الناجحة.

115. لا يقف القرآن الكريم، وهو دستور المجتمع المسلم، في أسلوبه الذي يحث على الاستمساك بالعدل عند سطح الحياة، بل يتغلغل إلى مداخل الضمير الإنساني، ويرفض أن يخضع لإملاءات العاطفة التي تملق الغني أو الفقير، مؤكدًا ضرورة إقامة العدل بشكل نزيه ومستقل عن أي اعتبارات عاطفية.

116. ينظر الإسلام إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية؛ فلا فرق بين الحاكم والمحكوم، ولا بين الرجال والنساء، ولا بين العرب والعجم، ولا بين الأبيض والأسود. لقد ألغى الإسلام الفوارق القائمة على الجنس أو اللون أو النسب أو الطبقة الاجتماعية، وجعل الحكام والمحكومين سواسية في نظر الشرع. لذا، عملت الدولة الإسلامية الأولى على تطبيق هذا المبدأ بشكل فعّال.

117. غرست التربية النبوية الرشيدة معاني الإيمان في قلوب الصحابة، وحققت العبودية الخالصة لله، وحاربت الشرك بجميع أشكاله. علم النبي ﷺ أصحابه الأخذ بأسباب النهوض والتقدم المعنوي والمادي، مما أعطاهم العزة والنخوة والشجاعة لمقاومة الظلم والقضاء عليه، فتفوقوا وصبروا حتى انتصروا.

118. الشورى تُعد من المبادئ الأساسية في نظام الحكم الإسلامي، حيث تهدف إلى تحقيق المصلحة العامة ومشاركة الأمة في اتخاذ القرارات المتعلقة بشؤون الحكم. تبرز الشورى أفضل الحلول من خلال مناقشة الآراء ونقدها وتمحيصها، مما يسهم في ترابط واتحاد المجتمع المسلم.

119. غرس النبي ﷺ مبدأ الشورى في نفوس أصحابه، حيث كان يشاورهم في أمور الدين والدنيا. قال أبو هريرة رضي الله عنه: "ما رأيت أحداً قط أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ". وقد اقتفى الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة هذا النهج، مما جعل الاستشارة قاعدة مهمة في إدارة شؤون المسلمين.

120. عُرفت معاملة النبي ﷺ للأسرى بالرحمة والعدل والحزم، حيث تنوعت أساليبه في التعامل معهم بين القتل، الفداء، المنّ، وتعليم أبناء المسلمين. كانت أهدافه الدعوية تميز تعاملاته مع الأسرى وتعكس رحمة الإسلام.

121. فتحت مكة في السنة الثامنة للهجرة، حيث دخل النبي ﷺ والمسلمون مكة دون مقاومة تذكر، منهينًا بذلك سنوات من العداء. أظهر النبي ﷺ عفوه عن أهل مكة رغم ماضيهم العدائي، وكان هذا الفتح تحولاً تاريخيًا جعل مكة مركزًا إسلاميًا وعاصمة دينية للمسلمين.

122. علّمنا القرآن الكريم والسنة النبوية أن الرابطة الحقيقية بين أفراد المجتمع هي دين الإسلام، الذي يربط بين الجميع ليشكل مجتمعًا متماسكًا كجسد واحد. عندما يمرض عضو من الجسد، يتداعى سائر الجسد بالسهر والحمى.

123. تجسدت أخلاق النبي ﷺ مع زوجاته وبناته في أعلى درجات الحب والرحمة، حيث كان نموذجًا يحتذى به في حياته الأسرية. لم يكن فقط قائدًا ومصلحًا، بل أيضًا زوجًا وأبًا محبًا وعطوفًا.

124. تجلى في صلح الحديبية مرونة النبي ﷺ، حيث تنازل عن بعض الأمور في سبيل تحقيق مصلحة أكبر. رغم اعتراض الصحابة، قبل النبي ﷺ تعديل نص الاتفاقية، مؤكدًا أهمية الحكمة والتنازل لتحقيق أهداف أكبر للدعوة.

125. كانت شجاعة النبي ﷺ تجسيدًا حقيقيًا للبطولة والتفاني في سبيل الحق، وشملت المواقف القتالية والثبات على المبدأ في الدعوة. تُعَدُّ شجاعته درسًا في مواجهة التحديات بقوة وثقة، مستلهمين من سيرته العطرة القوة والإصرار في السعي لتحقيق العدالة وإعلاء كلمة الحق.

126. تجسدت رحمة النبي ﷺ في جميع جوانب حياته، مع المسلمين وغير المسلمين، الأصدقاء والأعداء، والحيوانات والبيئة. كان ﷺ مثالًا حيًا على العدل والرحمة، يعفو عن المسيئين ويرأف بالضعفاء ويحنو على المساكين.

127. كان النبي ﷺ يُعطي بلا حساب، ويُفضل الآخرين على نفسه حتى في أحلك الظروف، وقد شمل كرمه الجوانب المادية، والوقت، والنصح، والإرشاد، والعطف على الناس، مما جعل الناس يتقربون إليه بحب وثقة. هذا الكرم لم يكن مجرد سلوك شخصي، بل كان منهجًا تربويًا وتعليميًا لأمته، ليغرس أهمية البذل والعطاء.

128. من خلال خطبة حجّة الوداع، أرسى النبي ﷺ أسس العدالة والمساواة واحترام الإنسان، مؤكدًا حرمة الدماء والأموال والأعراض. دعا إلى الأخوة والتآزر، مما شكل نهجًا حضاريًا شاملاً يعزز التعايش ويضع قواعد للبناء الاجتماعي على أسس الرحمة والعدالة والكرامة الإنسانية.

129. أثرت أخلاق النبي محمد ﷺ تأثيرًا عميقًا في الحضارة الإنسانية، مقدمة نموذجًا رائدًا لتكوين مجتمعات عادلة ورحيمة. تجسدت القيم النبوية مثل العدل، والرحمة، والتسامح، والصدق، والشورى في سلوكيات النبي ﷺ، مما أسس لمبادئ إنسانية بارزة في بناء مجتمع متماسك ومزدهر.

130. ساهمت الأخلاق والقيم النبوية في تشكيل قواعد حضارية أساسية نبي المسلمون على أساسها دولتهم في العهد الراشدي. ساعدت تلك القيم في تعزيز الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي، ورفع مستوى الوعي بالقيم الإنسانية، مما جعل الحضارة الإسلامية تترك بصماتها واضحة في تاريخ الإنسانية. ويقول الشيخ محمود شلتوت (رحمه الله): "النبي ﷺ وسلم أرسى مبدأً في الأخلاق لا يقدر أحد على بلوغ قمته، وهو قدوة للأجيال جميعاً في سلوكه وتعاليمه".

131. الاستمرار في تطبيق القيم النبوية والفضائل يبقى حيويًا لمواجهة التحديات الإنسانية في كل زمان ومكان. وهنا نستحضر قول الدكتور مصطفى محمود (رحمه الله): النبي ﷺ كان إنسانًا كاملًا بمعنى الكلمة، عاش حياته ملتزمًا بأعلى القيم الإنسانية التي ما زالت تضيء لنا الطريق".

132. وفرت القيم والمعاني النبوية إطارًا قيميًا لتحقيق التوازن والاستقرار في المجتمعات الحديثة، لذا فإن استلهام، وإحياء هذه القِيم الإنسانية والحضارية، يُشكل خطوة أساسية نحو تحقيق التعايش والسلام، والرفاهية البشرية، والتقدم الحضاري.

المصادر والمراجع

1. الأحاديث الواردة في فضائل المدينة لصالح الرِّفاعي، دار الخضيري، المدينة، الطَّبعة الثالثة، 1418 هـ.
2. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، مكتبة الإيمان، 1900م.
3. الأخلاق الإسلاميَّة وأسُسها، لعبد الرَّحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، 2007م.
4. الإدارة الإسلاميَّة في عصر عمر بن الخطَّاب، فاروق مجدلاوي، دار مجدلاوي، عمَّان، الطَّبعة الثَّانية 1418 هـ/ 1998م.
5. الأساس في السُّنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة، سعيد حوَّى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1995م.
6. أُسْدُ الغابة في معرفة الصَّحابة لعلي بن أبي الكرم (ابن الأثير)، دار ابن حزم، 2019م.
7. الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، دار العلم للملايين مؤسسة للتأليف والترجمة والنشر، 2017م.
8. الإسلام والتعددية، د. محمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر، 2011م.
9. الإسلام وحقوق الإنسان في ضوء المتغيرات العالمية، محمد كمال الدين جعيط، مجلة مجمع الفقه الإسلامي،2019م.
10. الإصابة في تمييز الصَّحابة لأحمد بن عليِّ بن حجر العسقلانيِّ، تحقيق عليٍّ محمَّد البجاويِّ، دار النَّهضة، مصر،2013م.

11. أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكِّي للتجاني عبد القادر حامد، دار البشير، عمَّان، الأردن، الطَّبعة الأولى، 1416 هـ 1995 م،.
12. أصول النظام الاجتماعي، محمد الطاهر بن عاشور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2012م.
13. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، دار عالم الفوائد، 2013م.
14. أضواء على الثقافة الإسلامية، عبد الحكيم قاسم، شبكة الألولة، 2014م.
15. أضـواء على الهجرة لتوفيق محمَّد سـبع، مطبعة الهيئة العامَّة لشـؤون المطابع الأميرية، 1393 هـ 1973 م.
16. الأقليات غير المسلمة، دندل جبر، دار عمار للنشر والتوزيع، 2006م.
17. إمتاع الأسماع بما للرَّسول من الأبناء، والأموال، والحفدة، والمتاع للشَّيخ أحمد بن عليٍّ المقريزي، صحَّحه وشرحه محمود محمَّد شاكر، مطبعة لجنة التَّأليف والتَّرجمة بالقاهرة، 1941 م.
18. أنساب الأشراف، للبلاذُريِّ، تحقيق: محمَّد حميد الله، دار المعارف، 2020م.
19. الأنساب للسَّمعاني، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيَّة، حيدر اباد، الهند، 1382 هـ 1962 م.
20. الإنسانية في ضوء السنة النبوية دراسة تأصيلية، د. محمد عبد العزيز أحمد عيسى، جامعة الأزهر، 2022م.
21. أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة، د. عليُّ العليانيُّ، دار طيبة، الطَّبعة الأولى، 1405 هـ 1985م.
22. الإيمان بالقرآن الكريم، د. علي محمد الصلابي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 2011م.
23. الإيمان والحياة، للقرضاوي، مؤسسة الرسالة، 2007م.

24. البداية والنِّهاية لأبي الفداء ابن كثيرٍ الدِّمشقيّ، دار الرَّيان للتُّراث، الطَّبعة الأولى، 1408 هـ 1988 م.
25. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، لمحمود شكري الالوسي، تحقيق محمَّد بهجة الأثري، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الثَّانية، 2019م.
26. تاريخ إسلام، نجيب أبادي، مكتبة رحمت، ديوبند، 2000م.
27. التَّاريخ الإسلاميُّ مواقف وعبرٌ، د. عبد العزيز الحميديُّ، دار الدَّعوة، الإسكندريَّة، الطَّبعة الأولى، 1418 هـ 1997 م.
28. التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ لدولة المدينة في عهد الرَّسولﷺ، استراتيجيَّة الرسول السِّياسيَّة والعسكريَّة، د. علي معطي، مؤسَّسة المعارف، بيروت، الطَّبعة الأولى، 1419 هـ 1998 م.
29. تاريخ الطَّبري، لأبي جعفر محمَّد بن جرير، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، 2009م.
30. تاريخ خليفة بن خيَّاط، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب، النَّجف، 1967 م.
31. تاريخ دولة الإسلام الأولى، فايد حمَّاد عاشور، سليمان أبو عزب، دار قطريِّ بن الفجاءة، الدَّوحة، الطَّبعة الأولى، 1409 هـ 1989 م.
32. تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ، د. محمد السَّيد الوكيل، دار المجتمع، الطَّبعة الأولى، 1408 هـ 1987 م.
33. التَّحالف السِّياسيُّ في الإسلام لمنير محمَّد الغضبان، دار السَّلام، الطبعة الثانية، 1408 هـ 1988 م.
34. التَّربية القياديَّة لمنير الغضبان، دار الوفاء، المنصورة، الطَّبعة الأولى، 1418 هـ 1998 م.

35. تفسير أبي السُّعود، المسمَّى إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لقاضي القضاة أبي السُّعود محمَّد العماديّ الحنفيّ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، النَّاشر: مكتبة الرِّياض الحديثة، الرِّياض، مطبعة السَّعادة، القاهرة، 2015م.
36. تفسير الالوسي، المسمَّى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني، للالوسي (محمود الالوسي البغدادي)، إدارة الطِّباعة المصطفائية بالهند، 1415هـ.
37. تفسير الجلالين ولباب النقول في أسباب االنزول على هامش القرآن الكريم، جلال الدين السيوطي، دار ابن كثير، 2006م.
38. تفسير الرَّازي، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، الطَّبعة الثالثة، 1900م.
39. تفسير السَّعدي المسمَّى تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان لعبد الرَّحمن ناصر السَّعدي، المؤسَّسة السَّعدية، الرِّياض، 1977 م.
40. تفسير الطبري، الطبري، مؤسسة الرسالة، 2010م.
41. تفسير القرآن الثري الجامع، محمد الهلال، دار المعراج، 2022م.
42. تفسير القرآن العظيم، لابن كثيرٍ القرشيِّ، دار الفكر، ودار القلم، بيروت، لبنان، الطَّبعة الثانية، 1999م.
43. تفسير القرطبيِّ لأبي عبد الله محمَّد بن أحمد الأنصاريِّ القرطبيِّ، دار إحياء التُّراث العربيّ، بيروت، لبنان، 1965 م.
44. التَّفسير المنير، د. وهبة الزُّحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطَّبعة الأولى، 1411هـ 1991م.
45. التفسير الموضوعي (2)، جامعة المدينة، 2010م.
46. تنظيمات الرَّسول الإدارية في المدينة، لصالح أحمد العلي، مجلَّة المجمَّع العلمي العراقي، المجلَّد السَّابع عشر، بغداد، 1969م.

47. تهذيب مدارج السَّالكين، لابن القيّم، هذَّبه عبد المنعم صالح العلي العزِّي، مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة الثالثة، 1409هـ 1989م.
48. الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية، د. عابد السفياني، مكتبة المنارة، 2015م.
49. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 2، 1964
50. جريدة (الوطن)، بنغازي، 1947 م.
51. الجموع البهية للعقيدة السلفية، الميناوي، دار ابن عباس، 2008م.
52. الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية، لمحمد خير هيكل، دار البيارق، عمَّان، بيروت، الطَّبعة الأولى، 1414هـ 1993م.
53. الجواب الصَّحيح، ابن تيميَّة، دار العاصمة، 2006م.
54. حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لعبد الرَّحمن بن عليِّ بن محمَّد الشَّيبانيِّ بن الرَّبيع، تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاريِّ، دار المعارج، 2016م.
55. حرية التعبير، محمد بن محمد الخرعان، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ط1، 1900م.
56. حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، محمد الغزالي، دار الدعوة، 2006م.
57. حقوق الإنسان في الإسلام، د. مبارك سيف الهاجري وعبد المنعم حسين العمري.
58. حقوق الإنسان في الإسلام، طاهر جمل الليل.
59. حقوق الإنسان والقضايا الكبرى، كامل إسماعيل الشريف، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، 2000م.
60. حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، د. هاني الطعيمات، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2005م.

61. حقوق الإنسان، د. محمد الزحيلي، دار الكلم الطيب، 1997م.
62. الحكم والتَّحاكم في خطاب الوحي، لعبد العزيز مصطفى كامل، دار طيبة، الطَّبعة الأولى، 1415هـ 1995م.
63. الحكومة الإسلاميَّة لأبي الأعلى المودودي، ترجمة أحمد إدريس، المختار الإسلامي للطِّباعة والنَّشر، القاهرة، الطَّبعة الأولى، 1397هـ 1977م.
64. الحوار مع أتباع الأديان، منقذ السقار، رابطة العالم الإسلامي، 2012م.
65. خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، 2007م.
66. الخشوع في الصَّلاة، لابن رجب، دار الرسالة، القاهرة، 2006م.
67. الخصائص العامَّة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط: الرَّابعة، 1409هـ 1989م.
68. خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الريان للتراث، 2006م.
69. الدُّرُّ المنثور في التَّفسير بالمأثور للإمام السُّيوطي، النَّاشر محمَّد أمين دمج، بيروت، لبنان، 2018م.
70. دراساتٌ في السِّيرة النَّبويَّة، د. عماد الدِّين خليل، دار النفائس، بيروت، الطَّبعة الحادية عشرة، 1409هـ 1989م.
71. دراساتٌ في عهد النُّبوَّة، د. عبد الرَّحمن الشُّجاع، دار الفكر المعاصر، صنعاء، الطَّبعة الأولى، 1419هـ 1999م.
72. دراساتٌ قرآنيَّةٌ، لمحمَّد قطب، دار الفكر، 2007م.
73. دراسةٌ تحليليَّةٌ لشخصية الرَّسول ﷺ، د. محمد قلعجي، الطَّبعة الأولى، سنة 1408هـ 1988م، دار النَّفائس.
74. الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير ليوسف بن عبد البرِّ، وزارة الأوقاف بمصر، لجنة إحياء التراث، 1414هـ 1994م، القاهرة.

75. دستورٌ للأمَّة من القرآن والسُّنَّة، د. عبد النَّاصر العطَّار، مؤسَّسة علوم القرآن، الشَّارقة، عجمان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطَّبعة الأولى 1414هـ 1993م.
76. دعوة الله بين التكوين والتَّمكين، د. علي جريشة، مكتبة وهبة، مصر، الطَّبعة الأولى، 1406هـ 1986م.
77. دلائل النُّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشَّريعة للحافظ أبي بكر أحمد البيهقيِّ، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلميَّة – بيروت، الطَّبعة الأولى، 1405هـ.
78. دولة الرَّسول ﷺ من التَّكوين إلى التَّمكين، لكامل سلامة الدقس، دار عمَّار، عمَّان، الطَّبعة الأولى، 1415هـ 1994م.
79. الدين العالمي ومنهج الدعوة إلى الله، عطية صقر، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٨ م.
80. ديوان شوقي، الأعمال الشِّعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، طبعة 1986م.
81. ديوان عنترة لفاروق الطَّباع، دار القلم، بيروت، لبنان، 1985م.
82. رحمة للعالمين، المنصور فوري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2012م.
83. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، عماد السيد الشربيني، مطابع دار الصحيفة، 2009م.
84. الرد على المنطقيين، أحمد ابن تيمية، مؤسسة الريان، 2006م.
85. الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، دار الكتاب، 2006م.
86. رسائل الأنبياء، عمر أحمد عمر، دار الحكمة للطباعة والنشر، ط1، 2007م.
87. الرَّسول المبلِّغ، صلاح عبد الفتاح الخالديِّ، دار القلم للطباعة والنشر، 1997م.
88. رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، صالح بن حميد، جامعة أم القرى، 2007م.

89. الرَّوض الأنف في شرح السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام لأبي القاسم السُّهيلي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، طبعة 1387هـ.
90. زاد المسير في علم التَّفسير، لأبي الفرج جمال الدِّين عبد الرحمن بن عليٍّ الجوزيِّ القرشيِّ البغداديِّ، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الأولى، 1384هـ 1965م.
91. زاد المعاد في هدي خير العباد لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الجوزية، حقَّقه شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر، دار الرِّسالة، الطَّبعة الأولى، 1399هـ.
92. زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، 2015م.
93. سبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصَّالحي، تحقيق مصطفى عبد الواحد، لجنة إحياء التُّراث الإسلاميِّ، 1394هـ 1974م.
94. سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي، 1997م.
95. سماحة الإسلام، عمر عبد العزيز، مكتبة الأديب، 2006م.
96. سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان السِّجستانيّ، تحقيق وتعليق عزَّت الدَّعاس، دار المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 1391هـ.
97. السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، د. أكرم العمري، مكتبة المعارف والحِكَم بالمدينة المنوَّرة، الطَّبعة الأولى 1412هـ 1992م.
98. السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ، وبناء دولةٍ، لصالح أحمد الشَّامي، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الأولى، 1412هـ 1992م.
99. السِّيرة النَّبويَّة دراسةٌ وتحليل لمحمَّد أبو فارس، دار الفرقان، الطَّبعة الأولى 1418هـ 1997م، عمَّان.
100. السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ، د. مصطفى السِّباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة التَّاسعة 1406هـ 1986م.
101. السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة، 2010م.

102. السِّيرة النَّبويَّة في تاريخ الإسلام، الذَّهبي، دار الكتب العلمية، 2009م.
103. السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة لمحمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، الطَّبعة الثَّالثة، 1417هـ 1996م.
104. السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة لمحمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، الطَّبعة الثَّالثة، 1417هـ 1996م.
105. السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدويّ، دار التَّوزيع والنَّشر الإسلاميَّة، القاهرة، 2006م.
106. السِّيرة النَّبويَّة وأخبار الخلفاء، ابن حبان، دار ابن خلدون، 2018م.
107. السيرة النبوية، ابن هشام، دار الصحابة للتراث، 2007م.
108. السِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار الفكر بيروت – لبنان، الطَّبعة الثانية، 1398هـ.
109. السِّيرة النَّبوية، لمحمَّد الصويابي، مكتبة العبيكان، 2015م.
110. شرح المعلَّقات للحسين الزُّوزني، تحقيق يوسف علي بديوي، دار ابن كثير، دمشق، الطَّبعة الأولى، 1410هـ 1989م.
111. شرح المواهب اللَّدنية، للقسطلانيّ، لمحمَّد بن عبد الباقي الزُّرقاني، دار المعرفة، بيروت، 2011م.
112. شرح رسالة التَّعاليم لمحمَّد عبد الله الخطيب، دار الوفاء.
113. الشفا في التَّعريف بحقوق المصطفى، للإمام القاضي عياض، إستانبول، عثمانيَّة، 2013م.
114. شمائل الرسول ﷺ، محمد ناصر الدين الألباني، دار العرب الإسلامي، 2008م.
115. شمول الإسلام، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة للطباعة والنشر السلسلة: نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام، 2011م.

116. شمولية الإسلام: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 2005م
117. الصحوة الإسلامية صحوة من أجل الصحوة، عبد الكريم بكار، دار السلام، 2015م.
118. صحيح البخاريِ لمحمَّد بن إسماعيل البُخاريِ، دار الفكر، الطَّبعة الأولى، 1411هـ 1991م.
119. صـحيح السِّـيرة النَّبويَّة، لإبراهيم العلي، دار النفائس، الطَّبعة الثَّالثة، 1408هـ 1998م.
120. صـحيح مسـلمٍ، تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التُّراث العربيِّ، بيروت، لبنان، الطَّبعة الثَّانية، 1972م.
121. الصِّراع مع اليهود لمحمد أبو فارس، دار الفرقان، الطَّبعة الأولى، 1411هـ 1990م.
122. صفة الصفَّوة لابن الجوزيِّ، تحقيق: محمود خوري، ومحمَّد روَّاس قلعجي، دار المعرفة، بيروت، الطَّبعة الثانية، 1399هـ.
123. صفة الغرباء، سلمان العودة، دار ابن الجوزيِّ، الطَّبعة الثَّانية، 1412هـ 1991م.
124. صورٌ من حياة الرَّسولﷺ لأمين دويدار، الطَّبعة الرَّابعة، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، 2008م.
125. صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، تأليف: د. محمَّد فوزي فيض الله، دار القلم، دمشق، الدَّار الشَّاميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى، 1416هـ 1996م.
126. طبقات ابن سعدٍ الكبرى، لمحمَّد بن سعد الزُّهري، دار صادر، ودار بيروت للطِّباعة والنشر، 1376هـ 1957م.
127. الطبقات الكبرى، ابن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.

128. الطَّريق إلى المدينة لمحمد العبده، دار الجوهرة، عمَّان، الطَّبعة الثانية، طبعة 1999م.
129. الطَّريق إلى جماعة المسلمين لحسين بن محسن بن علي جابر، دار الوفاء بالمنصورة، مصر، الطبعة الخامسة 1413هـ 1992م.
130. العبادة في الإسلام، القرضاوي، مكتبة وهبة، 2007م.
131. العدالة مفهومها ومنطلقاتها، أبو بكر علي محمد أمين، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، 2010م.
132. العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر العمري، دار العاصمة، الطَّبعة الأولى، 1413هـ.
133. عيون الأثر في فنون المغازي، والشَّمائل والسير، لابن سيِّد النَّاس، دار المعرفة، بيروت، 2006م.
134. الغرباء الأوَّلون، سلمان العودة، الطَّبعة الثَّالثة، دار ابن الجوزي، الدَّمام السُّعودية، عام 1412هـ 1991م.
135. غزوة أحد دراسةٌ دعويَّةٌ لمحمَّد عيظة بن سعيد من مذحج، دار إشبيليا، الطَّبعة الأولى، 1420هـ 1999م.
136. غزوة أحد، لأحمد عز الدِّين، المكتبة الإسلامية للتجارة، 1959م.
137. غزوة الأحزاب لمحمَّد أحمد باشميل، دار الفكر، الطَّبعة الخامسة، 1397هـ 1977م.
138. الفتاوى، ابن تيمية، دار الكتب العلمية، 2006م.
139. فتح الباري لابن حجر العسقلاَّني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2010م.
140. فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التَّفسير: محمد بن علي الشَّوكاني، دار الفكر، 2009م.
141. فصولٌ في السِّيرة النَّبوية، د. عبد المنعم السَّيِّد.

142. فقه التَّمكين في القرآن الكريم لعليٍّ محمَّد الصَّلاَّبي، دار البيارق، عمَّان، الطَّبعة الأولى 1999م.
143. فقه الدَّعوة إلى الله لعبد الحليم محمود، دار الوفاء، الطَّبعة الأولى 1410 هـ 1990 م.
144. فقه السِّـيرة النَّبويَّة، لمنير الغضـبان، معهد البحوث العلميَّة، وإحياء التراث، مكَّة المكرَّمة، 1997م.
145. فقه السيرة النبوية، محمد سعيد رمضان البوطي، دار ابن كثير، 2008م.
146. فقه السيرة، الغزالي، دار الشروق، 2006م.
147. فلسفة التَّربية الإسلاميَّة لماجد عرسان الكيلاني، مكتبة هادي، مكَّة المكرَّمة، طبعة عام 1409 هـ.
148. في السِّـيرة النَّبويَّة جوانب الحذر والحماية، الدُّكتور إبراهيم علي محمَّد أحمد، وزارة الأوقاف، بدولة قطر، الطَّبعة الأولى رجب 1417 هـ.
149. في ظلال القرآن لسيِّد قطب، دار الشُّروق، الطَّبعة التَّاسعة، 1400 هـ 1980 م.
150. القاموس المحيط لمجد الدِّين محمد الفيروز ابادي، مطبعة مصطفى البابي وأولاده، بمصر، الطَّبعة الثانية 1371 هـ 1952 م.
151. قراءة سياسية للسِّيرة النَّبوية، لمحمد قلعجي، دار النفائس، بيروت، لبنان، الطَّبعة الأولى 1416 هـ 1996 م.
152. القول المبين في سيرة سيِّد المرسلين، د. محمَّد الطيب النَّجار، دار اللِّواء، الرِّياض، 1401 هـ 1981 م.
153. قيادة الرسول السِّياسيَّة، والعسكريَّة لأحمد راتب عرموش، دار النَّفائس، الطَّبعة الأولى 1419 هـ 1989 م.

154. القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ، دار القلم، الطَّبعة الأولى، 1410 هـ 1990 م.
155. القيم الأخلاقية في المنهج النبوي وسبل تعزيزها في المؤسسات التربوية، عطاف منصور عياصرة، جامعة غرداية، 2018م.
156. القيم التربوية في السيرة النبوية، د. مهدي رزق الله أحمد، 2012م.
157. الكامل في التَّاريخ لابن الأثير، لأبي الحسن علي بن محمَّد، دار صادر، بيروت، 2006م.
158. الكرامة الإنسانية في الشريعة الإسلامية، فاخر عباس الدّاودي، دار العصماء، 2020م.
159. لسان العرب، محمَّد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، 2016م.
160. المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، علي الكيلاني، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1428هـ.
161. مبادئ علم الإدارة لمحمَّد نور الدِّين عبد الرزَّاق، مكتبة الخدمات الحديثة، جدَّة، السُّعودية، الطَّبعة الأولى، 2015م.
162. المجتمع المدنيُّ في عهد النُّبوَّة، د. أكرم العمري، الطَّبعة الأولى 1404 هـ 1984 م.
163. مجلة البحوث الإسلامية.
164. مجلة الرسالة.
165. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، دار الوفاء، 2006م.
166. مجموعة الوثائق السِّياسية لمحمد حميد الله، دار النَّفائس، الطَّبعة الخامسة، 1405 هـ 1985م.
167. محاسن التَّأويل للقاسمي لمحمَّد جمال الدِّين القاسمي، دار الفكر، بيروت، 2007م.

168. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيَّة، أبي محمَّد عبد الحق بن غالب الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة بالمغرب، طبعة 1395 هـ.
169. محمَّد رسول الله، لمحمَّد الصَّادق عرجون، دار القلم، الطَّبعة الثانية، 1415 هـ 1995 م.
170. مختصر سيرة الرَّسول ﷺ لمحمَّد بن عبد الوهاب، جامعة الإمام محمَّد بن سعود، 2008م.
171. مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، 2010م.
172. مدخل لفهم السِّيرة، د. يحي اليحيى، أخذها المؤلف من صاحبها قبل أن يطبعها.
173. المدينة النَّبوية، فجر الإسلام، والعصر الرَّاشدي، لمحمد حسن شراب، دار القلم، دمشق، الدّار الشَّامية، بيروت، الطَّبعة الأولى 1415 هـ 1994 م.
174. المرأة في العهد النَّبويِّ، د. عصمة الدِّين كركر، دار الغرب الإسلاميِّ، الطَّبعة الأولى، بيروت، 1993م.
175. المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة لعبد الكريم زيدان، مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة الأولى 1418 هـ 1997 م.
176. المسند لأحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت، 2009م.
177. معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر، ودار بيروت، 1404 هـ 1984 م.
178. معجم معالم الحجاز، عاتق البلادي، دار ابن كثير، 1982م.
179. المغازي النبويَّة، للزُّهري، تحقيق سهيل زكَّار، دار الفكر، دمشق، 1401 هـ 1981 م.
180. مغازي رسول اللهﷺ لعروة بن الزُّبير، تحقيق: د. محمد الأعظمي، نشر مكتب التَّربية العربي لدول الخليج، الرِّياض، الطَّبعة الأولى، 1401 هـ 1981 م.

181. المغازي للواقديِّ، المتوفى 207 هـ، تحقيق د. مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، الطَّبعة الثالثة، 1404 هـ 1984 م.
182. مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة، د. محمَّد سعد اليوبي، دار الهجرة، الرِّياض، الطَّبعة الأولى، 1418هـ 1998 م.
183. مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، دار الكتاب المصري، 2013م.
184. مقالات حول السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، دار ابن كثير، 2014م.
185. مقومات الدَّاعية النَّاجح، د. علي بادحدح، دار الأندلس الخضراء، جدَّة الطَّبعة الأولى، 1417 هـ 1996 م.
186. مكَّة والمدينة في الجاهليَّة وعصر الرَّسول ﷺ، للأستاذ أحمد الشَّريف، دار الفكر العربي، 2008م.
187. مِنْ معين السِّيرة لصالح أحمد الشَّامي، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الثانية، 1413 هـ 1992م.
188. منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول، يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار المنهاج، 2012م.
189. المنهاج القرآنيُّ في التَّشريع لعبد السَّتار فتح الله سعيد، مطابع دار الطِّباعة الإسلاميَّة، الطَّبعة الأولى 1413 هـ 1992 م.
190. منهج الإسلام في تزكية النَّفس، الدكتور أحمد أبو السعادات، جامعة أم القرى، 1995م.
191. منهج الإسلام في تزكية النَّفس، د. أنس أحمد كرزون، دار نور المكتبات، دار ابن حزم، الطَّبعة الثانية 1418 هـ 1997 م.
192. منهج التَّربية الإسلاميَّة لمحمد قطب، دار الشُّروق، الطَّبعة الخامسة، 1403 هـ 1983 م.

193. المنهج الحركيُّ للسِّيرة النَّبويَّة لمنير محمَّد الغضبان، مكتبة المنار، الأردن، الطَّبعة الثالثة، 1411هـ 1990 م.
194. منهج الرَّسول في غرس الرُّوح الجهاديَّة في نفوس أصحابه، للسَّيِّد محمَّد نوح، نشرته جامعة الإمارات العربيَّة المتَّحدة، الطَّبعة الأولى، 1411 هـ 1990 م.
195. الموازنة بين ذوق السَّماع، وذوق الصَّلاة، والقرآن للإمام ابن قيِّم الجوزيَّة، تحقيق مجدي فتحي السَّيِّد، 2016م.
196. الموافقات في أصـول الأحكام لأبي إسـحاق إبراهيم موسـى اللخمي الشـهير بالشَّاطبي، دار الفكر، 1341 هـ.
197. الموافقات، الشاطبي، دار ابن عفان، 2007م.
198. موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، علي بن نايف الشحود، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 2008م.
199. الموسوعة في سماحة الإسلام لمحمَّد صادق عرجون، الدَّار السُّعودية للنَّشر، والتَّوزيع، جدَّة، ط الثَّانية 1404 هـ 1984 م.
200. موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم، إعداد مجموعة من المختصِّين بإشراف صالح بن حميد، دار الوسيلة، الطَّبعة الأولى 1418 هـ.
201. نظام الحكم في الشَّريعة والتَّاريخ الإسلامي، لظافر القاسمي، دار النفائس، الطَّبعة السادسة 1411 هـ 1990 م.
202. نظام الحكومة النَّبويَّة المسمَّى: التَّراتيب الإداريَّة، لمحمَّد عبد الحيِّ الكتَّاني، دار الأرقم، بيروت – لبنان، الطَّبعة الثَّانية، 2009م.
203. نظراتٌ في السِّيرة، للإمام حسن البنَّا، سجَّلها، وأعدَّها للنشر أحمد عيسى عاشور، مكتبة الاعتصام، القاهرة، الطَّبعة الأولى، 1399 هـ 1979 م.
204. النهاية في غريب الحديث، مجد الدين ابن الأثير، (جول)، المكتبة العلمية، بيروت، 1979،

205. الهجرة الأولى في الإسلام، د. سليمان العودة، دار طيبة للنَّشر – الرِّياض، الطَّبعة الأولى 1419 هـ.
206. هجرة الرَّسول ﷺ وأصحابه في القران والسُّنَّة، أحمد عبد الغني الجمل، دار الوفاء، 2013م.
207. الهجرة النَّبويَّة المباركة، د. عبد الرحمن البر، دار الكلمة، المنصورة، مصر، الطَّبعة الأولى، 1418 هـ 1997 م.
208. الهجرة في القرآن الكريم لأحزمي سامعون جزولي، مكتبة الرُّشد، الرِّياض، الطَّبعة الأولى 1417 هـ 1996 م.
209. وسائل الوصول إلى شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار المنهاج، 2012م.
210. وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار، د. عبد الرب آل نواب، موقع وزارة الأوقاف السعودية.
211. الوسطية في القرآن الكريم، لعلي محمَّد الصَّلاَّبي، دار النَّفائس، دار البيارق، الطَّبعة الأولى 1419 هـ 1999 م.
212. وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى لأبي الحسن بن عبد الله السَّمهودي، دار المصطفى، طبعة القاهرة 1326 هـ.
213. وقفاتٌ تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة لأحمد فريد، دار طيبة، الرِّياض، الطَّبعة الثَّالثة، 1417 هـ 1997 م.

فهرس الموضوعات

الإهداء.. 3

مقدّمة الكتاب 4

الفصل التمهيدي:

الحالة الاجتماعية والعقائدية السائدة قبل البعثة النبوية 10

أوّلاً: الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة: 10

ثانياً: الإمبراطوريَّة الفارسيَّة:.. 12

ثالثاً: الهند: 12

رابعاً: حضارات الجزيرة العربية: 14

1. الأحوال الدِّينيَّة عند العرب في الجاهلية:...................................... 17

2. الأحوال السياسية والاقتصاديَّة عند العرب في الجاهلية:.......................... 19

3. الأحوال الاجتماعية والأخلاقية عند العرب في الجاهلية:.......................... 23

الفصل الأول:

الإسلام: تجسيد القيم والمعاني الإنسانية في أسمى صورها 38

أولاً: الشمولية في الخطاب الإسلامي:.. 38

ثانياً: التكريم المعنوي والمادي لبني آدم: 44

ثالثاً: الفطرة السليمة: 55

رابعاً: المساواة في التكليف: 57

خامساً: الاختلاف والتعدد سنة إلهية وحكمة ربانية:................................ 60

سادساً: سماحة الإسلام: 62

سابعاً: الحرية في الإسلام: 66

ثامناً: العدل في الإسلام: 74

تاسعاً: تعزيز الحوار وآدابه في الإسلام: 81

الفصل الثاني:

سيرة النبي ﷺ من المولد إلى الرسالة..86

أولاً: نسب النَّبيّ ﷺ:.. 86

ثانياً: زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهبٍ، ورؤيا آمنة أمّ النَّبيّ ﷺ: 88

ثالثاً: ميلاد الحبيب المصطفى ﷺ: 89

رابعاً: مرضعاته عليه الصَّلاة والسَّلام: 91

خامساً: وفاة أمّه، وكفالة جدّه، ثمّ عمّه: 96

سادساً: عمل النبي المصطفى ﷺ في الرَّعي: 98

سابعاً: حفظ الله تعالى لنبيّه ﷺ قبل البعثة: 102

ثامناً: لقاء الرَّاهب بَحِيْرا بالرَّسول ﷺ وهو غلامٌ:..103

تاسعاً: حرب الفِجَارِ:..105

عاشراً: تهيئة النَّاس لاستقبال نبوّة محمَّدٍ ﷺ:..106

الفصل الثالث:

قبل بزوغ النور: تجليات القيم الإنسانية والحضارية في السيرة النبوية قبل البعثة النبوية 113

أولاً: أخلاق النبي ﷺ قبل البعثة (الصادق الأمين): 113

ثانياً: عمل النبي ﷺ في الرعي والتجارة (العمل قيمة إنسانية):..120

ثالثاً: مشاركته ﷺ في حلف الفضول (العدالة فوق العصبية):..130

رابعاً: مشاركته ﷺ في بناء الكعبة الشريفة (الدور الإيجابي والفعال في المجتمع):..134

الفصل الرابع:

بزوغ النور: القيم الإنسانية والحضارية في السيرة النبوية المكية 142

أولاً: النبي ﷺ وخديجة رضي الله عنها (الوفاء كقيمة إنسانية عظيمة في حياة النبي):..............142

ثانياً: القيم الإنسانية والحضارية المؤسسة للجماعة الإسلامية الأولى: 152
ثالثاً: المربّي والمعلم الأول والأعظم للبشرية (القيم الإنسانية والحضارية في التربية النبوية):............. 165
رابعاً: الهجرة إلى الحبشة (النموذج الإنساني للجوء وآداب الإقامة في الإسلام):........... 193
1. الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة:.. 194
2. أسباب عودة المسلمين إلى مكَّة بعد هجرتهم الأولى:......................... 200
3. هجرة المسلمين الثَّانية إلى الحبشة: 206
خامساً: (البعد الإنساني والحضاري للدعوة النبوية): 217
1. هجرة النبي ﷺ إلى الطائف:.. 218
2. المفاوضات مع وفود القبائل:.. 235

الفصل الخامس:

تجليات القيم الإنسانية والحضارية في السيرة النبوية في العهد المدنيّ........... 243
أولاً: القيم الحضارية والإنسانية في بيعتي العقبة الأولى والثانية: 243
1. بيعة العقبة الأولى:.. 243
2. بيعة العقبة الثَّانية 251
ثانياً: البعد الإنساني للهجرة إلى المدينة المنورة (الأخلاق الإسلامية الوليدة بين المهاجرين والانصار): .. 261
1. صفات وأدب الضيوف (المهاجرون):.. 262
2. صفات وكرم المجتمع المضيف (الأنصار): 270
ثالثاً: البعد الحضاري والإنساني للمجتمع الإسلامي الأول: 279
1. المسجد الدعامة الأولى للمدينة الإسلامية والمجتمع الإسلامي:................... 279
2. المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار (الأخوة كقيمة إنسانية عليا في الإسلام):............ 300
رابعاً: وثيقة أو صَّحيفة المدينة (الإعلان الإسلامي الأول لحقوق الإنسان والحريات الأساسية والسياسية): 322
1. كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود: 324
2. دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد من الوثيقة:.. 328

خامساً: البعد الإنساني والحضاري في الحياة الاجتماعية والسياسية في السيرة النبوية: 341
1. الشورى وحرية الرأي والتعبير (مواقف من سيرة النبي ﷺ في المشاورة وأخذ رأي الأفراد والجماعة): . 341
2. الأخلاق النبوية في الحرب (البعد الإنساني والحضاري لأخلاق القتال والحرب في الإسلام:.....350
3. سلمان منا آل البيت (رابطة الدين والإيمان فوق كل شيء):.................................365
4.الزوج والأب المثالي (تعامل النبي ﷺ مع زوجاته وبناته): 366

الفصل السادس:

أخلاق النبي ﷺ: تجسيد القدوة الإنسانية والقائد المُلهم..................................370
أولاً: حِكمة النبي المصطفى ﷺ:...370
ثانياً: شجاعة النبي ﷺ:..371
ثالثاً: رحمة النبي ﷺ:...373
رابعاً: كرم النبي ﷺ: 374
خامساً: القيم الحضارية والإنسانية في خطبة الوداع:..376
1. نص خطبة الوداع في عرفة ومنى وغدير خُم: 376
2. القيم الحضارية والإنسانية في خطب الوداع:..378
3. الأساليب التعليمية من خطب حجَّة الوداع:...382
خلاصة 384
المصادر والمراجع:...406
الفهرس 423
السيرة الذاتية للمؤلف..427
كتب صدرت للمؤلف...428

السيرة الذاتية للمؤلف

د.عَلي محمّد محمّد الصّلّابي
مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ - 1963م.

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم، والفقه، والتاريخ، والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي على الثمانين مؤلفًا.

كتب صدرت للمؤلف

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8. فقه النصر والتمكين في القران الكريم.
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12. الوسطية في القران الكريم.
13. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16. خلافة عبد الله بن الزبير.
17. عصر الدولة الزنكية.
18. عماد الدين زنكي.

19. نور الدين زنكي.

20. دولة السلاجقة.

21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23. الشيخ عمر المختار.

24. عبد الملك بن مروان وبنوه.

25. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27. وسطية القرآن في العقائد.

28. السلطان عبد الحميد الثاني.

29. دولة المرابطين.

30. دولة الموحدين.

31. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

32. الدولة الفاطمية.

33. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

34. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

35. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول ﷺ، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

36. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

37. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

38. المشروع المغولي: عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

39. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

40. الشورى في الإسلام.

41. الإيمان بالله جل جلاله.

42. الإيمان باليوم الآخر.

43. الإيمان بالقدر.

44. الإيمان بالرسل والرسالات.

45. الإيمان بالملائكة.

46. الإيمان بالقران والكتب السماوية.

47. السلطان محمد الفاتح.

48. المعجزة الخالدة.

49. الدولة الحديثة المسلمة: دعائمها ووظائفها.

50. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

51. التداول على السلطة التنفيذية.

52. الشورى فريضة إسلامية.

53. الحريات من القرآن الكريم: حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

54. العدالة والمصالحة الوطنية: ضرورة دينية وإنسانية.

55. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

56. العدل في التصور الإسلامي.

57. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

58. الأمير عبد القادر الجزائري.

59. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

60. سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

61. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

62. أعلام التصوف السُني: "ثمانية أجزاء".

63. المشروع الوطني للسلام والمصالحة.

64. الجمهورية الطرابلسية (1918 – 1922) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.

65. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

66. المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام): الحقيقة الكاملة.

67. قصة بدء الخلق وخلق آدم (عليه السلام)

68. نوح (عليه السلام) والطوفان العظيم.. ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

69. إبراهيمُ خليل الله (عليه السلام): "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".

70. موسى (عليه السلام) كليم الله.

71. موسى (عليه السلام) والخضر.

72. موسى (عليه السلام) في سورة طه.

73. موسى (عليه السلام) في سورة القصص.

74. موسى (عليه السلام) في سورة الشعراء.

75. مؤمن آل فرعون في سورة غافر.

76. لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات)

77. سقوط الدولة العثمانية (الأسباب – التداعيات).

78. سقوط الدولة الأموية (الأسباب – التداعيات).

79. مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام.

80. النبي الوزير يوسف الصديق (عليه السلام) من الابتلاء إلى التمكين.

81. ذكريات لا تنسى بين الثانوية والسجن ورحلة الحج (1980-1989م)

82. الأنبياء الملوك داوود وسليمان (عليهما السلام)، وهيكل سليمان المزعوم

83.لوط (عليه السلام) ودعوته في مواجهة الفساد والشذوذ الجنسي وعقاب الله للظالمين

84.تجديد بناء المسجد الأقصى في عهد سليمان (عليه السلام) وقصة الهيكل المزعوم

85.نبي الله هود (عليه السلام) وأسباب زوال حضارة قوم عاد

86.نبي الله صالح (عليه السلام) وأسباب هلاك قوم ثمود